رواية

لوسي مود مونتغومري

آن في الضيعة الخضراء

مكتبة ١٠٧٦

ترجمة: أشرف القرقني

إهداء لـ ..

sana

هذه الرحلة من مكتبة

إلى الضيعة الخضراء

مكتبة | سُر مَن قرأ

آن في الضيعة الخضراء

telegram @soramnqraa

عنوان الكتاب الأصليّ المعتمد في هذه الترجمة

Anne of Green Gables
by L. M. Montgomery

لوسي مود مونتغومري

مكتبة | سُر مَن قرأ

آن في الضيعة الخضراء

رواية

ترجمة: أشرف القرقني

#1076

مسكيلياني

مكتبة
t.me/soramnqraa

الكاتبة: **لوسي مود مونتغومري**

عنوان الكاتب: **آن في الضيعة الخضراء**

ترجمة: **أشرف القرقني**

خط الغلاف: **الفنّان عمر الجمني**

تنضيد: **سعيد البقاعي**

تصميم الغلاف: **عبد الفتّاح بوشندوكة**

ر.د.م.ك: **978-9938-9990-4-4**

الطبعة الأولى: 2022

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

السعودية - عرعر - حي الجوهرة- شارع الخمسين

الهاتف: 00966-547094709

https://rashm-store.com

الإيميل: rashm.ksa@gmail.com

مسكيلياني للنشر والتوزيع

مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر، المنطقة الحرّة، الشارقة، الإمارات

الهاتف: 508386699(971+) أو 21512226(216+)

الإيميل: anizos55555@yahoo.fr

إلى ذكرى أبي وأمّي

مكتبة 26 1 2023
t.me/soramnqraa

التّرجمة الدّقيقةُ للعنوان الأصليّ في صيغته الإنجليزيّة Anne of Green Gables هي التّالية: «آنْ في الجملونات الخضراء» أو «آنْ ومنزل الجملونات الخضر»، وهي الصّيغة المكافئةُ لمُقترَح التّرجمة الفرنسيّة Anne... la maison aux pignons verts، التي أنجزها هنري دومينيك تاراتْ عن دار كيبيكْ أميريكْ. أمّا الجَمَلُونُ، فهو الجزءُ الأعلى مثلَّثُ الشّكل من المنزل المُشكَّل من سطحيْن مائليْن. والجملونات الخضراء أو الجملونات الخُضْر هو اسمُ البيت والضّيعة التي تتركّز فيها أحداثُ هذه الرّواية. وقد ارتأيتُ في ترجمتي اقتراحَ «آنْ في الضّيعة الخضراء» عنوانًا بديلاً. وذلك تيْسيرًا للقراءة والتّلقّي على نحوٍ لم أرَ فيه ما يخلُّ بمقوّماتِ العمل وإنشائيّته.

وُلدْتِ عند لقاءِ النّجوم المواتية
فكُنتِ روحًا من نار وندى

براونينغ

(1)

مُفاجأةُ السّيّدة رايتشلْ ليَنْدْ

كانت السّيّدةُ رايتشل ليند تعيشُ حيثُ يغوصُ طريق آفونلي[1] الرّئيسيّ مباشرة في غدير صغير، مكسوّةٍ حوافُّه بجار الماء[2] وأقراط النّساء[3]، ويشقُّه جدولٌ يسيل من نبع بعيد في أقصى الغابة، خلف منزل كاثْبِرْتْ القديم. وقد شاع بين النّاس أنّ هذا الجدولَ متهوّرٌ مندفعٌ في مساره الأوّل عبر الغابة، يتلوّى في أحواض وشلاّلات، ويتقدّمُ عبر متاهة من التّعرُّجات إلى أن يصل إلى غدير السّيّدة ليند، فيتحوّل إلى تيّار صغير مؤدّب وهادئ. إذْ لا شيء، بما في ذلك جدولٌ صغير، يمكنه أن يندفع أمام باب رايتشل ليندْ دُون أن ينتبه إلى أدبه وكياسته. لقد كان على الأرجح واعيا بأنّ السّيّدة ليند تجلسُ عند نافذتها، مُصوِّبة عينا رقيبةً نحو كلّ الأشياء التي تعبر أمامها، انطلاقا من الأطفال الصّغار ووصولا إلى مجرى الماء، وبأنّها إذا

---

(1) منطقة متخيّلة تقع في جزيرة الأمير إدوارد في كندا جعلت منها المؤلّفة مرجعا وإطارا لأحداث هذه الرّواية.

(2) جار الماء أو النغت: جنس شجريّ يتبع الفصيلة القضبانيّة. وهو في رتبة البلوطيّات من النّباتات المزهرة.

(3) الاسم المتداول لنبتة الفوشية. وهي تتبع الفصيلة الأخدريّة من رتبة الآسيات.

لاحظت أيّ شيء غريب أو مُزحزَح عن مكانه فإنّها لن ترتاح أبدا حتّى تتبيّنَ علّته وكيفيّة حدوثه.

هناك الكثير من النّاس، في آفونلي وخارجها، يتمسّكون بتقفّي شؤون جيرانهم، مُهمِلين شؤونَهم الخاصّة. أمّا بالنّسبة إلى السّيّدة ليند، فقد كانت واحدة من تلك المخلوقات القادرة على أن تهتمّ بشؤونها وتحشر أنفها، في الآن ذاته، في مشاغل الآخرين. إنّها ربّةُ بيت لا مثيل لها. وطالما كان عملُها مُنجزًا، بل مُتقنَ الإنجاز؛ كانت تُدير حلقة الخياطة، تُساعد على تنظيم الدّروس الكنسيّة خلال أيّام الآحاد، بالإضافة إلى كونها الرّكيزة الأقوى لجمعيّة المساعدات الكنسيّة والمهمّات الخارجيّة المساعدة. ورغم هذا كلّه، فإنّ السّيّدة ليند كانت تجد وقتا وافرا لتجلس أربع ساعات أمام نافذة مطبخها، تحوك الألحفة القطنيّة -لقد أنجزت ستّة عشر لحافا وفق ما ترويه بإعجاب شديدٍ نساءُ آفونلي- وهي تتفحّص بنظرتها الثّاقبة الطّريق الرّئيسيّ الذي يشقّ الوادي صعودا إلى التّلّ الأحمر الذي يُرى من بعيد. وبما أنّ آفونلي تحتلّ شبه جزيرة مثلّثة صغيرة، ناتئة في خليج سانت لورنس[1] تحفُّها المياهُ من الجهتينْ، فإنّ كلّ من يخرج منها أو يدخل إليها مضطرٌّ إلى عبور طريق التّلّ والوقوع تحت طائلة عين السّيّدة ليند المتفحّصة.

كانت جالسةً هناك ذات مساء في بدايات شهر حزيران، والشّمسُ تسكبُ أشعّتها، دافئة وساطعةً، على النّافذة، والبستانُ

(1) خليج سانت لورنس هو خليج كبير يقع في شرق كندا في شمال غرب المحيط الأطلسّي، عند مصبّ نهر سانت لورنس.

عند المنحدر أسفل المنزل يتورّدُ، مثل عروس يافعة، بلون الأزهار التي يطنُّ من حولها نحلٌ لا حصر له. كان طوماس ليند -وهو رجل صغيرُ الحجم وديعٌ يلقّبهُ سكّان آفونلي بـ«زوج رايتشل ليند»- يبذر اللّفت المتأخّر في حقل التّلّ خلف الإسطبل. كان على ماثيو كاثبرْت أن يبذر هو الآخر حبوبَه في حقل الجدول الأحمر الكبير، حذو الضّيعة الخضراء. تعرفُ السّيّدة رايتشل ذلك، لأنّها سمعتْهُ يقول لبِيترْ مُوريسُونْ في المساء المُنقضي، داخلَ متجر وِيلْيَامْ ج. بْلِيرْ في كارْمُودِي، إنّه ينوي أن يبذر حبوبَ اللّفت في ظهيرة الغد. كان بيترْ موريسُونْ هو الذي سأله عن الأمر دون شكّ. إذْ لم يُعرف عن ماثيو كاثبِرتْ أنّه قد تطوّع من قبل من تلقاء نفسه لتقديم أيّ معلومة عن أيّ شيء طيلة حياته.

ورغم ذلك، ها إنّ ماثيو كاثبرت في الثّالثة والنّصف من ظهيرة يوم عمل معتاد يقود عربته بهدوء مُجتازا الوادي وصاعدا التّلّ. وبالإضافة إلى ذلك، فهو يرتدي ياقة بيضاء وأفضل ستراته، ممّا يعني أنّه بصدد مغادرة أفونلي. بل إنّه اختار العربة الأفضل واصطحب الفرس الكستنائيّة، أي إنّه ينوي أن يقطع مسافات شاسعة. فإلى أين يذهب ماثيو كاثبرت الآن يا تُرى؟ وما الغاية من هذه الرّحلة؟

لو كان الأمرُ يتعلّقُ بأيّ رجلٍ آخر في آفونلي، لكانت السّيّدةُ لينْدْ قد قرنتْ المعطياتِ بعضُها إلى بعضٍ، وتوصّلتْ إلى تخمينٍ جيّدٍ يصلحُ جوابًا لهذين السّؤالين. ولكنْ نادرًا جدّا ما يغادر ماثيو بيتَه، حتّى إنّه لا شكّ في أنّ سبب خروجه هذه المرّةَ يتعلّقُ بأمرٍ طارئٍ

وخارق للعادة. لقد كان أكثر رجل خجُول على وجه الأرض. وهو يكرهُ أن يُضطرّ إلى المكوث وسط الغرباء أو في أيّ مكان آخر حيثُ يجدر به أن يتكلّم. ولذلك، يُعتبر ارتداءُ ماثيو لياقة بيضاء وقيادته لعربته أمرا نادر الحدوث. ولم تستطع السّيّدة رايتشل، رغم استغراقها في التّفكير، أن تجد حلاّ لهذا الغموض، ممّا أفسد استمتاعها بعزلتها.

«سوف أثبُ إلى الضّيعة الخضراء بعد احتساء كوب الشّاي، فأستجْليَ من ماريلا وجهتَه وسبب ذهابه إليها»، هكذا حدّثت المرأة النّبيلة نفسها في النّهاية. «إنّه لا يقصدُ المدينة عادةً في مثل هذا الوقت من السّنة. كما أنّه لا يزور أيّ شخص أبدا. ولو كانت بذور اللّفت قد نفدت من خزينته، فإنّه لن يتأنّق ويصطفي أفضل عرباته ليذهب في طلب المزيد منها. إنّه لا يقود العربة بالسّرعة التي تسمح بالقول إنّه متّجه نحو الطّبيب. ومع ذلك، فإنّ شيئا مّا قد حدث دون شكّ منذ ليلة الأمس جعله يشدّ الرّحال. هذا لغز حقيقيٌّ ومحيّر. لكنّني لن أهنأ بلحظة من صفاءِ الذّهن أو راحةِ الضّمير حتّى أعرفَ ما دفع ماثيو كاثبرت إلى مغادرةِ آفونلي هذا اليوم».

ولهذا السّبب لم تحتج السّيّدةُ رايتشلْ بعد أن انتهت من شايها إلى الذّهاب بعيدًا. فمنزل عائلة كاثبرت الكبيرُ والمليء بالزّوايا والأركان لا يبعدُ سوى ربعِ ميل عن وادي ليندْ الصّغير، من جهة الطّريق الرّئيسيّ. ولكنّ المسلك الطّويل يمطّط تلك المسافة ويجعلها أبعد. عندما همّ والدُ ماثيو كاثبرت، الخجول والصّامتُ مثل ابنه

من بعده، باختيار موقع منزله، قرّر أن يبتعد قدر استطاعته عن مساكن بني جلدته، دون أن ينسحب تماما إلى عمق الغابة. لقد شُيّد منزلُ الضّيعة الخضراء عند أقصى طرفٍ في أرضه المُبعدَة. وهناك ظلّ إلى اليوم، يكادُ لا يُرى من الطّريق الرّئيسيّ حيث تصطفّ المنازل الأخرى مرتّبة على نحو اجتماعيّ مثاليّ. ولم تكن السّيّدة ليند تعتبر العيش في مكان كذاك يرتقي إلى منزلة الحياة الحقيقيّة.

«هذه مجرّد إقامة فحسبُ»، قالت وهي تخطو على المسلك المعشوشب ذي الأخاديد العميقة والمحدود بشجيرات الورد البرّيّ. «لا عجب في أنّ ماثيو وماريلا غريبا الأطوار بعض الشّيء، يعيشان هنا بعيدا بمفردهما. لا تمنح الأشجار صحبة حسنة. ولو كانت كذلك -لا قدّر الله- لكان هناك الكثير من الأصحاب، على نحو مبالغ فيه. فأنا مثلا، أفضّل النّظر إلى النّاس. ولكن، عليّ أن أعترف أنّ عائلة كاثبرت تبدو سعيدة بوجودها. في الحقيقة، أقدّر أنّه التّعوّد فحسب. إنّ الجسد ينتهي بالتّعوّد على أيّ شيء، بما في ذلك الشّنق، كما يقول الإرلنديّ».

وبهذه الكلمات خرجت السّيّدة ليند عن المسلك. فولجت إلى الفناء الخلفيّ للضّيعة الخضراء. لقد كان الفناء مفعما بالخضرة، نظيفا ومرتّبا جدّا، تحدُّه من جهة أشجارُ الصّفصاف العملاقة ومن جهة أخرى أشجارُ الحور الإيطاليّة الرّشيقة. لم تكن هناك أيّ عُصيَّة ضالّة في المكان أو حصاة مهملة، إذْ لو كان ذلك حقّا لاقتنصتْهُ، دون شكّ، عينُ السّيّدة رايتشل، التي كانت تعترف في جلساتها

الخاصّة أنّ ماريلا كاثبرت لا بدّ تكنسُ ذلك الفناء باستمرار، كما تكنسُ بيتها الدّاخليّ، حتّى إنّه يمكنُ للمرء أن يأكل هناك أرضًا، دون أن يواجه أدنى قدر من الوسخ.

طرقت السّيّدةُ رايتشلْ بابَ المطبخ طرقًا خفيفا وجيزا. ودخلتْ ما أن دُعيت إلى ذلك. كان مطبخُ الضّيعة الخضراء مكانًا ساحرا، أو بالأحرى كان بإمكانه أن يكون كذلك لو لم يكن نظيفا على نحو مُبالغ فيه ومؤلم، كأنّه صالونُ استقبال لم يُستخدم أبدا. كانت نوافذه متّجهة نحو الشّرق والغرب. وعبر النّوافذ الغربيّة التي تفتح على الفناء الخلفيّ، تتدفّقُ أشعّة شمس حزيران الرّقيقة. أمّا الغربيّة، التي تلوحُ عبرَها أزهارُ الكرز البيضاء في البستان الشّماليّ وظلال البتولا الرّقيقةُ في الأخاديد قرب الجدول، فقد حجبتها أشجارُ الكرم المتشابكة. هناك تجلسُ ماريلا كاثبرتْ عندما تجد الوقت للجلوس، مُرتابة دوما في أشعّة الشّمس، إذ كانت تجدها خفيفة راقصة على نحو مُبالغ فيه في عالم منذور لأن يُحمل محمل الجدّ. ومن خلفها، كانت مائدةُ العشاء مُعدّة.

كانت السّيّدة رايتشل قد دوّنت في ذهنها كلّ ما هو موضوع على المائدة من قبل أن تتمّ إغلاق الباب حتّى. وقد لاحظت دون شكّ الصّحون الثّلاثة. فاستنتجت أنّ ماريلا تنتظر قدوم ضيف إلى بيتها رفقة ماثيو من أجل تناول الشّاي. أمّا الأطباق، فهي تلك المألوفة كلّ يوم. وإلى جانبها جرّة لحفظ التّفّاح وكعكة واحدة ووحيدة. لا شيء مميّز إذن في الضّيف المنتظر. ولكن، فيمَ إذن ياقة

ماثيو البيضاء والفرس الكستنائيّة؟ بدأت السّيّدةُ رايتشل تشعر بالدّوار بسبب البحث في هذا اللّغز الغامض الذي يغلّف المجال الهادئ المكشوف للضّيعة الخضراء.

«مساء الخير رايتشلْ»، قالت ماريلا بنبرة متوتّرة. «إنّه مساء جميل حقّا. أليس كذلك؟ ألن تجلسي؟ كيف حال أهلك؟»

كان هناك شيءٌ مّا بين ماريلا كاثبرت والسّيّدة رايتشل يُسمّى، في غياب أيّ اسم آخر له، الصّداقة، رغم كلّ الخلافات التي نشبت بينهما، أو لعلّه بفضل تلك الخلافات.

كانت ماريلا امرأة طويلة نحيفة، بجسد ذي زوايا ناتئة ومن دون أدنى استدارة. ويكشفُ شعرُها الأسود الفاحمُ بعض الخصلات الرّماديّة. وهو مشدود دوما إلى الخلف في عقدة صغيرة يابسة يخترقُها دبوسان معدنيّان. كانت لها هيأة امرأة قليلة التّجربة، ذات وعي متحجّر -وهي كذلك فعلا- ولكنّ حركةً دقيقة من شفتيها تشي بأنّه كان بإمكانها، لو أتاحت ذلك، أن تطوّر نصيبا من حسّ الدّعابة.

«نحنُ جميعا بخير»، أجابت السّيّدة رايتشل. «ولكنّني خشيتُ ألاّ تكوني أنتِ كذلك عندما لاحظتُ خروج ماثيو اليوم. فقد حسبتُه ذاهبا في طلب الطّبيب».

تغضّنت شفتا ماريلا قليلا. فقد كانت في انتظار زيارة السّيّدة رايتشل، متيقّنة من أنّ رؤية ماثيو، وهو يغادر على نحو غير متوقَّع، هو أمر لا يطيقه فضول جارتها.

«أنا بخير تماما رغم أنّني عانيتُ أمس من آلام شديدة في الرّأس. لقد ذهب ماثيو إلى برايت ريفر[1]، لأنّنا سنتبنّى ولدا من ملجإ أيتام في نوفا سكوتشيا[2]. وسوف يعود ليلا على متن القطار.

لو كانت ماريلا قد قالت إنّ ماثيو قد ذهب إلى برايْت ريفر للقاء كنغر من أستراليا، لكان عجبُها ممّا سمعتهُ أقلّ بكثير. لقد ظلّت في الحقيقة مشدوهة خرساء لخمس ثوانٍ. لا مجال للتّفكير في أنّ ماريلاّ تستهزئ بها. لكنّها وجدت نفسها مضطرّة إلى افتراض ذلك».

«هل أنتِ جادّةٌ يا ماريلاّ؟»، سألتْ عند استعادتها لصوتها.

«نعم، طبعا»، أجابت ماريلاّ، كأنّ تبنّي الأولاد من ملاجئ الأيتام في نُوفَا سْكُوتْشيَا جزءٌ من العمل الرّبيعيّ المألوف والمعتادِ في أيّ مزرعة من مزارع آفونلي المنظّمة وليس جِدّةً غير مسبوقة.

شعرت السّيّدة رايتشل بأنّها قد أصيبت للتّوّ بصدمة دماغيّة حادّة. واجتاحت عقلَها نقاطُ التّعجّب. ولد! ماريلا وماثيو كاثبرت يتبنّيان ولدا! من ملجإ أيتام! إذن، لا شكّ أنّ العالم قد انقلب رأسا على عقب! لا شيء بعد الآن بإمكانه أن يفاجئها! لا شيء!

«يا للشّيطان! ما الذي رمى بهذه الفكرة في رأسيْكما؟!»، استفهمت مُستنكِرة.

---

(1) منطقة متخيّلة في جزيرة الأمير إدوارد بكندا. والمعنى الحرفي لاسمها هو النّهر السّاطع.

(2) إحدى مقاطعات كندا. تقع شرق اليابسة الأمريكيّة. ومعنى اسمها الحرفي هو إسكتلندا الجديدة.

وبما أنّ الأمر قد تمّ دون أن تُطلب نصيحتُها فيه، فلا بدّ لها الآن أن تعارضه بشدّة.

«حسنا، لقد فكّرنا في المسألة منذ فترة، بل طيلة الشّتاء في الحقيقة»، ردّت ماريلا. «لقد زارت السّيّدةُ سبنسر بيتنا، قبيل عيد الميلاد بيوم. وقالت إنّها تنوي أن تتبنّى فتاة صغيرة من ملجإ الأيتام في هوبتاوْن[1]. وهكذا، خطرت الفكرة ببالنا، أنا وماثيو. فتحدّثنا في الأمر بضع مرّات. وفكّرنا أن نستقدم ولدا إلى بيتنا. لقد تقدّم ماثيو في السنّ. إنّه في السّتّين من عمره الآن. ولم يعد نشيطا وقويّا كما كان في الأيّام الخوالي. وله عدّة مشاكل في القلب. وكما تعرفين، ليس من السّهل العثور على من يساعده بمقابل، باستثناء أولئك الفتيان الفرنسيّين الأقزام الحمقى. وما أن تنجح في أن تُمَرِّن أحدهم على القيام بما تحتاجُه أخيرا حتّى يهجرك، ويغادر إلى مصانع تعليب السّلطعون أو عمل آخر مع الدّولة. لقد اقترح ماثيو في البداية أن نُحضر مهاجرا صغيرا من فتيان الدّكتور برناندو. ولكنّني رفضتُ رفضا قاطعا. «إنّهم على الأرجح جيّدون. وأنا لا أقول عكس ذلك. ولكن لا مجال بالنّسبة إليّ لقبول هذه الكلاب الصّغيرة السّائبة»، هكذا حدّثته. «هبني على الأقلّ فتى مولودا هنا». سوف تظلّ المجازفة قائمة دون شكّ، بغضّ النّظر عمّن نتبنّى. ولكنّني سوف أشعرُ براحة بال أكبر وأنامُ ليلا على نحو أفضل إذا كان في بيتنا صبيٌّ وُلد كنديّا. وفي النّهاية، قرّرنا أن نطلب من السّيّدة سبنسر أن

(1) بلديّة محلّيّة تقع في كيبيك بكندا.

تختار لنا ولدا عندما تذهبُ هي لاصطحاب فتاتها الصّغيرة. لقد سمعنا، خلال الأسبوع المنقضي، أنّها تتأهّب للذّهاب إلى الميتم. فبلّغناها إذن، بواسطة جماعة ريدشارد سبنسر في كارمودي أن تُحضر لنا معها فتى حسَنا ذكيّا في العاشرة أو الحادية عشرة. ولقد قدّرنا أنّ تلك السّنّ هي الأنسب. إذ سيكون كبيرا بما يكفي ليقدّم بعض العون في الأشغال المنزليّة ويافعا بما يكفي لتدريبه على نحو لائق، أي أنّنا سنتمكّن من أن نوفّر له بيتا حسنا وتربية مناسبة. لقد تلقّينا برقيّة من السّيّدة ألكساندر سبنسر -أحضر ساعي البريد الرّسالة من المحطّة- تقول فيها إنّها ستصل بنفسها هذا المساء صحبة الصّبيّ في قطار الخامسة والنّصف. ولذلك خرج ماثيو قاصدا برايتْ ريفر من أجل لقائه. إذ ستُنزله السّيّدة سبنسر هناك. وطبعا، سوف تواصل الرّحلة بمفردها وصولا إلى محطّة وايتْ ساندْس».

لطالما شعُرت السّيّدةُ رايتشل بالفخر لكونها تصرّح دوما بما يجول في فكرها. وها هي تفعل ذلك الآن، وقد عدّلتْ ذهنها للتّوّ حتّى يعيَ هذه الأخبارَ العجيبة: «حسنا يا ماريلاّ. سأقول لك إذن بصراحة فائقة إنّك تُقدمين على حماقة عظيمة ومجازفة خطيرة. فأنتِ لا تعرفين حقّا ما ستحصّلينه. إنّك تُحضرين فتى غريبا إلى منزلِك وبيتك دون أن تعرفي سلفا أيّ شيء عنه، ولا عن طبعِه وسلوكه، ولا عن أبويه، ولا عن مآله كذلك. هلاّ أخبرتُك أنّني قد قرأتُ في الصّحيفة منذ أسبوع فحسبُ قصّة صبيّ تبنّاهُ زوجان غربَ الجزيرة، بعد أن أخرجاهُ من ميتم. فإذا به يُحرق المنزل ليلا. وقد

أحرقه قاصدا عامدا إلى ذلك، يا ماريلا. وكاد أن يشويهما طازجين في سريرهما. وإنّني أعرفُ قصّة أخرى عن ذلك الفتى المُتبنَّى الذي اعتاد أن يمصّ البيض وهو نيء. ولم ينجح والداه في منعه من ذلك مطلقا. لو كنتِ قد طلبتِ نصيحتي في المسألة –وهو ما لم تفعليه– لكنتُ أجبتك دون شكّ: «بحقّ الرّبّ يا ماريلا، لا تفكّري بمثل هذه الأشياء».

بدا أنّ ذلك التّبرّم المسترسل لم يضايق ماريلا في شيء، ولم يدفعها إلى القلق. فقد تابعت الحياكة بثبات. «لا أنكر أنّ هناك بعضَ صوابٍ في ما ذكرتِهِ يا رايتشل. فلقد انتابتني بعض الهواجس أنا الأخرى. ولكنّ ماثيو كان مصمّما على ذلك تصميما قاطعا. لقد رأيتُ ذلك بوضوح شديد في ملامحه. ولذلك اكتفيتُ بالاستجابة لرغبته. ونادرا جدّا ما يصرّ ماثيو على أمر مّا، حتّى إنّه إذا ما فعل ذلك يشعرني على الفور بضرورة الاستسلام. أمّا فيما يخصّ المجازفة، فإنّ هناك مجازفةً في كلّ ما تفعله الكائناتُ البشريّة في هذا العالم تقريبا. وإذا نظرنا عميقا، فإنّنا نرى المجازفة حتّى في إنجاب الأطفال. إذ لا تكون نتائج هذا الأمر حسنة في كلّ الأحوال. كما أنّ نوفا سكوتشيا قريبة من الجزيرة. ولسنا نحضر الصّبيّ من إنجلترا أو الولايات المتّحدة. ولذلك، لا يمكن أن يكون مختلفا كثيرا عنّا».

«حسنا، أرجو أن تؤول الأمور إلى الخير»، قالت السّيّدةُ رايتشل بصوتٍ يحجبُ شكوكا وقلقا. «ولكن لا تقولي إنّني لم أحذّرك سلفا

في حال أُحرق منزل الضّيعة الخضراء أو سُكِب السّمُّ في البئر. لقد سمعتُ بحالة في نْيُو بْرُونْزويكْ[1] حيث قام طفلُ ميتم بمثل ذلك، وتسبّب بمقتل العائلة كلّها في احتضار أليم. في الحقيقة، لقد كانت بنتا صغيرة فحسب».

«حسنا، لسنا بصدد الحصول على بنت»، ردّت ماريلا، «كما لو أنّ تسميم الآبار عملٌ أنثويّ صرف ولا حاجة إلى التّوجّس منه إذا تعلّقت المسألة بولد. لا يمكنني حتّى أن أتخيّل نفسي وأنا أقوم بتبنّي بنت. بل إنّني أتساءل كيف للسّيّدة ألكساندر سبنسر أن تفعل ذلك. ولكن في النّهاية، هي لن تتردّد في تبنّي ميتم كامل إذا ما عشّشت الفكرةُ برأسها».

كانت السّيّدةُ رايتشل لتفضّل المكوثَ هناك حتّى يعود ماثيو إلى البيت ومعه الصّبيّ. لكنّها إذ تفكّرت الأمر وأدركت أنّه في حاجة إلى ساعتين على الأقلّ حتّى يصل، أضربت عن الأمر وقرّرت أن تصعد الطّريق المؤدّي إلى منزل روبيرت بيل لتشارك عائلته الأنباء الجديدة. فهي تعرف جيّدا أنّ ذلك سيُحدث ضجّة كبيرة. ولا شيء أحبُّ إلى السّيّدة رايتشل من أن تُحدث الضّجّة الكبرى. ولذلك انسحبتْ تاركةً ماريلا في استراحة منها. إذ شعرت بأنّ شكوكها ومخاوفها استعادت حيويّتها تحت تأثير تشاؤُم السّيّدة رايتشل.

«يبدو أنّني سأرى كلّ العجائب بأمّ عينيّ»، هكذا تحدّثت السّيّدة رايتشل عندما أصبحت بمفردها عند المسلك. «لا شكّ

---

(1) مقاطعة في كندا، عاصمتُها مدينة فْرِيدْرِيكْتُونْ.

أنّني أحلم حقّا. حسنا، إنّني أشعر بالأسف تحديدا من أجل ذلك الفتى اليافع. فماثيو وماريلا يجهلان كلّ شيء عن عالم الأطفال. وسوف يتوقّعان منه أن يكون أشدّ حكمة واستقامة من جدّه. ولكنّ احتمالَ كونِه قد عرف جدَّهُ مشكوكٌ فيه تماما. إنّ تخيُّلَ وجودِ طفل في الضّيعة الخضراء يبدو بالنّسبة إليّ أمرًا غريبا تماما. إذْ لم يسبِق أنْ كان هناك طفلٌ أبدا. لقد كانا كبيرين في السنّ عندما تمّ بناء المنزل الجديد. هل سبق لهما أن كانا طفليْن من قبل يا ترى؟ يصعبُ على المرء تخيّل ذلك إذا ما نظر إليهما. لن أرغب في أن أكون في محلّ ذلك الصّبيّ مطلقا. إنّني أشفق عليه حقّا.

هكذا حدّثت السّيّدةُ رايتشل أشجار النّسرين من أعماق قلبها. ولكن، لو أمكنها أن تلقي نظرةً على من ينتظر في تلك اللّحظة وبصبر شديد، في محطّة وايت ريفر، لكانت شفقتُها أكبر وأشدّ عمقا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(2)

مُفاجأةُ ماثيو كَاثْبِرْتْ

كان ماثيو كاثبرت والفرسُ الكستنائيّةُ يخِبّان على نحو مُريح، على امتداد الأميال الثّمانية التي تفصلُهما عن برايتْ ريفر. لقد كان طريقا جميلا يمتدّ عبر المزارع الدّافئة. ومن حين إلى آخر، يشقّان مجالا من أشجار التّنوب أو مهاوي، حيثُ ينشرُ الخوخ البرّيّ أزهاره الفاتحة الشّفّافة. كان الهواءُ مُحلًّى بأنفاسِ بساتين التّفّاح الكثيرة والمروجُ منحدرةً نحو المدى البعيد الموشّح بضباب لُؤلئيّ وأرجوانيّ. وفي الأثناء، «تزقزقُ العصافير كأنّه يومُ الصّيف الوحيدُ خلال السّنة كلّها».

كان ماثيو مُستمتعا بالرّحلة على طريقته، باستثناء تلك اللّحظات التي يلتقي فيها النّساءَ فيُضطرّ إلى أن يومئ برأسه تحيّةً لهنّ. في جزيرة الأمير إدوارد، يجبُ على المرء أن يومئ برأسه لكلّ من يلتقيه على الطّريق ممّن هبّ ودبّ، سواء أكان يعرفه سلفا أم لا.

وكان ماثيو يخشى جميع النّساء ما عدا ماريلا والسّيّدة رايتشل. إذ لم يكن يشعر بالرّاحة في حضورهنّ، مُتوجّسا من أنّ تلك المخلوقاتِ الغامضةَ تظلّ تضحك منه هازئة في سرّها. ولعلّه كان مُصيبا في تفكيره ذاك. فهو شخصيّةٌ غريبةُ المظهر على أيّة حال،

بقامته الخرقاء وخصلات شعره الرّماديّة الطّويلة السّاقطة على كتفيْه المنحنييْن كذلك إلى الأسفل، ولحيته البنّيّة النّاعمة الكثيفة التي صاحبتْهُ على تلك الحال منذ كان في العشرين. وفي الحقيقة، يبدو ماثيو في السّتّين من عمره شبيها تماما بصورته في العشرين، مع قليل من الشّيب فحسب.

وعندما أدرك برايتْ ريفر، لم تكن هناك أيّ علامة على أيّ قطار. فكّر أنّه قد وصل مبكّرا. فقيّد فرسه في فناء النّزل الصّغير ببرايت ريفر. ودخل مبنى المحطّة. كان الرّصيفُ خاويا تقريبا. وما من مخلوق حيّ فيه، باستثناء فتاة صغيرة جالسة على كومة من الألواح الخشبيّة في أقصى المكان. لاحظ ماثيو على نحو خاطف أنّ الأمر يتعلّق بفتاة. فتجاوزها بأسرع ما يمكنه، دون أن ينظر إليها حتّى. ولو أنّه تمعّن فيها مليّا لكان قد لاحظ سلوكَها المتوتّر وملامحَ الانتظار والتّوجّسِ التي تهيمنُ على وجهها. كانت الفتاةُ تنتظرُ شخصا أو شيئا مّا هناك. وبما أنّه لم يكن في وُسعها فعلُ أيّ شيء آخر باستثناء الجلوس والانتظار، فقد التزمت بتلك المهمّة مُستغرقة فيها بهمّة شديدة.

تحدّث ماثيو مع مدير المحطّة لحظةَ إغلاقه لشبّاكِ التّذاكر واستعدادِه للعودة إلى بيته من أجل العشاء. وسأله ما إذا كان قطار الخامسة والنّصف قد وصل أم لا.

«لقد وصل قطارُ الخامسة والنّصف. ثمّ غادر المحطّة منذ نصف ساعة»، أجاب المسؤول باقتضاب وجفاف. «ولكن، تمّ

إنزالُ أحد المسافرين هنا من أجلك. إنّها تلك الفتاةُ الجالسة على الألواح. لقد طلبتُ منها أن تذهب إلى غرفة انتظار السّيّدات. لكنّها أجابتني بنبرة جادّة قائلة إنّها تريد المكوث في الخارج. «يوجد هنا مجال أوسع لمخيّلتي»، هكذا صرّحت لي. ويبدو أنّها حالةٌ متفرّدة».

«ولكنّني لستُ في انتظار فتاة»، ردّ ماثيو مُلحّا. «لقد جئتُ من أجل صبيّ. ويجدر به أن يكون هنا الآن. كان من المفترض أن تُحضرهُ إليّ السّيّدةُ ألكسندر سبنسر من نوفا سكوتشيا».

أطلق مديرُ المحطّة صفير من نفدَ صبرُه. وأردف:

«لا شكّ أنّ هناك خطأ مّا. فقد نزلت السّيّدة سبنسر بنفسها من القطار. وائتمنتني على تلك الفتاة. قالت إنّك وشقيقتك عازمان على تبنّيها من إحدى ملاجئ الأيتام، وإنّك لن تتأخّر في الوصول إلى هنا. هذا كلُّ ما أعرفهُ عن الأمر. وليس لديّ أيّ أيتام آخرين مُحتجبين في مكان مّا من المحطّة».

«إنّني لا أفهم ما يحدث»، قال ماثيو في يأس، مُتمنّيا لو كانت ماريلا هناك إلى جانبه حتّى تتولّى زمام الأمور بنفسها.

«حسنا، سيكون من الأفضل لك أن تسأل الفتاة الصّغيرة»، قال مدير المحطّة دون مبالاة. «إنّني أرجّح أنّها ستشرح لك الأمر كلّه. فهي تملكُ لسانا نشيطا في ما يبدو. ولعلّ الميتم صار خاليا من صنف الأولاد الذي تريده».

ثمّ انطلق مُبتعدا ومُخلّفا من ورائه ماثيو التّعيس بمفرده، متروكا للقيام بما هو أشدّ عنده من إمساك أسد وطرده من عرينه؛ التّقدّم إلى

فتاة -فتاة غريبة، فتاة يتيمة- وسؤالها لماذا ليست صبيّا. راح ماثيو يتذمّر في سرّه، وهو يجوب المكان ثمّ يجرّ قدميه نحو البنت.

لقد كانت تشاهدُه منذ أن مرّ بجانبها وتجاوزها. وها هي تغرزُ بصرها الآن فيه. لم يكن ماثيو ينظر إليها في المقابل. ولو فعل لما تبيّن حقّا طبيعة مظهرها. ولكنّ متأمّلا عاديّا فيها كان ليرى فتاةً تُناهز الحادية عشرة مكسوّة بثوب قبيح جدّا، ضيّق جدّا وقصير جدّا من قماش رماديّ مُصفرّ. كانت ترتدي أيضا قبّعة بحّارة بنّيّة باهتة اللّون. ومن تحت القبّعة، تمتدُّ وصولا إلى ظهرها خصلتان من الشّعر الأحمر المتوهّج الكثيف جدّا. كان وجهُها صغيرا، أبيض، نحيفا وكثير النّمش كذلك. فمُها واسعٌ. وكذلك عيناها اللّتان تبدوان خضراويْن في بعض الأضواء والأمزجة ورماديّيْن في أخرى.

هذا ما كان سيلاحظه متأمّلٌ عاديّ. أمّا النّاظرُ الاستثنائيّ، فقد كان بإمكانه أن يرى أنّ ذقنها حادّ جدّا، أنّ العينين الواسعتين مفعمتان بالهمّة والحيويّة، أنّ فمها مكتنزُ الشّفتين طليق، وأنّ جبهتها كبيرة وبارزة. وإجمالا، كان بمقدور مُتأمّلنا الاستثنائيّ النّبيه على الأرجح أن يخلُص إلى أنّه داخل جسد هذه الفتاة التّائهة التي تُخيف ماثيو كاثبرت تسكنُ روحٌ غير مألوفة وفريدةٌ من نوعها.

وفي المقابل، نجا ماثيو من محنة المبادرة بالكلام. فما أن أدركت الفتاة أنّه متّجهٌ نحوها حتّى وقفت وأمسكت بيد نحيلة سمراء حقيبةَ سفر رثّة قديمة الطّراز. أمّا اليد الأخرى، فقد مدّتها نحوه.

«أحسبُ أنّكَ السّيّدُ ماثيو كاثبرتْ من الضّيعة الخضراء»، قالتْ بصوتٍ صاف وعذْب على نحو مُميَّز. «إنّني سعيدةٌ جدّا لرؤيتك. فقد خشيتُ ألاّ تأتي لتصطحبني. وظللتُ أتخيّل كلّ الأسباب الممكنة التي منعتك من ذلك، حتّى إنّني توصّلتُ إلى قرار مفادُه أنّني سأنزلُ المسلك، في حال لم تأت إليّ اللّيلة، وصولا إلى شجرة الكرز البرّيّ الكبيرة تلك، حيثُ تتفرّع السّكّةُ الحديديّة، أتسلّقها، وأقضّي ليلتي هناك. لن أشعر بأدنى خوف. بل سيكون نوما هانئا بين الزّهور البيضاء في ليلة مُقمرة. ألا تعتقد ذلك؟ يمكن للمرء حينئذ أن يتخيّل نفسهُ ساكنا في أروقة رخاميّة. أليس كذلك؟ وكنتُ متيقّنة من أنّك إذا لم تصل هذا المساء، فإنّك سوف تأتي لتصطحبني معك في صباح الغد».

أمسك ماثيو في ارتباك شديد اليدَ النّحيلة الصّغيرة. وفي تلك اللّحظة نفسها، اتّخذ قراره. لم يكن بمقدوره أن يقول لتلك الطّفلة ذات العينين المتوهّجتيْن إنّ هناك خطأ مّا. ولذلك، سيصطحبها معه إلى البيت ويترك لماريلا أن تكشف لها الأمر بنفسها. وعلى أيّة حال، لا يمكنه أن يتركها هناك، بغضّ النّظر عن طبيعة الخطإ الذي تمّ. ولذلك يمكنُ تأجيل كلّ الأسئلة والتّوضيحات إلى حين الوصول الآمن إلى الضّيعة الخضراء.

«أنا آسفٌ على التّأخير»، قال في خجل. «تعاليْ معي. فالفرسُ هناك في الفِناء. أعطني حقيبتكِ».

«أوه! يمكنني حملُها»، ردّت البنتُ بحماس. «ليست ثقيلة.

رغم أنّها تحتوي كلّ أشيائي الدّنيويّة، إلاّ أنّها ليست ثقيلة. وإذا لم تُحمل بطريقة معيّنة فإنّ المقبض ينسحبُ من مكانه. ولذلك، يُستحسنُ أن أتركها عندي، لأنّني أحسنُ جيّدا طريقة مسكها. إنّها حقيبة سفر قديمة جدّا. أوه، إنّني سعيدة جدّا لأنّك أتيت، رغم أنّ النّوم في شجرة كرز برّيّ هو أمر رائع حقّا. يجدر بنا أن نقطع طريقا طويلا. أليس كذلك؟ لقد قالت لي السّيّدة سبنسر إنّها مسافة ثمانية أميال. أنا سعيدة حقّا، لأنّني أحبّ السّفر. يبدو أنّه من الرّائع أنّني سأعيشُ معكم وأنتمي إليكم. إذْ لم أنتمِ من قبل إلى أحد أبدا. أمّا الميتم، فهو الأسوأ على الإطلاق. لقد مكثتُ فيه أربعة أشهر فحسب. لكنّها كانت كافية جدّا. لا أعتقدُ أنّك كنتَ من قبل يتيما في ملجإ. ولذلك، لن تستطيع على الأرجح أن تدرك كيف هي الحال هناك. لقد وبّختني السّيّدة سبنسر قائلة إنّه من غير اللاّئق التّحدّث بتلك الطّريقة. ولكنّني لم أقصد أن أكون فظّة. يسهل على المرء أن يكون فظّا، دون أن يعي ذلك. أتعرف، لقد كانوا طيّبين. أقصد مسؤولي الميتم. ولكنّ المكان يضيق بالتّخيّل حقّا، ما عدا تخيّل ما يتعلّق بالأيتام الآخرين. إذ من الرّائع أن يتخيّل المرءُ حكايات عنهم، كأن يفكّر أنّ البنت التي تجلس إلى جانبه هي على الأرجح ابنةُ سيّد نبيل وذي مكانة رفيعة، اختُطفت في المهد من عائلتها، بواسطة مربّية قاسية شرّيرة، كانت قد ماتت قبل أن تتمكّن من الاعتراف بجريمتها. لقد اعتدتُ أن أتمدّد في فراشي ليلا، فأتخيّل أشياء من ذلك القبيل. إذ لم يكن لديّ متّسع من الوقت لفعل ذلك في النّهار. أحسبُ أنّ ذلك هو السّبب في كوني نحيلة. إنّني نحيلة

على نحو مفزع. أليس كذلك؟ مجرّد جلد على عظم... ومع ذلك، فأنا أحبّ أن أتخيّل أنّني جميلة ومكتنزة ذاتُ غمّازتيْن في مرفقيّ».

أتمّت مُرافِقةُ ماثيو هذه الكلمات. وصمتتْ لأنّ أنفاسها قد انقطعت من جهة، ولأنّهما قد أدركا الفرس من جهة ثانية. لم تُضف أيّ كلمة أخرى حتّى غادرا القرية، وهما يقودان العربة على امتداد تلّة صغيرة مُنحدرة، حيث الطّريق محفورٌ عميقا، حتّى إنّ جانبيه المسوّريْن بأزهار الكرز البرّيّ والبتولا البيضاء الضّامرة قد شكّلا قوسا محاذيا لرأسيهما.

مدّت الطّفلة يدها. فكسرت غصن كرز برّيّ كان قد خدش جلد الفرس.

«أليس هذا جميلا؟ فيم يمكنك أن تفكّر حين تتأمّل هذه الشّجرة المائلة البيضاء، كأنّها مكسوّة شرائط؟»، سألت في حماس.

«حسنا، بالنّسبة إلى الآن... لا أعرف»، أجاب ماثيو.

«كيف؟! إنّها شبيهة بعروس مكسوّة بالأبيض ذات حجاب جميل بلون الضّباب. لم يسبق لي أن رأيتُ أيّ واحدة أمامي. لكن، يمكنني رغم ذلك أن أتخيّل كيف تبدو الواحدة منهنّ. لا أتخيّلُ نفسي عروسا ذات يوم. فأنا قبيحة جدّا حتّى إنّه ما من أحد سوف يرغبُ في الزّواج بي، باستثناء مبشّر أجنبيّ ربّما. إذ أرجّح أنّ رجلا كهذا لن يكون مميّزا في أيّ شيء. ومع ذلك، فأنا آمُل أن أتوصّل ذات يوم إلى ارتداء ثوب أبيض. ذاك هو أوجُ النّعيم الذي أطمح إليه على كوكب الأرض. إنّني أعشق الملابس الجميلة. ولم أحصل يوما في حياتي على

ثوب جميل يُتيح لي أن أتذكّره. ولكن، يجدر بي طبعا أن أرجو ذلك مُستقبلا. أليس كذلك؟ وحينئذ، يمكنني أن أتخيّل نفسي وأنا أرتدي ثوبا مُبهرا. عندما غادرتُ الميتم هذا الصّباح، شعرتُ بالخجل لأنّني مُجبرةٌ على ارتداء هذا الثّوب الكتّانيّ الفظيع. أتعرف؟ إنّ كلّ اليتامى مجبرون على ذلك! لقد تبرّع أحد التّجّار من هوبتون خلال الشّتاء الماضي بثلاث مائة ياردة من الكتّان للميتم. ويقول بعض النّاس إنّه فعل ذلك لأنّه عجز عن بيعها فحسب. ولكنّني أفضّل أن أعتقد أنّه فعل ذلك لطفا وطيبةَ قلب. أتوافقني؟ عندما صعدتُ إلى القطار، شعرتُ كأنّ الجميع ينظر إليّ بعين الرّأفة والشّفقة دون شكّ. ولكنّني رحتُ أتخيّل أنّني أرتدي أجمل ثوب حريريّ أزرق فاتح -لأنّه من المستحسن إذا تخيّل المرءُ أن يتخيّل ما هو جدير بذلك- مع قبّعة مزدانة بالأزهار والرّيشات المتمايلة، وساعة ذهبيّة وقفّازين صغيرين وجزمتين رائعتين. وعلى الفور، شعرتُ بالابتهاج. وتابعتُ رحلتي إلى الجزيرة بكامل عنفواني. ولم أشعر بشيء من المرض أثناء رحلة السّفينة. وكذلك السّيّدة سبنسر، رغم أنّ الأمر من عادتها. لقد قالت لي إنّها لا تملك الوقت لتمرض، والحال أنّ عليها أن تراقبني وتحذر من احتمال سقوطي في البحر. فهي لم تر، على حدّ قولها، أيّ شخص يتسكّع في كلّ مكان مثلي. لقد رغبتُ في رؤية كلّ تفصيل في تلك السّفينة، لأنّني لم أعرف حقّا ما إذا كانت ستتاح لي أيّ فرصة مماثلة في المستقبل. آه! هناك المزيد من أشجار الكرز المُزهرة هناك! هذه الجزيرة هي أكثر الأمكنة إزهارا. ولقد أحببتُها منذ الآن. وإنّني سعيدة جدّا لأنّني سوف أعيش هنا. ولطالما سمعتُ أنّ جزيرة

الأمير إدوارد هي أجمل مكان في العالم، ممّا جعلني أعتاد تخيّل أنّني أقيم هنا. لكنّني لم أحسب يوما أن يصير الأمر واقعا. إنّه لمن الممتع أن تصبح تخيّلات المرء حقيقة. أليس كذلك؟ ولكن، تلك الطّرق الحمراء طريفة حقّا. عندما صعدنا إلى القطار في شارلوتْ تَاون[1] وبدأت تلك الطّرقُ الحمراء في التّدفّق، سألتُ السّيّدةَ سبنسر عن سبب لونها ذاك، فأجابت بأنّها تجهلُه تماما، وطلبتْ منّي بحقّ الرّبّ أن أرأف بها، وأتوقّف عن طرح الأسئلة. وأضافت مُصرّحة بأنّني قد سألتُها سلفا ما يناهز ألف سؤال. وأقدّر أنّ كلامها صحيح ودقيق. ولكن، كيف لك أن تتعلّم حقيقة الأشياء إذا لم تسأل عنها؟ ولذلك، ما الذي يجعل تلك الطّرق حمراء؟».

«حسنا، ماذا أقول؟ أنا لا أعرف».

«حسنا. ذلك أمرٌ يمكن اكتشافه مُستقبلا إذن. أليس من الرّائع التّفكيرُ في كلّ تلك الأشياء الموجودة والجديرة بالاكتشاف؟ إنّ ذلك يجعلني أشعر بالابتهاج لكوني حيّة. يا له من عالم مثير للاهتمام! ما كان له أن يكون بهذا الجمال وهذه الإثارة لو كنّا نعرف أجوبة جميع الأسئلة. أليس كذلك؟ ما كنّا لنجد في تلك الحالة أيّ مجال للتّخيّل. هل توافقني؟... يبدو أنّني أفرط في الكلام. فالنّاس يقولون لي ذلك دوما. هل تفضّل أن أصمت؟ إذا كان هذا ما تريدهُ، فسأستجيب لرغبتك على الفور. إذ يمكنني أن أتوقّف عن الكلام إذا عزمتُ على ذلك، ورغم صعوبة المسألة».

(1) شارلوتْ تَاوْنْ: معناها الحرفّي هو مدينةُ شارلوت. وهي مدينة كنديّة تُعتبر عاصمة جزيرة الأمير إدوارد.

كان ماثيو متفاجئا تماما لكونه مُستمتعا خلال حديثها. فهو، مثل كل أولئك النّاس الصَّمُوتين الهادئين، يحبّ الثّرثارين لرغبتهم في التّكفّل بالحديث كلّه، دون أن يتوقّعوا منه إتمام بقيّته. لكنّه لم يحسب أبدا أنّه سوف يستمتع برفقة فتاة يافعة. كانت النّساء بالنّسبة إليه مرهقات. أمّا الفتيات اليافعات، فهو يتوقّع أنّهنّ أسوأ بكثير. لقد كان يكره الطّريقة التي ينزلقْن بها أمامَه في خجلٍ، نظراتُهنّ تتراقص على الجانبين، كأنّهنّ يتوقّعن منه أن يبتلعهنّ إذا تجرّأن على التّلفُّظ بكلمة واحدة. هكذا كانت بناتُ آفونلي المؤدَّباتُ تأديبًا حسنا. أمّا هذه الشّيطانةُ الصّغيرة النّمشاءُ، فقد كانت مختلفةً عنهنّ. ورغم أنّه وجد صعوبةً بالغة في أن يستخدم فهمَه المحدود لتقفّي حيويّتها الذّهنيّة الشّديدة، إلاّ أنّه قد أُعجب نوعا مّا بثرثرتها. قال لها في خجله المعتاد:

«أوه، يمكنك التّحدّثُ كيفما شئت. لا مانع لديّ».

«آه، أنا سعيدةٌ لذلك. وأعرف أنّنا، أنا وأنت، سنكونُ مُتناغِميْن جدًّا في ما بينَنا. إنّها نعمةٌ عظيمة أن يستطيع المرء التّكلُّم متى شاء، بدل أن يُقال له إنّ الأطفال قد خُلِقُوا ليُراقَبوا لا ليُسمَعوا. لقد وُجّهتْ إليّ هذه الكلماتُ ملايين المرّات. وكان النّاسُ يضحكون عليّ ساخرين، لأنّني أستخدم عباراتٍ كبيرة. ولكنْ، إذا كنتَ تملكُ أفكارًا كبيرة فإنّكَ في حاجةٍ إلى كلماتٍ من جنْسِها كي تعبّر عنها. أليس كذلك؟».

«حسنا، هذا يبدو منطقيًا».

«قالت لي السّيّدة سْبِنْسرْ إنّه يجبُ تعليقُ لساني عند المنتصَف، ولكنّهُ ليسَ كذلك. بل هو مُثبَّتٌ إلى جهة واحدة. وقالت لي أيضا إنّ اسم منزلكم هو الضّيعة الخضراء. فسألتُها عن كلّ شيء ممكن يتعلّق به. أخبرتني أنّه مُحاطٌ بالأشجار من كلّ الجهات. وأسعدني ذلك إلى أبعد حدّ. فأنا أحبّ الأشجار كثيرا. وكان الميتمُ خاليا منها، باستثناء بعض الشّجيرات الصّغيرة أمام البناية. وهي سجينة في أقفاص لها أشكال شبكات معدنيّة مطليّة بالأبيض، كأنّها يتيمة هي الأخرى. وبمجرّد النّظر إليها يوشكُ أن يهجم عليّ البكاءُ. لقد اعتدتُ أن أخاطبهنّ قائلة: «آه أيّتها الأشياء الصّغيرة! لو كنتِ في الخارج وسط غابة كبيرة شاسعة مع أشجار أخرى من حولك وبعض الطّحالب الصّغيرة، وأزهارُ النّرجس تنبتُ حول جذوركِ، بالإضافة إلى جدول يُحاذيكِ وعصافير تزقزق على أغصانكِ، لأمكنك النموّ حقّا. أليس كذلك؟ ولكنّ هذا مُستحيل حيث تستقرّين الآن. أعرف تماما ما تشعرين به أيّتها الشّجيرات الصّغيرة». لقد شعرتُ بالأسى لأنّني خلّفتُها ورائي هذا الصّباح. ففي النّهاية، يتعلّقُ المرءُ كثيرا بأشياء من ذلك القبيل. أليس كلامي صحيحا؟ هل هناك أيّ جدول قريب لها من الضّيعة الخضراء؟ لقد نسيتُ أن أطرح هذا السّؤال على السّيّدة سْبِنسرْ».

«نعم. هناك واحد أسفل المنزل تماما».

«يا للرّوعة! طالما كان العيشُ قرب جدولٍ أحدَ أحلامي العظيمة. ورغم ذلك، لم أتوقّع أبدا أن يتحقّق هذا الحلم. فالأحلام

لا تصير واقعا في معظم الأحيان. أليس كذلك؟ ألا يكون من الرّائع أن تتحقّق الأحلام؟ ولكنّني أشعر الآن أنّي أكادُ أكون سعيدةً على نحو مثاليّ. لا أستطيع أن أكون سعيدة على نحو مثاليّ تماما، لأنّه... حسنا، كيف تسمّون هذا اللّون رجاء؟». وأمسكت على الفور إحدى خصلات شعرها المتوهّج على ظهرها. فمرّرتها من فوق كتفها، واضعةً إيّاها تحت أنف ماثيو. لم يعتد ماثيو أبدا أن يحكم في طبيعة ألوان الخصلات النّسائيّة. ولكنّه لم يجد في هذه الحال ما يدفع إلى الشّكّ أو التّردّد.

«إنّه الأحمر. أليس كذلك؟».

أرخت البنتُ الخصلة من يدها مع تنهيدة بدت، كأنّها تطلعُ من أقصى أصابع قدميها لتنفث كلّ أحزان العصور جميعا.

«نعم، إنّه أحمر»، تمتمت في استسلام واضح. «ها إنّك ترى الآن السّبب الذي يمنعني من أكون سعيدة بطريقة مثاليّة. لا أحد يملك شعرا أحمر يمكنه أن يكون كذلك. أنا لا أمانع بقيّة التّفاصيل كثيرا -أعني النّمشَ والعينين الخضراوين والنّحافة- إذ يمكنني أن أتخيّل أنّها غير موجودة؛ أصوّر لنفسي أنّ لون بشرتي أشبه ببتلات الوردة وأنّ عينيّ بنفسجيّتان لامعتان. ولكنّني لا أستطيع بواسطة التّخيّل إبعاد ذلك الشّعر الأحمر. إنّني أبذل قصارى جهدي. فأقول لنفسي: «ها إنّ شعري أسودُ أكحل، مثل جناح الغراب. ولكنّني أظلّ متيقّنة في كلّ مرّة أنّه أحمر تماما. وذاك ما يفطر قلبي. سوف يكون ذلك مأساة حياتي كلّها. لقد قرأتُ مرّة في رواية عن فتاة

كانت لها مأساةٌ تمتدّ طيلة حياتها. ولكنّ تلك المأساة لم تكن شعرها الأحمر. فقد كان شعرها ذهبا خالصا يتموّجُ إلى الوراء من جبينها المرمريّ. ماذا يعني جبين مرمريّ؟ لم أتوصّل يوما إلى فهم ذلك. هل تشرح لي ذلك؟».

«حسنا، أعتقد أنّني لا أستطيع»، أجاب ماثيو الذي كان يشعر حينئذ بشيء من الدّوار. أحسّ بنفس إحساسه عندما دفعه أحد الأولاد في شبابه المتهوّر إلى أن يركب دوّامة الخيل، خلال إحدى النّزهات.

«حسنا، بغضّ النّظر عمّا يعنيه الجبينُ المرمريّ فهو جميل دون شكّ، لأنّها كانت جميلة على نحو إلاهيّ. هل سبق لك أن تخيّلت كيف يكون شعور من يملك جمالا إلهيّا؟».

«حسنا، لا... لم يسبق لي»، ردّ ماثيو مُعترفا.

«أمّا أنا، فقد فعلت. لو كنتَ تملك الخيار، ما الذي ستختاره؟ أن تكون جميلا على نحو إلاهيّ أم ذكيّا على نحو مُبهر أم طيّبا مثل الملائكة؟».

«حسنا، الآن... لا، لا أعرف حقّا».

«وكذلك أنا. لا أستطيع حقّا أن أحسم قراري. ولكن لا فرق على أيّة حال. فأنا لن أبلغ، على الأرجح، أيّ منزلة من هذه المنازل الثّلاث. ومن المحتّم أنّني لن أكون يوما طيّبة مثل الملائكة. لقد قالت لي السّيّدة سبنسر... آه يا سيّد كاثبرت! أه يا سيّد كاثبرت!! أوهٍ يا سيّد كاثبرت!!!

لم يكن ذلك ما قالتهُ السّيّدة سبنسر. ولم تكن البنتُ قد سقطت كذلك عن الفرس ولا فعل ماثيو أيّ شيء مدهش. لقد وصلا بكلّ بساطة إلى منعطف في الطّريق، حيثُ وجدا نفسيهما في «المسلك المُشجّر».

كان المسلكُ المشجّر -وهكذا سمّاه سكّان نيوبريدج- قطعةً من الطّريق تمتدّ إلى مسافة خمس مائة ياردة، مقبّبةٌ كلّها وعلى نحو تامّ بأشجار تفّاح عملاقة، كانت قد غُرست منذ سنوات بعيدة بواسطة مزارع عجوز غريب الأطوار. هناك، تخيّمُ فوق رؤوس المسافرين مظلّةٌ من الأزهار تُرسل في المكان روائح زكيّة. وتحت الأغصان المتشابكة، كان الهواءُ مُفعما بالشّفق الأرجوانيّ. وفي الأفق البعيد، يتجلّى مشهدُ الغروب في السّماء، كأنّه نافذةٌ مُزخرَفة عند طرف ممشًى كاتدرائيّ.

بدا من الواضح أنّ ذلك الجمال قد أخرس الطّفلة تماما. فقد تراخت في العربة إلى الوراء. وشابكت يديها النّحيلتين. ورفعت رأسها في ابتهاج واضح إلى الجلال الأبيض فوقها. وحتّى حين تجاوزا المسلك وصارا يتقدّمان في المنحدر الطّويل باتّجاه نيوبريدج، لم تتحرّك مطلقا ولم تقل أيّ كلمة. فقد تابعت التّحديق بوجه مُنتَشٍ في الغروب البعيد، وعيناها تنفذان إلى مشاهد تسيلُ بروعة في تلك الخلفيّة المشعّة. تابعا طريقهما صامتيْن عبر نيوبريدج، تلك القرية الصّغيرة الصّاخبة، حيث لاحقتهم كلاب نابحةٌ، وصاح بهم فتيان صغار، وتفرّست فيهم عيونٌ فضوليّة من خلف النّوافذ. تقدّما على

امتداد ثلاثة أميال تقريبا، والفتاة ما تزال صامتةً لم تتلفّظ بكلمة واحدة. ومن الواضح أنّ بإمكانها أن تعزم على الصّمت بقدر إصرارها على الكلام.

«أحسب أنّك تشعرين بالتّعب والجوع»، قال ماثيو أخيرا، وهو يُسند إلى صمتها الطّويل السّبب الأرجح في ذهنه. «ولكن، لم يتبقّ الكثير... ليس أكثر من ميل واحد».

استيقظت من حلم يقظتها، مُتنهِّدة. ثمّ حدّقت فيه بنظرة حالمة تخصّ روحا كانت شاردة في الأقاصي حيثُ مسالك النّجوم.

«آه، يا سيّد كاثبرت!»، همست قائلة. «المكان الذي عبرناه منذ حين... ذاك المكان الأبيض، ما هو؟».

«حسنا، لا بدّ أنّك تقصدين المسلك المشجّر»، ردّ ماثيو بعد صمته وتفكّره لبرهة. «إنّه حقّا مكان جميل».

«جميل؟ ولكنّها كلمةٌ لا تبدو مناسبة إطلاقا... ولا حتّى حسَن... إنّهما كلمتان لا تدركان المدى المناسب. أوه، إنّه رائع عجيب! هذا هو أوّلُ شيء أراهُ في حياتي لا يمكنُ أن يُجمَّل بواسطة المخيّلة. لقد جعلني أشعر بالرّضا هنا». ووضعت يدها على صدرها. «لقد أثار فيّ نوعا غريبا وشاذّا من الألم. ومع ذلك، فهو ألم ممتع. هل سبق لك أن شعرت بمثل هذا الألم يا سيّد كاثبرت؟».

«حسنا، لا يمكنني الآن أن أتذكّر ما إذا قد شعرتُ بذلك من قبل».

«أمّا أنا، فمرّات كثيرة... كلّما رأيتُ شيئا جميلا على نحو ملَكيّ.

ولكن، لا يجدرُ بالنّاس أن يسمّوا ذلك المكان الرّائع المسلك. إذ لا معنى في اسم كهذا. كان عليهم بدلا من ذلك أن يسمّوه... فلأفكّر للحظة... طريق البهجة الأبيض. أليس هذا اسما جميلا ومُفعما بالخيال؟ عندما لا يعجبني اسم شخص أو مكان، أقوم دوما بتخيّل اسم جديد له. وبواسطة هذا الاسم أستقدمُه إلى تفكيري. كان هناك فتاة في الميتم اسمها هيبزيبا جنكينز. لكنّني ظللت أتخيّل دوما أنّها روزاليا دي فيري. ولذلك قد يلقّب النّاسُ ذلك المكان بالمسلك المشجّر. أمّا أنا، فسأسمّيه طريق البهجة الأبيض. هل صحيح أنّ ميلا واحدا مازال يفصلنا عن المنزل؟ إنّني سعيدة بذلك وحزينة في الآن نفسه. فقد كانت هذه الرّحلة ممتعة جدّا بالنّسبة إليّ. ولطالما شعرتُ بالأسى عند انتهاء الأشياء الجميلة. يمكن في المقابل أن يلحَق بها ما هو أجمل. ولكن لا يمكن للمرء أن يتيقّن من ذلك. وفي معظم الأحيان، تكون اللّواحقُ أسوأ. تلك كانت تجربتي الشّخصيّة على الأقلّ. ورغم كلّ شيء، أنا سعيدة للوصول إلى البيت. أتعرف؟ لم يكن لي منذ ما يمكنني أن أتذكّره أيّ بيت. ولذلك أشعر بنفس الألم الممتع عندما أفكّر أنّني أصل أخيرا إلى بيت حقيقيّ. آه! أليس ذلك جميلا؟».

قادا العربة فوق قمّة تلّة. وتحتهما كانت هناك بركةٌ تبدو أشبه بنهر طويل مُلْتوٍ. ويشقُّ البركةَ عند منتصفها جسرٌ يصل إلى طرَفها الأقصى، حيثُ يمتدّ حزامٌ من الكثبان الرّمليّة وحيثُ المياه تعكسُ ظلالاً ساحرة من الزّعفرانيّ والورديّ والأخضر الأثيريّ وتلويناتٍ غامضة أخرى، لم يُعثر لها على اسمٍ حتّى الآن. فوق

الجسر، تتوهُ البركةُ وسط باقات من أشجار الصّنوبر والقيقب التي تتمدّد أطيافُها القاتمةُ متّحدةً بدُكنَةَ المياه. وفي بعض المواضع، تنحني أشجارُ البرقوق من الضّفّة على المياه، كما تواجهُ بنتٌ مكسوّةٌ بالبياض انعكاسَ صورتها في حياء. وفي أقصى البركة حيث ينخفض مستوى المياه، يتصاعدُ نقيقُ الضّفادع صافيا، واهنا وحزينا. كان هناك منزل رماديّ صغير يطلّ من حوله على بستان تفّاح في منحدر أسفل منه. ورغم أنّ الظّلام لم يُخيّم بعدُ، إلاّ أنّه بالإمكان رؤية ضوء مُشعّ من إحدى نوافذه.

«هذه بركة لاري»، قال ماثيو.

«أوه، لم يعجبني هذا الاسم أيضا. سأغيّره إذن.. فلنقل مثلاً.. بحيرة المياه اللاّمعة. نعم، إنّه الاسم المناسب لها. أعرف ذلك بفضل القشعريرة. إذ كلّما وقعتُ على اسم مناسب لشيء مّا دفعني ذلك إلى القشعريرة. هل سبق أن دفعك شيء مّا إلى مثل ذلك؟».

«حسنا، نعم. لطالما أحدث فيّ قشعريرةً منظرُ الدّود الأبيض المقزّز وهو يحفر في مفارش الخيار. إنّني أكرهُ أن أراها».

«آه، لا أعتقد أنّنا نتحدّث عن نفس القشعريرة. ألا توافقني؟ لا يبدو أنّ هناك اتّصالا وثيقا بين الدّود وبحيرات المياه المشرقة. أليس كذلك؟ ولكن، لماذا يسمّيها النّاس بركة لاري؟».

«أعتقدُ أنّ السّببَ يكمنُ في أنّ السّيّد لارِي يعيشُ هناك في ذلك المنزل. يُسمّى مجالُه «منحدر البستان». ولو لم يكنْ هناك ذلك الدّغلُ الكثيف في الخلف لأمكن أن نرى الضّيعة الخضراء من هنا.

ولكن يجدر بنا أن نصل إلى الجسر وننعطف مع الطّريق، ممّا يجبرنا على قطع مسافة نصف ميل آخر».

«هل للسّيّد لاري بناتٌ؟ حسنا، لا أقصد بناتٍ صغيرات وإنّما في مثل سنّي».

«لديه ابنةٌ تجاوز الحادية عشرة. واسمها ديانا».

«آه»، استنشقت آن الهواء بقوّة. «يا له من اسم رائع وجميل!».

«حسنا، فيما يخصّ هذا لستُ متيقّنا. لا أعرف... يبدو لي أنّ هناك شيئا مّا كافرا وغير مسيحيّ في هذا الاسم. إنّني أخيّرُ عليه جاين أو ماري أو أيّ اسم آخر له معنى. ولكن، عندما وُلدت ديانا كان هناك معلّم مدرسة يعيش في منزلهم. وقد تركوا له حرّيّة اختيار الاسم. فسمّاها ديانا».

«آه، لو كان هناك معلّم مدرسة مثله يعيش في الأنحاء عندما وُلدت! أوه، ها قد وصلنا إلى الجسر. سأغمض عينيّ بشدّة. إذ لطالما شعرتُ بالخوف من الجسور. لا يمكنني أن أمنع نفسي من تخيّل الجسر وهو ينطوي مثل سكّين جيب، وينهار ما أن نخطو فوقه. ولهذا السّبب، سأغمض عينيّ. ولكن يجب عليّ أن أفتحهما كذلك -الأمر أقوى من إرادتي- ما أن ندرك الجسر، لأنّه إذا انطبق الجسر حقّا فإنّني أودّ أن أرى ذلك. كم هو ممتع سماعُ صوت العربة وهي تسير! أيّ طقطقة هذه! إنّني أعشق سير العربة ودويّها بهذا الشّكل. أليس من الرّائع أن تكون هناك أشياء كثيرة جديرة بالإعجاب في هذا العالم؟ ها قد انتهت! يمكنني الآن أن ألتفت إلى الوراء، لأنظر

فيها... تصبحين على خير عزيزتي، بحيرة المياه اللاّمعة! إنّني أرجو ليلة سعيدة لكلّ الأشياء التي أحبّها، تماما مثلما أفعل مع النّاس. أعتقد أنّها تحبّ ذلك، حتّى إنّه يبدو لي أنّ المياه هناك تبتسم لي».

وما أن قطعا المسافة التي تفصلهما عن الرّابية التّالية وولجا إلى مُنعطف جديد حتّى أعلن ماثيو، هاتفًا: «كدنا نصل الآن. هذا هو منزل الضّيعة الخضراء. هنا...».

«آه، لا تُشر إلى المنزل!»، صاحت بعينين مغمضتين. وأمسكت بسرعة ذراعه، كي توقف حركته. «دعني أخمّن بمفردي. إنّني متيقّنة من أنّني سأصيبه».

فتحت عينيها. ونظرت من حولها. كانا في أعلى الرّابية، والشّمسُ قد غرُبت منذ لحظات. لكنّ المشهد مازال واضحا، غارقا في ذلك النّور المنتشر الذي يعقُب اختفاء الشّمس. ارتسم غرْبا، على خلفيّة شمسٍ ذهبيّة، جرسُ الكنيسة الأسود. وتحته امتدّ واد صغير، ومنحدرٌ تتوزّع خلفه في انشراح عدّةُ أراضٍ. كانت عينا الطّفلة تخفقان بشدّة، وتتقلّبان من جهة إلى أخرى في تشنّج وفضول واضحيْن. ثمّ استقرّ نظرُها طويلا على أرضٍ مُبْعدَة قليلا جهةَ اليسار، منحنية تحت بياض الأشجار المزهرة والغارقة في الشّفق. وفي الأعلى، في سماء الجنوب الغربيّ الصّافية، كانت هناك نجمة كبيرةٌ، ذات بياض كريستاليّ، تشعُّ مثل مصباح هداية ووعد.

«ها هو! أليس هو حقّا؟»، هتفت، وهي تشير بإصبعها.

نفض ماثيو اللّجام على ظهر الفرس في ابتهاج.

«حسنا، لقد أصبتِ. ولكنّني أحسبُ أنّ السّيّدة سبنسر قد وصفتْه بدقّة لك، حتّى أمكنك أن تتعرّفي عليه».

«لا، لم تفعل. إنّها حقّا لم تصف لي المنزل. وكلّ ما قالته عنه ينطبقُ على أيّ منزل آخر هنا. ولذلك لم تكن لديّ فكرةٌ مُسبَقةٌ عن مشهد الضّيعة الخضراء. وبمجرّد النّظر إليه عرفتُ بيقين غامض أنّه لا شكّ بيتُنا. يبدو الأمر شبيها بحلم. آه، لا شكّ أنّ ذراعي قد صارت سوداء زرقاء من كثرة ما قرصتُ نفسي هذا اليوم. فمن حينٍ إلى آخر، يغمرني شعورٌ بسَقم فظيع، يدفعني إلى الخوف من أن يكون كلّ هذا مجرّد حلم. وحينئذ، أقرص نفسي بشدّة لأتثبّت ما إذا كان حقيقة. ولكنّني في الآن ذاته، أستدرك فجأة، وأتذكّر أنّه حتّى في حال كان كلّ هذا حلما فإنّه من الأفضل لي أن أسترسل فيه قدر استطاعتي ولأطول فترة ممكنة. ولهذا توقّفتُ عن قرص نفسي أخيرا. وأنا متيقّنة الآن أنّ الأمر حقيقيّ. وها إنّنا أوشكنا أن نصل إلى البيت».

وإثر تنهيدةِ رضا عميق، غرقت في صمتها من جديد. أمّا ماثيو، فكان يشعر بالضّيق. وقد أبهجه أنّ ماريلا هي التي ستتكفّل بإعلام المتشرّدة الصّغيرة أنّها لا تستطيع في النّهاية أن تمكث في هذا المنزل الذي حسبته قد صار بيتها. تقدّما فوق غدير السّيّدة ليند، حيث أظلم المكان سلفا، لكنّه لم يكن مظلما بما يكفي لئلاّ تلمحهما السّيّدة رايتشل عبر نافذتها، وعلى امتداد التّلّة وصولا إلى مسلك الضّيعة الخضراء الطّويل. وما أن وصلا إلى المنزل حتّى شرع ماثيو بتخيّل

المشهد الوشيك. فأصابه انقباض شديد لم يفهم سببه مطلقا. لم يكن يفكّر في ماريلا أو في نفسه، ولا في المتاعب العابرة التي سيسبّبها لهما هذا الخطإ، وإنّما انشغل في قلقٍ بخيبةِ أملِ الصّغيرة. أحسّ بضيقٍ شديد، وهو يتخيّل ذلك النّور المتلألئ في عينيها ينطفئُ فجأة، كأنّه شاهد على اغتيالِ شيء مّا، تماما مثلما يحسّ في كلّ مرّة يُضطرّ فيها إلى قتل حمل أو عجل أو أيّ مخلوق آخر صغير وبريء.

كان الفِناء غارقا في الظّلام عند وصولهما إليه. ومن حولهما يُسمع حفيف أوراق الحور كأنّه الحرير.

«أصغ إلى الأشجار، وهي تتكلّمُ أثناء نومها!»، همست البنتُ وهو يحملها ويضعها أرضا. «أيّ أحلام جميلة تراودها يا ترى؟!».

ثمّ أمسكت بصرامة حقيبة سفرها التي تحتوي كلّ «أشيائها الدّنيويّة». ولحقت به إلى المنزل.

(3)
مفاجأةُ ماريلا كاثْبِرتْ

اندفعت ماريلا بعجلة إلى الأمام عندما فتح ماثيو الباب. ولكنْ ما أن حطّ بصرُها على ذلك الطّيف الغارق في الثّوب المتيبّس القبيح، ذي الجدائل الطّويلة الحمراء والعينين المُضيئتين المتحمّستين، حتّى توقّفت على الفور متفاجئة.

«ماثيو كاثبرت! من هذه؟»، صاحت به. «أين الصّبيّ؟».

«لم يكن هناك أيّ صبيّ»، أجاب ماثيو في بؤس. «لم أجد غيرها». وأومأ إلى الفتاة، متذكّرا أنّه لم يسألها حتّى عن اسمها.

«لم يكن هناك أيّ صبيّ؟! كيف؟! ولكن وجب عليك أن تعثر على صبيّ»، ألحّت ماريلا. «لقد كتبنا إلى السّيّدة سبنسر كي تُحضر لنا صبيّا».

«حسنا، لم تفعل ذلك. بل أحضرتْها هي. لقد سألتُ مدير المحطّة. ثمّ اضطررتُ إلى جلبها معي إلى البيت. لم يكن هناك مجال لتركها، بغضّ النّظر عن طبيعة الخطإ الذي اقتُرف وصاحبِه».

«ها أنا ذا إزاء عجبٍ عُجاب!»، ردّت ماريلا.

وأثناء هذا الحوار، مكثت الطّفلةُ صامتة وعيناها تتنقّلان بينهما،

بينما تتبخّر حركيّةُ ملامحها شيئا فشيئا. وفجأةً، بدا عليها أنّها قد أدركتْ المعنى العميق لما يحدثُ أمامها. فأرخت حقيبة السّفر من يدها. ووثبت إلى الأمام، مُشابكة ذراعيها. وقالت:

«إنّكما لا ترغبان فيّ!»، صرخت. «لا تريدانني، لأنّني لستُ ولدا! كان عليّ أن أتوقّع ذلك. إذ لا أحد قد رغب فيّ من قبل. كان عليّ أن أدرك أنّ الحكاية أجملُ من أن تدوم طويلا. كان عليّ أن أفهم أنّه ما من أحد يريدني حقّا. آه، ماذا عليّ أن أفعل؟ إنّني أوشك أن أنفجر بكاءً».

وفعلا، انفجرت دموع البنت، إذْ جلست على كرسيّ عند الطّاولة، غرزت رأسها بين ذراعيها. وراحت تبكي بصوتٍ مُدوٍّ. تبادل ماثيو وماريلا نظراتِ الاستنكار عبر الموقد. ولم يعرف أيٌّ منهما ما يجدر به قوله أو فعله. وفي النّهاية، حاولت ماريلا أن ترمّم الصّدع قائلة:

«حسنا، حسنا، لا داعي لكلّ هذا البكاء».

«بلى، هناك داعٍ». رفعت الطّفلةُ رأسها بسرعة، كاشفةً وجها تكسوهُ الدّموعُ وشفتيْن مرتعشتيْن. «أنتِ أيضا، كان بإمكانك أن تبكي لو كنتِ يتيمةً، ووصلتِ إلى مكانٍ حسبتِ أنّهُ سيصير بيتك، ثمّ اكتشفتِ أنّكِ مرفوضةٌ، لانّك لستِ ولدا. أوه، إنّ هذا هو أكثر شيء تراجيديّ حدث معي طيلة حياتي».

شيءٌ مّا يشبه ابتسامةً متمنّعة وخفيفةً ارتسم على ملامح ماريلا المتجهّمة.

«حسنا، توقّفي عن البكاء. فنحنُ لن نلقي بك خارج بيتنا هذه اللّيلة. وإنّما ستمكثين معنا حتّى نتبيّن هذه المسألة. ما اسمك؟».

تردّدت البنتُ لوهلة. ثمّ أجابت:

«هلاّ ناديتِني رجاء بـكورديليا؟»، قالت بحماس.

«أناديك كورديليا؟! هل هذا هو اسمكِ؟».

«لاا.. هو ليس اسمي حقّا. ولكنّني أحبّ أن أُلقَّب بكورديليا. يا له من اسم أنيق جدّا!».

«لا أفهم مطلقا ما تقصدينه. إذَا لم يكن كورديليا هو اسمك، فما اسمك حقّا؟».

«آن شيرلي»، تلعثمت صاحبةُ الاسم على مضض. وأردفت: «ولكن، أرجوك أن تناديني كورديليا. ليست المسألةُ مهمّة بالنّسبة إليك ما دمتُ سأمكث هنا لفترة وجيزة فحسب. أليس كذلك؟ كما أنّ آن اسمٌ غير رومنسيّ بتاتا».

«ما هذا الهراء؟»، ردّت ماريلا الخشنةُ. «آن هو اسم حقيقيّ حسنٌ وعاديّ وحصيف. لا حاجة لك أن تخجلي به».

«آه، لستُ خجلة»، شرحت آنْ. «كلّ ما في الأمر أنّ كورديليا يعجبني أكثر. إذ طالما تخيّلتُ أنّه اسمي الحقيقيّ. فلأقلْ على الأقلّ إنّني ظللتُ أتخيّلُ ذلك خلال السّنوات الأخيرة، لأنّني اعتدتُ أن أحبّ اسم جِيرَالْدينْ عندما كنتُ صغيرةَ السّنّ. ولكنّي صرتُ أحبّ كورديليا أكثر. ولكن، إذا كنتِ مُصرّةً على أن تناديني آنْ، فرجاءً لا تنسي السّكون في آخره».

«وما أهمّيّة الطّريقة التي أكتبه وفقها؟»، سألتْ ماريلا بابتسامة خفيفة أخرى بينما التقطت إبريق الشّاي.

«أوه، هناك فرق كبير. يبدو منظره أجمل بكثير. حين تسمعين من يلفظُ اسما معيّنا، ألستِ تتصوّرينه في ذهنك كأنّه مطبوع أمامكِ؟ هكذا يحدث معي. آن، يبدو مروّعا. أمّا آنْ، فيبدو مميّزا جدّا. إذا ناديتني آنْ مكتوبةً بسكون، فسوف أحاول أن أصالح نفسي مع عدم مناداتي بكورديليا».

«حسنا إذن يا آنْ ذات السّكون، هلاّ أخبرتِنا كيف وقع هذا الخطأ؟ لقد راسلنا السّيّدة سبنسر نطلبُ منها ولدا. ألم يكن هناك أيّ صبيّ في الميتم؟».

«آه، بلى. كان هناك الكثير منهم. ولكنّ السّيّدة سبنسر قد صرّحت بوضوح كافٍ أنّكما تريدان فتاةً في سنّ الحادية عشرةَ تقريبا. فأجابت المُربّية قائلةً إنّني قد أكون مناسبة لكما إذن. لا يمكنكما تخيُّل سعادتي حينئذ. لم أستطع أن أنام طيلة اللّيل من البهجة. آه!»، أردفت بنبرة عتاب. والتفت إلى ماثيو: «لماذا لم تخبرني عند المحطّة أنّكما لا تريدانني، فتتركَني هناك؟ لو أنّني لم أرَ طريق البهجة الأبيض وبحيرة المياه اللاّمعة لما كان تقبُّل الأمر بهذه الصّعوبة».

«ما الذي تعنيه بحقّ الجحيم؟»، سألت ماريلاّ وهي تحدّقُ في ماثيو.

«إنّها... إنّها تُشير إلى شيء مّا تحدّثنا عنه في طريقنا إلى هنا»،

ردّ ماثيو في لهفة. سأدخل الفرس إلى الإسطبل يا ماريلاّ. رجاء، جهّزي الشّاي لعودتي».

«هل أحضرت السّيّدةُ سبنسر معها أيّ شخص آخر غيركِ»، أضافت ماريلاّ عندما خرج ماثيو.

«لقد أحضرتْ لِيلِي جُونسْ لنفسِها. ليلي في الخامسة. وهي جميلةٌ جدّا. شعرُها بنّيٌّ بلون الجوز. لو كنتُ جميلةً جدّا ولي شعرٌ بنّيّ بلون الجوز، هل كنتِ لتحتفظي بي ساعتها؟».

«لا، نريدُ صبيّا كي يُساعدَ ماثيُو في عمل المزرعة. أمّا الفتاةُ، فلا فائدة تُرجى منها بالنّسبة إلينا. انزعي قبّعتك! سأضعُها وحقيبتك على طاولة الرّدهة».

خلعتْ آنْ قبّعتها بخنوع. ثمّ دخل ماثيو عائدا. وجلسوا معا من أجل العشاء. ولكن آنْ لم تستطع الأكل. فقد ظلّت تقضمُ عبثا بعضَ فتاتٍ من الخبز مع الزّبدة، وتُلقي بنظراتها إلى جرّة معجون التّفّاح المصبّر إلى جانبها، دون أن تُحرز أيّ تقدُّم حقيقيّ.

«إنّك لا تأكلين شيئا»، قالتْ ماريلاّ بحزم، وهي تُحدّق في عينيها مباشرة، كأنّها قد اقترفت عيبا كبيرا.

تنهّدت آنْ.

«لا أستطيع. إنّني عالقة في أعماق اليأس. هل يمكنكِ الأكل عندما تكونين في أعماق اليأس؟».

«لم أكن من قبلُ في أعماق اليأس. ولذلك، لا يمكنني أن أجيبك»، ردّت ماريلا.

«أبدا؟! حسنا، ألم تحاولي من قبل أن تتخيّلي نفسكِ في أعماق اليأس؟».

«لا».

«أعتقدُ إذن أنّكِ لن تفهمي طبيعة الأمر. إنّه في الحقيقة شعور غيرُ مُريح بتاتا. وهو أشبه بأن تحاولي أكل لقمة فتعلق في حنجرتك تماما حتّى تمنعك من بلع أيّ شيء، بما في ذلك شوكولاطا الكاراميل. لقد جرّبتُ شوكولاطا الكاراميل ذات مرّة منذ سنتين. وقد كانت لذيذةً جدّا. ومنذ تلك اللّحظة، صرتُ أحلمُ مرّاتٍ كثيرةً بالحصول على الكثير منها. ولكنّني أستيقظُ دوما في اللّحظة التي أهمّ فيها بأكلها. أرجو حقّا ألاّ تشعري بالاستياء منّي لأنّني أمتنع عن الأكل. كلّ شيء رائع جدّا. ومع ذلك، مازلتُ غير قادرة على الأكل».

«أعتقدُ أنّها متعبة»، قال ماثيو الذي كان صامتا منذُ عودته من الإسطبل. «من الأفضل أن تضعيها في فراشها يا ماريلاّ».

كانت ماريلاّ تتساءَل في سرّها أين يمكن أن تضع فراش آنْ. لقد جهّزت أريكةً في حجرة المطبخ من أجل الصّبيّ المنتظَر والمرغوب فيه. ورغم كونها مرتّبة ونظيفة، فإنّه لم يبدُ لها ملائما وضعُ فتاة هناك. ولكنّ الغرفة الاحتياطيّة مقصاةٌ من حساباتها. إذ لا يمكنُ منحُها لمتشرّدة ضالّة كهذه. لم يتبقَّ إذن إلاّ الغرفة الشّرقيّة. أشعلت ماريلاّ شمعةً. وطلبت من آنْ أن تلحق بها. وذاك ما فعلتهُ الفتاةُ على نحوٍ آليّ باردٍ، حاملةً معها قبّعتها وحقيبتها من طاولة

الرّدهة أثناء عبورها. كان الرّواقُ نظيفا بطريقة مخيفة. وقد بدت لها الغرفةُ الصّغيرة التي وجدت نفسَها فيها أشدَّ نظافة حتّى.

وضعت ماريلا الشّمعة على طاولة ذات ثلاث سيقان وزوايا. ثمّ أنزلت أغطية السّرير. وسألت البنت:

«أحسبُ أنّ لك منامة. أليس كذلك؟».

أومأت آنْ برأسها:

«نعم، لديّ اثنتان. لقد أعدّتهما مُربّية الميتم لي. إنّهما ضيّقتان على نحو فظيع. ليس هناك أيُّ وفرة في الميتم. ولذلك تكونُ الأشياء فيه دوما ضئيلة. ينطبقُ ذلك على الأقلّ على ميتم فقير كمَيْتَمِنا. أكرهُ المنامات الضّيّقة. ولكن يستطيع المرءُ أن يحلم فيها مثلما يحلمُ، وهو يرتدي مناماتٍ لطيفة فضفاضة، ذات زخارف حول العنق. وفي هذه الحقيقة شيءٌ من العزاء».

«حسنا، اخلعي ملابسك في أسرع وقت ممكن. وادخلي إلى فراشكِ. سأعود بعد بضع دقائق من أجل الشّمعة. لا أجرؤ على الوثوق بك كي تضعيها في الخارج بمفردكِ. ستُضرمين على الأرجح النّار في المكان».

حين غادرت ماريلاّ، نظرتْ آنْ من حولها بحزن. كانت الجدرانُ المغسولة بالأبيض عاريةً تحدّقُ فيها، حتّى إنّها فكّرتْ أنّها تشعرُ بالحزن دون شكّ بسبب عريها هذا. كانت الأرضيّةُ عارية كذلك إلاّ من حصيرةٍ مضفورة ومستديرة في الوسط، لم ترَ آنْ مثلها من قبل. وفي الرّكن، انتصب السّريرُ، عاليا، قديمَ الطّراز وذا أعمدة منخفضة

قاتمة اللّون. أمّا في الرّكن المقابل، فهناك الطّاولةُ ثلاثيّةُ السّيقان المذكورةُ سلفًا، تزيّنُها وسادةُ دبابيس حمراء مخمليّة. وفوقها، تدلّت مرآةٌ بقياسِ ستّة في ثمانية. في منتصف المسافة بين السّرير والطّاولة، كانت النّافذةُ يحيطُ بها طوق من الموسلين[1] الأبيض الجليديّ. وقبالتها، وُضعت المغسلةُ. كانت الشّقّةُ كلّها مفعمةً بصرامة لا يمكنُ وصفها بالكلمات. ولكنّها بعثت قشعريرةً في نخاع عظام آنْ. زفرت، وهي تلقي عنها ثيابها، وترتدي منامتها الضّيّقة. ثمّ قفزت إلى السّرير، حيثُ دفعت وجهها بقوّة إزاء الوسادة وسحبت الأغطية فوق رأسها. عندما رجعت ماريلاّ من أجل الشّمعة، كانت بعضُ الأدوات الصّغيرة متناثرةً على الأرضيّة على نحوٍ غير مرتّب، وكان مشهدُ السّرير العاصف هو القرينة الوحيدة على أيّ حضور آخر بخلافها هي. التقطت ملابس آنْ بتأنٍّ. ثمّ وضعتها بعناية على كرسيّ أصفر عتيق. وبعد ذلك، رفعت الشّمعة عاليا. واتّجهت نحو السّرير.

«ليلة سعيدة»، قالت بنبرة غريبة بعض الشّيء، ولكنّها ليست فظّة.

برزَ وجهُ آنْ الأبيضُ وعيناها الواسعتان من فوق أغطية السّرير على نحو مُفاجئ تماما.

«كيف يمكنكِ وصفُها باللّيلة السّعيدة إذا كنت تعرفين أنّها لا شكَّ أسوأ ليلة في حياتي؟»، سألت مُعاتبة. ثمّ غاصتْ تحت الأغطية من جديد.

---

(1) نوع من القماش مصنوع من القطن.

مشتْ ماريلاّ ببطء إلى المطبخ. وراحت تغسل أطباق العشاء، بينما كان ماثيو يدخّنُ. وتلك علامة أكيدة على قلقه واضطرابه، لأنّه نادرا ما يفعل ذلك منذ أن أصرّت ماريلاّ على إقلاعه عن العادة القذرة. فقط في أوقات معيّنة ولحظات مخصوصة، يشعرُ بأنّه مدفوع إليه بقوّة. وحينئذ، تكتفي ماريلاّ بتوجيه غمزة إليه، مُقتنعةً أن على الرّجل البسيط أن يملك مُتنفَّسا لمشاعره.

«حسنا، نحنُ في وضع سيّء»، قالت في غضب. «هذا ما ينتجُ عن توجيه الرّسائل بدل الذّهاب بأنفسنا. لقد قلبَ جماعةُ روبرت سبنسر تلك الرّسالة بطريقة مّا. ولهذا السّبب، ينبغي على أحدنا أن يقود العربة غدا من أجل لقاء السّيّدة سبنسر. هذا مؤكّد. إذْ يجبُ أن تُعاد هذه الفتاةُ إلى الميتم».

«نعم، أحسبُ أنّ هذا هو الأنسب»، ردّ ماثيو متلكّئا.

«تحسب! ألستَ متيقّنا من ذلك؟».

«حسنا الآن... إنّها حقّا يافعةٌ صغيرة وجميلة. سيكونُ مثيرا للشّفقة نوعا مّا أن نعيدها إلى الملجإ، فيما هي مصمّمةٌ على البقاء هنا».

«ماثيو كاثبرت! لا تقل لي إنّك تقصد أنّ علينا أن نحتفظ بها معنا».

لم تكن ماريلاّ لتشعر بدهشة أكبر لو أعرب ماثيو عن رغبته في الوقوف على رأسه. ولكنّه تلعثم قائلا، وهو يُحشَر في زاوية بسبب المعنى الذي يرمي إليه:

«حسنا، الآن... لا، لا أفترض ذلك. ليس تماما. أحسبُ أنّ... لا أحد يتوقّع منّا أن نحتفظ بها».

«ينبغي أن أقول لا. فيمَ ستنفعنا هذه البنت؟».

«قد نفيدُها نحنُ بعض الشّيء»، ردّ ماثيو فجأة وعلى نحو غير متوقَّع.

«ماثيو كاثبرْتْ. أعتقدُ أنّ تلك الطّفلة قد سحرتكَ! إنّني أرى بوضوح أنّك تريد الاحتفاظ بها».

«حسنا، فلأقل إنّها يافعةٌ صغيرةٌ مثيرة للاهتمام حقّا»، أجاب ماثيو مُصرّا على رأيه. «كان عليك أن تسمعي حديثها خلال قدومنا من المحطّة».

«آه، إنّها تتكلّم بسرعة شديدة. لقد لاحظتُ ذلك على الفور. ولا شيء في الأمر لصالحها. إنّني لا أحبّ الأطفال الذين يكثرون من الكلام. كما أنّني لا أريد أيّ يتيمة في منزلي. ولو رغبتُ في ذلك، فلن تكون على شاكلتها. هناك شيء مّا فيها لم أتوصّل إلى فهمه. لا... يجبُ أن تُرسل فورا إلى المكان الذي جاءت منه».

«يمكنني أن أنتدب فتى لمساعدتي»، قال ماثيو. «أمّا هي، فستكون رفيقة لك».

«لستُ في حاجة إلى الرّفقة»، ردّت ماريلا باقتضاب. «ولستُ عازمة على الاحتفاظ بها».

«حسنا، سيكون الأمر وفق ما تقولينه تماما يا ماريلاّ»، قال ماثيو، وهو يرفع غليونه ويضعه جانبا. «أنا ذاهب إلى السّرير».

إلى سريره ذهب ماثيو. وكذلك فعلت ماريلاّ، وهي مقطّبةٌ عابسةٌ، بعد أن أتمّتْ غسل الصّحون، وأبعدتْها. وفي الأعلى من الجهة الشّرقيّة للمنزل، كانت طفلةٌ لا صديق لها، كسيرةُ القلب ووحيدةٌ، تبكي إلى أن استسلمت للنّوم.

(4)
الصّباحُ في منزل الضّيعة الخضراء

كان النّهارُ قد طلع عندما استيقظت آنْ، وجلستْ في سريرها تحدّقُ مشوّشةً في النّافذة. هناك طوفانٌ من أشعّة الشّمس المُبهجة ينسكبُ في الغرفة. وفي الخارج تلوحُ كتلٌ بيضاءُ تُشبهُ الرّيش من زوايا سماء زرقاء صافية.

ولوهلةٍ، لم تستطع أن تتذكّر هذا المكان. شعرت في البداية بمتعة طافحة. ثمّ تذكّرت شيئا فظيعا. إنّه منزل الضّيعة الخضراء، حيثُ لم تكُنْ مرغوبةً لأنّها ليستْ صبيّا.

ولكنّه الصّباحُ. وها إنّ شجرة كرز في ذروة إزهارها تُطلُّ من خارج النّافذة. وبقفزة واحدة، كانت خارج السّرير على الأرضيّة. دفعت السّتار إلى أعلى. فارتفع بصلابةٍ مُحدثا صريرا كأنّه لم يُفتح منذ فترة طويلة. وتلك هي الحقيقة على أيّة حال. ثمّ انكمش بشدّة حتّى إنّه لم يكن في حاجة إلى ما يثبّته بعد ذلك.

جثتْ آنْ على رُكبتيْها. وتأمّلت الصّباحَ الحُزيرانيّ بعينين تشعّان متعة. أوه، أليس هذا جميلا؟ أليس المكانُ لطيفا؟ فلنفترضْ أنّها لن تبقى هنا! يجدر بها أن تتخيّل العكس تماما. هناك مجالٌ للخيال هنا.

هناك شجرةُ كرز هائلة في الخارج. وهي قريبة جدّا، حتّى إنّ أغصانها تلامس المنزل. كما أنّها مكسوّة بكثافةٍ بالأزهار ممّا جعل أوراقها تنحجبُ. ومن جانبي المنزل، امتدّ بستانٌ شاسع ذو شقّين اثنين، واحد لأشجار التّفّاح وآخر لأشجار الكرز. وقد كان يهطلُ أزهارا كذلك. كما أنّ عشبه مكسوٌّ بالهندِباء. وفي الحديقة السّفليّة، يحمل نسيمُ الصّباح رائحة أشجار اللّيلك، وقد مال لونها إلى البنفسجيّ لوفرة الأزهار فيها.

وأسفل من الحديقة، كان مرجٌ أخضرُ ينحدرُ مغلّفا بأزهار البرسيم في اتّجاه الغدير، حيثُ يتفرّع الجدولُ محدودًا بعشراتِ أشجار البتولا البيضاء التي تثبُ في الهواء وسط دغلٍ يتخيّلُه المرءُ -بكلّ متعةٍ- مفعمًا بالسّرخس والطّحالب وعجائب الغابات الأخرى. وفي الخلف، تلوحُ تلّةٌ خضراء مزدانةٌ بالرّاتنج والتّنوب. ومن خلال فجوة فيها، يُرى الطّرف الرّماديُّ لإحدى جملونات المنزل الصّغير الذي رأتهُ سلفًا من الجهة الأخرى لبحيرة المياه اللاّمعة.

في الجهة اليُسرى، تستقرُّ الإسطبلات الكبرى. وخلفها أبعدَ من الرّوابي النّاعمة في الحقول الخضراء، يومضُ بريق البحر الأزرق.

ظلّت عينا آنْ المُحبّتان للجمال تدقّقان في كلّ تفصيل من المشهد، وتلتهمان كلّ ما فيه بنهم وشراهة. لطالما شاهدت في حياتها أماكن قبيحة جدّا -يا للفتاة المسكينة! أمّا هذا المكان، فهو يبدو قادما من أشدّ أحلامها جنونا.

جثتْ على ركبتيْها، غير مدركة لأيّ شيء سوى الجمال العظيم المهيمِن من حولها. وفجأةً، حطّتْ يدٌ على كتفها. فارتبكت آنْ. لقد دخلت ماريلاّ إلى الغرفة دون أن تلاحظها الفتاةُ الصّغيرة الحالمة.

«حان الوقتُ لتغيير ملابسكِ»، قالت باقتضاب.

لم تكن ماريلاّ تعرفُ حقّا كيف تتحدّث مع فتاة يافعة. وقد جعلها جهلُها غير المريح ذاك تتجهّمُ وتتبرّمُ دون قصدٍ منها.

وقفتْ آن. والتقطتْ نفَسًا عميقا.

«آه، أليس هذا رائعا؟»، قالتْ وهي تحرّك يدَها باتّجاه المرأى الجميلِ في الخارج.

«إنّها شجرةٌ كبيرة»، ردّت ماريلاّ. «وهي تزهرُ على نحوٍ جيّد دوما. لكنّ ثمارَها سيّئة... صغيرة ومليئة بالدّيدان».

«آه، لا أقصدُ الشّجرة فحسب. طبعا، إنّها جميلة. بل إنّها ذاتُ جمال مُبهر. وهي تزهرُ كأنّها تفعل ذلك عن قصد. ولكنّني أتحدّثُ عن كلّ شيء هنا؛ الحديقة والبستان والجدول والغابة... هذا العالم الواسع الجميل برمّته. ألا يشعرُ المرء بأنّه مغرمٌ بالعالم في صباحٍ كهذا؟ يمكنني أن أسمع الجدول وهو يضحك من هنا. هل سبق لكِ أن لاحظت قدر السّعادة التي تحتفظُ بها الجداولُ في قلوبها؟ إنّها تضحك طيلة الوقت. وحتّى في أيّام الشّتاء، سمعتُ ضحكاتها من تحت الجليد. إنّني سعيدةٌ جدّا لأنّ هناك جدولا قرب الضّيعة الخضراء. لعلّكِ تفكّرين أنّه لا فرقَ في ذلك بالنّسبة إليّ، بما أنّكُما لن تحتفظا بي في بيتكما. ولكنّ ذلك ليس صحيحًا في نظري. سوف

يسرُّني دومًا تذكّرُ أنّ هناك جدولاً قرب الضّيعة الخضراء حتّى لو لم أرَهُ مجدّدا. إذْ لو لم يُوجد جدولٌ، لظللتُ مسكونةً بشعور مقلقٍ مفادهُ أنّه كان ينبغي أن يكون هناك جدول في هذا المكان. لستُ في أعماق اليأس هذا الصّباح. لا أستطيع أن أكون كذلك خلال الصّباحات. أليس من الرّائع أن توجد الصّباحات؟ ولكنّني أشعرُ بالحزن الشّديد، لأنّني كنتُ أتخيّلُ للتّوّ أنّني أنا من ترغبين في بقائها هنا في النّهاية، وأنّني على وشك المكوث معكما إلى أبد الآبدين. لقد شعرتُ براحة عظيمة، وأنا أتصوّر الأمر. ولكن، أسوأُ ما في تخيّل الأشياء هو تلك اللّحظةُ التي يُضطرُّ فيها المرء للتّوقّف عن ذلك. وحينئذٍ، يشعر بالألم».

«من الأفضل أن تغيّري ملابسكِ، وتنزلي معي. ولا تهتمّي بتخيّلاتك هذه»، قالت ماريلاّ ما أن استطاعت أن تتلفّظ بكلمة. «فطورُ الصّباح في انتظاركِ. فاغسلي وجهك إذن. ومشّطي شعركِ. اتركي النّافذة مفتوحةً. واسحبي أغطية السّرير إلى الخلف. وحاولي أن تكوني ذكيّة بقدر المستطاع».

يمكن لآنْ أن تقدّم أفضل ما لديها كلّما احتاجت إلى ذلك. وبعد عشر دقائق، كانت في الأسفل، ملابسُها مرتّبةٌ، شعرُها مسرَّح ومعقودٌ في شكل ضفائر، وجهها مغسول ويغمرها شعور بالرّاحة لكونها قد أوفت بجميع طلبات ماريلاّ. ومع ذلك، فقد نسيت في الحقيقة أن ترجع أغطية السّرير إلى الخلف.

«إنّني جائعةٌ جدّا هذا الصّباح»، صرّحت، وهي تُرخي جسدها

على الكرسيّ الذي أعدّتهُ ماريلاّ من أجلها. «لا يبدو العالمُ برّيّةً تعوي مثلما كان ليلة أمس. يسرّني جدّا أنّ الصّباح مُشرق. ولكنّني أحبّ الصّباحاتِ الممطرة كذلك. إنّ جميع الصّباحات، على اختلافها، جميلةٌ ومثيرة للإعجاب. أليس كذلك؟ في الصّباح، لا يعرفُ المرء ما سيحدث له خلال النّهار. ولذلك، يملكُ متّسعًا وافرا من الخيال. على أيّة حال، أنا سعيدةٌ لأنّ صباح اليوم مُشمِسٌ وخال من المطر، لأنّه من الأسهل على المرء أن يكون مبتهجا ومتحمّلا للمِحن خلال النّهارات المُشمِسة. أشعر أنّ لديّ الكثير لأكابده. إنّه من الجيّد أن يقرأ المرءُ عن الأحزان وأن يتخيّل نفسه وهو يعيشها. ولكنّ مكابدتها على نحوٍ حقيقيّ مسألة أخرى. وهي ليست جميلة. أليست كذلك؟».

«بحقّ الرّبّ، أمسكي لسانكِ!»، قالت ماريلاّ. «إنّكِ تتحدّثين كثيرا بالنّظر إلى كونكِ فتاة صغيرة».

وحينئذٍ، أمسكتْ آنْ لسانَها على نحوٍ مطيع وصارم، حتّى إنّ صمتها المُسترسلَ دفع ماريلاّ إلى التّوتّر، كأنّها إزاء شيء مّا ليس طبيعيّا. ماثيو أيضا أمسكَ لسانه عن الكلام. ولكنّ ذلك طبيعيّ جدّا. وفي النّهاية، غمر السّكونُ وجبة الصّباح.

وشيئا فشيئا، بدتْ آنْ شاردةَ الذّهن تمضغُ الطّعام بطريقة آليّة، وعيناها الواسعتان جامدتان ثابتتان في اتّجاه السّماء خارجَ النّافذة. شعرتْ ماريلاّ بتوتّر لا مثيل له. فقد تملّكَها شعورٌ مزعجٌ بأنّه أثناء مكوثِ جسد هذه الطّفلة الغريبة عند طاولة الطّعام، تحلّقُ روحُها

بعيدا في أرض بعيدة من سحب وهواء، محمولةً في الأعالي على جناحي الخيال. من ذا الذي يريدُ طفلة كهذه إلى جانبه؟

ورغم كلّ شيء، فقد أراد ماثيو الاحتفاظ بها. وشعرت ماريلاّ برغبته تلك في هذا الصّباح كما في اللّيلة التي مضت، وأنّه سيظلّ راغبا في ذلك ومصرّا عليه. تلك طريقةُ ماثيو على أيّة حال؛ يُدخِلُ نزوة مّا إلى رأسه. ثمّ يتشبّثُ بها بواسطة المثابرة الصّامتة الأكثر إدْهاشا. إنّها مثابرةٌ أشدّ فعالية وقوّة في صمتها ذاك عشراتِ المرّات من الخوض في الأمر والجدال فيه.

عندما انتهت الوجبةُ، استفاقتْ آنْ من حلم يقظتها، واقترحتْ أن تغسل الصّحون.

«هل تُجيدين غسل الصّحون؟»، سألت ماريلاّ في ارتياب.

«جدّا... ومع ذلك، فأنا أفضل حالا في الاعتناء بالأطفال. ولديّ خبرة كبيرة في هذه المسألة. إنّه من المؤسف أنّك لا تملكين أطفالا صغارا هنا كي أعتني بهم».

«لا أشعرُ أنّني أريدُ المزيد من الأطفال لأعتني بهم في وجودك. إنّك لوحدك مصدرُ مشاكل كافية. لا أعرف حقّا ما الذي ينبغي فعله معك. إنّ ماثيو هو الرّجل الأكثر سخافة على الإطلاق!».

«أمّا أنا، فأجده رائعا!»، ردّت آنْ بنبرة لائمة. «إنّه لطيفٌ للغاية. لم تقلقه ثرثرتي أبدا. بل يبدو أنّه معجب بها. ولقد عرفتُ منذ الوهلة الأولى التي رأيتُه فيها أنّني عثرتُ على روح شقيقة».

«كلاكُما شاذٌّ بما فيه الكفاية، إذا كان ذلك ما تقصدينه بروح شقيقة»، قالت ماريلاّ، وهي تزفر. «حسنا، يمكنك أن تغسلي الصّحون. خُذي الكثير من المياه السّاخنة. وتأكّدي من تجفيفها تماما. لديّ الكثير من الالتزامات هذا الصّباح. إذ يجبُ أن أغادر في الظّهيرة باتّجاه «وايتْ سانْدْ»[1]، حتّى ألتقي بالسّيّدة سبنسر. ستذهبين معي. وسنرى ما سنفعله بك في النّهاية. بعد إنهائك لغسل الصّحون، اصعدي إلى الأعلى ورتّبي سريرك».

غسلتْ آنْ الصّحون بإتقان شديد، كما لاحظت ذلك ماريلاّ التي حافظت على عينٍ رقيبة على العمليّة. وبعد ذلك، رتّبت سريرها بنجاح أقلّ. فهي لم تتعلّم أبدا كيف تصارع ملايات الرّيش. ولكنّها توصّلت إلى إتمام ذلك بطريقة مّا، وعلى نحو مرْضيّ. ومن ثَمّ، قالت لها ماريلاّ، رغبةً في التّخلّص منها، إنّ بإمكانها أن تغادر إلى الخارج، وتستمتع بوقتها حتّى موعد العشاء.

طارت آنْ باتّجاه الباب، وجهُها مُضاءٌ وعيناها تلمعان. وعند العتبة تماما، توقّفت فجأة. واستدارت عائدة إلى الطّاولة، وقد اختفى منها النّور والوهَجُ، كأنّها شعلةٌ أدركتْها مطفأةُ الحرائق.

«ما المشكلة الآن؟»، سألت ماريلاّ.

«إنّني لا أجرؤ على الخروج»، قالت آنْ بنبرةِ شهيدٍ يتخلّى عن جميع الملذّات الأرضيّة. «إذا كنتُ لا أستطيعُ المكوث هنا، فلا فائدة في أن أتعلّق بالضّيعة الخضراء. إذ لو خرجتُ إلى هناك، وتعرّفتُ

(1) اسمُ قرية صغيرة في كندا. ومعناه الحرفي هو الرّمال البيضاء.

على الأشجار والأزهار والبستان والجدول، فلن أستطيع منع نفسي من محبّتها. الأمرُ عسيرٌ بما فيه الكفاية الآن. ولن أزيدهُ عسرا. في الحقيقة، أرغب في الخروج بشدّة، حتّى إنّني أشعر بأنّ كلّ الأشياء تناديني: «آنْ! آنْ! اخرُجي إلينا! آنْ! هيّا يا آنْ! نُريدُ شريكا في اللّعب». ولكن، من الأفضل ألاّ أستجيب لها. لا فائدة في أن نحبّ الأشياء التي سوف نُبعَدُ عنها في النّهاية. أليس كذلك؟ في المقابل، إنّه من الصّعب جدّا ألاّ يقع المرءُ في حبّ الأشياء من حوله. أليس كذلك؟ لهذا السّبب، سُعدتُ جدّا عندما علمتُ أنّني سأعيشُ هنا. حسبتُ أنّني سأجد الكثير ممّا يُحَبُّ، دون أن يصدّني أحدٌ عن ذلك. ولكن، انتهى ذلك الحلمُ الوجيز الآن. وقد استسلمتُ لمصيري. ولذلك، لا أعتقدُ أنّني سأذهب إلى الخارج حتّى لا أضرب عن قراري. من فضلك، ما اسمُ تلكَ الجيرانيوم[1] عند النّافذة؟

«تلك جيرانيوم إبرة الرّاعي برائحة التّفّاح».

«آه، لا أقصدُ ذلك النّوع من الأسماء، وإنّما اسما تمنحينه أنت لها. ألم تُطلقي عليها أيّ اسم؟ أيمكنني إذن أن أبتدع لها اسما؟ هلاّ سمّيتُها -فلأفكّرْ قليلا... بُوني[2] ربّما- هلاّ سمّيتُها بُوني خلال فترة إقامتي هنا؟».

«أوه يا ربّ! لا يهمّني ذلك. ولكن، أيُّ معنى يكمنُ يا ترى في تسمية نبتة جيرانيوم؟».

(1) جنس نباتّي مزهر يتبع الفصيلة الغرنوقيّة.

(2) يشير المعنى الحرفّي للكلمة في اللّسان الإنجليزيّ إلى الجميل والجذّاب.

«آه، أحبّ أن تُعامَل الأشياءُ معاملةً مميّزةً، حتّى لو كانت مجرّد نبتة جيرانيوم. يجعلها ذلك تبدو شبيهة بالأشخاص. ألا تعرفين أنّ الجيرانيوم تشعر بالأسف والحزن عندما يُكتفَى بمناداتها بجيرانيوم... هكذا طيلة الوقت؟ أترضين بأن تُنادي بـامرأة دون توقّف؟ حسنا، لقد حسمتُ أمري. وسأسمّيها بوني، مثلما سمّيتُ شجرة الكرز تلك خارج نافذة غرفتي هذا الصّباح... سمّيتُها ملكة الثّلوج لأنّها بيضاء جدّا. طبعا، لن تظلّ مُزهِرة طيلة الوقت. ولكن يستطيع المرء أن يتخيّل ذلك. أليس كذلك؟».

«لم يسبق لي طيلة حياتي أن رأيتُ أو سمعتُ مثل هذا»، تمتمتْ ماريلاّ، وهي تنسحبُ إلى القبو كي تُحضر البطاطا. «صحيح، إنّ فيها شيئا مّا مُثيرا للاهتمام، على حدّ رأي ماثيو. إنّني أتساءل الآن ما الذي بإمكانها أن تقوله أيضا. يبدو أنّها ستُلقي عليّ سحرها الذي أعملته سلفًا في ماثيو. تلك النّظرة التي وجّهها إليّ قبل مغادرته تعكسُ تماما جوهر تلميحاته التي قام بها أمس. كم أودّ أن يصير مثل بقيّة الرّجال، قادرا على التّعبير بواسطة الكلمات. حينئذ، أتمكّن من إجابته ويسهل عليّ أن أُسمِعَهُ صوت العقل والحكمة. ولكن في المقابل، ما الذي يمكن فعله مع رجل يكتفي بالتّحديق فيك؟».

انزلقت آنْ من جديد إلى حلم يقظتها. كان ذقنُها بين كفّيها وعيناها في السّماء، عندما عادت ماريلاّ من رحلة القبو. وهناك، تركتها ماريلاّ إلى أن صار العشاء المبكّرُ جاهزا على الطّاولة.

«أحسبُ انّ بإمكاني الحصول على الفرس والعربة هذا المساء. أليس كذلك يا ماثيو؟».

أومأ ماثيو برأسه. ونظر بحزن إلى آنْ. ولكنّ ماريلاّ اعترضت نظرته. وقالت في تجهُّم:

«سأقود العربة صوبَ وايتْ ساندْ. وسأحسم هذا الأمر. كما أنّني سأصطحبُ آنْ معي. وقد تتكفّلُ السّيّدةُ سبنسر بإجراءاتِ إعادتها إلى نوفا سكُوتْشيا على الفور. سأعدّ لك الشّاي. ثمّ أعود إلى البيت في الموعد كي أحلب الأبقار».

مازال ماثيو مُحافِظا على صمته، فيما شعُرتْ ماريلاّ أنّها قد أهدرت للتّوّ كلماتِها وأنفاسَها. ليس هناك شيءٌ أكثرُ ثقلا وإزعاجًا من رجل يمتنعُ عن الإجابة والرّدّ، باستثناء أن تفعل ذلك امرأةٌ أخرى طبعا.

جهّز ماثيو العربة والفرس. ثمّ غادرت ماريلاّ وآنْ. فتح ماثيو لهما بوّابة الفِناء. وبينما كانتا تتقدّمان ببطء، قال دون أن يستهدف بكلماته أيّ شخص على الأرجح:

«كان الصّغيرُ جيري بوت هنا في الصّباح. وقد قلتُ له إنّني سأوظّفه على الأرجح عندي خلال الصّيف».

لم تجبه ماريلاّ بتاتًا. ولكنّها أطلقت ضربة صوت هائلة على جسد الفرس المسكينة التي لم تعتد مثل هذه المعاملة. ولذلك أنّت بشدّة. واندفعت تخبُّ بسرعة هائلة، بينما التفتت ماريلاّ إلى الخلف. فلمحت ماثيو المتجهّم، وهو يستندُ إلى البوّابة ويتابعهما بنظرات كئيبة.

(5)
حكايةُ آنْ

«أتعرفين»، قالتْ آن. «لقد قرّرتُ أن أستمتع بهذه الرّحلة. لقد أثبتتْ لي التّجربة أنّ بإمكان المرء دوما أن يستمتع بالجانب المُضيء من الأشياء إذا حسَم أمره بشأن ذلك. طبعا، يجبُ أن يكون القرارُ نهائيّا. ولذلك، لن أفكّر أثناء قيادتنا للعربة أنّني سوف أعودُ إلى الميتم. وسأكتفي بالتّفكير في الرّحلة نفسها. آه، انظري! هناك وردةٌ برّيّة صغيرة أزهرت قبل أوانها! أليست جميلة؟ ألا تعتقدين أنّها مبتهجةٌ لكونها وردة؟ أليس رائعا لو كان بمقدور الورود أن تتكلّم؟ إنّني متيقّنة أنّها كانت لتقول لنا أشياء لطيفة جدّا. أوليس الورديُّ هو اللّون الأكثر سحرا في العالم؟ أنا أحبّه جدّا. ولكن، لا أستطيع أن أرتديه. إذ ما من صهباء تستطيعُ أن ترتدي الورديّ حتّى في خيالها. هل سبق لك أن عرفتِ ذات شعر أحمر في صغرها وعندما كبرت تغيّر لونُ شعرها؟».

«لا، لا أعتقدُ ذلك»، ردّت ماريلاّ بشدّة. «كما أنّني لا أعتقدُ أنّ هذا قد يحدث لك أيضا».

تنهّدت آنْ.

«حسنا، هذا أملٌ آخرُ يختفي. إنّ حياتي مقبرةٌ مثاليّة لسلسلة

طويلة من الآمال. هذه جملةٌ كنتُ قد قرأتُها ذات مرّة في كتاب، وأظلّ أردّدها لأريحَ نفسي كلّما خاب ظنّي في مسألة مّا».

«لا أرى أين تكمن الرّاحة في جملة كهذه».

«حسنا، إنّها جميلة ورومنسيّة. وتجعلني أشعرُ بكوني بطلة في كتاب. أتفهمين قصدي؟ إنّني مغرمة بالأشياء الرّومنسيّة. ومقبرةٌ مليئة بالآمال الدّفينة هي أكثر شيء رومنسيّ يمكنُ للمرء تخيّله. أليس كذلك؟ أنا سعيدة لأنّي لي نسختي الخاصّة منها. هل سنعبر اليوم بحيرة المياه اللاّمعة؟».

«لن نمرَّ عبر برْكةِ باري إذا كان ذلك ما تقصدينَهُ ببحيرتكِ ذات المياه اللاّمعة. بل سنسلُك الطّريق السّاحليّ».

«الطّريق السّاحليّ... امْمْ! يبدو جميلا»، هتفت آنْ حالمةً. «هل هو جميل في الواقع بقدر جمال اسمه؟ ما أن قلت «الطّريق السّاحليّ» حتّى ارتسمتْ في ذهني على الفوْر صورة له. وايتْ ساندْ اسمٌ جميلٌ كذلك. ولكنّه لا يضاهي آفُونْلي. فآفونلي اسمٌ لطيف جدّا. وله رنينٌ يشبه الموسيقى. كم طول المسافة التي تفصلنا عن وايتْ ساندْ؟».

«خمسةُ أميال. وبما أنّك تنوين دون شكّ أن تثرثري بلا هوادة، فما رأيكِ أن تتحدّثي في ما ينفعُ، فتقولي لي ما تعرفينه عن نفسك؟».

«آه، ما أعرفه عن نفسي ليس جديرا بالحديث فيه»، قالت آنْ بلهفة. «ولكن، إذا سمحتِ لي بأن أحدّثكِ عمّا أتخيّلهُ عن نفسي، فستجدين كلامي أكثر متعة وإثارة للاهتمام».

«لا، لا أريدُ أن أسمع حكاياتكِ المتخيّلة. تمسّكي بالحقائق العارية فحسب. ولتبدئي بالبدايات. أين ولدتِ؟ وكم عمركِ؟».

«لقد أدركتُ الحادية عشرة في آذار الماضي»، أجابت آنْ مُلتزِمة بالحقائق العارية ومُطلِقة لتنهيدة وجيزة. «لقد وُلدتُ في بولينْغبروكْ الواقعة في نوفا سْكُوتْشْيا. كان أبي، والتر شيرْلي، مُدرّسا في ثانويّة بولينغبروك. أمّا أمّي، فاسمها بيرْثا شيرلي. أليس والتر وبيرثا اسمين جميلين؟ إنّني سعيدة جدّا لأنّ أبويّ يحملان اسمين لطيفين. إنّه من العار أن يكون للمرء أبٌ اسمهُ... فلأقلْ مثلا... جيدايْدِيا. أليس كذلك؟».

«أعتقدُ ألاّ أهمّيّة تكمنُ في اسم شخصٍ مّا مادام حسن السّلوك والخلق»، ردّت ماريلاّ التي شعُرت بأنّها مطالبةٌ بتلقين هذه الفتاة مبدأ أخلاقيًّا حسنا ومُفيدا.

«حسنا، لستُ متيقّنة من ذلك حقّا»، قالتْ آنْ، وهي تنظر أمامها شاردة البصر. «لقد قرأتُ ذات مرّة في كتاب أنّ رائحة الوردة تظلُّ زكيّةً دوما حتّى إذا تغيّر اسمُها. ولكنّني لم أتمكّن يوما من تصديق ذلك. لا أعتقدُ أنّ الوردة تحافظ على روعتها إذا تمّت تسميتها بالشّوكة أو ملفوف الظّربان[1]. ولكنّني أحسبُ أنّه كان بإمكان أبي أن يظلّ رجلا طيّبا حتّى لو سُمّي جيدايْدِيا. ومع ذلك، فأنا متأكّدة من أنّ اسمه هذا كان ليعيقه في حياته. حسنا، أمّي كذلك كانت مدرّسة في نفس الثّانويّة. ولكنّها توقّفت طبعا

(1) نوع من الملفوف النّتن.

عن التّدريس عندما تزوّجت أبي. فالزّوجُ لوحده يمثّل مسؤوليّاتٍ كثيرةً كافية. تقولُ السّيّدة توماسْ إنّهما كانا شبيهين برضيعين. كما أنّهما فقيران كجرذين في كنيسة. انتقلا للعيش في منزل أصفر صغير جدّا في بولينغبروك. لم أرَ ذلك المنزل أبدا. ولكنّني تخيّلتُه آلاف المرّات. أعتقدُ أنّ العسَلات[1] كنّ يغمرن نوافذ الصّالون، والبنفسجُ ينتشر في السّاحة الأماميّة، بينما تنبتُ زنابق الوادي[2] خلف البوّابة الرّئيسيّة... نعم، كلّ هذا بالإضافة إلى ستائر الموسلين عند كلّ نافذة. أيّ منظر مميّز تمنحه ستائر الموسلين لأيّ منزل! لقد وُلدت في ذاك البيت. تقول السّيّدةُ توماس إنّني كنتُ الرّضيعة الأكثر غرابة على الإطلاق. فقد كنتُ هزيلةً جدّا وضئيلة الحجم بعينين واسعتين. ولكنّ أمّي تعتقدُ أنّني جميلة على نحو مثاليّ. يجدر بي الاعتقادُ أنّ الأمّ حكمٌ أفضل من امرأة فقيرة غريبة تأتي من أجل أعمال التّنظيف. أنا سعيدة على أيّة حال لأنّني نلتُ إعجابها ورضاها. كنتُ لأشعر بحزن عظيم لو أنّني اكتشفتُ كوني خيبةَ ظنٍّ بالنّسبة إليها. فهي لم تعش فترةً طويلة بعد ذلك. أتفهمين قصدي؟ لقد توفّيت بسبب الحمّى عندما كنتُ في الثّالثة فحسب. كم تمنّيتُ لو أنّها عاشت بما فيه الكفاية حتّى أتذكّر نفسي وأنا بصدد مناداتها، أمّي. أعتقدُ أنّه من الرّائع التّلفّظ بها؛ أمّي! أليس كذلك؟ بعد أربعة أيّام فحسب، توفّي والدي من الحمّى كذلك. صرتُ يتيمة. ولم

---

(1) اللّفظ الأصليّ هو Honeysuckle. وهو جنس من نبات الزّينة يتبع الفصيلة الخمانيّة.

(2) اللّفظ الأصليّ هو Lily of the Valley. وهو نوع نباتيّ ينتمي إلى جنس الكونفالاريا من الفصيلة السّفندريّة. ويُسمّى ذلك بكونفالاريا أيّار بسبب إزهارها في هذا الشّهر.

يعرف النّاس ما يفعلونه بي حينذاك. ولكنّ السّيّدة توماس، خلافا لهم، عرفت جيّدا ما تفعله بي. أترين؟ لا أحد كان يرغبُ فيّ حتّى في تلك الأيّام. يبدو أنّها مسألة قدر محتوم. كان والداي قد قدِما من مكان بعيد، والجميع يعرف أنّني لا أملكُ أيّ أقارب أحياء. وفي النّهاية، قرّرت السّيّدة توماس أن تأخذني معها رغم فقرها المدقع وزوجها السّكّير. لقد غذّتْني باستخدام الرّضّاعة. هل تعتقدين أنّ هناك سرّا مّا في الإرضاع بواسطتها يجعل النّاس أفضل؟ إنّني أطرح عليك هذا السّؤال لأنّ السّيّدة توماس اعتادت أن تسألني بنبرة لومٍ فظيعة كيف لي أن أكون فتاة سيّئة فيما قامت هي بإرضاعي بواسطة الرّضّاعة؟

لقد رحل السّيّد والسّيّدةُ توماس عن بولينغبروكْ. وانتقلا للعيش في مارسفيل. وعشتُ معهما حتّى بلغتُ سنّ الثّامنة. كنتُ أساعدهما في الاعتناء بأطفالهما الأربعة الذين يصغرونني جميعا. يمكنني أن أصارحك أنّهم احتاجوا إلى الكثير من الجهد والعناء. ثمّ قُتل السّيّدُ توماس مرميّا تحت قطار. فاقترحت عليها والدة السّيّد توماس أن تستقبلها وأبناءها. لكنّها لم ترغب فيّ معهم. ولم تعرف السّيّدة توماس -حسب ما قالتهُ لي- ما تفعله بشأني حقّا. ومن ثَمّ، جاءت السّيّدة هاموند التي تسكنُ أعلى النّهر. وقالت إنّها ستأخذني إلى بيتها. فقد لاحظتْ أنّني أجيدُ الاعتناء بالأطفال. ولذلك صاحبتُها إلى أعلى النّهر كي أعيش معها في فسحة غابيّة وسط جذوع الأشجار. لقد كان مكانا منعزلا وموحشا جدّا، حتّى إنّني متيقّنة من أنّني لم أكن لأستطيع العيش هناك لو لم أملك الخيال.

تديرُ السّيّدة هاموندْ منشرة صغيرة هناك. ولديها ثمانية أطفال. لقد ولدت توأمين ثلاث مرّات مختلفة. إنّني أحبّ الرّضّع إذا لم يكن عددهم كثيرا. ولكنْ، توأمان ثلاث مرّات متعاقبة! هذا كثير! لقد صارحتُ السّيّدة هاموند عندما أنجبت التّوأمين الأخيرين. وقلتُ لها بصرامة إنّني قد تعبتُ من حملهم في كلّ مكان.

عشتُ مع السّيّدة هاموندْ في أعلى النّهر طيلة سنتين. ثمّ مات السّيّدُ هاموندْ. وقرّرت السّيّدة هاموند أن تتوقّف عن التّدبير المنزليّ. فوزّعت أبناءها الثّمانية على أقاربها. وهاجرت إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة. واضطُررتُ في المقابل إلى الذّهاب إلى الميتم في هوبتون، لأنّه ما من أحد يرغب فيّ. وحتّى في الميتم، لم يُرحّب بي. قالوا لي إنّهم يعانون من الاكتظاظ هناك. ولكنّهم اضطرّوا إلى القبول بي. فمكثتُ عندهم أربعة شهور حتّى جاءت السّيّدة سبنسر».

توقّفت آنْ عن الكلام مُطلقة تنهيدة أخرى، ولكن تعبيرا عن الرّاحة هذه المرّة. لا شكّ أنّها لم تكن مستمتعة بالحديث عن تجارب خاضتها في عالم ينبُذُها.

«هل سبق لك أن ذهبتِ إلى المدرسة؟»، سألت ماريلاّ، وهي توجّه الفرس نحو الطّريق السّاحليّ.

«لفترة وجيزة فحسب. ذهبتُ مرّاتٍ قليلةً خلال السّنة الماضية التي مكثتُ فيها مع السّيّدة توماس. إذ عندما انتقلتُ إلى أعلى النّهر، صارت المدرسة بعيدة جدّا. ولم أعد أستطيع الذّهاب إليها مشيا على الأقدام في الشّتاء. أمّا الصّيف، فهو موعد العطلة. ولذلك،

لم أتوصّل إلى ارتياد المدرسة إلاّ في الرّبيع والخريف. وطبعا، حين سكنتُ الميتم، تمكّنتُ من العودة إلى المدرسة. أستطيع القراءة جيّدا. كما أنّني أحفظ الكثير من مقاطع الشّعر عن ظهر قلب؛ «معركة هوهِنْليندنْ»[1]، «إدنبرة بعد فْلُودِنْ»[2]، «بينْغِنْ آمْ راينْ»[3]، مقاطع كثيرة ومتفرّقة من «سيّدة البحيرة»[4] وجلّ قصيدة «الفصول» لجايمس تُومسون[5]. ألا تحبّين الشّعر الذي يُرسلُ قُشعريرة في جسدكِ بأكمله؟ هناك نصٌّ في كتاب السّنة الخامسة، عنوانه «سقوط بولندا». إنّه مُثير جدّا. طبعا، لم يكن يجدرُ بي أن أقرأ ما يردُ في كتاب السّنة الخامسة، إذ كنتُ في السّنة الرّابعة حينذاك. ولكنّ الفتيات اعتدن أن يمرّرن كتبهنّ لي».

«هل كانت السّيّدتان -أقصدُ السّيدة توماس والسّيّدة هاموندْ- لطيفتيْن معك؟»، سألتْ ماريلاّ، وهي تصوّبُ نظرة جانبيّة إلى آنْ.

(1) قصيدة شهيرة لتُوماس كامْبِل -وهو شاعر إسكتنلنديّ من مواليد 1977 - تؤرّخ لمعركة تاريخيّة دارت بين القوّات الفرنسيّة بقيادة الجنرال جون مورو والقوّات النمساويّة والبافاريّة بقيادة الأرشيدوق جون باتيستْ دوتريشْ.

(2) قصيدة لويليام إدْمُونْسْتُون آيتُونْ -شاعر إسكتلنديّ من مواليد 1813 - تؤرّخ لمعركة دارت في نورْثمبرْلانْد، شمالَ إنجلترا في ما يُدعى بحقل فْلُودنْ.

(3) اسمُ بلدة ألمانيّة. وهو عنوانُ قصيدة لكارولين نورتونْ (شاعرة ومصلحة اجتماعيّة إنجليزيّة من مواليد 1808).

(4) قصيدة سرديّة للشّاعر والكاتب والمؤرّخ الإسكتلنديّ والتر سكوتْ (من مواليد 1771)، كانت قد نُشرت سنة 1810.

(5) جايمس تومسون (مواليد سنة 1700) شاعر ومؤلّف مسرحيّات بريطانّي اشتهر بقصيدته «الفصول». وهي في الحقيقة أربع قصائد مترابطة ومعنونة بعنوان جامع.

«آاا... آاا... آه!»، تلعثمت آنْ، وقد صار وجهُها الصّغيرُ الحسّاسُ أحمر قرمزيّا، وخيّمَ الحرجُ على جبهتها. «آه، لقد أرادتا دون شكّ أن تكونا لطيفتيْن. إنّني متيقّنة أنّهما قد رغبتا في أن تكونا طيّبتيْن ولطيفتيْن قدر المستطاع. وعندما ينوي النّاسُ أن يكونوا طيّبين معك، فإنّك لا تفرطين في الانزعاج إذا لم يكونوا كذلك دوما. لقد واجهتا الكثير من المصاعب. مُرهقٌ جدّا أن تملك المرأةُ زوجا سكّيرا. أتفهمين قصدي؟ كما أنّ الحصول على توأمين لثلاث مرّات متعاقبة هو أمر في غاية الشّقاء. ألا تعتقدين ذلك؟ ولكن، أنا متأكّدة أنّهما رغبتا في أن تكونا لطيفتيْن معي».

لم تطرح ماريلاّ المزيد من الأسئلة، بينما أسلمتْ آنْ نفسها للصّمت على امتداد الطّريق السّاحليّ. كانت ماريلاّ غارقة في أفكارها، تقود العربة شاردةً. وفجأة، اهتزّت الشّفقةُ في قلبها. أيّ حياة مليئة بالجوع وخالية من الحبّ عاشتْها هذه الفتاة الصّغيرة؟ إنّها حياةُ الكدْح والفقر المُدقع والتّجاهل. فماريلاّ امرأةٌ فطنة بما يكفي لتقرأ ما بين السّطور التي روَتها آنْ في حكايتها وتعرف الحقيقة. لا عجب إذن في شعورها بالمتعة الطّافحة إزاء احتمال أن يصير لها بيتٌ حقيقيّ. إنّه من المحزن إرجاعُها إلى الميتم. وماذا لو استسلمت لنزوة ماثيو الغريبة، وسمحت لها بالمكوث عندهما؟ لقد بدا مصمّما على الأمر. أمّا الفتاة، فيبدو أنّها صغيرة لطيفة قابلة للتّعليم.

«لديها الكثير لتقوله»، فكّرت ماريلاّ. «ولكن، يمكنُ تدريبها على تجاوز ذلك. وعلى أيّة حال، ليس هناك أيّ شيء وقح أو بذيء

في ما تقوله. إنّ سلوكها شبيه بسلوك السّيّدات. ويبدو أنّ والديها كانا صالحين».

كان الطّريق السّاحليّ «مُشجَّرًا وبرّيّا وموحشا». اصطفّتْ على يمينها أشجارُ صنوبر قصيرة وكثيفة، وقد تجلّدتْ أرواحُها وقسَتْ بفضل سنواتِ الصّراع الطّويلة مع رياح الخليج. أمّا على يسارها، فقد امتدّت سفوحُ الحجارة الرّمليّة الحمراء شديدةِ الانحدار قريبةً جدّا، حتّى إنّ فرَسا أخرى أكثر توتُّرا وأقلّ ثباتا من الفرس الكستنائيّة كانت لتُدخِل إلى قلبيْها الرّعبَ دون شكّ. في الأسفل عند قاعدة المنحدرات، تكدّست صخورٌ متآكلة بفعل الأمواج التي تناوبتْ عليها مع الخلجان الصّغيرة ذات الرّمال المرصّعة بحجراتٍ مصقولة مثل الجواهر. وفي الأفق، يمتدُّ البحرُ أزرقَ متلألئًا تحلّقُ من فوقه النّوارسُ بينما تومضُ أجنحتُها فضّيّةً في أشعّة الشّمس.

«أليس البحرُ أعجوبةً رائعة؟»، سألت آنْ طالعةً من أعماق صمتٍ طويل مُفعمٍ بالدّهشة. «ذات مرّة، عندما كنتُ أعيشُ في ماريسفيل، اكترتْ السّيّدةُ توماسْ عربة سريعة. واصطحبتنا جميعا لنقضّي اليوم عند الشّاطئ على مسافة عشرة أميال من البيت. لقد استمتعتُ بكلّ لحظة من ذلك اليوم، رغم اضطراري إلى الاعتناء بالأطفال طيلة الوقت. لقد ظللتُ أعاودُ تلك اللّحظات في أحلامي طيلة سنوات كثيرة. ولكنّ هذا السّاحل أجملُ من ساحل ماريسفيل. أليست هذه النّوارسُ مبهرة؟ ألا ترغبين في أن تكوني

نورسًا؟ بالنّسبة إليّ، أعتقدُ أنّني أريد ذلك... أعني، لو لم أتمكّن من أن أكون فتاة بشريّة. ألا تعتقدين أنّه من الرّائع الاستيقاظُ عند شروق الشّمس، والانزلاق بطلاقة فوق المياه، والتّحليق طيلة النّهار في هذه الزّرقة الممتدّة اللّذيذة، ومن ثمَّ الطّيران مجدّدا في اللّيل عودةً إلى العشّ؟ آه، إنّني أتخيّل نفسي بصدد فعل ذلك. من فضلك، ما هو هذا المنزلُ الكبير المنتصبُ أمامنا مباشرة؟».

«إنّه نزل وايتْ ساندسْ. يُديرهُ السّيّد كيرْكْ. ولكنّ الموسم السّياحيّ لم ينطلق بعد. هناك العديدُ من الأمريكيّين الذين يأتون إلى هنا في الصّيف. إنّهم يعتبرون أنّ هذا السّاحل يناسبهم تماما».

«لقد خشيتُ أن يكون منزل السّيّدة سبنسر»، قالت آنْ بنبرة كئيبة. «لا أريد أن أصل إلى هناك. فهذا يعني، بطريقة مّا، نهاية كلّ شيء».

مكتبة
t.me/soramnqraa

(6)

ماريلاّ تتّخذُ قرارَها

لقد وصلتا إلى هناك في الوقت المناسب. كانت السّيّدةُ سبنسر تعيشُ في منزل أصفر كبير في خليج وايتْ ساندسْ. وقد وقفت عند عتبة الباب لتستقبلهما، بوجه مُرحّب ترتسمُ عليه ملامحُ الانشراح والدّهشة في آنٍ واحد.

«آه، يا إلهي!»، هتفت متعجّبةً. «إنّكما آخر من توقّعتُ استقبالهُ اليوم! ومع ذلك، فأنا سعيدة لرؤيتكما. هل تريدين أن أدخل فرسك؟ وكيف حالك أنتِ يا آنْ؟».

«أنا بخير إلى حدّ ما»، ردّت آنْ متجهّمةً، كأنّ بلاءً قد نزل بها.

«أحسبُ أنّنا سنمكثُ هنا قليلا حتّى تستريح الفرسُ»، قالت ماريلاّ. ولكنّني وعدتُ ماثيو بالعودة باكرا. في الحقيقة، وقع خطأٌ غريب، بطريقة مّا، يا سيّدة سبنسر. وقد جئتُ إليك كي أستجلي الأمر. لقد أرسلتُ إليك، أنا وماثيو، رسالةً نطلبُ فيها منكِ أن تحضري لنا صبيّا من الميتم. أعلَمْنا أخاكِ روبرت أن يبلّغكِ رغبتنا في الحصول على فتى يناهزُ العاشرة أو الحاديةَ عشرة».

«ماريلاّ كاثبرت! يا إلهي! لا تقولي هذا!»، صاحت السّيّدةُ

سبنسر. «لقد أنبأني أخي روبرت عن طريق ابنته نانسي أنّكما تريدان فتاة. أليس كذلك يا فلورا جايْنْ؟»، قالت، وهي توجّهُ سؤالها إلى ابنتها النّازلة من الدّرج.

«بلى! هذا ما قالته بالضّبط يا آنسة كاثبرتْ»، أكّدت فلورا جايْنْ بجدّيّة كبيرة.

«أنا آسفةٌ جدّا»، هتفت السّيّدةُ سبنسر. «الأمرُ سيّء جدّا. ولكنّه ليس خطئي. أترين يا آنسة كاثبرت؟ لقد بذلتُ قصارى جهدي. وحسبتُ أنّني كنتُ أتمّمُ طلبك بالتّدقيق. لإنّ نانسي فتاةٌ طائشة تملك رأس عصفور. كم مرّة وجب عليّ أن أوبّخها بسبب طيشها وغفلتها!».

«إنّه خطؤنا نحن»، ردّت ماريلاّ مُستسلمة. «كان علينا أن نأتي لرؤيتك بأنفسنا بدل أن نسمح لرسالة مهمّة كتلك بأن تنتقل مشافهة. وعلي أيّة حال، فقد قُضي الأمر الآن. وحدث الخطأ. وكلّ ما يمكننا فعله هو تصحيحه. أيمكننا إرجاع الفتاة إلى الميتم؟ أحسبُ أنّ بإمكانهم أن يستعيدوها. أليس كذلك؟».

«أعتقدُ ذلك»، أجابت السّيّدة سبنسر، وهي تفكّر في الأمر. «ولكن، لا حاجة إلى إعادتها. فقد قدمت إليّ أمسِ السّيّدةُ بيتر بْلِويتْ. وقد عبّرت عن رغبتها الشّديدة في أن أحضر لها فتاة تساعدُها. تملكُ السّيّدةُ بيتر عائلة كبيرة. ولهذا السّبب، تجد صعوبة في العثور على مساعدة. أنا متيقّنة من أنّ آنْ ستكون مناسبة جدّا لها. أعتقدُ أنّها هديّة مُن الرّعاية الإلهيّة».

لم يظهر على ملامح ماريلاّ أيُّ اقتناع بمسألة الرّعاية الإلهيّة هذه. ها هي تملكُ الآن فرصة جيّدة وغير متوقّعة للتّخلّص من الطّفلة التي لم ترغب فيها. ومع ذلك، فهي لا تشعر بالامتنان والغبطة إزاء هذه الفرصة.

لم تكن تعرفُ السّيّدة بيتر إلاّ من بعيد. فقد رأتها مرّاتٍ قليلةً فحسب. ولاحظت فيها امرأة بوجه مخادع وذاتِ جسد ضامر يكادُ أن يكون جلدا على عظم. ولكنّها سمعت عنها الكثير في المقابل. يُقال إنّها تعملُ بلا توقّف وتُنهِك الآخرين كثيرا. وتسردُ الخادمات اللّواتي غادرن بيتها حكايات فظيعة عن مزاجها السّيّء وبُخلها، بالإضافة إلى أبنائها الوقحين العدوانيّين دائمي الخصام. شعُرتْ ماريلاّ بوَخْز ضميرها، وهي تتخيّلُ أنّها تُقدّم آنْ على طبق لتعيش تحت رحمة امرأة كهذه.

«حسنا، سأدخل لنتحدّث في الأمر»، قالت.

«ها إنّ السّيّدة بيتر تتقدّم عبر الممرّ في هذه اللّحظة المباركة!»، هتفت السّيّدة سبنسر متعجّبة، وهي تستحثّ ضيفيْها عبر الرّواق وُصولا إلى الصّالون، حيث حطّتْ عليهما قشعريرةٌ قاتلةٌ، كأنّ الهواء كان متوتّرًا لفترةٍ طويلة في الخضرة القاتمة حتّى فقدَ كلّ ذرّةِ دفْءٍ داخلَه. «إنّها ضربة حظّ حقيقيّة! بإمكاننا الآن أن نسوّي المسألة على الفور. اجلسي على الكرسيّ ذي الذّراعين يا آنسة كاثبرت. أمّا أنت يا آنْ، فامكُثي هنا على الأريكة. وكفّي عن التّلوّي من فضلك! دعيني أحمِلُ عنك قبّعتك. فلورا جاينْ، هلاّ شغّلت القدر رجاء؟

مساء الخير يا سيّدة بلويتْ! لقد كنّا نقول للتّوّ إنّه من حسن الحظّ قدومك الآن. اسمحا لي بأن أقدّمكما؛ السّيّدة بلويتْ... الآنسة كاثبرتْ. اعذراني. سأغيب للحظة. لقد نسيتُ أن أطلب من فْلُورا جايْن أن تُخرج الكعك من الفرن».

انسحبت السّيّدةُ سبنسر بهدوء بعد أن أغلقت شيش النّافذة. كانت آنْ جالسة على الأريكة صامتة، ويداها على ركبتيْها متشابكتان تضغطُ إحداهُما على الأخرى، بينما تحدّقُ في وجه السّيّدة بلويتْ باندهاش. هل ستُسَلَّمُ الآن إلى هذه السّيّدة ذاتِ الوجه الشّبيه بشفرةِ السّكّين والنّظرات الثّاقبة؟ أحسّت أنّ كتلةً مّا بصدد التّشكُّل في حنجرتها، وأنّ عينيْها قد التهبتَا على نحو مُؤلم. وبدأت تشعر بالخشية من عدم قدرتها على حبْس دموعها عندما رجعت السّيّدةُ سبنسر محمرّةَ الوجه، متوهِّجةً ومُفعمة بطاقة قادرة على حلّ أيّ مشكلة مهما اختلفت طبيعتها.

«يبدو أنّ خطأً مّا تعلّق بإحضار هذه الفتاة الصّغيرة يا سيّدة بلويتْ»، قالت. «لقد شُبّه لي أنّ السّيّد والآنسة كاثبرتْ يريدان تبنّي فتاة يافعة، أو هكذا أُعلِمتُ على الأقلّ. ولكن، اتّضح لاحقا أنّهما يطلبان صبيّا. وبالتّالي، إذا كنتِ تحتفظين برغبتك التي أفصحت عنها البارحة، فهذه الفتاة على الأرجح تناسبك تماما».

تفحّصت السّيّدةُ بلويتْ جسد آنْ من شعرها حتّى قدميها.

«كم عمرك؟ وما هو اسمك؟»، سألت.

«آنْ شيرْلي»، تلعثمت البنتُ المنقبضةُ، دون أن تتجرّأ على

تقديم أيّ شروط تخصّ طريقة كتابة اسمها. ثمّ أردفت: «وأبلغُ من العمر أحدَ عشر عاما».

«هممْ! لا يبدو أنّكِ تملكين الكثير. ولكنّك تبدين نحيلةً أيضا. وأحسبُ أنّ الفتيات النّحيلات هنّ الأفضل في النّهاية. حسنًا، إذا أخذُتكِ يجب أن تكون فتاةً صالحة. أقصدُ صالحة وذكيّة ومحترمة. كما أنّني أتوقّع منكِ أن تعملي جيّدا كي تستحقّي مقامك عندي. أعتقدُ أنّ بإمكاني أن أخلّصكِ منها يا آنسة كاثبرتْ. إنّ ابني الرّضيع بكّاء شكّاء. ولقد عيِيتُ في الاعتناء بشؤونه. إذا أردتِ، يمكنني اصطحابُها الآن معي إلي بيتي».

نظرت ماريلاّ إلى آنْ. ورقَّ قلبُها على الفور عند رؤيتها لوجه الفتاة شاحبا ومغمورا بيأس مكتوم. إنّهُ وجه مخلوقٍ وجد نفسه من جديد عالقًا في الشّباكِ التي حسِب أنّه قد نجا منها. تيقّنت ماريلاّ حينئذ أنّها إذا ما تجاهلت تلك النّظرة فإنّها ستظلُّ نادمة حتّى آخر يوم في حياتها. بالإضافة إلى ذلك، لم تستلطف مطلقا هذه السّيّدة المدعوّة بلويتْ. كيف إذن تضع فتاة حسّاسة، متحمِّسةً ومتوقّدة بين يديها؟ لا، ليس بإمكانها أن تتحمّل مسؤوليّة هائلة الثّقل كهذه.

«حسنا، لا أعرفُ حقّا»، ردّت ببطء. «لم أقل إنّني وماثيو قد قرّرنا قطْعًا عدم الاحتفاظ بها. في الحقيقة، يمكنني القول إنّ ماثيو عازمٌ على إبقائها. لقد جئتُ إلى هنا لأفهم كيف حدث الخطأ فحسب. أعتقدُ أنّه من الأفضل أن أصطحبها معي مجدّدا إلى البيت، وأناقش المسألة مع ماثيو مرّة أخرى. إذ لا يجدرُ بي أن أتّخذ القرار

بمفردي دون استشارته. وإذا عقدنا العزم على عدم الاحتفاظ بها في منزلنا فإنّنا سنحضرها أو نرسلها إليك. أمّا إذا لم نفعل ذلك، فاعلمي أنّها ستبقى عندنا. هل يناسبك هذا الاتّفاق يا سيّدة بلويتْ؟».

«أعتقدُ أنّ ذلك ما ينبغي فعله»، أجابت السّيّدةُ بلويتْ بفظاظة.

أثناء كلام ماريلاّ، أشرق النّورُ على وجه آنْ. في البداية، انقشع ملمحُ اليأس. ثمّ ظهر دفقٌ خافتٌ من الأمل. ولمعت عيناها على الفور كأنّهما نجمتان صباحيّتان. لقد تحوّلتْ البنتُ تماما. ولاحقا عندما غادرت السّيدتان سبنسر وبلويتْ إلى الخارج بحْثًا عن الوصفة التي جاءت المرأة في طلبها، قطعت الغرفةَ في وثبة واحدة لتلتحق بماريلاّ.

«آه، يا آنسة كاثبرتْ! هل قلتِ للتّوّ فعلاً إنّكِ قدْ تسمحين لي بالبقاء في الضّيعة الخضراء؟»، سألتْ، وهي تهمسُ مقطوعةَ الأنفاس كما لو أنّ الكلام بصوت عالٍ قد يُحطِّم الاحتمال الجليل. «هل قلتِ ذلك حقّا؟ أم إنّني تخيّلتُ الأمر فحسب؟».

«أعتقدُ أنّه من الأفضل لك أن تتعلّمي التّحكّم بمخيّلتكِ يا آنْ إذا كنتِ غير قادرة على التّفريق بين ما هو واقعيّ وما ليس كذلك»، قالت ماريلاّ فجأة. «نعم، لقد سمعتِني وأنا أقول هذا الكلام فحسب، وليس أكثر منه. وبالتّالي، فإنّ قرارنا لم يُتّخَذ بعد. وربّما ينتهي بنا الأمر بتسليمك للسّيّدة بلويتْ. فهي تحتاجكِ دون شكّ أكثر منّي».

«أفضّل أن أعود إلى الميتم على أن أذهب للعيش معها»، هتفت آنْ في حماس. «إنّها شبيهة... شبيهة بمثقاب».

كتمت ماريلاّ ابتسامةً خلف قناعتها بأنّ آنْ تستحقُّ أن تُوبَّخ لتلفّظها بمثل هذا الكلام.

«إنّ فتاةً صغيرة مثلك يجبُ أن تشعر بالخجل لتفّظها بكلام كهذا في حقّ سيّدة وامرأة غريبة»، قالتْ بحزم. «عودي إلى مكانكِ. واجلسي في صمت. أمسكي لسانكِ. وتصرّفي مثلما تتصرّف الفتيات المهذّبات».

«سأحاولُ ذلك. وسأكون أيّ شيء تريدينه إذا ما احتفظتِ بي»، قالت آنْ. ورجعت في خنوع إلى الأريكة.

وعندما رجعتا إلى الضّيعة الخضراء في ذلك المساء، استقبلهُما ماثيو عند مسْلكِ الدّخول. لقد لمحتهُ ماريلاّ من بعيد، وهو يتسكّع. وعرفتْ على الفور سبب ذلك. كانت متأهّبةً لملاحظة ملمَح الارتياح على وجهه عندما رأى أنّها على الأقلّ قدْ أحضرت آنْ معها إلى المنزل. ولكنّها لم تقل له أيّ شيء في ما يخصُّ المسألة حتّى صارا معا في الفناء الخلفيّ وراء الإسطبل، وهما يحلبان البقرات. حينئذ، قصّت عليه بإيجاز حكاية آنْ ونتيجة حوارها مع السّيّدة سْبِنْسرْ.

«ما كنتُ لأمنح كلبا أعجبني لتلك السّيّدة بلويتْ»، قال ماثيو بعنفوان غير مألوف.

«أنا أيضا لا يعجبني أسلوبها في الحقيقة»، أردفتْ ماريلاّ. «ولكن إمّا أن نفعل ذلك وإمّا أن نحتفظ بها نحن يا ماثيو.

وبما أنّه من الواضح أنّك تريد بقاءها، فإنّني على الأرجح أريد الشّيء ذاته، أو فلأقل إنّه لا خيار لديّ. لقد ظللتُ أفكّر في هذا الاحتمال مرّات كثيرة حتّى تقبّلتُه في النّهاية. يبدو لي الأمر الآن شبيها بالواجب. لم يسبق لي أن ربّيتُ طفلا. فما بالك بتربية بنت! وأعترفُ أنّني سأفسدُ الأمر برمّته على الأرجح. ولكنّني سأبذل قصارى جهدي. إذن، في ما يتعلّق بي يا ماثيو... بإمكانها أن تبقى معنا».

أشرق وجهُ ماثيو من البهجة.

«كنتُ متيقّنا أنّك سترين المسألة من هذا المنظور يا ماريلاّ»، قال. «إنّها صغيرة مثيرة للاهتمام حقّا».

«كنتُ لأفضّل قولك إنّها صغيرة نافعة جدّا»، ردّت ماريلاّ على نحو حاسم. «ولكنّني سأحرص على أن تصير كذلك. وانتبه يا ماثيو! لا أريدك أن تعترض على أساليبي في تربيتها. قد لا تعرفُ الفتاةُ العجوز الكثير عن تربية الأطفال. ولكنّني أراهنك على كونها أفضل على أيّة حال من أعزب عجوز. وعليك بالتّالي أن تترك لي المجال للاهتمام بها على طريقتي. وإذا فشلتُ، فسوف يكون الوقتُ مناسبا حينذاك لتضع لمستك الخاصّة».

«حسنا، حسنا يا ماريلاّ. يمكنك أن تعتمدي طريقتك الخاصّة»، ردّ ماثيو مُطمئنا. «أريدُك فقط أن تكوني طيّبة ولطيفة معها قدر المستطاع دون أن تدلّليها. لديّ انطباع مفادهُ أنّها من النّوع الذي يمكنه فعل أيّ شيء من أجلك إذا ما أحبّتك حقّا».

زفرتْ ماريلاّ لتعبّر عن ازدرائها لآراء ماثيو في المسائل الأنثويّة. ثمّ اتّجهت إلى الملبنة حاملة الدّلاء معها.

«لن أعلن لها اللّيلة أنّ بإمكانها أن تبقى معنا»، فكّرتْ وهي تمرّر الحليب في المِقْشَدة. «ستغمرها سعادة هائلةٌ، حتّى إنّها لن تغمض جفنًا. ماريلاّ كاثبرتْ! ها إنّكِ قد علقتِ تماما في هذه الحكاية! هل تخيّلتِ أبدا أنّك سوف تشهدين اليوم الذي تتبنّين فيه فتاةً يتيمة؟ إنّها مفاجأةٌ عظيمة حقّا. ولكنّها لا تضاهي مفاجأتي بأن يكون ماثيو هو السّبب في ذلك، وهو الذي طالما شعر بالرّعب لمرأى الفتيات الصّغيرات. على أيّة حال، لقد قرّرنا أن نخوض التّجربة. ووحدهُ الرّبّ الرّحيمُ يعرف ما سوف تفضي إليه».

(7)
آنْ تتلُو صلواتِها

عندما اصطحبت ماريلاّ آنْ إلى فراشها في تلك اللّيلة، قالتْ لها في حزم: «اسمعي يا آن! لقد لاحظتُ ليلة أمسِ أنّك بعثرتِ ملابسك في كلّ مكان على الأرضيّة عندما خلعتِها. إنّها عادةٌ سيّئة حقّا. ولا يمكنني السّماحُ لك بتكرارها. ولذلك يجدر بك كلّما خلعتِ أيّ قطعة من ملابسك أن تطويها بعناية على الفور وتضعيها على الكرسيّ. إذْ ليس لديّ ما أفعله بفتاة غير مرتّبة».

«لقد كنتُ مشوّشةَ الذّهن تماما ليلة البارحة حتّى إنّني لم أفكّر مطلقا في ملابسي»، أجابت آنْ. «سأرتّبها بدقّة هذه اللّيلة. لقد اعتدتُ على القيام بذلك في الميتم بطلب من الإدارة. ومع ذلك، فقد كنتُ أغفل عن الأمر مرّات كثيرة بسبب تلهّفي لهدوء فراشي ورقّته حتّى أتمكّن من تخيّل الأشياء».

«عليكِ أن تُحسّني ذاكرتكِ إذا كنتِ تريدين البقاء هنا»، أضافت ماريلاّ. «حسنا. والآن، رتّلي صلواتكِ واصعدي إلى فراشك!».

«لم يسبق لي أن صلّيتُ أبدا»، أفصحتْ آنْ، فيما حدّقت فيها ماريلاّ بنظرة رعب واندهاش عظيم قبل أن تسألها:

«لماذا يا آنْ؟ ماذا تقصدين من كلامك؟ ألم يعلّمكِ أحدٌ من قبل

تلاوةَ الصّلوات؟ يريدُ الرّبُّ دوما أن تصلّي له الفتياتُ الصّغيرات. ألا تعرفين من هو الرّبّ يا آن؟».

«إنّ الرّبّ روحٌ لا نهائيٌّ. إنّهُ الخالدُ، الثّابتُ في وجوده، الحكيمُ، القويُّ، القدُّوسُ، العادلُ، الخيرُ والحقّ»، أجابت آنْ بسرعة ودون تردُّد.

بدتْ على ماريلاّ ملامحُ الرّاحة.

«حسنا، إنّكِ تعرفين بعض الأشياء إذن. حمدا للرّبّ! لستِ وثنيّة في النّهاية. أين تعلّمت هذا؟».

«في مدرسة الميتم أيّامَ الآحاد. هناك يلقّنوننا تعاليم الكنيسة. لقد أحببتُها كثيرا. هناك شيءٌ مّا عجيبٌ في بعض الكلمات التي يستخدمونها... «اللاّنهائيُّ، الخالد والثّابت»، أليس هذا مُهيبا؟ إنّه يتضمّنُ نوعا من الالتفاف والتّدفّق، كأنّه موسيقى أرغن كبير. لا يمكنُ للمرء أن يسمّي هذا شعرا على الأرجح. لكنّه يشبهه إلى حدّ كبير. أليس كذلك؟».

«لسنا بصدد الحديث عن الشّعر يا آنْ. إنّنا نتحدّث عن تلاوة صلواتكِ. ألا تعرفين أنّ عدم تلاوتك للصّلوات كلّ ليلة يُعتبر أمرا خبيثا ومكروها؟ أخشى أنّك فتاة صغيرة سيّئة وشقيّة».

«سيكون من الأسهل على المرء النّزوعُ إلى السّوء بدل الخير إذا كان ذا شعر أحمر»، قالت آنْ بنبرة شكوى. «إنّ الذين لا يملكون شَعرا أحمر لا يعرفون أيّ مشكلة هو في الحقيقة. لقد قالت لي السّيّدةُ توماس إنّ الرّبّ قد تعمّد منحي شعرا أحمر. ومنذُ تلك اللّحظة، لم

يعد يهمّني. وعلى أيّة حال، فإنّني أكون متعبة جدّا في اللّيل وغير قادرة على تلاوة الصّلوات. لا يمكن أن نتوقّع من شخص مكلّف برعاية التّوائم أن يؤدّي الصّلوات. حسنا، هل تعتقدين ذلك حقّا؟».

قرّرت ماريلاّ أنّ تربية آنْ الدّينيّة يجبُ أن تبدأ في أقرب وقتٍ ممكن. فمن الواضح أنّه لا مجال للانتظار.

«يجبُ أن ترتّلي صلواتكِ مادمتِ تحت سقفي يا آنْ».

«لماذا؟ طبعا سأفعل إذا كنت ترغبين في ذلك»، أكّدتْ آنْ مُنشرِحةً. سأفعلُ أيّ شيء لإرضائِك. ولكن ينبغي أن تلقّنيني ما يجدرُ بي قولُه هذه المرّة. وما أن أتّخذ مكاني في الفراش حتّى أتخيّل صلاةً جميلة جدّا من أجل اللّيالي القادمة. يبدو أنّ الأمر سيكون مثيرا للاهتمام حقّا».

«عليكِ أن تركعي أوّلا»، قالت ماريلاّ في خجل.

ركعتْ آنْ عند قدمي ماريلاّ. ثمّ رفعت بصرها بجدّيّة.

«لماذا يجبُ الرّكوع عند الصّلاة؟ سأخبركِ بما قد أفعلهُ لو كنتُ أرغبُ في الصّلاة حقّا. أذهبُ بمفردي إلى حقل كبير وشاسع جدّا أو إلى أعمق أعماق الغابة. ثمّ أنظر إلى السّماء في الأعلى... عاليا، عاليا، عاليا جدّا... أحدّقُ في تلك السّماء الزّرقاء الجميلة التي توهم بألاّ حدّ ولا نهاية لزرقتها. وهناك، سأكتفي بأن أحسَّ بصَلاتي بكلّ بساطة. حسنا، أنا جاهزةٌ. ماذا أقول؟».

شعرتْ ماريلاّ بخجلٍ لا مثيل له. لقد كانت تنوي أن تُلقِّن

آنْ صلاة الأطفال التّقليديّة، «الآنَ، أتمدّدُ للنّوم». ولكنّها شعرتْ بنوع من الطّرافة تشوبُ الموقف كلّه، أو لعلّه حدس غريزيّ يتعلّق بالحكم على المواقف. وفجأة، أدركتْ أنّ تلك الصّلاة الصّغيرة والمقدّسة بالنّسبة إلى الأطفال المرتدين أثوابا بيضاء، وهم يتمتمونها عند أقدام أمهّاتهم، غير مواتية بتاتا لهذه السّاحرة النّمشاء التي لم تعرف ولم تحمل ولو نزرا قليلا من محبّة الرّبّ. كيف يمكنها أن تعرف محبّته إذن وهي لم تعرف من قبل محبّة بني الإنسان؟

«لقد بلغتِ سنّا تسمحُ لكِ بأن تصلّي بمفردك يا آنْ»، قالت في النّهاية. «فقط اشكري الرّبّ على نعمك. وتضرّعي له طلبا للأشياء التي ترغبين فيها».

«حسنا، سأبذل قصارى جهدي»، وعدتْ آنْ، وهي تدفنُ رأسها بين ركبتي ماريلاّ. «أبانا الذي في السّماء! هكذا يقولها القساوسة في الكنيسة. ولهذا، أعتقدُ أنّه من المقبول استخدامها في صلاة خاصّة. أليس كذلك؟»، سألت مُعترضة وهي ترفع رأسها.

«أبانا الذي في السّماء، أشكرك من أجل طريق البهجة الأبيض وبحيرة المياه اللاّمعة وبوني وملكة الثّلوج. إنّني ممتنّة لك حقّا وإلى أبعد حدّ. وهذه هي كلُّ النّعم التي أستطيع التّفكير فيها الآن كي أحمدك عليها. أمّا بالنّسبة إلى الأشياء التي أريدُها، فإنّها كثيرةٌ جدّا حتّى إنّني في حاجة إلى فترة طويلة من الزّمن كي أسمّيها كلّها. ولهذا السّبب، سأكتفي بذكر أهمّ شيئين على الإطلاق. رجاءً،

دعني أبقى في الضّيعة الخضراء. ومن فضلكَ، اجعلْني جميلةَ المظهر عندما أكبرُ. أبانا الذي في السّماء، تقبّل صلاتي.

مع فائق الاحترام

آنْ شيرلي

«حسنا، هل أدّيتُها جيّدا؟»، سألتْ بحماس، وهي تقف على قدميها. «كان بإمكاني أن أجعلها أكثر رونقا وجمالا لو كان لديّ المزيد من الوقت لأفكّر فيها».

أوشكتْ ماريلاّ أن تنهار لولا أنّها قد تذكّرت أنّ السّبب في هذا التّضرّع الغريب ليس الاستهتار وإنّما هو جهلُ آنْ بالمسائل الرّوحيّة. أدخلت الفتاةَ اليافعة إلى فراشها، وهي تتعهّدُ في سرّها أن تعلّمها الصّلاة منذ الغد. وأوشكت على مغادرة الغرفة حاملة الشّمعة في يدها عندما نادتها آنْ قائلة:

«لقد فكّرتُ في المسألة للتّوّ... كان عليّ أن أقول «آمين» في نهاية صلاتي بدل «مع فائق الاحترام». أليس كذلك؟ هكذا يفعل القساوسةُ. ولكنّني نسيت الأمر. وشعرتُ أنّ على الصّلاة أن تنتهي بطريقة مّا. ولذلك استخدمتُ العبارة الأخرى. هل تعتقدين أنّ ذلك سيحدث فرقا؟».

«أنا... لا أعتقدُ ذلك»، ردّت ماريلاّ. «نامي الآن كما تفعل البنات المؤدّبات. تصبحين على خير».

«يمكنني اللّيلة أنْ أقول تصبحين على خير بضمير مرتاح»، قالت آنْ وهي تحتضنُ بتلذّذ وسائدها.

انسحبتْ ماريلاّ إلى المطبخ. وضعت الشّمعدان على الطّاولة. وحملقت في وجه ماثيو قائلةً:

«ماثيو كاثبرت، لقد كان الوقتُ مناسبا جدّا كي يتبنّى شخصٌ مّا هذه الطّفلة، ويلقّنها بعض الأشياء. فهي تكادُ أن تكون وثنيّة جاهلة بالرّبّ. أتصدّقُ أنّها لم ترتّل أيّ صلاة طيلة حياتها حتّى هذه اللّيلة؟ غدا سأرسلُ إلى القسّ طلبا لكتاب الصّلوات. هذا ما سأفعله على الفور. وعليها كذلك أن تذهب إلى مدرسة الأحد ما أن أعدّ بعض الملابس الملائمة لها. أحسبُ أنّ مشاغل كثيرة بانتظاري. حسنا، حسنا، لا يمكننا أن نشقّ طريقنا في هذا العالم دون تقاسُم المتاعب. لقد نعِمتُ بحياة يسيرة حتّى الآن. ولكن، ها إنّ زمن الشّقاء قد حلّ! ويجدر بي أن أبذل قصارى جهدي.

(8)
تربيةُ آنْ قدْ بدأتْ

لأسبابٍ تعلمُها وحدَها، لم تخبرْ ماريلاّ آنْ بأنّها ستمكثُ عندها في الضّيعة الخضراء إلاّ مساءَ اليوم التّالي. وطيلة الضّحى، شغلت البنتَ بمهامّ كثيرة مختلفة. وظلّت تحرُسها بعينٍ رقيبة أثناء ذلك. عند بلوغ الظّهيرة، أدركتْ ماريلاّ أنّ آنْ ذكيّةٌ ومطيعة، محبّة للعمل وسريعةُ التّعلّم. ولكنّ عيبَها الأبرز يكمنُ في نزوعها إلى السّقوط في غمرة أحلام اليقظة، أثناءَ قيامها بمهمّة، ونسيانُها الكلّيُّ لها حتّى يُعيدها التّوبيخُ أو كارثةٌ مّا إلى الواقع بقوّة.

عندما أنهتْ آنْ غسل صحون العشاء، واجهتْ ماريلاّ فجأة بملمحٍ ينِمُّ عمّن عقد العزم على تقبّل أسوأ الأخبار. فقد كان جسدُها النّحيلُ الضّامرُ يرتجفُ من رأسها حتّى قدميها. كما احمرّ وجهُها. واتّسعت عيناها حتّى أوشكتا أن تسودّا. صرّت يديْها بقوّة. وقالت بصوت متوسّل: «أوه، رجاء يا آنسة كاثبرتْ، ألن تقولي لي ما إذا كنتِ سترسلينني إلى الميتم أم لا؟ لقد حاولتُ أن أتصبّر طيلة الصّباح. لكنّني أشعر أنّ صبري كلّه قد نفدَ. ولم أعد أطيقُ الانتظار أكثر. إنّه شعورٌ رهيبٌ حقّا. فرجاء، أطلعيني على الأمر!».

«لم تشطُفي المغسلة بالماء النّظيف السّاخن كما طلبتُ منكِ»،

قالت ماريلاّ في برود. «هيّا، اذهبي وافعلي ذلك قبل أن تسألي أيّ سؤال آخر يا آنْ!».

استجابتْ آنْ لطلبها. ثمّ عادت متّجهة نحوها، وهي تثبِّتُ عينيها المتوسّلتيْن في وجهها.

«حسنا»، قالت ماريلاّ، وقد عجزت عن الإتيان بأيّ عذر جديد. «أحسبُ أنّه من الأفضل أن أعلمك... لقد قرّرتُ، أنا وماثيو، أن نحتفظ بك، شرطَ أن تسعي إلى أن تكوني فتاة مؤدّبة خلوقة وتُبيِّني امتنانك من خلال ذلك. لماذا؟ ما بك يا بنت؟».

«إنّني أبكي»، ردّت آنْ في نبرة ارتباك واضح. «لا أستطيع أن أعرف السّبب. إنّني سعيدة بقدر ما يمكنُ لهذه الكلمة أن تعني. آه، سعيدة... ليست الكلمة المناسبة في الحقيقة. لقد كنتُ سعيدةً عندما رأيتُ الطّريق الأبيض وإزهار شجرة الكرز. أمّا الآن، فهذا أعظم بكثير. أنا سعيدة جدًا جدًا. وسأحاول أن أكون الأفضل. إنّه عمل شاقّ على أيّة حال. فالسّيّدة تُوماس اعتادت أن تقول لي إنّني سيّئة على نحو ميؤوس منه. ورغم ذلك، سأبذل أقصى جهدي. ولكن، هلاّ أخبرتني بسبب بكائي؟».

«أعتقدُ أنّك متحمّسة ومنفعلة جدًا»، قالت ماريلاّ. «اجلسي على ذلك الكرسيّ. وحاولي أن تهدئي قليلا. أخشى أنّك تضحكين وتبكين بسهولة فائقة. نعم، يُمكنكِ البقاءُ هنا معنا. وسنحاول أن نقوم بما نستطيع فعله من أجلك. يجبُ أن تذهبي إلى المدرسة. ولكن، بما أنّه لم يتبقَّ سوى أسبوعين على انطلاق العطلة، فلن

تستهلّي الدّراسة إلاّ عند العودة المدرسيّة القادمة في شهر أيلول».

«كيف يجدر بي أن أناديك؟»، سألتْ آنْ. «هل أستمرّ في مناداتك بالآنسة كاثبرتْ؟ هل أستطيع أن ألقّبك بالخالة ماريلاّ؟».

«لا، ستكتفين بماريلاّ فحسب. لستُ معتادةً على أن أنادَى بالآنسة كاثبرت. وسوف يوتّرني الأمر».

«ولكن، يبدو لي مُخِلاّ بالاحترام إلى حدّ بعيد أن أناديك ماريلاّ»، اعترضت آنْ.

«أعتقدُ أنّه لا شيء مخلٌّ بالاحترام في ذلك إذا ما حرصتِ على التّحدّث بلباقة واحترام كافيين. والجميعُ هنا في آفونلي، صغارا وكبارا، ينادونني ماريلاّ باستثناء الكاهن. فهو يلقّبني بالآنسة كاثبرتْ عندما يفكّر في الأمر».

«أفضّل أن أسمّيك الخالة ماريلاّ»، أضافت آنْ حالمةً. «لم يكن لديّ يوما أيّ خالة أو حتّى أقارب آخرين... بما في ذلك الجدّة. سيجعلُني ذلك أشعر كأنّني موصولة بك حقّا. أفلا أستطيع أن أناديك الخالة ماريلاّ».

«لا، لستُ خالتك. كما أنّني لا أؤمن أنّ علينا أن نمنح النّاس ألقابا لا توافقهم في الحقيقة».

«ولكن، نستطيع أن نتخيّل أنّك خالتي».

«لا أستطيع»، قالت ماريلاّ مُتجهِّمة.

«ألم يسبق لك أن تخيّلتِ أشياء في صورة مخالفة لواقعها؟»، سألتْ آنْ بعينين واسعتين.

«لا».

«آه»، تنهّدتْ آن طويلا. «آه، يا آنسة... أقصد يا ماريلاّ! لقد فوّتِّ عليك الكثير!».

«لا أؤمن بتخيُّل الأشياء على نحوٍ يُخالفُ حقيقتها الواقعيّة»، ردّت ماريلاّ بنبرة حاسمة. «عندما يضعُنا الرّبّ في ظروف معيّنة، فهو لا ينتظرُ منّا دون شكّ أن نتخيّلها في صورة مختلفة. حسنا، لقد ذكّرني هذا بشيء مّا على أيّة حال. هيّا اذهبي إلى قاعة الجلوس يا آنْ. واحرصي أن تكون قدماك نظيفتيْن، وألاّ ينفذ إلى الغرفة أيّ ذباب. ثمّ اجلبي معك البطاقة المصوّرة الموضوعة على رفّ الموقد. لقد كُتبت عليها صلاةُ الرّبّ. وستقضّين وقتَ فراغك هذا المساء في حفظها عن ظهر قلب. لا مجال منذ اليوم إلى الصّلاة على الطّريقة التي سمعتُها منكِ ليلة أمس».

«لقد كانتْ صلاتي خرقاء جدّا على الأرجح. أليس كذلك؟»، سألت آنْ بنبرة اعتذار. «ولكنّني لم أتدرّب على الأمر من قبل. أتعتقدين أنّ بإمكان المرء أن يصلّي بإتقان منذ المرّة الأولى؟ لقد أعددتُ صلاةً رائعة ما أن دخلتُ إلى فراشي، تماما كما وعدتكِ. وأوشكت أن تظاهي صلاة الكاهن طولا. كما أنّها شاعريّةٌ جدّا. ولكن، هل تصدّقين أنّني لم أتذكّر منها ولو حرفا واحدا عندما استيقظتُ هذا الصّباح؟ إنّني أخشى ألاّ أستطيع التّفكير في صلاة أخرى تظاهيها جمالا. يبدو لي أنّ الأشياء لا تُحافظ على جمالها الأوّل كلّما فكّرنا فيها من جديد. هل لاحظتِ ذلك من قبل؟».

«هذا شيء آخر يجدرُ بك الانتباهُ إليه يا آن؛ عندما أطلبُ منك القيامَ بشيء مّا، فعليكِ أن تُطيعيني على الفور، بدل أن تتربّعي أمامي كي تقدّمي المحاضرات في شأنه. عليك أن تذهبي فحسبُ، وتنجزي ما أمرتكِ به».

انطلقت آنْ على الفور مُتّجهة نحو قاعة الجلوس. ولكنّها لم تعد. وبعد عشر دقائق، وضعت ماريلاّ ما تحيكه جانبا. ولحقت بها، وهي تمشي بوجه عابس. لقد وجدتْ آنْ جامدةً أمام لوحة تتدلّى على الحائط ما بين النّافذتين، ويداها معقودتان خلف ظهره، بينما رأسُها مرفوع إلى أعلى، وعيناها تلمعان بنجوم الأحلام. كان النّورُ الأبيضُ والأخضرُ، الذي يتخلّلُ الكروم وأشجار التّفّاح في الخارج، يغمرُ ذلك الشّبح الصّغير الطّرِب بهالة تكادُ أن تكون سماويّة.

«آنْ، فيم تفكّرين؟»، سألت ماريلاّ بحدّة.

حطّت آنْ على الأرض فورا.

«في هذا»، وأشارت إلى الصّورة أو الرّسم الملوّن والمعنون «المسيحُ يباركُ الأطفال الصّغار». لقد كنتُ أتصوّر نفسي واحدة منهم، أقصدُ هذه الفتاة ذات الرّداء الأزرق الواقفة بمفردها في الرّكن، كأنّها لا تنتمي إلى أحد مثلي تماما. يبدو أنّها وحيدةٌ وحزينة. ألا تعتقدين ذلك؟ أحسبُ أنّها فقدت أباها وأمّها. ولكنّها أرادت كذلك أن تُبارَك. فزحفتْ واقفةً بخجلٍ خارجَ الحشد، آملةً ألاّ يلاحظها أحدٌ غيره. أنا متيقّنة من أنّني أعرف بدقّة طبيعة شعورها. فلا شكّ أن قلبها ظلّ ينبضُ بشدّة ويداها قد تجمّدتا من البرد، مثل

يداي عندما سألتكِ ما إذا كان بإمكاني البقاءُ معكما. لقد خشيتْ ألاّ ينتبه إليها. ولكنّه رآها على الأرجح. أليس كذلك؟ لقد حاولتُ أن أتخيّل كلّ هذا... كيف ظلّت تزحفُ ببطء إلى الأمام إلى أن صارت قريبة منه. وحينئذ، ينظر إليها ويمسِّحُ بيده على رأسها. وآه! أيُّ قشعريرةِ سعادةٍ قد عبرت جسدها كلّه! ولكنّني تمّنيتُ لو أنّ الرّسّام لم يرسمه بكلّ ملامح الكآبة تلك. في الحقيقة، كلُّ صوره كذلك. لا أعرفُ ما إذا لاحظتِ ذلك أم لا. ومع ذلك، فأنا لا أعتقدُ أنّ منظره كان في الحقيقة بكلّ تلك الكآبة والحزن، وإلاّ لشَعُر الأطفال بالخوف منه».

«آنْ»، قالت ماريلاّ، وهي تتساءل في سرّها لمَ لم تُقاطعْ سيل هذا الكلام من قبل. «لا ينبغي لك أن تتفوّهي بمثل هذا الكلام. إنّه غير ملائم ومخلٌّ بالاحترام... أقصدُ غير ملائم على نحو إيجابيّ».

اتّسعتْ عينا آنْ دهشةً.

«لماذا؟ لقد حسبتُ أنّني أعبّر عن أعظم معاني الاحترام. أنا متيقّنةٌ من أنّني لم أقصد أن أقلّل من الاحترام».

«حسنا، لم أفترض أنّك قصدتِ ذلك. ولكن، ليس من اللاّئق رفعُ الكلفة عند الحديث في مثل هذه المسائل. وعلى أيّة حال يا آنْ، عندما أرسلك في طلب شيء مّا، فعليكِ أن تحضريه على الفور بدل الغرق في أحلام يقظتك وفي التّخيّل أمام الصّور والرّسوم. تذكّري هذا جيّدا! والآن، خذي تلك البطاقة. وتعالي على الفور إلى المطبخ. ثمّ اجلسي في الرّكن. واحفظي هذه الصّلاة عن ظهر قلب!».

أسندتْ آنْ البطاقة إلى الإبريق المليئ بأزهار التّفّاح، ذاك الذي كانت قد أحضرتْهُ بنفسها لتُزيِّن به طاولة العشاء، (لقد لمحتْ ماريلاّ تلك الزّينة بارتياب. ولكن لم تقُل أيّ شيء عنها) ثمّ وضعت ذقنها على كفّيْها. وانهمكتْ في دراستها بصمتٍ لعدّة دقائق.

«كم أحببتُها!»، صرّحتْ أخيرا. «صلاةٌ رائعة! لقد سمعتُ المشرفَ على مدرسة الأحد في الميتم وهو يرتّلُها ذات مرّة. ولكنّها لم تعجبني حينذئذ. فصوته متصدّع. وآداؤه يحملُ نبرة الحداد. إنّني متأكّدة أنّه يحسبُ الصّلاة واجبًا كريها. ما أقرؤه هنا ليس شعرا. ولكنّه يدفعني إلى الشّعور بنفس ما أشعر به عند قراءة الشّعر... «أبانا الذي في السّماوات، ليتقدّس اسمُكَ!»... هذا يُشبه سطرا موسيقيّا جميلا. آه، أنا سعيدة جدّا لأنّك فكّرتِ في تعليمي هذه الصّلاة يا آنسة كاثبرتْ».

«حسنا، تعلّميها. وأمسكي لسانكِ!»، ردّت ماريلاّ باقتضاب.

أمالتْ آنْ مزهريّة التّفّاح إليها. ووضعتْ قبلةً على إحدى البراعم الورديّة. ثمّ استرسلتْ في الدّراسة لبعض الوقت، قبل أن تضيف:

«ماريلاّ، هل تعتقدين أنّ عليّ أن أتّخذ لي صديقةَ قلبٍ هنا في آفُونلي؟».

«صديقةُ ماذا؟».

«صديقة قلب... أقصد صديقة حميمة ومقرّبة منّي. تعرفين ذلك النّوع من الأرواح الشّقيقة التي أستطيعُ ائتمانها على روحي

العميقة. لطالما حلمتُ بلقائها طيلة حياتي. في الحقيقة، لم أصدّق من قبل أنّ ذلك قد يتحقّق. ولكنّ الكثير من أحلامي الجميلة قد صارت واقعا في دفعة واحدة. فلمَ لا إذن؟ قد يتحقّقُ هذا الحلم أيضا. أتعتقدين أنّ ذلك ممكن؟».

«تعيشُ ديانا باري هناك عند منحدر البستان. وهي في مثل سنّكِ. إنّها فتاةٌ يافعة لطيفة. وقد تصير شريكتك في اللّعبِ عندما تزورنا في البيت. إنّها الآن في زيارة لعمّتها في كارْمُودي. ومع ذلك، يجدر بك أن تنتبهي إلى تصرّفاتك معها. فالسّيّدةُ باري امرأة مميّزة جدّا. ولن تسمح لديانا باللّعب مع أيّ فتاة قد لا تكون لطيفة ومؤدّبة».

حدّقتْ آنْ في ماريلاّ من خلال أزهار التّفّاح، وعيناها تلمعان من الاهتمام.

«كيف تبدو ديانا؟ شعرُها ليس أحمر. أليس كذلك؟ آه، أرجو ألاّ يكون الأمر كذلك. فالشّعر الأحمر الذي أملكه سيّءٌ بما فيه الكفاية. وأعتقدُ أنّني لن أستطيع تحمّله كذلك عند صديقة القلب».

«إنّ ديانا فتاةٌ صغيرة جميلةٌ جدّا. عيناها سوداوان. وكذلك شعرُها. أمّا وجنتاها فمُتورِّدَتان. كما أنّها مُؤدّبة وذكيّةٌ. وذلك أفضلُ من كونها جميلةً وأهمُّ».

كانت ماريلاّ شغوفةً بالحكم الأخلاقيّة، تماما مثل الدّوقة في بلاد العجائب[1]. كما أنهّا متيقّنة من ضرورةِ استخدامها في كلّ مرّة

(1) تُشير المؤلّفة إلى كتاب «مغامرات أليس في بلاد العجائب»، أو كما شاع اختزالُه «أليس في بلاد العجائب». وهو رواية للأطفال، كتبها سنة 1865 عالم الرّياضيّات والكاتب

يُخاطبُ فيها المرء طفلا بصدد التّأدُّب. ولكنّ آنْ قد التفتتْ دون الحكمة الأخلاقيّة. وركّزت نظرها على الإمكانات العظيمة التي تشير إليها.

«آه، أنا سعيدة لأنّ ديانا جميلة. من الأفضل أن تجد الواحدةُ منّا صديقةً جميلة بالإضافة إلى أن تكون هي نفسُها كذلك (الأمرُ الذي لا ينطبقُ عليّ للأسف الشّديد). عندما كنتُ أعيشُ مع السّيّدة توماس، كانت هناك مكتبةٌ ذات بابيْن بلّوريّيْن في قاعة الجلوس ببيتها. ولكنّها خاليةٌ من الكتب. وبدلاً منها، وضعت السّيّدةُ توماس فيها أفضلَ صحونها الخزفيّة وعلبَ الحفظ كلّما أعدّتْ بعضا منها. كان أحدُ البابيْن مكسورًا، لأنّ السّيّد توماس قد هشّمه ذات ليلة عندما كان ثملا بعض الشّيء. أمّا الآخر، فقد ظلّ سليما. وأمامه، كنتُ أمكثُ متظاهرةً باعتقاد أنّ صورتي المنعكسةَ على سطحه إنّما هي صورةُ فتاة أخرى تسكنُ هناك. لقد سمّيتُها كاتي موريسْ. وكنّا صديقتيْن حميمتين جدّا. وظللتُ أتحدّث إليها طيلة ساعات، وخصوصا يوم الأحد. أروي لها كلّ شيء. فقد كانت الرّاحة والمواساة في حياتي. كنّا متأكّدتيْن أنّ المكتبة سحريّةٌ، وأنّني إذا عرفتُ كلمة السّرّ وتلفّظتُ بها أمكنَ لي أن أفتح الباب، وأمرّ إلى الغرفة التي تعيشُ فيها كَاتِي موريسْ بدل أن أجد نفسي بين رفوف مليئة بمعلّباتِ السّيّدة توماس وخزفِها. وكانت كاتي موريس إذنْ

الإنجليزيّ تشارلزْ لُوتْوِيدْجْ دُودْسُونْ، مُوقّعا باسمه المُستعار لويس كارول. والدّوقة المُشار إليها هي إحدى شخصيّات هذه الرّواية.

تقودُني من يدي إلى مكان عجيب مُزدانٍ بالزّهور ومُفعَم بالشّمس والجنّيّات، حيثُ نعيشُ سعيدتيْن طيلة ما تبقّى من أيّامنا. لقد انفطر قلبي عندما انتقلتُ للعيش مع السّيّدة هاموند. إذ لم أطِقْ أن أترك كاتي مُوريسْ بمفردها. لقد عانتْ من هذا الفراق أيضا. أنا متيقّنة من ذلك. فقد كانت تبكي في كلّ مرّة أودّعها فيها عند باب المكتبة. لم تكن هناك مكتبةٌ في المقابل في بيت السّيّدة هامونْدْ. ولكن عند الصّعودِ أعلى النّهر وأبعدَ قليلا من المنزل، كان هناك وادٍ طويل أخضرُ حيثُ يعيشُ أحبُّ الأصداء على الإطلاق. إنّه يردّ لك كلّ ما تتلفّظُ به حتّى وإن لم يكن صوتُك مرتفعا. ولهذا تخيّلتُ أنّه فتاةٌ صغيرةٌ اسمُها فيُولِيتّا، وأنّنا كنّا صديقين مقرّبين. وأحببتُها مثلما أحببتُ كاتي موريس تقريبا... ليس بنفس القدر، ولكن تقريبا. أتفهمين قصدي؟ وفي اللّيلة التي سبقت رحيلي إلى الميتم، ودّعتُ فيوليتّا. آه! كم كان صوتُها عندما ودّعتني مفعما بالحزن والكآبة! لقد تعلّقتُ بها كثيرا، حتّى إنّني لم أستطع أن أتخيّل صديقة قلب جديدة في الميتم. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّه لا مجال هناك للتّخيُّل أصلا».

«أعتقدُ أنّ ذلك أفضل على أيّة حال»، قالت ماريلاّ بجفاء. «لستُ مُؤيِّدةً لهذه الحكايات الخياليّة. إذ يبدو عليك أنّك توشكين على الإيمان بواقعيّة أحلامك هذه. سيكون من الجيّد لك أن تحظي بصديقة حقيقيّة حتّى تتخلّصي من هذه التّرّ هات. ولكن، احذري من أن تسمعك السيّدة باري وأنت تتحدّثين عن كاتي موريس وفيوليّتا وغيرهما من شخصيّاتك العجيبة، لأنّها ستعتقدُ جازمة أنّك تهذين بحماقات غريبة».

«آه، تأكّدي أنّني لن أفعل ذلك. فأنا لا أستطيع الحديث عن مثل هذا لأيّ كان. وإنّما فكّرتُ أنّ بإمكاني أن أشاركِكِ أنت هذه الحكايات. انظري! هناك نحلة كبيرة حطّت للتّوّ بين أزهار التّفّاح. إنّ زهرة التّفّاح مكان عظيم تحلو الإقامة فيه. أليس كذلك؟ تخيّلي نفسك نائمة وسطها بينما تهدهدك الرّياح. لو لم أكن بنتا بشريّة لرغبتُ حقّا في أن أكون نحلة تعيشُ بين الأزهار».

«أمس، كنتِ تتمنّين أن تكوني نورسا بحريّا»، زفرت ماريلاّ. «أعتقدُ أنّكِ متقلّبة التّفكير جدّا. لقد طلبتُ منكِ أن تحفظي تلك الصّلاة وتتوقّفي عن الكلام. ولكن، يبدو أنّه من المستحيل بالنّسبة إليك التّوقفُ عن الحديث إذا كان هناك من يصغي إليك. اصعدي إذن إلى غرفتك. واحفظيها».

«آه، لقد أوشكتُ على الانتهاء من حفظها. بل إنّني حفظتُها ما عدا السّطر الأخير».

«حسنا. لا يهمّ. اذهبي إلى غرفتك. وافعلي كما أمرتكِ. أكملي حفظها. وامكثي هناك حتّى أناديك لتساعديني في إعداد الشّاي».

«هل أستطيع أن أحمل معي أزهار التّفّاح كي ترافقني؟»، توسّلت آنْ.

«لا. لستِ في حاجة إلى تلويث غرفتكِ بالأزهار. كان عليكِ منذُ البداية أن تتركيها على أغصانها».

«هذا ما فكّرتُ فيه أيضا»، قالت آنْ. «لقد شعرتُ نوعا مّا بالنّدم لأنّني قصّرتُ حياتها الجميلة عندما قطفتُها من أغصانها.

إذْ ما كنتُ لأحبَّ أن أُقطَف لو كنتُ زهرة تفّاح أنا أيضا. لكنّ الإغواء كان عظيما لا يُقاوَم. ماذا تفعلين عندما تتملّك رغبة جامحةٌ في القيام بشيء مّا؟».

«آنْ، ألم تسمعيني وأنا أطلبُ منك الصّعود إلى غرفتكِ؟»

تنهّدتْ آنْ. وانسحبتْ باتّجاه الجهة الشّرقيّة من الضّيعة الخضراء، حيثُ جلست على كرسيّ قرب النّافذة.

«حسنا، إنّني أحفظُ هذه الصّلاة. لقد أتممتُ حفظ الجملة الأخيرة أثناء صعودي الدّرج. والآن، سأقوم بتخيّل أشياء في الغرفة حتّى تظلّ متخيّلةً دوما. الأرضيّةُ مكسوّةٌ بسجّاد مخمليّ مزركش بالورود. وعند النّوافذ، تنسدلُ ستائرُ من حرير ورديّ. الجدرانُ مزدانةٌ بزخارفَ من ذهبٍ وفضّة. والأثاث مقدودٌ من شجر الماهوغني[1]. في الحقيقة، لم أرَ من قبل أيّ خشب من هذا النّوع. ولكنّه يبدو، بكلّ بساطة، فاخرا جدّا. هذه أريكةٌ تتكدّسُ فوقها وسائدُ حريريّة فائقةُ الجمال ورديّةٌ وزرقاء وحمراءُ ومذهّبةٌ. وعلى صفحة هذه المرآة الرّائعة المعلّقة على الجدار أرى صورتي. أنا طويلةُ القامة ذاتُ جلال ملكيّ، وأرتدي ثوبًا من الدانتيل الأبيض مع صليب من اللآلئ على صدري ولآلئ أخرى في شعري. شعري أسودُ فاحمٌ. وبشرتي فاتحة بلون العاج. أمّا اسمي، فهو السّيّدةُ كُورْدِيلْيا فِيتزْغِيرالْدْ. لا، ليس كذلك. لا يمكنني أن أجعل ذلك حقيقيّا للأسف».

(1) نوع من الشّجر المداريّ ذي الأخشاب الصّلبة ذات اللّون البنّيّ الأحمر.

خطتْ بعض الخطوات الرّاقصة أمام المرآة. فحدّق فيها وجهها المنمّش المدبّب بعينيها الرّماديّتين الثّقيلتين.

«لستِ سوى آنْ ابنة الضّيعة الخضراء»، قالت بجدّيّة. «ولستُ أرى غيركِ هنا في هذه اللّحظة، مهما حاولتُ تخيُّل كونكِ السّيّدة كورديليا. ولكن، من الأفضل لي مليون مرّة أن أكون آنْ ابنة الضّيعة الخضراء بدل أن أكون آنْ التي لا مكان لها. أليس كذلك؟».

انحنتْ إلى الأمام. وقبّلتْ صورتها بعطف. ثمّ اتّجهت نحو النّافذة.

«مساء الخير يا ملكة الثّلوج العزيزة. مساء الخير كذلك يا أشجار البتولا العزيزة في عمق الغدير. مساء الخير أيّها المنزل العزيز أعلى التّلّة. أتساءل ما إذا كانت ديانا صديقة قلبي المستقبليّة. أرجو ذلك. كما أرجو أن أحبّها كثيرا. ولكن يجبُ ألاّ أنسى كاتي موريس وفيوليتّا أبدا. سوف تشعران بالألم الشّديد إذا حدث ذلك. وأنا لا أحبّ أن أؤذي مشاعر أيّ شخص، حتّى لو كان فتاة مكتبة صغيرة أو بنتَ صدًى من الوادي الأخضر. ولهذا السّبب، يجبُ أن أحرص على تذكُّرهما وعلى أن أرسل إليهما قبلة كلّ يوم».

أرسلتْ آنْ بعض القبلات الهوائيّة من أطراف أصابعها عبر أزهار الكرز. ثمّ أسندتْ ذقنها إلى كفّيها. وطفتْ بسلاسة في بحر من أحلام اليقظة.

(9)

السّيّدةُ رايتشل ليندْ مذعورةٌ تماما

كانت آنْ قد قضّت أسبوعيْن في الضّيعة الخضراء عندما جاءت السّيّدةُ ليندْ لتحقّق في أمرها. وللأمانة، لا يمكنُ لومُ السيّدة رايتشلْ على هذا التّأخير. فلقد حجزتْ هجمةُ إنفلونزا غير موسميّة وحادّة جدّا تلك السّيّدةَ الطّيّبة في بيتها منذ آخر مرّة زارتْ فيها الضّيعة الخضراء. لم تكن السّيّدة ليندْ كثيرة المرض. بل إنّها تعبّر عن ازدراءٍ واضح لمن هم كذلك. ولكنّ الإنفلونزا، على حدّ عبارتها، لا تُشبه أيّ مرض آخر على سطح الأرض. ولهذا السّبب، لا يمكنُ تفسيرُها إلاّ باعتبارها إحدى الزّيارات المميّزة للعناية الإلهيّة. وما أن سمح لها الطّبيبُ بأن تضع قدمها خارج بيتها حتّى أسرعت في اتّجاه الضّيعة الخضراء، وهي تتّقدُ فضولا ورغبةً في رؤية يتيمةِ ماريلاّ وماثيو التي ملأت دنيا آفُونلي وشغلت سكّانها.

من جهتها، استغلّتْ آنْ كلّ لحظة قضّتها خلال الأسبوعيْن كما ينبغي. لقد تعرّفت على كلّ شجرة ونبتة في المكان. واكتشفتْ أنّ هناك مسلكًا أسفلَ بستان التّفّاح يُفضي إلى حزام من الغابات الصّغيرة. ولقد قامت باستكشافه حتّى آخر أطرافه بما فيها من

جداول وجسور وأيْكَاتٍ تنّوبٍ وأقواس من الكرز البرّيّ وزوايا تفيضُ بالسّرخس ومسالك يتقاطع فيها القيقبُ بالرّماد الجبليّ.

لقد صادقت الينبوع الذي يصدرُ من مجرى الوادي في الأسفل، ذلك الينبوع الباردُ، الصّافي والعميق. لقد حُدَّ بواسطة أحجار رمليّة حمراءَ ناعمة وكتل كبيرة من السّرخس المائيّ، شبيهةٍ بسعف النّخيل. وأبعدَ منه، انتصبَ جسرٌ مصنوع من الحطب.

لقد قاد هذا الجسرُ خطوة آنْ الرّاقصةَ إلى تلٍّ مُشجّر خلفه، حيثُ يسودُ الشّفقُ الأبديُّ تحت أشجارِ التنّوب والصّنوبر الكثيفة. كانت أزهار الجُرَيس[1] -تلك الأشدّ حياء ولطفا من بين جميع أزهار الغابات- هي الوحيدة التي تنبتُ هناك، بالإضافة إلى الأزهار النّجميّة. وكان العشبُ يلمعُ مثل خيوط الفضّة بين الأشجار، بينما بدت أغصانُ التنّوب وفروعُ شرابات الحرير[2] متحدّثةً بكلماتٍ ودودة.

حدثتْ كلّ هذه الرّحلات الاستكشافيّة الخاطفة خلال أنصاف السّاعات التي تُتاح لها من أجل اللّعب. وحين عودتها، كانت آنْ تصمّ آذان ماثيو وماريلاّ، وهي تسردُ عليهما حكايات استكشافاتها. وتجدر الإشارة إلى أنّ ماثيو لم يكن منزعجا من الأمر أو متذمّرا منه. بل إنّه يظلُّ يُصغي إليها، وعلى وجهه ترتسمُ ابتسامةُ

(1) جنسٌ نباتّي ينتمي إلى الفصيلة الجريسيّة. وقد اكتسب اسمه من شكل زهرته الذي يُشبه الجرس. وترجمة اسمه الحرفيّة عن الإنجليزيّة هي أجراسُ يونيو.

(2) نوع من النّباتات.

ابتهاج. وأمّا ماريلاّ، فقد كانت في البداية تتسامح مع «ثرثرتها» إلى أن وجدت نفسها تهتمُّ بها شيئا فشيئا. وحينئذ، شرعت في مقاطعة آنْ من حين إلى آخر، لتطلب منها أن تمسكَ لسانها.

كانت آنْ في البستان، تتنزّهُ مُستسلِمةً لمُتعتها اللّذيذة وسط الخضرة والأعشاب المتمايلة والمتلألئة بأشعّة الغروب الحمراء عندما قدمت السّيّدةُ رايتشل إلى البيت. ولذلك، وجدت السّيّدةُ الطّيّبة المتّسع الكافي لتصف مرضها بالتّدقيق، مُبيّنةً كلّ ألم أحسّت به وبابتهاج واضحٍ، حتّى إنّ ماريلاّ قد فكّرت أنّ الإنفلونزا كذلك تملك وجها إيجابيّاً. وعندما استنفدت السّيّدةُ رايتشل كلّ التّفاصيل الممكنة، بيّنت حينئذ سبب زيارتها الحقيقيّ.

«لقد سمعتُ بعض الأخبار الغريبة عنك وعن ماثيو».

«أحسبُ أنّك لستِ متفاجئة أكثر منّي»، قالت ماريلاّ. «ولكنّني تجاوزتُ تفاجُئي الآن».

«إنّه من المؤسف أن يقع خطأ كهذا»، أضافت السّيّدةُ رايتشل بلطف. «ألم يكن ممكنا إرجاعها إلى مكانها الأوّل؟».

«بلى. ولكنّنا قرّرنا ألاّ نفعل ذلك. لقد نالت إعجاب ماثيو في الحقيقة. ويجدرُ بي القول إنّها قد أعجبتني كذلك، رغم أنّني أعترفُ في الآن نفسه بأنّ لها عيوبها.

تكلّمت ماريلاّ أكثر ممّا كانت تنوي عندما شرعت في الإجابة. فقد قرأت علامات الامتعاض على ملامح السّيّدة رايتشل.

«إنّها مسؤوليّةٌ عظيمة قد ألقيتِ بها على عاتقك»، صرّحت

تلك السّيّدة في تجهُّم. «خصوصا وأنّك لم تمتلكي من قبل أيّ تجربة مع الأطفال. كما أنّك لا تعرفين الكثير عنها أو عن ميولاتها، فيما أقدّر. ولا يمكنُ للمرء أن يتنبّأ سلفا بكيفيّة تقلُّب طفلة كتلك. ولكنّني لا أريد أن أثبّطكِ عمّا عقدتِ عليه العزم يا ماريلاّ».

«لا أشعر بأيّ ثبْطٍ». كانت تلك إجابة ماريلاّ الجافّة. «إذ عندما أعقدُ العزم على القيام بشيء مّا، فهو يظلّ معقودا على الدّوام. أحسبُ أنّكِ ترغبين في رؤية آنْ. سأناديها على الفور».

قدمت آنْ مُسرِعة، ووجهُها مشعٌّ بهجةً بعد جولة البستان. لكنّها شعرتْ بالخجل على الفور عندما انتبهت إلى حضور شخصٍ غريب. وتوقّفتْ مُتردّدةً عند الباب. لقد كانت دون شكّ فتاةً صغيرة ذات مظهر غريب، وهي تطلُّ في ثوبها القصير الضّيّق الذي أحضرته معها من الميتم، والذي تلوحُ من تحته ساقاها الطّويلتان والنّحيلتان. وبدا نمشُها على وجهها أكثر عددًا ووضوحا من أيّ وقت مضى. وكانت الرّيحُ قد حوّلت رأسها الخالي من القبّعة إلى فوضى عارمة. وفي تلك اللّحظة، بدتْ آنْ أكثر حمرةً من كلّ لحظات حياتها السّابقة.

«حسنا، من الواضح أنّهما لم يقبلا بك من أجل مظهركِ»، كان ذلك تعليق السّيّدة رايتشلْ ليندْ التي تنتمي إلى أولئك النّاس المتفاخرين بكونهم قادرين على الإفصاح عن أفكارهم دون خوف أو محاباة. «إنّها نحيلةٌ على نحو فظيع وبشعةٌ يا ماريلاّ. تعالي إلى هنا

أيّتها الطّفلة حتّى أستطيع النّظر إليك! بحقّ الرّبّ، هل سبق أن رأيت نمشا كهذا؟ أو شعرا بهذه الحمرة كأنّه حزمة جزر؟! قلتُ لك تعالي إلى هنا!».

تقدّمتْ آنْ إلى هناك، ولكن لا حيثُ توقّعت السّيّدةُ رايتشل. وإنّما قطعت أرضيّة المطبخ بوثبة واحدة حتّى استقرّت تجاه السّيّدة رايتشل، وقد صار وجهها قرمزيّا من الغضب وشفتاها ترتجفان، بينما يرتعشُ قوامها من رأسها حتّى قدمها.

«إنّي أكرهك»، صرختْ بصوت مختنق. وضربت الأرضيّة بقدمها. «أكرهكِ! أكرهكِ! أكرهك!». ومع كلّ تصريح بالكراهية، كانت تضربُ الأرض بقدمها بقوّة أكبر. «كيف تتجرّئين على مناداتي بالنّحيلة البشعة؟ كيف تتجرّئين على قول إنّني نمْشاءُ وحمراءُ الشّعر؟ إنّك امرأةٌ عديمةُ الإحساس، وقحة وغير مؤدّبة!».

«آنْ!»، صاحتْ ماريلاّ مذعورةً.

ولكنّ آنْ استمرّت في مواجهة السّيّدة رايتشلْ بلا هوادة، ورأسُها ثابتٌ إلى الأمام، عيناها تقدَحان شررا، قبضتاها مشدودتان، والسّخط يعصفُ منها.

«كيف تتجرّئين على قول أشياء كهذه في حقّي؟»، ردّدتْ بعنفٍ مرّة أخرى. «أتحبّين أن يقول عنك النّاس مثل هذه الكلمات؟ أتقبلين أن يُقال عنك إنّك سمينة وخرقاء ولا تملكين على الأرجح ولو نزرا قليلا من الخيال؟ لا يهمّني إذا جرحتُ مشارعك بهذا الكلام. بل إنّني أرجو أن أفعل ذلك حقّا. لقد فطرتِ قلبي أكثر من أيّ

شخص آخر من قبل، بما في ذلك زوجُ السّيّدة توماس السّكران. ولن أسامحك من أجل ذلك مطلقا، مُطلقا، مطلقا!».

ودقّت الأرض بقدميها مرّتين متتاليتين. فصاحت السّيّدة رايتشل المذعورةُ في تعجّب:

«هل رأيتِ من قبل مزاجا كهذا؟».

«آنْ، اذهبي إلى غرفتك. وامكثي هناك حتّى ألتحق بك»، قالتْ ماريلاّ، وهي تستعيدُ بصعوبة قدرتها على الكلام.

انفجرتْ آنْ باكيةً. واندفعتْ نحو باب الرّواق. فصفقته خلفها حتّى اهتزّت الجرار القصديريّة المعلّقة على جدران الشّرفة، وصلصلتْ متضامنةً معها. ثمّ صعدت الدّرج مثل زوبعة. وسُمعت في الأعلى صفعةٌ مكتومة تشي بأنّ باب الغرفة قد أُغلق بنفس الحدّة.

«حسنا يا ماريلاّ، إنّني لا أحسدكِ مطلقا على مهمّتك الجديدة في تربية هذا الشّيء»، قالت السّيّدةُ رايتشل بحذلقة جليّة.

فتحت ماريلاّ فمها لتقول إنّها لا تعرف حقّا كيف تعتذرُ منها أو تمحو ما تمّ قوله. ولكنّ الكلمات التي خرجت من بين شفتيها مثّلت مفاجأة كبيرة بالنّسبة إليها في تلك اللّحظة وما تلاها:

«وجبَ عليك ألاّ تسيئي إليها فيما يتعلّقُ بمظهرها يا رايتشل».

«ماريلاّ كاثبرت، لا تقولي لي إنّك تؤيّدينها في مشهد الغضب الفظيع الذي قدّمته أمامنا للتّوّ؟!»، سألتْ السّيّدةُ رايتشل في سخط.

«لا»، أجابت ماريلا ببطء وهدوء. «لستُ بصدد تقديم الأعذار لها. لقد أساءت السّلوك إلى حدّ بعيد. وسيكون لي ما أقوله

لها لاحقا في هذا الصّدد. ولكن يجدر بنا تفهُّمها أيضا. فقد كنتِ قاسية جدّا معها يا رايتشل».

لم تستطع ماريلاّ تجنّب إضافة تلك الجملة الأخيرة إلى كلامها، رغم كونها قد اندهشت مرّة أخرى من نفسها. وحينئذ، وقفت السّيّدة رايتشل وقد بدت على وجهها ملامحُ الاستياء والشّعور بالإهانة.

«حسنا، أرى أنّه ينبغي عليّ الانتباه إلى ما أقوله لاحقا يا ماريلاّ، بما أنّ مشاعر اليتامى المرهفة -أولئك القادمين من أمكنة لا يعلمها إلاّ الرّبُّ وحده- تملك الأولويّة المطلقة على أيّ شيء آخر. آه! لا، لستُ مُنزعجةً. لا تقلقي! إنّني متأسّفةٌ جدّا من أجلك، حتّى إنّه لم يتبقّ لديّ أي مجال للغضب. سوف تكونُ لك متاعبكِ الكثيرة مع تلك الطّفلة. ولكن إذا أردتِ العمل بنصيحتي -وهو أمر مستبعدٌ على أيّة حال، رغم أنّني ربّيتُ عشرة أطفال ودفنتُ اثنيْن- فإنّ عليك أن تجري ذلك الحديث الذي أشرتِ إليه معها باستخدام غُصنٍ من شجرة البتولا يكون ذا حجم جيّد. تلك على الأرجح اللّغة الأكثر نجاعة مع هذا النّوع من الأطفال. إنّ طبعها في ما يبدو موافقٌ لشعرها. حسنا، مساء الخير يا ماريلاّ. أرجو أن تأتي لزيارتي وفق النّسق المعتاد. ولكن لا تتوقّعي منّي أن أزوركِ هنا قريبا. فقد صرتُ أجازفُ عند قدومي إلى بيتكِ بأن أُعنَّف وأُهان بهذه الطّريقة. إنّه شيء مّا جديدٌ ينضافُ إلى تجربتي في الحياة».

وما أن أتمّت السّيّدةُ رايتشل هذه الكلمات حتّى انزلقتْ خارجة -إذا كان بالإمكان القول عن امرأة سمينة تتبختر طيلة الوقت إنّها تنزلقُ- بينما حملت ماريلاّ نفسها بوجه جادّ إلى الجهة الشّرقيّة من الضّيعة.

أثناء صعودها الدّرج، ظلّت تفكّرُ فيما ينبغي لها فعله. إذْ لم يكن اتّخاذُ القرار سهلا. كما لا يمكنها أن تنكر أيّ ذعر خلّفهُ فيها المشهدُ الذي حدث للتّوّ أمام عينيها. كم مؤسفٌ أن تختار آنْ من بين جميع النّاس السّيّدةَ رايتشلْ لتستهدفها بتقلّبات مزاجها! وفجأةً، أحسّتْ ماريلاّ بوخزة ضمير موبِّخة وغير مريحة في صدرها، حتّى إنّ شعورها بالإهانة إزاء الأمر كان أعظم من حزنها على اكتشاف هذا الخلل الفادح في شخصيّة آنْ. وكيف يجدر بها أن تعاقبها يا ترى؟ لم يكن اقتراح غصنِ البتولا، الذي يشهدُ كلّ أبناء السّيّدة رايتشل على حدّة تجربته، يروق لماريلاّ مطلقا. فهي لا تتخيّلُ نفسها قادرةً على جلْدِ طفلة صغيرة. لا، عليها أن تجد عقوبة من نوعٍ آخر حتّى تدفع آنْ إلى استيعاب فداحة إساءَتها.

وجدتْ ماريلاّ وجهَ آنْ غارقا في فراشها، وهي تنشجُ باكيةً بحُرقة وغافلةً عن جزمتها المكسوّة بالوحل على اللّحاف النّظيف.

«آنْ»، قالت بنبرةٍ لا تخلو من اللّطف. ولكنّها لم تتلقَّ أيّ إجابة.

«آنْ»، بحدّة أكبر. «انهضي من هذا السّرير الآن! وأصغي إلى ما سأقوله لك!».

نهضتْ آنْ في تشنّج. وجلست متصلّبةً على كرسيّ يُجانِبُه.

كان وجهها مُنتفخا من البكاء، وقد رسمت الدّموع شرائط على وجنتيها. حدّقت في الأرضيّة بعنادٍ كبير دون أن تزحزح بصرها.

«إنّه سلوكٌ رائع يا آنْ! ألا تخجلين من نفسك؟!».

«ليس لها أدنى حقّ في مناداتي بالبشعة ذات الرّأس الأحمر»، ردّت آنْ مُراوغةً السّؤال بنبرة تحدٍّ.

«ليس لديكِ أدنى حقّ في أن تضطرمي حنقا بذلك الشّكل وتتحدّثي إليها مثلما فعلتِ يا آنْ! لقد جعلتِني أشعرُ بالخجل. ودفعتِني إلى الإحساس بحَرَجٍ عظيم. لقد أردتكِ أن تتصرّفي بأدب ولياقة مع السّيّدة ليند. ولكن، بدلا من ذلك وصمتِني بالعار أمامها. إنّني لا أفهم سبب فقدانك لأعصابك بتلك الطّريقة، فقط لأنّ السّيّدة ليندْ قالت إنّك صهباءُ وبسيطة الملامح، والحال أنّك اعتدتِ التّصريح بذلك مرارا».

«آه، ولكنْ هناك فرقٌ كبيرٌ بين أن يقول المرءُ أشياء معيّنةً عن نفسه وبين سماعه للآخرين يوجّهونها له»، هتفتْ آنْ. «حتّى إذا كان المرءُ واعيا بحقيقة مّا، فهذا لا يعني انقطاعَ رجائِه ألاّ يراها الآخرون. أحسبُ أنّك تعتقدين أنّ لي طبعا سيّئا جدّا. ولكنّ ما حدث كان رغما عنّي. فعندما قالت تلك الكلمات، شعرتُ بأنّ شيئا مّا يهتزّ في داخلي، ويخنقني، ثمّ يدفعني إلى الانقضاض عليها».

«حسنا، يجدر بي أن أعترفَ لك بأنّك قدّمتِ عرضا هائلا عن نفسكِ إذن. تملكُ السّيّدةُ ليندْ الآن ما سوف تتمتّع بروايته عنكِ في

كلّ مكان. وذلك ما ستفعله دون شكّ مرارا وتكرارا. لقد كان أمرا رهيبا منكِ أن تنفعلي بذلك الشّكل يا آنْ!».

«أرجوكِ، تخيّلي أنّ شخصا مّا يواجهكِ قائلا إنّكِ نحيلة وقبيحة!»، توسّلتْ آنْ باكيةً.مكتبة سر من قرأ

فجأةً، نجَمتْ إحدى الذّكريات أمام عيني ماريلاّ. لقد كانت فتاة يافعةً جدّا عندما سمعت إحدى خالاتها تقول لأخرى: «يا للشّفقة! إنّها غامقةُ البشرة وقبيحة المظهر!». كان على ماريلاّ أن تنتظر مرور خمسين سنة، يوما بعد آخر، حتّى تختفي اللّسعةُ من تلك الذّكرى.

«لم أقل إنّ السّيّدة ليندْ مُحِقّةٌ فيما قالتهُ لك»، اعترفتْ بنبرةٍ ألطف. «فرايتشل معروفة بكونها مُفرِطةٌ في الصّراحة. ولكنّ ذلك لا يبرّرُ تصرّفك وحديثكِ إليها. فقد كانت شخصا غريبا بالنّسبة إليكِ، بالإضافة إلى كونها سيّدة بالغةً وضيفتي في بيتي. وهذه ثلاثة أسباب وجيهة وكافية لجعلك مؤدّبة في التّعامل معها. لقد كنتِ وقحةً وفظّة معها -فجأة لمعت في رأس ماريلاّ فكرةُ العقاب المناسب- ويجبُ عليك أن تذهبي لرؤيتها والاعتذار الشّديد، وطلب الصّفح منها».

«لا يمكنني فعلُ ذلك أبدا»، صرّحتْ آنْ في تصميم وجدّ كبيرين. «يمكنكِ أن تعاقبيني كيفما شئتِ يا ماريلاّ. بل يمكنكِ سجني في زنزانة مظلمة رطبة تسكنها الأفاعي والضّفادع، وتكتفي بإطعامي الخبز والماء، ولن أشتكي أو أتذمّر. ولكنّني لا أستطيع أن أطلب من السّيّدة ليندْ أن تسامحني».

«ليس من عاداتنا وضعُ أيّ كان في الزّنازين الرّطبة المظلمة»، قالت ماريلاّ بجفاء. «خاصّة وأنّها نادرةٌ جدّا في آفُونْلي. أمّا بالنّسبة إلى الاعتذار إلى السّيّدة ليندْ، فهذا ما يجبُ عليكِ فعله، وما يجدرُ بك القيامُ به. وسوف تمكثين هنا في غرفتكِ حتّى تخبريني بأنّك عازمةٌ على طلب العفو منها».

«يبدو أنّ عليّ المكوث هنا إلى الأبد إذن»، قالت آنْ بنبرة حِداد. «لأنّني لا أستطيع أن أقول للسّيّدة ليندْ أنا آسفة للتّلفّظ بتلك الكلمات. كيف يمكنني ذلك؟ فأنا لستُ آسفةً. الشّيء الوحيدُ الذي يؤسفني هو إغضابُكِ أنتِ. ولكنّني سعيدة لأنّني قلتُ لها ما قلته. فقد دفعني ذلك إلى شُعور عظيم بالرّضا. لا يمكنني أن أعتذر على ما لستُ آسفة عليه. كيف ذلك؟ لا يمكنني حتّى أن أتخيّل نفسي آسفة».

«لعلّ خيالك سيعملُ على نحو أفضل في صباح الغد»، قالت ماريلاّ، وهي تهمُّ بالنّهوض والمغادرة. «لديكِ اللّيلة بأكملها لتفكّري مليّا في سلوككِ وتُحسِّني مزاجكِ. لقد قلتِ إنّك ستسعين إلى أن تكوني فتاة مهذّبةً جدّا إذا قبِلنا بإبقائك في الضّيعة الخضراء. ولكنْ، ليس هذا مُطلقا ما بدا لي مساءَ اليوم».

بعد أن خلّفت هذا الرّمح المسموم في خصر آنْ، نزلتْ ماريلاّ إلى المطبخ، مشوّشةَ الذّهن ومكدّرةً تماما. فقد كانت غاضبةً من نفسها مثل غضبها من آنْ. إذْ كلّما تذكّرت وجه السّيّدة رايتشلْ المفعم بالذّهول والصّدمة، ارتعشتْ شفتاها من المتعة وأحسّتْ برغبة جامحة في الضّحك.

(10)

اعتذارُ آنْ

لم تخبر ماريلاّ ماثيو بأيّ شيء عن الأمر في تلك اللّيلة. ولكن عندما استمرّت آنْ في عنادها صباحَ اليوم التّالي، وجب عليها أن تشرح له سبب غيابها عن طاولة الفطور. فراحتْ تسردُ عليه القصّة كلّها، وهي تبذلُ جهدا خاصّا لتشدّد على فداحة ما اقترفتهُ آنْ.

«إنّه لمن الجيّد أنّ آنْ قد لقّنتْ تلك العجوز الثّرثارة والمتطفّلة درسًا تستحقُّه». كانت تلك إجابة ماثيو المواسية.

«ماثيو كاثبرتْ! إنّك تفاجئني حقّا. فأنت تعرفُ جيّدا أنّ سلوك آنْ مُشينٌ جدّا. ومع ذلك، فأنتَ تقفُ في صفّها. لا تقل لي إذن إنّك لستَ موافقا على معاقبتها أصلا!».

«لا، لا. لا أنوي قول ذلك»، قال ماثيو بصعوبة. «أعتقدُ أنّهُ يجب معاقبتُها قليلا. ولكن لا تقسي عليها كثيرا يا ماريلاّ. وتذكّري أنّه ما من أحد قد علّمها من قبل أن تميّز بين الصّواب والخطإ. ستقدّمين لها شيئا لتأكله. أليس كذلك؟».

«متى رأيتني أجوّع النّاس حتّى الموت من أجل أن يحسّنوا سلوكهم؟»، استفهمت ماريلاّ مُستنكرة. «ستحصل على وجباتها

في مواقيتها المعتادة. وسأحملها لها بنفسي إلى غرفتها. ولكنّها ستظلّ هناك حتّى تقرّر الاعتذار إلى السّيّدة ليندْ. ولا مجال لمناقشة هذا الأمر يا ماثيو!».

كان فطورُ الصّباح والغداءُ والعشاء وجباتٍ صامتةً جدًّا. فقد ظلّت آنْ متمادِيةً في عنادِها. بعد كلّ وجبة، تحملُ ماريلاّ طبقا مليئا بالمأكولات إلى الجهة الشّرقيّة من الضّيعة. ثمّ تنزلُ به لاحقا، وقد نقُص منه نزرٌ قليل. شعر ماثيو بالقلق الشّديد عندما لمح طعام الوجبة الثّالثة. هل أكلتْ آنْ أيّ شيء؟

وعندما خرجتْ ماريلاّ في ذلك المساء لتحضر البقرات من المرعى، انزلق ماثيو الذي ظلّ هناك يراقبُها مُدّعيا أنّه يتسكّع بين الإسطبلات، إلى المنزل كأنّه لصّ، وصعد الدّرج دون أن يُحدث أيّ ضجيج. عادةً ما يكتفي ماثيو بأن يشغل الفضاء الفاصل بين المطبخ والغرفة الصّغيرة في الجهة الأخرى من الرّواق حيثُ ينام. ومن حين إلى آخر، يتجوّلُ بشيء من الانزعاج في الصّالون أو قاعة الجلوس عندما يزورهما الكاهنُ من أجل تناول الشّاي معهما. ولكنّه لم يصعد مطلقا إلى الطّابق العلويّ من منزله منذ الرّبيع الذي ساعد فيه ماريلاّ في تغليف جدران غرفة النّوم الإضافيّة بالورق الملوّن. وكان ذلك قبل أربع سنوات.

تقدّم في الرّواق على أطراف أصابعه. ثمّ مكث جامدا للحظات أمام باب الغرفة الشّرقيّة، قبل أن يستجمع الشّجاعة الكافية ليطرقه بأصابعه، ثمّ يفتح ويلقي نظرة على المكان.

كانت آنْ جالسةً على الكرسيّ الأصفر قرب النّافذة، وهي تتأمّلُ الحديقة بنظرة كئيبة. بدتْ صغيرةً جدّا وحزينة. وقد انفطر قلبُ ماثيو لرؤيتها في تلك الحال. أغلق الباب بلطف. ومشى إليها على أنامله.

«آنْ»، همس لها، كأنّه يخشى أن يسمعه أحدٌ. «كيف حالك يا آنْ؟».

رسمت الفتاةُ ابتسامة خفيفةً. وردّت:

«بخير. إنّني أتخيّل أشياء كثيرة. وذلك يساعدني على تزجية الوقت. طبعا، أشعر بقليل من الوحدة. ولكن، يجدر بي أن أتعوّد على ذلك».

ابتسمتْ آنْ مجدّدا وبشجاعة، وهي تواجه أمام عينيها سنوات عزلتها الطّويلة.

تذكّر ماثيو أنّ عليه أنْ يقول الكلمات التي أتى من أجلها، دون أن يضيّع الوقت. وذلك قبل عودة ماريلاّ من المرعى.

«حسنا، ألا تعتقدين أنّه يجدر بك الاستجابةُ لطلب ماريلاّ والانتهاء من الحكاية كلّها؟ يجبُ أن تنتهي هذه القصّة عاجلا أم آجلا. واعلمي أنّه لا وجود لأمرأة أكثر تصميما من ماريلاّ... إنّها عنيدةٌ على نحو لا يمكن وصفه يا آنْ. ولذلك أقولُ لك استجيبي لأمرها. ولتنتهِ هذه المسألة برمّتها!».

«أتقصد الاعتذار إلى السّيّدة ليندْ؟».

«نعم، الاعتذار... تلك هي الكلمة!»، هتف ماثيو بحماس.

«عليك أن تلِيني قليلاً حتّى تتلفّظي بتلك الكلمة. هذا ما أريد أن أُفهِمكِ إيّاه».

«أحسبُ أنّ بإمكاني الاعتذار من أجلك فحسب»، قالت آنْ، وهي تفكّر. «سيكونُ من الصّادق أن أقول إنّي آسفةٌ. لأنّني أصبحتُ الآن كذلك. أمّا أمسِ، فلم أكن البتّة آسفةً. بل كنتُ غاضبة جدّا. وكذلك مكثتُ طيلة اللّيل، حتّى إنّني استيقظتُ ثلاث مرّاتٍ من نومي. وفي كلّ مرّة، ظللتُ أحتفظ بنفس السّخط. ولكن، انتهى كلّ شيء هذا الصّباح. لم أعد أشعر بالغضب. كما أنّني أحسستُ بفراغ غريب وبالخجل أيضا من نفسي. ومع ذلك، لا يمكنني أن أتخيّل نفسي وأنا أذهب للاعتذار إلى السّيّدة ليند. سيكون ذلك مُهينا جدّا. وفي الأخير، قرّرتُ أن أظلّ محبوسةً هنا في الأعلى إلى الأبد على أن أفعل ذلك. ولكنّني مازلتُ متأهّبةً دوما لفعل أيّ شيء من أجلك أنت... إذا كنتَ تريده منّي طبعا».

«حسنا، ذلك ما أريده طبعا. إنّ الوحدة الرّهيبة تخيّم في الأسفل من دونك. هيّا، اذهبي وأطلقي العنان للكلمات التي تفضّ هذا الإشكال! هذا ما تفعله البنتُ الطّيّبة».

«حسنا إذن»، قالت في عزمٍ. «سأخبر ماريلاّ ما أن تعود أنّني قد تُبت».

«أحسنت، أحسنتِ يا آنْ! ولكن لا تقولي أيّ شيء لماريلاّ عن قدومي إلى هنا. فقد تعتقدُ أنّني أدليتُ بدلوي في المسألة، فيما وعدتُها ألاّ أفعل ذلك».

«لن تستطيع الخيولُ البرّيّة الجامحةُ أن تنتزع هذا السّرّ منّي».

«وكيف يمكن للخيول البرّيّة أن تنتزع سرّا من أيّ شخص؟».

ولكنّ ماثيو رحل على الفور، خائفا من نجاحه الذي حقّقه للتّوّ. وابتعد بسرعة فائقة إلى أقصى ركن في مرعى الخيول حتّى لا تشكّ ماريلاّ في أمره. وعندما رجعت ماريلاّ إلى المنزل، استغربتْ سماعها لصوتٍ حزين بعض الشّيء يهتفُ باسمها من فوق الدرابزين.

«ماذا؟»، سألت، وهي تقفُ عند الرّواق.

«أنا آسفةٌ لأنّني فقدتُ أعصابي وتفوّهتُ بعباراتٍ وقحة. وإنّني مستعدّةٌ للذّهاب إلى السّيّدة ليندْ والاعتذار إليها».

«ممتاز». ولم يُظْهِر جفاءُ ماريلاّ ذلك الارتياحَ الذي أحسّت به لسماع تلك الكلمات. لقد كانت تتساءل في سرّها طيلة الوقت عمّا يجدر بها فعلُه إذا استمرّتْ آنْ في عنادِها ورفضها للاعتذار.

«سأرافقكِ بعد أن أنهي الحلب».

وهكذا بعد إتمام الحلب، نزلت ماريلاّ وآنْ المسلكَ الضّيّق. كانت الأولى منتصبةَ القامة تمشي بخطوةٍ مُنتصرة فيما تتقدّمُ الثّانيةُ كابيةً مغتمّةً. ولكن في وسط الطّريق وفجأةً، انقشع غمُّ آنْ تماما، كأنّ في الأمر سحرًا. رفعتْ رأسها إلى أعلى. وأخذت تمشي بعينين ثابتتيْن تتأمّلان غروب الشّمس، تحيطُ بها هالةٌ من نشوةٍ خافتة. لاحظت ماريلاّ هذا التّبدّل في حال آن. ولم تستسغهُ. فهذه التي تنظر إليها الآن ليست التّائبة الوديعة التي خرجت معها للقاء السّيّدة ليندْ المستاءة.

«فيمَ تفكّرين يا آنْ»، سألتْها بحدّة.

«إنّني بصدد تخيُّل ما يجدر بي قولُه للسّيّدة ليندْ»، أجابت الفتاةُ الصّغيرة حالمةً.

كانت تلك إجابةً مُطمئنةً، أو لعلّها من المفترض أن تكون كذلك. ولكنّ ماريلاّ لم تستطع أن تخلّص نفسها من هاجسِ التّفكير في أنّ شيئا مّا يشذُّ عن مُخطّط العقاب الذي أعدّته بنفسها. إذ ليس هناك أيّ سبب وجيه يجعلُ آنْ طرِبةً ومتوهّجة في هذه اللّحظة.

ولكنّ الفتاة اليافعة ظلّت كذلك حتّى صارتَا معًا أمام السّيّدة ليندْ التي وجداها مُستغرقةً في الحياكة عند نافذة المطبخ. وحينئذ، اختفى كلُّ توهُّج من وجهها. ونَمتْ في ملامحها مظاهرُ النّدم والحزن. وقبل أن تبزُغ أيّ كلمة، جثتْ آنْ على ركبتيْها أمام السّيّدة رايتشلْ المذهولة. ومدّت يديها متضرّعة:

«آه، يا سيّدة ليندْ! أنا آسفةٌ إلى أبعد حدّ»، قالت بصوتٍ تخترقهُ الرّجفةُ. «لا يمكنني أبدا أن أعبّر لك عن حجم أسفي وكآبتي... لا، لا أستطيعُ ذلك حتّى لو لجأتُ إلى قاموسٍ كامل من الكلمات. كلّ ما يمكنك فعلهُ هو تخيّلُ ذلك. لقد تصرّفتُ بفظاعة معكِ. وجلبتُ الخزي والعار للصّديقين العزيزيْن، ماثيو وماريلاّ، اللّذيْن سمحا لي بالمكوث عندهما في منزل الضّيعة الخضراء، رغم أنّني لستُ صبيّا. إنّني فتاةٌ سيّئةٌ وناكرةٌ للجميل على نحو مروّع. وأستحقُّ أن يعاقبني النّاسُ المحترمون ويطردوني إلى الأبد. لقد كان فظيعا من جهتي أن أفقد أعصابي فقط لأنّكِ أخبرتِني بالحقيقة. نعم، تلك هي الحقيقة.

كلّ كلمةٍ تلفّظتِ بها كانت حقيقيّة وصادقةً. فأنا فعلا صهباءُ ذاتُ شعرٍ أحمر ونمشاءُ ونحيلةٌ وقبيحة. كما أنّ ما قلتُه لك حقيقيّ أيضا. ولكن ما كان ينبغي عليّ التّصريحُ به مطلقا. آه، يا سيّدة ليندْ! رجاء، من فضلكِ سامحيني! إنّكِ إنْ رفضتِ ذلك، فسوف يظلُّ الأمرُ مُحزنا بالنّسبة إليّ طيلة حياتي. إنّكِ لا ترغبين على الأرجح أن تحمّلي الحزن والكآبة لطفلة يتيمة صغيرة. أيُرضيكِ ذلك، حتّى لو كان طبعُها سيّئا فظيعا؟ رجاء، قولي إنّكِ تُسامحينني سيّدة ليندْ!».

شبكتْ آنْ أصابع يديْها. وحنَتْ رأسها. وانتظرت صدور الحُكم.

لم يكن هناك أيُّ مجال للشّكّ في صدقها. فقد كان بارزا بوضوح في كلّ نبرة من نبرات صوتها. وأمكن لماريلاّ وليندْ أن تتبيّنا ذلك. لكنّ الأولى قد أدركتْ أنّ آنْ بصدد الاستمتاع بوادي الإذلال الذي وقعت فيه. فأين هو إذن هذا العقابُ الذي كلّفتْ ماريلاّ نفسها بإعداده؟ لقد حوّلتْهُ هذه الصّغيرةُ إلى لعبة غريبة ممتعة.

أمّا بالنّسبة إلى السّيّدة ليندْ الطّيّبة التي لم تكن تتمتّعُ بحدسٍ مُميَّز، فلم تلاحظ أيّ شيء من هذا. وإنّما اكتفتْ بالاعتقاد بأنّ آنْ قد قدّمتْ اعتذارًا عميقا ومُقنِعا. وامّحى، تبعًا لذلك، كلُّ امتعاض من قلبها الرّقيق رغم غلظته الظّاهرة.

«هيّا، هيّا يا بنيّتي! انهضي!»، قالت بحرارة. «قد سامحتكِ طبعا. وأحسبُ أنّني قسوتُ عليكِ بعض الشّيء على أيّة حال. ولكنّني امرأة طليقةُ اللّسان معتادةٌ على التّصريح بما يجول في ذهنها. كان

عليك ألاّ تغضبي منّي فحسب. وهذا كلّ ما في الأمر. لا يمكنني أن أنكر أنّ شعركِ أحمر على نحو فظيع. ولكنّني عرفتُ من قبل فتاة -في الحقيقة، لقد كانت زميلتي في الدّراسة- كان شعرُها في صغرها بمثل حمرة شعركِ تماما. ولكنّه ازداد قتامةً عندما تقدّمتْ في السّنّ حتّى صار جميلا بلون الكستناء. لن أتفاجأ إذن إذا حدث نفس الشّيء لشعركِ... لا أستغربُ ذلك مطلقا».

«آه يا سيّدة ليندْ!»، أطلقتْ آنْ زفيرا ثقيلا وهي تقفُ على قدميْها. «لقد وهبتِني أملا ثمينا. ويجدرُ بي أن أتذكّر دوما أنّكِ امرأةٌ فاعلةُ خير. آه، يمكنني أن أكابد أيّ شيء إذا اقتنعتُ أنّ شعري سيصير كستنائيّ اللّون عندما أكبر. إنّه من الأيسر بكثير أن يكون المرءُ لطيفًا ومؤدّبا عندما يمتلك شعرا كستنائيّا. أليس كذلك؟ أمّا الآن، فهل تسمحينَ لي بالمكوث في حديقتكِ والجلوس على ذلك المقعد تحت أشجار التّفّاح، بينما تتحدّثين مع ماريلاّ؟ فهناك يوجدُ متّسع كبير للخيال».

«بحقّ الرّبّ! طبعا، اركُضي حيثُ شئت يا بُنيّتي! ويمكنكِ أن تقطفي باقة من الزّنابق، تلك الزّهور البيضاء هناك في تلك الزّاوية».

وما أن انغلق الباب خلف آنْ حتّى نهضت السّيّدةُ ليندْ فجأة كي تشعل مصباحا.

«إنّها صغيرةٌ غريبةُ الأطوار. خذي هذا الكرسيّ يا ماريلاّ! إنّه أفضل من الذي تجلسين عليه. إنّني أتركه عادةً للصّبيّ الذي يعمل عندي. نعم، إنّها غريبة الأطوار. ولكن، فيها شيءٌ مّا لطيفٌ ومؤثّر.

ولا عجب لديّ الآن أنّكما قد احتفظتُما بها، أنتِ وماثيو. كما أنّني لم أعد متأسّفة من أجلك حيال ذلك. فقد يصلُح حالُها في النّهاية. صحيحٌ أنّ لديها طريقة غريبة في التّعبير عمّا بداخلها... إنّها، نوعا مّا، مُغالية بعض الشّيء. أتفهمين قصدي؟ ولكنّها سوف تتخلّصُ من هذا العيب على الأرجح، وقد صارت تعيشُ مع شخصيْن مُتحضّريْن. أمّا فيما يخصّ سرعة انفعالها، فإنّ طفلا سريع الانفعال، يضطرمُ ثمّ يهدأُ لاحقا. ولكنّه نادرا ما يكونُ خبيثا أو مُخادعا. فليحمِنا الرّبُّ من الأطفال المُخادعين! ما أردتُ قوله لك يا ماريلاّ هو أنّها أعجبتني نوعا مّا».

عندما تأهّبت ماريلاّ للمغادرة، خرجت آنْ من شفق البُستانِ المعطّر بباقة من النّرجس الأبيض في يديها.

«لقد اعتذرتُ بطريقة حسنة. أليس كذلك؟»، قالتْ بفخر، وهما تنزلان المسلك. «لقد قلتُ لنفسي بما أنّه ينبغي عليّ القيام بذلك، فمن المُستحسَن أن أعتذر على نحو مثاليّ».

«نعم، لقد كان اعتذارُك مثاليّا حقّا»، علّقت ماريلاّ. وقد وجدتْ أنّ استحضار المشهد يوشكُ أن يدفعها إلى الضّحك. كما أحسّت برغبة غامضة في توبيخ آنْ لكونها قد أفرطت في الاعتذار. ولكن، ألنْ يكون ذلك سخيفا؟ في النّهاية، تخلّصتْ من تردُّدِها قائلةً بحزم:

«أرجو ألاّ تكون لديكِ مناسباتٌ أخرى لتقديم اعتذارات كهذه. كما أرجو أن تتحكّمي في أعصابك ومزاجكِ جيّدا يا آن».

«لن يكون ذلك عسيرا بالنّسبة إليّ إذا لم يسخر النّاس من مظهري أمام عينيّ»، قالتْ آنْ مُتنهّدةً. «إنّني لا أغضبُ عادةً في ما يتعلّق بالمسائل الأخرى. ولكنّني سئمتُ من سخريةِ الآخرين من شعري. ويجعلني ذلك أفور غضبا. هل تعتقدين أنّ شعري سوف يصبحُ كستنائيّا جميلا عندما أكبر؟».

«لا يجدرُ بك أن تنشغلي بمظهرك إلى هذه الدّرجة. أخشى أنّك فتاة صغيرة مُختالة».

«كيف يمكنني أن أكون مختالة وأنا أعلمُ أنّني قبيحة؟»، احتجّتْ آنْ. «أحبُّ الأشياء الجميلة. وأكرهُ أن أنظر في المرآة فأرى ما هو بشع. يدفعني ذلك إلى الكآبة، تماما مثلما أشعر كلّما رأيتُ أيّ شيء قبيح. إنّني أشعر بالشّفقة على كلّ ما يفتقرُ إلى الجمال».

«جمالُ المرء يكمنُ في خُلقه وليس في خلْقته»، قالت ماريلاّ.

«لقد سمعتُ ذلك من قبل. لكنّني لا أخفيكِ أنّني أشعر بالارتياب حيال هذه الكلمات»، لاحظت آنْ وهي تتشمّمُ زنابقها. «أليست زكيّةً هذه الأزهارُ؟ كان لطيفا جدّا أن تعطيها لي السّيّدة ليندْ. لقد صار قلبي خُلوا من كلّ شائبة تجاهها. إنّ القدرة على السّماح وطلب العفو تمنح المرء شعورا بالرّاحة. أليس كذلك؟ أليست النّجوم مُشعّة هذه اللّيلة؟ لو كان بإمكانك العيشُ داخل نجمةٍ، أيّ واحدة تختارين؟ بالنّسبة إليّ، أفضّل تلك النّجمة الكبيرة الصّافية والجميلة هناك في الأفق خلف ذلك التّلّ المُظلم».

«آنْ! أمسكي لسانكِ!»، صاحت ماريلاّ بحزم، وهي تُحاول أن تتابع سيل أفكار آنْ.

لم تقل الفتاةُ أيّ كلمة أخرى حتّى وصلتا إلى المسلك المفضي إلى منزلهما، حيثُ استقبلتهما ريحٌ ذاتُ هبوب خافت مُفعم بعطر السّرخس النّديّ اللاّسع. ومن بعيد بين ظلال الأشجار، لاح الضّوءُ المتوهّجُ لمصباح المطبخ في الضّيعة الخضراء. فجأةً، دنَتْ آنْ من ماريلاّ. ودسّتْ يدها في كفّ العجوز القاسية.

«كم لذيذٌ أن يعود المرءُ إلى المنزلِ متيقّنا من أنّه بيتهُ حقّا»، قالت آنْ. «لقد وقعتُ في حبّ الضّيعة الخضراء. ولم يسبِق لي من قبلُ أنْ أحببتُ أيّ مكان آخر. إذْ لا مكان بدا لي قابلاً لأنْ يكون بيتي. آه يا ماريلاّ، أنا سعيدةٌ جدّا، حتّى إنّه يمكنني أن أصلّي الآن دون أن أجد في ذلك أيّ عناء».

تدفّق شيءٌ مّا دافئٌ ولذيذٌ في قلب ماريلاّ عند ملمس تلك اليد الصّغيرة الرّقيقة. لعلّهُ خفقُ الأمومة الذي لم يسبق لها أن عرفته. ولقد أربكتها غرابتُه وحلاوته في الآن ذاته. فسارعت إلى استعادة مزاجها المعتاد من خلال حكمة عبرت رأسها:

«كوني فتاة طيّبة مؤدّبة. وسوف تظلّين سعيدة دوما يا آنْ. حينئذ، لن تجدي في تلاوة صلواتكِ أيَّ عُسر».

«ليستْ تلاوةُ الصّلوات مثل الصّلاة»، قالتْ آنْ في تأمُّل. «ولكنّني سأتخيّلُ نفسي تلك الرّيح التي تهبّ في أعالي الأشجار هناك. وعندما أسأم من الأشجار، سأتخيّلُ نفسي أهبُّ هنا بين السّرخس. ثمّ

أطير بعد ذلك إلى حديقة السّيّدة ليندْ. فأُرقِّص الأزهار. ومن هناك، بهبّةٍ واحدة عظيمة سأحطّ فوق حقل البرسيم. وأنتقل إلى بحيرة المياه اللاّمعة، حيثُ سأصنعُ منها الكثير من الأمواج الصّغيرة المتلألئة. آه، هناك مجالٌ شاسعٌ للخيال داخل الرّيح! حسنا، لن أقول أيّ شيء آخر الآن يا ماريلاّ».

«حمدا للرّبّ على ذلك»، زفرت ماريلاّ. وتنفّست الصّعداء.

(11)

انطباعاتُ آنْ عن مدرسةِ الأحد

«حسنا، هل أعجبتكِ؟»، سألتْ ماريلاّ.

كانت آنْ واقفةً في غرفة الجملونات تحدّقُ بثباتٍ في ثلاثة فساتين ممدّدة على الفراش. أوّلُها كان مصنوعا من قماش قطنيّ ملوّن. وقد شعُرت ماريلاّ برغبة مُلحّة في اقتنائه من بائع متجوّل خلال الصّيف الماضي. إذْ بدا لها صالحًا للاستعمال. أمّا قماشُ الفستان الثّاني، فهو من السّاتان الأسود والأبيض الذي اقتنتهُ خلال تخفيضاتِ الشّتاء. وبالنّسبة إلى قماش الثّالث، فهو نسيجٌ قطنيّ مطبوع صلبٌ وذو لونٍ أزرق، كانت قد اشترتهُ خلال ذلك الأسبوع من متجرٍ في كارمُودي.

لقد حاكتها ماريلاّ بنفسها. وجعلتها متماثلة، مضغوطةً بإحكام عند الخصر بأكمام ضيّقة قدر الإمكان.

«سأتخيّلُ أنّها أعجبتني»، ردّتْ آنْ بهدوء.

«لا أريدكِ أن تتخيّلي ذلك»، قالت ماريلاّ منزعجة. «آه، يمكنني أن أرى بوضوح أنّ الفساتين لم تعجبكِ. ما المشكلة إذن؟ أليستْ مرتّبة ونظيفة وجديدة؟».

«بلى».

«لماذا لم تُعجبكِ إذن؟».

«إنّها... إنّها ليست جميلة»، قالت آنْ مُتردِّدةً.

«جميلة!»، هتفت ماريلاّ وقد تغضّن وجهها. «إنّني لم أشغل بالي بمحاولة إعداد فساتين جميلة لك. ولستُ ممّن يُشجّع على الاختيال يا آنْ. فلأقل لك ذلك بوضوح تامّ. هذه الفساتينُ ذات جودة عالية، مريحةٌ، ومتينةٌ دون زخرفة أو فرو. وهي كلّ ما ستحصلين عليه خلال هذا الصّيف. بالنّسبة إلى الثّوبين القطنيّ البنّيّ والأزرق المطبوع، فهما من أجل المدرسة عندما تشرعين في ارتيادها. أمّا ثوبُ السّاتان، فهو مخصّصٌ لمدرسة الأحد في الكنيسة. أتوقّعُ منكِ الحفاظ عليها مرتّبةً، نظيفة وغير ممزّقة. يجدر بك أن تكوني ممتنّةً للحصول علي أيّ شيء تقريبا بعد الخِرق البالية التي كنتِ ترتدينها من قبل».

«آه، إنّني ممتنّةٌ لك حقّا»، اعترضتْ آنْ. «ولكنّني سأكونُ أكثر امتنانا لو... لو اكتفيتِ بجعل أحدِها ذا كُمّيْن فضفاضيْن. فهذا النّوعْ من الأكمام قد صار رائجا جدّا في هذه الأيّام. كم سأكون سعيدة يا ماريلاّ بارتداء فستان ذي كمّين فضفاضيْن!».

«حسنا، يبدو أنّ عليك الاستغناء عن هذه السّعادة. فليس لديّ ما يكفي من القماش لأبذّره في الأكمام الفضفاضة. وعلى أيّة حال، فمنظرها يبدو لي سخيفا جدّا. وأنا أفضّل ما هو بسيط وجميل».

«ولكنّني أفضّل أن أبدو سخيفة مثل الجميع على أن أبدو بسيطة وجميلةً بمُفردي»، ألحّت آنْ بنبرة حزينة.

«أنا متيقّنةٌ من ذلك طبعا. حسنا، والآن علّقي هذه الأثواب في خزانتكِ. ثمّ اجلسي. واعملي على تعلّم درس الأحد. لقد حصلتُ على دفتر من السّيّد بيلْ من أجلك. وستذهبين غدا إلى مدرسة الأحد في الكنيسة»، صرّحتْ ماريلاّ، وهي تختفي نازلةً الدّرجة في امتعاض واضح.

شبّكتْ آنْ أصابع يديها. واستغرقتْ في تأمّل الفساتين الثّلاثة.

«كم رغبتُ في الحصول على فستان أبيض ذي كُمّين فضفاضيْن!»، همستْ متحسِّرةً. «لقد صلّيتُ من أجل الحصول عليه. ولكنّني لم أتوقّع الاستجابة لدعائي. إذ لا أعتقدُ أنّ الرّبّ يملكُ وقتا كافيًا للتّفكير في فستان فتاة يتيمة صغيرة. ولذلك عرفتُ أنّ عليّ الاكتفاء بالتّعويل على ماريلاّ فيما يخصّ هذه المسألة. ولحسن الحظّ أنّ بإمكاني تخيّل إحدى هذه الفساتين أبيض ناصعا من المُوسلين بخيوط زخرفة جميلة من الدّانتيل وكمّين فضفاضين على ثلاث طبقات».

صباحَ الغد، امتنعتْ ماريلاّ عن اصطحاب آنْ إلى مدرسة الأحد في الكنيسة بسبب ألمٍ في الرّأس.

«آنْ، عليكِ أن تذهبي لمناداة السّيّدة ليندْ»، قالت. «ستتكفّلُ هي بالتّثبُّت ما إذا كنتِ في الصّفّ المناسب أم لا. عليكِ أن تنتبهي جيّدا إلى سلوككِ. أفهمتني؟ انتظري حتّى تُصغي إلى الخطبة بعد المدرسة. واطلبي من السّيّدة ليندْ أن تدلّك إلى مقعدك. هاكِ هذا الفلس. ولا تحدّقي في عيون الآخرين طويلا. وابقي هادئة

في مكانك! أتوقّع منك أن تلخّصي لي الدّرس عند عودتك إلى البيت».

انطلقتْ آنْ على الفور، غارقة في فستانها الساتان الأبيض والأسود، ذي الطّول والعرض المحترمين. ولكنّه يكشفُ بدقّة عن زوايا قامتها النّحيلة. كانت ترتدي قبّعةَ بحّارة صغيرةً، مسطّحة ولامعة. وقد جعلها طرازُها المألوفُ تشعر بالخيبة أكثر، بعد أن أطنبت في تخيُّل قبّعة ذات شرائطَ وزهور. ومع ذلك، فقد كانت هذه الشّرائطُ والزّهور تهبطُ عليها من السّماء قبل أن تدرك الطّريق الرّئيسيّ. لقد وجدت في منتصف المسلك أزهارَ الحوذان الذّهبيّة والورودَ البرّيّة التي تهيّجُها الرّيحُ. فأخذتْ تُزيّنُ قبّعتها بباقة كبيرة منها. وبغضّ النّظر عمّا قد يعتقدُه الآخرون بخصوص النّتيجة التي توصّلت إليها، فقد كانت راضية عنها، وراحتْ تتقدّمُ في الطّريق ببهجة عظيمة، بينما رأسُها الأحمرُ موشّحٌ بالأصفر والورديّ.

عندما وصلتْ إلى بيت السّيّدة ليندْ، وجدتها قد غادرتْ. ودون أن تخفُت عزيمةُ آنْ، واصلتْ طريقها بمفردها إلى الكنيسة. وفي المدخل، وجدتْ حشدا من الفتيات الصّغيرات اللّواتي يرتدين ملابس زاهية الألوان، بيضاء زرقاء أو ورديّةً. وقد ظللن يتأمّلن بفضولٍ هذه الغريبةَ التي تتوسّطهنّ بزخرُف رأسها العجيب. كانت فتياتُ آفُونلي قد سمعن سلفًا حكاياتٍ غريبةً عن آنْ؛ لقد قالت السّيّدةُ ليندْ إنّ لها مزاجا عصبيّا فظيعا. أمّا جيري بوت، الصبيُّ العامل في الضّيعة الخضراء، فقد قال إنّها تتحدّثُ بلا انقطاع

إلى نفْسها أو إلى الأشجار والأزهار مثل فتاة مجنونة. حملقْن فيها بثباتٍ، وهنّ يتهامسنَ من خلف كُتيِّباتهنّ. ما من واحدة منهنّ قد بادرتها بحركة وديّة سواءٌ أَعِند وصولها أمْ بعد انتهاء التّمارين. وقد وجدتْ آنْ نفسها أخيرا في صفّ الآنسة روجرسون.

كانت الآنسةُ روجرسون سيّدةً في منتصف العمر، تقدّمُ دروسا في مدرسة الأحد بالكنيسة منذ عشرين عاما. وكانت طريقتُها في التّدريس مميّزة؛ تطرح الأسئلة كما وردت في الكتيّب. ثمّ تحدّقُ بصرامة من خلف حوافّه في فتاةٍ بعينها تكونُ المعنيّة بالإجابة عليها. نظرت مرّات عديدةً في وجه آن، التي كانت تُجيبُ على الفور بفضل تدريبات ماريلاّ. ولكنّ إجاباتها السّريعة تثيرُ الشّكوك حول مدى فهمها للأسئلة والأجوبة على حدٍّ سواء.

فكّرتْ آنْ أنّ الآنسة روجرسون لا تروق لها. وأحسّت بالتّعاسة الشّديدة. إذ تملكُ جميع الفتيات الأخريات في الصّفّ أكماما فضفاضة. لقد شعرت بأنّ الحياة غير جديرة بالعيش من دون أكمام فضفاضة.

«هل أعجبتكِ مدرسة الأحد؟»، سألت ماريلاّ عندما رجعت آنْ إلى البيت.

ولأنّ باقتها قد ذبلت، ألقتْ بها آنْ في المسلك. ولذلك، لم تسمع ماريلاّ أيّ شيء عنها في البداية.

«مطلقا! إنّها فظيعة جدّا».

«آنْ شيرلي!»، صاحت ماريلاّ مُوبِّخةً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

جلستْ آنْ على الكرسيّ الهزّاز، مُتنهِّدةً بعمق. قبّلت إحدى أوراق بُوني. ولوّحت بيدها إلى فُوشية[1] تزهرُ.

«يبدو أنّها قد شعرت بالوحدة أثناء غيابي... أمّا بالنّسبة إلى مدرسة الأحد، فقد تصرّفتُ على نحو لائق ومُؤدَّب، تماما مثلما طلبتِ منّي. كانت السّيّدةُ ليندْ قد غادرتْ منزلها عند وصولي. ولكنّني ذهبتُ بمفردي. وصلتُ إلى الكنيسة مع فتيات أخريات كثيرات. وجلستُ في ركن بالمقصورة قرب النّافذة، بينما انطلقت التّمارين الافتتاحيّة. رتّل السّيّدُ بيلْ صلاة طويلة على نحو فظيع. كنتُ لأشعر بالتّعب والسّأم الشّديديْن قبل أن يتمكّن من إنهائها، لو لمْ أجلِس عند النّافذة. ولكنّها تطلُّ مباشرةً على بحيرة المياه اللاّمعة. ولهذا السّبب، اكتفيتُ بالتّأمُّل وتخيُّل جميع أصناف الرّوائع».

«كان ينبغي عليك ألاّ تفعلي مثل هذا، وأن تكتفي بالإصغاء إلى السّيّد بيلْ».

«ولكنّه لم يكن يتحدّثُ إليّ»، احتجّتْ آنْ. «بل كان يتحدّثُ إلى الرّبّ. كما يجدرُ بي أن أقول إنّه لم يبدُ عليه الاهتمامُ بذلك والانهماكُ فيه. أعتقدُ أنّه يحسبُ الرّبّ بعيدا جدّا، حتّى إنّ الأمر لا يستحقّ كلّ ذلك العناء. ومع ذلك، فقد أبدعتُ صلاة وجيزةً بمفردي. وتلوتُها؛ لقد لمحتُ صفّا طويلا من أشجار البتولا البيضاء منحنية فوق البحيرة، بينما تنسكبُ أشعّة الشّمس عليها، مُتغلغلةً إلى أسفل،

(1) جنسٌ من النّباتات من الفصيلة الأخدريّة من رتبة الآسيات. وهو يُزرعُ كثيرا في البيوت والحدائق.

عميقا جدّا في المياه. آه يا ماريلاّ! كان ذلك أشبه بحلم جميل. ولقد غمرني بالبهجة. فوجدتُني أقولُ «حمدًا لكَ يا ربُّ من أجل هذا» مرّتيْن أو ثلاثا.

«أرجو أنّكِ لم تجهري بذلك»، قالت ماريلاّ قلقة.

«لا، لا. همسًا فحسب... في النّهاية، توصّل السّيّدُ بيلْ إلى إنهاء صلاته. وطُلب منّي الالتحاقُ بصفّ الآنسة روجرسون الذي تضمّن تسع فتياتٍ أخريات، كلّهنّ يمتلكن أكماما فضفاضة في فساتينهنّ. حاولتُ أن أتخيّل كُمَّيْ فُستاني فضفاضيْن كذلك. ولكنّني فشلتُ. لماذا أخفقتُ يا ترى؟ كان الأمرُ ليكون أسهل بكثير لو كنتُ في غرفة الجملونات الشّرقيّة بمفردي. ولكنّه عسيرٌ جدّا هناك بين الأخريات اللّواتي يمتلكن أكماما فضفاضة حقيقيّة».

«لا يجدر بك أن تفكّري في أكمام الفساتين خلال درس الأحد في الكنيسة. بل كان ينبغي عليك حضور الدّرس بانتباه. أرجو أنّك تعلّمته في النّهاية».

«نعم، نعم. ولقد أجبتُ على أسئلة كثيرة طرحتْها عليّ الآنسةُ روجرسون. لا أعتقدُ أنّه من العادل أن تنفرد هي بطرح جميع الأسئلة. فقد كانت هناك أسئلةٌ كثيرة أودُّ من جهتي أن أطرحَها عليها. ولكنّني لم أُرِد ذلك في النّهاية، لأنّها لا تبدو لي روحًا شقيقة. بعد ذلك، أخذت جميعُ الفتيات الأخريات يُرتّلن مقاطعَ مقتبسةً من الكتاب المقدّس. سألتني ما إذا كنتُ أعرفُها. فأجبتُ بالنّفي. ولكنّني أخبرتُها أنّ بإمكاني أن أتلو «الكلب عند قبر سيّده» الواردةَ

في كتاب القراءة الثّالث. ليست قصيدةً دينيّة في الحقيقة. ولكنّها حزينةٌ وكئيبة بما يكفي لتكون كذلك. أجابتْني بالرّفض. وطلبتْ منّي أن أحفظ المقطع التّاسع عشر حتّى أتلوَه عليها في الأحد القادم. لقد قرأتهُ بعد الدّرس في الكنيسة. ووجدتُه مُذهلا. هناك سطران بالأخصّ أثّرا فيّ كثيرًا:

سريعا كما سقطت الأسرابُ الذّبيحةُ

في يوم مَدْيَن[1]

لا أعرفُ ما يعنيه السّربُ ولا مدين كذلك. ولكن، يبدو وقعُ هاتيْن الكلمتيْن مأساويًّا جدّا. وإنّي أتحرّقُ شوقا ليوم الأحد المُقبل، كي أتمكّنَ من تلاوة المقطع عليها. سأتدرّبُ على ذلك طيلة الأسبوع. بعد انتهاء الدّرس، طلبتُ من الآنسة روجرسون أن تدلّني على مقعدكِ في الكنيسة، لأنّ السّيّدة ليند كانت بعيدة عنّي. جلستُ هادئةً في مكاني. وكان المقطع الذي انتخبه القسُّ متمثّلا في الآيتين الثّانية والثّالثة من الفصل الثّالث. لقد كان نصّا مُفرِطا في الطّول. لو كنتُ مكانه لاخترتُ المقاطع الوجيزة والمؤثّرة. وبالنّسبة إلى الموعظة، فقد كانت كذلك طويلة جدّا. أحسبُ أنّ الكاهن قد أراد أن يجعلها في انسجام مع النّصّ الأوّل. لقد بدا لي رجُلاً غير جديرٍ بالاهتمام. ومن الواضح أنّ مشكلته تكمنُ في أنّه يفتقرُ تماما

(1) هذه ترجمتي الخاصّة للسّطرين الشّعريّين الواردين في الرّواية، مُقتطفين من سفر المزامير الإسكتلنديّ والذي يُحاكي شعرًا الصّياغة الواردة في الكتاب المقدّس، سفر إشعياء، الإصحاح التّاسع. أمّا بالنّسبة إلى مدين، فهو اسمُ القبيلة العربيّة القديمة المُشار إليها بأهل الأيكة.

إلى الخيال. ولذلك، لم أُصغ إليه جيّدا. واكتفيتُ بإطلاق العنان لأفكاري، مُركِّزة انتباهي على أشياءَ رائعة ومُفاجئة».

شعرتْ ماريلاّ بضرورة أن تُوبّخ آنْ بشدّة على ما قالته للتّوّ. ولكنّها أضربت عن ذلك، وهي تفكّرُ في سرّها أنّ معظم ما صرّحت به، وخصوصًا ما يتعلّقُ بخطبة الكاهن وصلوات السّيّد بيلْ، هو ذاتُه ما تنزّل في قرارة قلبها منذ سنواتٍ بعيدة، ولكنّها لم تجرؤ يوما على الإفصاح عنه. لقد أوشكت أن تعتقد أنّ انتقاداتها الحميميّةَ الخرساء والسّرّيّةَ قد اتّخذت فجأة شكلها اللّغويّ الظّاهر والمُتّهِم على لسان هذه المضغة الإنسانيّة الصّريحة والمهمَلة.

(12)
نَذْرٌ ووَعد

لم تسمع ماريلاّ أيَّ شيء عن قصّة القبّعة المكلَّلة بالأزهار حتّى الجمعة اللاّحقة. رجعت من عند السّيّدة ليِنْدْ. ونادت على آنْ لتمثُل أمامها.

«آنْ، تقول السّيّدةُ رايتشلْ إنّك قد ذهبتِ إلى الكنيسة يوم الأحد الماضي بقبّعة مُبرقشةٍ بالورود وحشائش الحوذان. فما الذي دهاكِ بحقّ الرّبّ؟ لا شكَّ أنّكِ كنتِ تحفة عجيبة إزاء أنظار الجميع!».

«آه، أعرفُ أنّ اللّونين الورديّ والأصفر غيرُ مناسبيْن لي»، استهلّتْ آنْ حديثها.

«عن أيّ هراء تتحدّثين! إنّني أشير إلى وضع الأزهار على قبّعتك. وبغضّ النّظر عن لونها، فإنّ الفكرة سخيفة جدّا. إنّكِ الفتاةُ الأكثرُ إثارةً للسّخط من بين جميع الفتيات اللّواتي عرفتهنّ».

«لماذا يكونُ وضع أزهارٍ على القبّعة أكثر سخافة من وضعها على الثّوب»، احتجّتْ آنْ. «لقد التقيتُ هناك الكثير من الفتيات اللّواتي يرتدين فساتين تزيّنها أزهارٌ مثبّتة فيها بدبابيس. فما الفرقُ إذن؟».

لم تكن ماريلاّ جاهزةً للانتقال بحديثها من المسائل العينيّة الملموسة إلى مسالك التّجريد الوعرة والمريبة. ولهذا السّبب، أردفت:

«لا تردّي عليّ بهذه الطّريقة يا آن! لقد كان ما فعلتِه حماقة سخيفة. ولا أريدُ لمثل هذه الحيلة أن تتكرّر بعد الآن. قالت السّيّدةُ رايتشلْ إنّها ودَّتْ لو ابتلعتْها الأرضُ عندما رأتكِ مُقبلةً في تلك الحال. ولم تتمكّن من الاقتراب منكِ لتسألكِ تنْحِيتها إلاّ بعد فواتِ الأوان. وهي تقول كذلك أنّ الحاضرين قد استغرقوا في التّهامس بشأن مظهرك. وطبعا، هم يعتقدون أنّني غبيّة خرقاء حتّى أسمح لك بالذّهاب إلى الكنيسة مزركشةً بذلك الشّكل».

«آه، أنا آسفةٌ حقّا»، قالت آنْ، وعيناها تذرفان الدّموع. «لم أفكّر ولو لوهلة واحدةٍ أنّك قد تعترضين على ذلك. كما أنّ الورود والحوذان كانت جميلة جدّا حتّى إنّني حسبتُ أنّها ستبدو رائعة على قبّعتي. ولقد رأيتُ الكثير من الفتيات الصّغيراتِ يحملن زهورًا اصطناعيّة على قبّعاتهنّ... أخشى أنّني سأكونُ عبئا ثقيلا على عاتقك. ولعلّه من الأفضل بالنّسبة إليك إعادتي إلى الميتم. أعرفُ أنّ ذلك سيكون فظيعا. ولن أتمكّن من مكابدته. بل إنّني سأصابُ على الأرجح بالسُّلّ. أنا نحيلةٌ جدّا كما ترين. ولكنّ ذلك أفضل من أن أثقل عليك».

«ماذا تقولين؟»، هتفتْ ماريلاّ مُنزعجةً من نفسها لدفعها البنت الصّغيرة إلى البكاء. لا أريدُ أن أعيدكِ إلى الميتم. هذا قرار واضحٌ بالنّسبة إليّ. ولكن، كلّ ما أريدهُ هو أن تتصرّفي مثل بقيّة

الفتيات الصّغيرات، دون أن تحوّلي نفسك إلى أضحوكة. هيّا، كُفّي عن البكاء الآن! لديّ أنباءٌ تهمّك؛ لقد عادت ديانا باري إلي بيتها اليوم. وسأذهب لزيارة أمّها من أجل استعارة تصميم تنّورة منها. فإذا شئتِ يمكنكِ القدومُ معي والتّعرّف على ديانا».

نهضتْ آنْ على أطراف قدميْها، وقد شبّكت أصابع يديها فيما الدّموعُ ما تزال تتلألأُ على وجنتيْها، مُفلتةً من يدها منشفة الأواني دون أن تنتبه إلى ذلك حتّى.

«آه يا ماريلاّ! إنّني أشعر بالخوف. الآن وقد حان الوقتُ، صرتُ أشعرُ بالذّعر من الأمر. ماذا لو لم تستلطفني؟ ستكون تلك خيبةَ الظّنّ الأكثر مأساويّة طيلة حياتي كلّها».

«هيّا، لا تُقحِمي نفسكِ في هذا الارتباك. وأرجو أن تكُفّي عن استخدام هذه الكلمات الطّويلة المعقّدة. فهي تبدو مضحكةً على لسان فتاة يافعة مثلك. أعتقدُ أنّ ديانا ستُعجَبُ بك كثيرا. إنّها أمُّها من يجدر بك أن تضعيها في الحُسبان، لأنّكِ إذا لم تثيري إعجابَها هي فلا أهمّيّة حينئذٍ لرأي ديانا فيكِ. إذا كانت قد سمعتْ شيئا عن انفجاركِ في وجه السّيّدة ليندْ أو ذهابكِ إلى الكنيسة وحشائشُ الحوذان تطوّقُ قبّعتكِ، فإنّني أتساءَل عمَّ يجولُ بذهنها تجاهكِ. يجبُ أن تكوني لطيفةً ومؤدّبة في بيتها. ولا تنسي أن تتجنّبي خطاباتك الطّويلة الغريبة. ولكن، يا إلهي! هل ترتجفين حقّا؟!».

كانتْ آنْ ترتجفُ بشدّة، ووجهها شاحبٌ متشنّج.

«أوه يا ماريلاّ، كنتِ لترتجفي كذلك لو كنتِ مُقبلةً على لقاء

فتاة صغيرة تأملين في أن تصير صديقة قلبك، فيما يُرجّحُ ألاّ تثيري إعجاب أمّها»، قالت وهي تعجّلُ بإحضار قبّعتها.

اتّجهتَا معا إلى منحدر البستان عبر الطّريق المختصر الذي يشقُّ الجدول، ومنه صعودا إلى تلّة التنّوب. طرقت ماريلاّ الباب. فقدِمت السّيّدةُ باري إلى باب المطبخ. كانت طويلة القامة ذاتِ عينيْن سوداويْن وشعر فاحمٍ وفمٍ ينِمُّ عن الحزم. ولقد ذاعتْ في كلّ مكانٍ شهرتُها بالصّرامة في تربية أبنائها.

«كيف حالك يا ماريلاّ؟»، سألت بحرارة. «تفضّلي بالدّخول. هذه هي الفتاةُ الصّغيرة التي تبنَّيْتِها مُؤخَّرا. أليس كذلك؟».

«بلى. هذه آنْ شيرلي»، أجابتْ ماريلاّ.

«آنْ... مكتوبا بسكونٍ في آخره»، قالتْ آنْ لاهثةً ومُصمِّمة، رغم ارتجافِها وحماسِها، على أنّه ما من مجال يجبُ أن يُتاحَ لأيّ لَبْسٍ في ما يخصُّ هذه النّقطة المهمّة.

صافحتها السّيّدةُ باري التي بدا عليها أنّها لم تسمع ما قالتهُ آنْ أو لم تفهم قصدَها على الأرجح. ثمّ قالتْ بلطف:

«كيف حالك؟».

«جسدي بخير. أمّا روحي فهي مُضطربةٌ جدّا. شكرا على سؤالك سيّدتي»، ردّتْ آنْ بجدّيّة. ثمّ التفتتْ إلى ماريلاّ. وأردفت: «ليس هناك أيّ شيء صادمٍ في ما قلته للتّوّ. أليس كذلك، ماريلاّ؟».

كانتْ ديانا جالسةً على الأريكة تتصفّحُ كتابا، ألقتهُ من يدها ما أن دخلت الزّائرتان. إنّها فتاة صغيرةٌ جميلة جدّا. لها عينا أمّها

السّوداوان وشعرُها الفاحمُ ووجنتاها المتورّدتان. أمّا ملامحُها المرحة، فقد ورثتها عن أبيها.

«هذه بُنيّتي الصّغيرةُ ديانا»، قالت السّيّدةُ باري. «ديانا، هلاّ اصطحبتِ آنْ إلى الحديقة لترى أزهاركِ. هذا أفضل لك من إعياء عينيك في ذاك الكتاب». والتفتت إلى ماريلاّ بينما تغادر الفتاتان: «إنّها تُفرط في قراءة الكتب! ولا يمكنني منعها من ذلك، لأنّ والدها يتواطؤ معها ويحرّضها على ذلك، ممّا جعلها مستغرقةً دوما في الكتب. إنّني سعيدةٌ لأنّها قد تجدُ الآن على الأرجح رفيقة تشاركها اللّعب. سيساعدها ذلك على الخروج والحركة».

في الخارج، كانت الحديقةُ غارقةً في أشعّة الغروب الرّقيقة التي تتدفّقُ عبر أشجار التنوب العتيقة والدّاكنة. وهناك وقفتْ آن وديانا تتبادلان النّظراتِ في خجلٍ من فوق أجمة من الزّنابق البهيّة. كانت حديقةُ عائلة باري روضةً بريّة مُزدانة بالأزهار. ولو لم تشعر آنْ بالتّوتّر إزاء لحظتها المصيريّة تلك، لكانت قد استمتعت بكلّ ما فيها من أشجار الصّفصاف الهائلة التي تسوّرُها إلى مختلف أشجار الصّنوبر العالية والأزهار الجميلة التي تنبتُ في ظلالها. أمّا مسالكُها العموديّةُ المستقيمةُ التي رسمتْ حدودَها بدقّةٍ سلسلةٌ من الأصداف المنتظمة، فقد كانت تقطعُها مثل شرائط الرّطوبة الحمراء. وفي الأسفل، اجتاح عدد هائلٌ من النّباتات أسرّة الأزهار، حيث نمَت أزهارُ القلب الدّامي الورديّةُ والقرنفل القرمزيّ الرّائعُ والنّرجسُ الأبيض الزّكيُّ والوردُ الاسكتلنديُّ الجميلُ الشّائكُ

وأزهار الحوض الورديّةُ الزّرقاء والبيضاء والأعشابُ الأرجوانيّةُ. هناك أيضا أدغالٌ من أشجار القيصوم وعشب القصب الأصفر والنّعناع ونباتات «آدم وحوّاء»(1) وكتل كثيفة من البرسيم الحلو ذي الأغصان العبقة، البيضاء والخفيفة مثل الرّيش. كان هناك ضوءٌ قرمزيٌّ قد أطلق رماحه النّاريّة على أزهار المسك البيضاء اليانعة. إنّها حديقةٌ تتكاسلُ فيها الشّمسُ. وفيها يطنُّ النّحل مع الرّياح المتسكّعة المُهرهرة.

«آه يا ديانا»، قالت آنْ أخيرا، وهي تُشبّكُ أصابع يديها وتكادُ تهمسُ. «هل تعتقدين... هل تعتقدين أنّ بإمكانكِ أن تُعجبي بي ولو قليلا... فقط ما يكفي لتصيري صديقة قلبي؟».

ضحكت ديانا على الفور، كعادتها دوما قبل أن تتكلّم.

«ولم هذا السّؤال؟ نعم، أحسب ذلك»، قالت بصراحة. «إنّني سعيدةٌ جدّا لأنّكِ انتقلتِ للعيش في الضّيعة الخضراء. كم يبدو لي رائعا أن أتمتّع برفيقةٍ تشاركني اللّعب! إذ ليس هناك أيّ فتاة تسكنُ في الجوار كي ألعب معها. كما أنّ أخواتي اللّواتي يكبرنني سنّا قد تجاوزن عمر اللّعب».

«هل تُقسمين على أن تكوني صديقتي إلى الأبد؟»، سألت آنْ بحماس شديد.

(1) التّسمية الشّائعة لما يُدعى باللُّوف السّبط. وهو أحد أنواع اللُّوف الذي ينتمي إلى الفصيلة القلقاسيّة من أحاديّات الفلقة.

بدت على ديانا ملامحُ الصّدمة.

«لماذا؟ إنّه من الفظيع أن يقسم المرء»، ردّت ديانا بنبرةٍ موبّخة.

«آه! لا ينطبق ذلك على طريقتي الخاصّة في القسم. إنّ هناك نوعين من القسم في النّهاية».

«لم يسبق لي أن سمعتُ إلاّ بنوع واحد فحسب»، أجابت ديانا في ارتياب.

«أؤكّد لك أنّ هناك نوعا آخر. وهو ليس سيّئا أو خبيثا. إنّه يتعلّقُ فقط بالنّذر والمعاهدة الصّادقة المقدّسة».

«حسنا، لا اعتراض لديّ على ذلك»، قالت آن مُوافِقةً في ارتياح. «كيف يتمُّ ذلك؟».

«علينا أن نضمّ أيدينا... هكذا»، قالت آنْ بجدّيّة. «كان ينبغي أن يتمّ هذا فوق مسلك مياه جارية. ولكن سنكتفي بتخيّل هذا المسلك جدولَ مياه جارية. سأبدأ بتلاوة القسَم أوّلا. إنّني أقطع على نفسي عهدا مقدّسا بأن أظلّ وفيّة لصديقة قلبي، ديانا باري، ما أشرقت شمسٌ وما أضاء قمرٌ فوق الأرض. حان دوركِ الآن. عليك فقط أن تدرجي اسمي في قسمكِ».

ردّدت ديانا القسَم ما بين ضحكتين. ثمّ قالت: «إنّكِ فتاة غريبة الطّبع يا آن. في الحقيقة، لقد سمعتُ هذا عنكِ من قبل. ولكنّني أعتقدُ أنّني سأحبّك كثيرا».

عندما خرجتْ ماريلاّ وآنْ عائدتيْن إلى منزلهما، رافقتْهُما ديانا حتّى الجسر الخشبيّ. ولقد مشت الصبيّتان اليافعتان معًا مُشبّكتيْن

ذراعيهما. وعند الجدول، افترقتا وهما تتواعدان بأن تقضّيا معا مساء اليوم التّالي.

«حسنا، هل وجدت في ديانا روحك الشّقيقة؟»، سألت ماريلاّ، وهما تصعدان معا حديقة الضّيعة الخضراء.

«آه، نعم»، أجابتْ آنْ بابتهاج وغير واعية بنبرة السُّخرية في صوتِ ماريلاّ. «ماريلاّ، إنّني في هذه اللّحظة أسعدُ فتاة في جزيرة الأمير إدوارد كلّها. وأؤكّدُ لك أنّني سأتلو صلواتي اللّيلة بإقبال لا مثيل له. غدا، سأبني مع ديانا كوخا نلعبُ فيه عند بستان البتولا الذي يملكه السّيّد ويليام بيلْ. أيمكنني أخذ تلك القطع المكسورة من أطباق الخزف الصّينيّ الموضوعة خارجا في الكوخ الخشبيّ؟ إنّ عيد ميلاد ديانا في شهر شباط. أمّا عيد ميلادي ففي شهر آذار. ألا تعتقدين أنّها مفاجأة غريبة جدّا؟ ستُعيرني ديانا كتابا أقرؤُه. تقول إنّه رائع جدّا ومثير إلى أبعد حدّ. كما أنّها ستُريني مكانا مميّزا في أعماق الغابة حيثُ تنبتُ أزهار النّيلوفر الأبيض. ألا تعتقدين أنّ عيني ديانا تبدوان مُعبّرتين جدّا؟ كم أودُّ لو كانت عيناي كذلك أيضا. ستُعلّمني ديانا كيف أنشدُ أغنيةً عنوانُها «نيلّي في وادي أشجار البندق». كما أنّها تنوي أن تهبني لوحة أعلّقها في غرفتي. إنّها صورة جميلة جدّا وفق ما تقوله. وهي رسمٌ لسيّدة راقية فاتنة ترفلُ في ثوب حريريّ أزرق فاتح. لقد أعطاها لها وكيلُ آلات خياطة. أتمنّى لو أنّي أملكُ ما أهديه لها كذلك. إنّني أطولُ منها قامة بمقدار سنتيمترين ونصف. ولكنّها أسمنُ منّي بكثير. وتقول إنّها ترغبُ في أن تصير نحيلة لأنّ ذلك يجعلها أكثر رشاقة وجمالا. ولكنّني أخشى

أنّها تريد أن تجاملني فحسب. سنذهبُ معا إلى الشّاطئ كي نجمع الأصداف. وقد اتّفقنا أن نسمّي النّبعَ عند الجسر الخشبيّ «نبع الجنّيّات». إنّه اسم أنيق. أليس كذلك؟ لقد قرأتُ من قبل قصّة عن نبع له نفس الاسم».

«أمّا بالنّسبة إليّ، فإنّني أرجو ألاّ تُهلكي ديانا من كثرة الكلام»، هتفت ماريلاّ. «ولكن تذكّري هذا جيّدا يا آنْ؛ إنّكِ لن تقضّي كلّ وقتك في اللّعب... ولا حتّى معظمه! إنّ لديكِ أعمالا تقومين بها. بل يجبُ أن تنجزيها أوّلا».

كانت كأسُ سعادةِ آنْ ممتلئةً. وقد أضاف ماثيو إليها القطرةَ التي أفاضتْها. لقد عاد للتّوّ من جولة في متجر بكارمودي. وبخجل أخرجَ رزمةً من جيبه. ومدّها إلى آنْ، وهو يصوّبُ نظرة متحدّيةً نحو ماريلاّ.

«سمعتكِ تقولين من قبل إنّكِ تحبّين حلويّات الشّوكولاتة. هاكِ إذن! لقد جلبتُ لكِ بعضا منها».

«هاه!»، صاحت ماريلاّ. «ستفسدُ أسنانها. وتتعبُ معدتها. انتظري، انتظري يا طفلتي! لا ترسمي هذه الملامح الكئيبة. يمكنك تناول هذه القطع بما أنّ ماثيو قد ذهب لإحضارها لك. ولكن كان من الأفضل لو جلب لك حلوى النّعناع. فهي صحّيّة أكثر. والآن، لا تتناوليها كلّها دفعةً واحدة فتمرضي!».

«آه، طبعا. لن أفعل ذلك»، أجابتْ آنْ بحماس شديد. «سأكتفي بواحدة اللّيلةَ يا ماريلاّ. ويمكنني أن أهدي نصفَها لديانا. أليس

كذلك؟ سيكون طعمُ القطع التي أحتفظُ بها لنفسي أشدّ حلاوةً إذا منحتُها النصّف الآخر. كم مبهجٌ أن يكون لديّ ما أقدّمه لها!».

«عليّ أن أعترف بحقيقة مّا»، قالت ماريلاّ بعد مغادرة آنْ إلى غرفتها. «هذه الفتاةُ ليست بخيلةً. وأنا سعيدة بذلك حقّا. إذ إنّ البخل هو أشدُّ ما أمقتُ من بين جميع العيوب التي يمكن أن يتّصف بها طفل مّا. بحقّ الرّبّ، إنّها هنا منذ ثلاثة أسابيع فحسب، فيما يبدو لي أنّها طالما كانت جزءا من هذا البيت. ولم يعد بإمكاني أن أتصوّر المنزل من دونها. نعم، نعم... لا تشرع في إلقاء تلك النّظرة التي تقول: لقد أخبرتكِ بهذا يا ماريلاّ... فهي سيّئةٌ بما يكفي إذا صدرت عن عيني امرأة. أمّا إذا كانت من طرف رجل، فهي لا تطاق بتاتا. أنا مستعدّةٌ للاعتراف بسعادتي لاحتفاظي بهذه الفتاة، وبكوني قد تعلّقتُ بها. ولكنّني أريدُ منك يا ماثيو كاثبرتْ أن تحجب عنّي هذه النّظرة».

(13)
مَسرّاتُ التّرقُّب

«لقد حان موعدُ عودة آنْ من أجل التمرّن على الخياطة»، قالت ماريلاّ، وهي تحدّقُ في السّاعة ثمّ تنظرُ إلى الخارج، في صفرة ظهيرة آب، حيثُ كلّ شيء غارقٌ في وهج القيظ. «لقد بقيت تلعبُ مع ديانا. وتجاوزت الوقت الذي منحتُه لها بنصف ساعة. وها إنّها الآن جاثمةٌ هناك على كومة الحطب تتحدّثُ إلى ماثيو وتثرثرُ مثل قدْر يغلي، فيما تعرفُ جيّدا أنّه كان عليها أن تكون منكبّة على عملها! وها هو طبعا يُصغي إليها بانتباه شديد مثل مغفّل حقيقيّ. لم يسبق لي أن رأيتُ رجلا مخبولا بهذا القدر. إذ كلّما تكلّمتْ أكثر وأوغلتْ في ابتداع غرائبها زادتْ متعتُه وافتتانُه بما تقوله. آنْ شيرلي! تعالي إلى هنا الآن وعلى الفور! أتسمعينني؟».

سلسلةٌ من النّقرات المتقطّعة على النّافذة الغربيّة أحضرت آنْ طائرةً من الفِناء، عيناها تتلألآن، وجنتاها متوهّجتان بتورُّد خفيف، وشعرُها منسدلٌ متدفّقٌ إلى الخلف كأنّه سيلٌ من اللّمعان.

«آه يا ماريلاّ!»، هتفتْ مُنقطعة الأنفاس. «تنظّم مدرسة الأحد الأسبوع المقبل نزهةً في حقل السّيّد هارمون آندروزْ. وذلك عند

بحيرة المياه اللاّمعة تماما. سوف تعدُّ السّيّدةُ المديرةُ بيلْ صحبة السّيّدة رايتشلْ ليندْ المثلّجات. تخيّلي ذلك يا ماريلاّ... مثلّجات! آه يا ماريلاّ! هل تسمحين لي بالمشاركة في النّزهة رجاء؟».

«انظري إلى السّاعة فحسب يا آنْ. متى يجدر بك أن تعودي إلى البيت؟».

«السّاعة الثّانية... ولكن، أليست رائعةً فكرةُ النّزهة هذه يا ماريلاّ؟ رجاء، هل أستطيع المشاركة فيها؟ آه، إنّني لم أذهب من قبل في أيّ نزهة منظّمة في الهواء الطّلق. لطالما حلمتُ بذلك حقّا. ولكنّني لم..».

«نعم، لقد طلبتُ منك أن تعودي في تمام السّاعة الثّانية. وها إنّ السّاعة توشكُ أن تدرك الثّالثة. أريدُ أن أعرف لَماذا لمْ تطيعيني يا آنْ».

«لماذا؟ كنتُ أنوي ذلك يا ماريلاّ... ولكن، أليست فكرةُ النّزهة عظيمة حقّا؟ لا يمكنكِ أن تتخيّلي بهاء فردوس البرّيّة وسحرَه. كما أنّني اضطُررتُ إلى أن أسرد الحكاية على ماثيو دون شكّ. يا لهُ من مُصغٍ لطيف! رجاء، هل أستطيع الذّهاب؟».

«عليكِ أن تتعلّمي مقاومة سحر ذاك الفردوس الذي تتحدّثين عنه. اعلمي أنّني حين أطلبُ منك العودةَ في ساعة محدّدة، فإنّني أعني تلك السّاعة بالضّبط، لا نصفَ ساعة أخرى تنضافُ إليها من جانبكِ. كما أنّكِ لستِ في حاجة إلى أن تخطُبي في المستمعين اللّطفاء على الطّريق. أمّا بالنّسبة إلى النّزهة، فلكِ أن تشاركي فيها

طبعا. إنّك طالبة في صفّ مدرسة الأحد. وليس لائقا أن أمنعكِ من الذّهاب فيما تُشارك جميع الفتيات الأخريات».

«لكن... لكنّ... ديانا تقول إنّ على كلّ واحدة منّا أن تحمل معها سلّة من الأطعمة. إنّني لا أجيدُ الطّبخ كما تعرفين يا ماريلاّ. و... ولستُ معترضةً جدّا على ذهابي إلى النّزهة دون كمّين فضفاضين. ولكنّني سأشعر بإهانة عظيمة لو ذهبتُ إليها دون سلّة. لقد التهم هذا الهاجسُ كلّ أفكاري منذ أن أخبرتني ديانا بالأمر».

«حسنا، لا حاجة إلى ذلك. سأعدّ لك سلّتكِ».

«آه، يا ماريلاّ الطّيبة العزيزة! إنّكِ لطيفة جدّا معي. آه، كم أنا ممتنّةٌ لك!».

وبعد أن استنفدت كلّ تأوّهاتها، ألقتْ آنْ بنفسها بين ذراعي ماريلاّ. وقبّلت وجنتها الشّاحبة في ابتهاج. إنّها المرّة الأولى التي تلمسُ فيها شفتان طفوليّتان ملء إرادتهما وجهَ ماريلاّ. ومرّةً أخرى، تدفّق داخلها ذلك الإحساسُ المفاجئُ بالعذوبة. وأحسّت بابتهاج عظيم وخفيّ لمداعبة آنْ المفاجئة التي كانت على الأرجح السّبب في قولها:

«هيّا، هيّا، لا تهمّني حيلُ القبل هذه. وقريبًا جدّا، ترين كيف أنّكِ ستشرعين في تنفيذ ما تُؤمَرين به بدقّة. أمّا بالنّسبة إلى الطّبخ، فإنّني أنوي أن أمنحك دروسا فيه خلال الأيّام القادمة. ولكنّك مازلتِ طائشةً يا آنْ. لقد كنتُ أترقّبُ أن تهدئي قليلاً وتستقرّي في سلوككِ قبل أن أشرع في ذلك. إذ يجدرُ بك أن تظلّي متيقّظة على

الدّوام في المطبخ، وألاّ تتوقّفي في خضمّ عمل مّا لتطلقي العنان لأحلام يقظتك وأفكارك التي تجوبُ العالم كلّه. والآن، أحضري أدوات الخياطة. أريدُ منك أن تُتِمّي العمل على مربّع جديد قبل حلول موعد الشّاي».

«إنّني أكرهُ أشغال الإبرة هذه»، قالت آنْ بنبرةٍ حزينة وهي تُحضر معدّات الخياطة، وتجلسُ مُتنهّدةً أمام سلسلة من المعيّنات الحمراء والبيضاء. «أعتقدُ أنّ هناك بعض الأعمال الجيّدة في الخياطة. ولكن ليس هناك أيّ مجال للخيال في استعمال الإبرة بهذا الشّكل. يتحرّكُ المرءُ من غرزة إلى أخرى دون أن يبدو عليه أنّه يتقدّمُ نحو وجهة معيّنة. ولكنّني أفضّل طبعا أن أكون آنْ ابنة الضّيعة الخضراء التي تخيطُ الرّقع على أن أكون آنْ ابنة أيّ مكان آخر التي لا تفعل شيئا سوى اللّعب. ومع ذلك، كم أودُّ لو يمرُّ الوقتُ أثناء الخياطة بنفس السّرعة التي يتدفّقُ بها أثناء لعبي مع ديانا. آه، إنّنا نقضّي أوقاتا ممتعة معا يا ماريلاّ. وعليّ خلالها أن أتكفّل بمعظم ما يتعلّقُ بالخيال. لكنّني بارعةٌ في ذلك. أمّا ديانا، فهي بكلّ بساطة مثاليّةٌ في كلّ ما تبقّى من الأمور. أتعرفين قطعةَ الأرض الصّغيرة، تلك التي تقع خلف الجدول الذي يتدفّق بين مزرعتنا ومزرعة السّيّد باري؟ إنّها ملك للسّيّد ويليام بيلْ. وفي طرف تلك الأرض، توجدُ حلقةٌ صغيرةٌ من أشجار البتولا البيضاء. إنّه المكان الأكثر رومنسيّة على الإطلاق يا ماريلاّ. وفيه أقمنا، أنا وديانا، ملعبنا الخاصّ. وسمّيناهُ فردوس البرّيّة. أليس هذا اسما شعريّا؟ أؤكّدُ لك أنّني احتجتُ إلى بعض الوقت حتّى أفوزَ به. ظللتُ متيقّظةً طيلة ليلةٍ بأكملها قبل

أن أبدِعهُ. فقبل أن أقع في النّوم بلحظاتٍ وجيزة، نجَم في ذهني كأنّه إلهامٌ مفاجئ. لقد شعرت ديانا بابتهاج عظيم ما أن سمعتهُ يُلفَظ من بين شفتيّ. أعددنا منزلنا هناك بأناقة شديدة. يجدر بك أن تأتي لزيارته يا ماريلاّ. جعلنا من صخورٍ كبيرة مكسوّة بالطّحالب مقاعدَ لنا. وعملنا من ألواح خشبيّة تمتدُّ من شجرة إلى أخرى رفوفا. وعلى هذه الألواح، بسطنا أطباقنا ومعدّاتنا. طبعا إنّها مكسورة. ولكنّ أسهل شيء في العالم تخيُّلها وهي سليمة وجديدة. هناك قطعةُ طبق مميّزة مزركشة برسوم لبلاب حمراء وصفراء. وهي جميلةٌ جدّا. لقد وضعناها في الصّالون مع بلّورة الجنّيّات. تلك البلّورةُ أشبه في روعتها بحلم لا يُصدّق. لقد عثرتْ عليها ديانا في الغابة خلف قنّ الدّجاجات التّابع لمنزلها. إنّها مليئة بأقواس قزح (أقواسُ قزح صغيرةٌ ويافعة جدّا لم تكبر بعدُ). قالت والدة ديانا إنّها قد انكسرت من مصباح متدلٍّ كان بحوزتهم من قبل. ولكن من الأجمل لنا أن نتخيّل أنّ الجنّيّات قد فقدنها ذات ليلة أثناء رقصهنّ. ولهذا السّبب، سمّيناها بلّورة الجنّيّات. سوف يصنعُ لنا ماثيو طاولة. آه، لقد تذكّرت! لقد سمّينا بركة الماء الصّغيرة والمستديرة في حقل السّيّد باري «بركة الصّفصاف». حصلتُ على هذا الاسم من كتاب أعارتني إيّاه ديانا. ويا له من كتاب مثير يا ماريلاّ! تملكُ بطلته خمسة عشّاق دفعة واحدة! بالنّسبة إليّ، يمكنني الاكتفاء بواحد فقط. وماذا عنكِ؟ كانت جميلة جدّا. ومرّت بمحن كثيرة وعسيرة. وكم كانَ الإغماءُ قريبا منها. آه، لو أنّني أستطيع أن أصاب بالإغماء بكلّ تلك السّهولة! ألا ترغبين في ذلك يا

ماريلاّ؟ إنّها مسألة رومنسيّة جدّا. ولكنّني أتمتّع بصحّة جيّدة رغم كوني نحيلة جدّا... أعتقدُ أنّني صرتُ أكثر امتلاء من قبل. أليس كذلك؟ كلَّ صباح، أتفحّصُ مرفقيّ بانتباه شديدٍ لأرى ما إذا كانا قد تكوَّرَا قليلا. أتعرفين أنّ ديانا ستحصل قريبا على ثوب جديد بكُمّين فضفاضيْن عند المرفقين؟ إنّها تنوي أن ترتديه في يوم النّزهة. آه، أرجو أن يكون الطّقسُ جميلا وصافيا يوم الأربعاء القادم. إذ لا يبدو لي أنّ بإمكاني أن أتحمّل إحساسي بالخيبة إذا حدث أيّ شيء يمنعني من المشاركة في النّزهة. أعتقدُ أنّني سأستمرّ في الحياة مع ذلك. ولكنّني متأكّدة أيضا من أنّ خيبة كتلكَ ستُصيبني بكآبة أبديّة. ولن يكون مهمّا بالنّسبة إليّ إذا شاركتُ في مئات النّزهات خلال السّنوات القادمة، لأنّها لن تعوّض مطلقا تفويتي لهذه. ستكون هناك قوارب في بحيرة المياه اللاّمعة... ومثلّجات طبعا كما أخبرتكِ سلفا. أتعرفين أنّني لم أذق المثلّجات من قبل؟ حاولتْ ديانا أن تشرح لي طبيعة المذاق. ولكنّني أعتقدُ أنّ المثلّجات واحدة من تلك الأشياء التي تفوق الخيال».

«آنْ، إنّك تتحدّثين بلا انقطاع منذ عشر دقائق بالضّبط»، قالت ماريلاّ. «والآن، من أجل الفضول والاكتشاف فحسبُ، فلنرَ ما إذا كان بإمكانكِ أن تمسكي لسانكِ لنفس المدّة الزّمنيّة».

تمكّنت آنْ من المكوث صامتة كما أرادت ماريلاّ. ولكنّها قضّت بقيّة الأسبوع، وهي تتحدّث عن النّزهة، وتفكّر في النّزهة وتحلمُ بها. هطل المطرُ يوم السّبت. فشعرت بقلق شديد وتوجّس من أن

يستمرّ المطر كذلك حتّى يوم الأربعاء، حتّى إنّ ماريلاّ قد قدّمت لها مربّعا آخر للحياكة كي تلهيَها قليلا وتهدّئ من روعها.

يومَ الأحد، اعترفتْ آنْ لماريلاّ في طريق العودة من الكنيسة إلى البيت أنّها شعرتْ بالبرد يتمدّدُ في جسدها من فرط الحماس عندما سمعت الكاهن يعلنُ عن النّزهة الجماعيّة من المنبر.

«لقد اهتزّ ظهري كلّه من القشعريرة يا ماريلاّ! ولا أعتقدُ في الحقيقة أنّني قد سلّمتُ بوقوع النّزهة فعلاً حتّى تلك اللّحظة. لقد خشيتُ أن تكون الحكاية كلّها حيلةً من تأليف مخيّلتي. ولكن عندما يصرّحُ الكاهنُ من على منبره بشيء مّا فلا خيار أمَام المرء سوى التّصديق.

«إنّكِ تفرطين في تعليق قلبك بالأشياء»، قالت ماريلاّ مُتنهِّدةً. «ولهذا السّبب، أخشى أنّ الحياة تخزّن لك عددا كبيرا من خيبات الظّنّ».

«أوه يا ماريلاّ، إنّ التّوق إلى الأشياء يمثُّل نصف الاستمتاع بها»، ردّتْ آنْ مُتعجّبةً. «ففي النّهاية، قد لا تتحصّلين على تلك الأشياء في حدّ ذاتها. ولكن لا شيء يمنعك من الاستمتاع بترقُّبها والتّوق إليها. تقول السّيّدةُ ليندْ «طوبى للّذين لا يترقّبون شيئا، لأنّ خيبةَ الأمل لا تصيبهم». ولكنّني أعتقدُ أنّ عدم ترقّب أيّ شيء أسوأ بكثير من خيبة الأمل».

ارتدتْ ماريلاّ مشبك الشّعر المصنوع من الجمشت[1] في يوم

(1) نوع من الحجارة الكريمة بنفسجيّة اللّون.

الكنيسة كعادتها. هذا ما تفعله دوما كلّما ذهبت إلى هناك. يبدو أنّها تجدُ في حمله معها ملمحًا مقدّسا. وترى في تركه نوعا من الخطيئة، كأن تنسى كتابها المقدّس في البيت أو مساهمتها في التّبرّع لبيت الرّبّ. كان ذلك المشبكُ أغلى ما تملكه ماريلاّ. لقد وهبه خالها الملاّحُ لأمّها التي منحتهُ لاحقا لها. لقد كان بيضويّ الشّكل من الطّراز العتيق. ويتضمّنُ خصلة من شعر أمّها مثبّتة تحت إطار الجمشت الصّقيل الرّفيع. لم تكن ماريلاّ تعرفُ الكثير في الحقيقة عن الحجارة الكريمة حتّى تتبيّن مدى جودة الجمشت ورفعته. لكنّها ظلّت تفكّر دوما أنّه غاية في الجمال. وطالما ظلّت مُستبطنةً بابتهاج شديد لوميضه البنفسجيّ المنعكس على فستانها الساتان البنّي، حتّى لو لم تتمكّن من رؤيته.

شعرت آنْ بإعجاب شديد عندما رأت المشبك لأوّل مرّة.

«آه يا ماريلاّ، إنّه مشبك شعر أنيق جدّا. لا أعرف كيف يمكنكِ الانتباهُ إلى الموعظة أو الصّلاة، وأنت ترتدين تحفةً كهذه. لو كنتُ مكانكِ لما نجحتُ في ذلك. أعتقدُ أنّ الجمشت حجرٌ جميلٌ جدّا. لقد كنتُ في ما مضى أحسبُ أنه الماس. كان ذلك قبل زمن بعيد، قبل أن أرى أيّ ماسة. ظللتُ أقرأ عنها وأحاول أن أتخيّل شكلها. وفي كلّ مرّة، كنتُ أتصوّرُ حجارةً بنفسجيّة متوهّجةً وجميلة. عندما رأيتُ الماس لأوّل مرّة في خاتم سيّدة، شعرتُ بخيبة عظيمة، ورحتُ أبكي بشدّة. طبعا، لقد كان الماسُ جميلا في النّهاية. ولكنّه لم يُشبه فكرتي عنه. أتسمحين لي بحمل المشبك للحظة يا ماريلاّ؟ أتعتقدين أنّ حجارة الجمشت هي أرواحُ البنفسجات الطّيّبة الضّائعة؟».

(14)
اعترافُ آنْ

مساء يوم الاثنين السّابق للنّزهة، نزلت ماريلاّ من غرفتها بوجه مُكدَّر.

«آن»، هتفت بتلك المخلوقة الصّغيرة المنهمكة في تقشير البازلاّء على الطّاولة النّاصعة، وهي تغنّي «نيلّي في وادي أشجار البندق» بعنفوان يشهدُ بالتّميّز لتعليم ديانا. «هل لاح أمامك مشبكي الجمشت؟ حسبتُ أنّني غرزته مساءَ أمسِ في وسادة الدّبابيس بعد عودتي من الكنيسة. ولكنّني لم أستطع العثور عليه في أيّ مكان».

«أنا... لقد رأيتهُ ظهيرة اليوم عندما كنتِ غائبة عن المنزل في جمعيّة المساعدات الكنسيّة»، قالت آنْ ببطء. «كنتُ بصدد المرور أمام باب غرفتك، عندما لمحتهُ مغروزا في الوسادة. فدخلتُ لألقي نظرة عليه».

«هل لمستِه؟»، سألت ماريلا بحزم.

«ن... نــ... نعم»، اعترفتْ آنْ. «حملتُه. وعلّقتُه على صدري لأرى كيف يبدو مظهرُه فحسب».

«ليس من حقّك التّصرّف على هذا النّحو. إنّ التّطفّل على

الآخرين وأشيائهم يعتبرُ خطأً شنيعا بالنّسبة إلى فتاة يافعة مثلك. ما كان ينبغي لك الدّخولُ إلى غرفتي في المقام الأوّل. كما أنّه لا يجدرُ بك لمسُ مشبك شعر ليس ملكا لك. أين وضعتِه إذن؟».

«آه، لقد أعدتُه إلى المنضدة على الفور. ولم أحملهُ لأكثر من دقيقة حتّى. حقّا، لم أقصد التّطفّل يا ماريلاّ. ولم أفكّر ساعتها ما إذا كان الدّخولُ إلى الغرفة وتجريبُ المشبك أمرًا سيّئا. ولكنْ، ها إنّ الأمر قد اتّضح لي. ولن أعيده ثانية أبدا. تكمنُ إحدى خصالي في أنّني لا أقترفُ نفس الخطإ مرّتين».

«لم تُرجعيه»، قالت ماريلاّ. «فذاك المشبكُ ليس موجودا في أيّ موضع من المنضدة. «لقد حملتِه معكِ خارجا أو اقترفتِ شيئا مّا من هذا القبيل».

«أؤكّدُ لك أنّني أعدتهُ إلى المنضدة»، ردّت آنْ بسرعة رأتْ فيها ماريلاّ شيئا من الوقاحة. «كلُّ ما في الأمر أنّني لا أتذكّرُ تحديدا ما إذا كنتُ قد غرزته في وسادة الدّبابيس أم وضعتُه في صينيّة الخزف الصّينيّ. ولكنّني متأكّدة تماما من أنّني أعدتُه».

«سأذهبُ. وألقي نظرة أخرى»، قالت ماريلاّ مُصمّمة على أن تنصفها. «إذا كنتِ قد أرجعتِ ذلك المشبك فهو مازال هناك في مكانه. أمّا إذا لم أجده، فإنّكِ لم تفعلي ذلك. هذا كلُّ ما في الأمر».

ذهبت ماريلاّ إلى غرفتها. وقامت بتفتيش شاملٍ ودقيق عن المشبك، لا على المنضدة فحسبُ وإنّما أيضا في كلّ مكان قد يوجد فيه. وعندما تيقّنت من عدم عثورها عليه، عادتْ إلى المطبخ».

«آنْ، لقد اختفى المشبكُ. واستنادا إلى اعترافك الخاصّ، أنتِ آخر شخص قد لمسه. والآن، ماذا فعلتِ به؟ أخبريني الحقيقة كلّها دفعةً واحدة. هل فقدتِه في الخارج؟».

«لا، لم يحدث ذلك»، أجابت آنْ بهدوء وهي تواجهُ مباشرةً نظرةَ ماريلاّ الغاضبة. «لم أحمل المشبك معي خارج غرفتكِ أبدا. هذه هي الحقيقة. ولأُحمَلْ إلى المقصلة إذا كنتُ كاذبةً. في الحقيقة، لا أعرف ما تعنيه لفظة مقصلة. ولكن، هذا ما لديّ لأقوله، ماريلاّ».

لم تقصد آنْ من «هذا ما لديّ لأقوله» سوى أن تشدّد على تأكيدها أكثر. ولكنّ ماريلاّ اعتبرته استعراضا للتّحدّي.

«أمّا أنا، فأعتقدُ أنّك تقُصّين عليّ الأكاذيب»، قالت بحدّة. «أعرف ذلك. والآن، لا أريد أن أسمع منكِ أيّ كلمة أخرى حتّى تقرّري أن تعترفي بالحقيقة كاملةً. اذهبي إلى غرفتك. وامكثي هناك حتّى تُصبحي جاهزة للاعتراف».

«هل آخذُ معي البازلاّء؟»، سألت آنْ بخنوع.

«لا، سأنهي تقشيرها بنفسي. افعلي كما أمرتُك».

تابعتْ ماريلاّ أشغالها المسائيّة بعد صعود آنْ إلى غرفتها بذهن مشوَّش جدّا. كانت خائفة جدّا من فقدان مشبكها الثّمين. هل تكونُ آنْ قد أضاعته؟ كم شنيعٌ أن تنكر أخذَها له، والحالُ أنّ بإمكان أيّ شخصٍ أن يتيقّن من ذلك... وبكلّ تلك البراءة المرسومة على ملامحها أيضا!

«لا يسعني أن أتخيّل ما هو أسوأ من هذا»، فكّرت ماريلاّ في

توتّر أثناء تقشيرها البازلاّء. «طبعا، أنا لا أعني أنّها قصدت أن تسرقه أو أيّ شيء من هذا القبيل. لقد أخذتهُ على الأرجح لتلعب به فحسبُ، أو تنغمسَ في حكايات خيالها تلك. لا شكّ أنّها قد أخذتهُ على أيّة حال. إذ ما من روح حيّة قد دخلت تلك الغرفة منذُ أن كانت هي فيها، وفق اعترافها، حتّى صعدتُ إليها اليوم. أمّا بالنّسبة إلى المشبك، فقد اختفى. ليس هناك ما هو أكثر يقينا من ذلك. أظنُّ أنّها قد أضاعته. وخشيت أن تعترف بذلك. فتعرّض نفسها للعقاب. إنّه من الفظيع التّفكيرُ في كونها فتاة كاذبة. فالأمر أسوأ من مزاجها السّيّء وغضبها السّريع. مسؤوليّةٌ مقلقة أن يملك المرءُ في بيته طفلا غير جدير بالثّقة. المكرُ والخداع، هذا ما كشفت عنه. وهذا ما يشعرني صراحةً بسوء أعظم ممّا تسبّب فيه فقدانُ المشبك. آه، لو أنّها اكتفت بقول الحقيقة لما انزعجتُ إلى هذا الحدّ!».

في ذلك المساء، تردّدت ماريلاّ على غرفتها مرّاتٍ عديدةً أملا في العثور على المشبك. ولكنّها فشلت في ذلك. كما أنّ زيارتها لغرفة آنْ الشّرقيّة قبل النّوم لم تُثمر أيّ نتيجة. فقد أصرّت آنْ على كونها لا تعرفُ أيّ شيء عن مكان المشبك. ولكنّ ماريلاّ في الجهة الأخرى ظلّت مقتنعةً على نحوٍ حاسم بعدم صدقها.

صباح اليوم التّالي، روت الحكايةَ لماثيو الذي بدا عليه الارتباكُ الشّديدُ والحيرة. ليس من الممكن بالنّسبة إليه أن يفقد ثقته في آنْ بكلّ هذه السّرعة والسّهولة. ولكنّ جميع الظّروف لا تتّجهُ في صالحها أيضا.

«هل أنتِ متأكّدة من أنّه لم يسقط خلف المنضدة؟». كان هذا هو الاقتراحُ الوحيد الذي استطاع أن يقدّمه لها.

«لقد سحبتُ المنضدة. وأخرجتُ كلّ الأدراج. ونقّبتُ في كلّ صدع أو شقّ»، ردّت ماريلاّ. «ومع ذلك، لم أجد شيئا. لقد اختفى المشبك. وتلك الفتاةُ هي التي أخذته. وكذبت بشأنه. هذه هي الحقيقةُ الجليّةُ البشعة، ماثيو كاثبرت! وعلينا أن نواجهها بأعين مفتوحة».

«حسنا، ماذا ستفعلين الآن؟»، سأل ماثيو بنبرة يأس واضحة، بينما شعر في سرّه بالامتنان لأنّ ماريلاّ هي التي ستتكفّل بمعالجة هذا الوضع. فهذه المرّة، لم يشعر بأيّ رغبة في التّدخّل واقتحام المشكل.

«سوف تبقى في غرفتها إلى أن تقرّر الاعتراف»، قالت ماريلاّ مُقطِّبةً، وهي تسترجعُ نجاح هذه الطّريقة في حادثة سابقة. «بعد ذلك، سوف نرى ما سيحدثُ. فقد نتوصّل إلى العثور على المشبك إذا اعترفت لنا بالمكان الذي أخذتهُ إليه. ولكن في جميع الأحوال، يجبُ أن يكون عقابُها وخيما يا ماثيو».

«حسنا، إنّكِ من سيتكفّلُ بالعقاب»، أجاب ماثيو، وهو يتناول قبّعته. «وتذكّري أنّه لا دخل لي في هذه المسألة. إنّكِ من طلب منّي هذا منذ البداية!».

شعرت ماريلاّ بأنّ الجميع قد تخلّى عنها. وهي عاجزةٌ حتّى عن الذّهاب إلى السّيّدة ليندْ لتسألها النّصيحة. لقد صعدت إلى الجهة

الشّرقيّة من الضّيعة الخضراء بوجه عبوس. وعادت منها بوجه أشدّ قتامةً وتجهُّما. مازالت آنْ رافضة بكلّ ثبات للاعتراف. وأصرّت على أنّها لم تأخذ المشبك معها إلى الخارج. لا شكّ أنّ الفتاة كانت تبكي بمفردها. وأحسّت ماريلاّ حيال ذلك بوخزة من الشّفقة. ولكنّها أسرعت إلى قمعها بحزم. ومع حلول اللّيل، كانت -وفق تعبيرها- قد غُلبت على أمرها.

«سوف تمكثين في هذه الغرفة حتّى تعترفي بما حدث يا آنْ. ولا داعي لتخيُّل أيّ مخرج آخر»، قالت بحزم.

«ولكنّ النّزهة غدا يا ماريلاّ»، انتحبتْ آنْ. «لن تمنعيني من المشاركة فيها. أليس كذلك؟ ستسمحين لي بالخروج مساءً فحسبُ. ألن تفعلي ذلك؟ بعد ذلك، سأبقى هنا راضيةً طيلة الفترة التي ترغبين فيها. ولكن، يجبُ أن أذهب إلى النّزهة».

«لن تذهبي لا إلى النّزهة ولا إلى أيّ مكان آخر حتّى تعترفي بما حدث يا آنْ».

«آه يا ماريلاّ»، شهقت الفتاة الصّغيرة.

ولكن، كانت ماريلاّ قد غادرتْ سلفا. وأغلقت الباب وراءها.

أشرق صباحُ الأربعاء صافيًا وجميلا، كأنّه مُصمّمٌ بعناية من أجل النّزهة الجماعيّة. كانت العصافيرُ تزقزقُ حول الضّيعة الخضراء. أرسلت الزّنابقُ البيضاءُ في الحديقة عطرا زكيّا على أجنحة الرّياح الشّفّافة التي عبرت كلّ باب ونافذة في المنزل، وتجوّلتْ بين الأروقة والغرف كأنّها أرواح مُبارِكة. لوّحت أشجارُ البتولا عند

مجرى الوادي بأيادٍ مرحة، كأنّها تترقّبُ تحيّة آنْ الصّباحيّةَ المعتادة والمُطِلّة من الغرفة الشّرقيّة. ولكنّ آنْ لم تكن عند نافذتها. وعندما حملت ماريلاّ فطور الصّباح إلى غرفتها، وجدتْها منكمشةً على سريرها، شاحبةَ اللّون. وبشفتين مُطبقتين وعينين لامعتين، بدتْ عليها ملامحُ التّصميم على أمر مّا. وفجأة قالت:

«ماريلاّ، أنا جاهزةٌ للاعتراف».

«هاه!» وضعت ماريلاّ الطّبق جانبا. ها قد نجحت طريقتُها مرّة أخرى. ولكنّ نجاحَها هذه المرّة له طعم مريرٌ قاسٍ. «دعيني أسمعُ ما لديكِ إذن يا آنْ؟».

«لقد أخذتُ مشبك الشّعر الجمشت»، قالت آنْ بنبرة من يردّدُ درسا حفظهُ عن ظهر قلب. «أخذتهُ، تماما كما ذكرتِ. لم أقصد ذلك عندما دخلتُ الغرفةَ. ولكنّه بدا لي جميلا جدّا يا ماريلاّ عندما علّقتهُ على صدري، حتّى إنّ موجة إغراء لا تُقاوم قد غمرتني تماما. لقد تخيّلتُ مقدار الرّوعة النّاتجة عن حمله معي إلى فردوس البرّيّة واستخدامه في لعب دور السّيّدة كورديليا فيتزغيرالدْ. إذ من الأسهل بالنّسبة إليّ تخيُّل كوني السّيّدةَ كورديليا إذا كنت أملكُ مشبكا جمشت حقيقيّ. صنعتُ أنا وديانا من قبل قلائدَ من أزهار التّوت. ولكن لا مجال لمقارنة تلك الأزهار بحجارة الجمشت الكريمة. ولذلك أخذتُ المشبك. وحسبتُ أنّ بإمكاني أن أرجعه إلى مكانه قبل عودتك. سلكتُ الطّريق الأبعد كي أطيل تمتّعي به أكثر. وعندما كنتُ أعبرُ جسرَ بحيرة المياه اللاّمعة، نزعتُ المشبك

لألقي عليه نظرةً أخرى. آه، يا للمعانه الرّائع تحت أشعّة الشّمس! ثمّ هممتُ بالانحناء فوق الجسر. فانزلق من بين أصابعي. ونزل إلى الأسفل، عميقا، عميقا، عميقا جدّا، وهو يومضُ ببريقه الأرجوانيّ. ثمّ غرق إلى الأبد في أعماق بحيرة المياه اللاّمعة. وهذا هو أفضل اعترافٍ يمكنني أداؤه يا ماريلاّ».

أحسّتْ ماريلاّ بفورةِ الغضب تغلي في قلبها من جديد. لقد أخذت هذه البنتُ مشبكَ شعرها الغالي. ثمّ أضاعتهُ. وها هي الآن تجلسُ في هدوء. وتقصُّ عليها التّفاصيلَ دُون أيّ علامة بادية عليها من علامات النّدم والحسرة.

«هذا فظيعٌ يا آنْ!»، قالتْ ماريلاّ، وهي تحاولُ جاهدةً أن تتكلّم بهدوء. «إنّكِ أسوأ فتاةٍ رأيتُها في حياتي».

«نعم، أعتقدُ أنّني كذلك»، قالت آنْ بهدوء. «وأعرفُ أنّني أستحقُّ العقاب. بل إنّ واجبكِ يحتّم عليك معاقبتي يا ماريلاّ. فهلاّ شرعتِ في ذلك الآن من فضلك، لأنّني أريدُ الذّهاب إلى النّزهة بذهن صافٍ».

«ماذا قلتِ؟ نزهة؟ ليس هناك أيّ نزهة اليوم يا آنْ شيرلي! وهذا هو عقابكِ. كما أنّهُ لا يُساوي نصفَ ما تستحقّينَه إزاء فعلتك هذه».

«لن أذهب إلى النّزهة؟!»، قفزتْ آنْ واقفةً على قدميْها. وتشبّثتْ بيديْ ماريلاّ. «ولكنّكِ وعدتِني بالسّماح لي بالذّهاب! آه يا ماريلاّ! يجبُ أن أشارك في النّزهة. إنّ ذلك هو السّبب في اعترافي. عاقبيني

بأيّ طريقة تُريدينَها إلاّ هذه يا ماريلاّ. رجاءً، رجاء، اسمحي لي بالذّهاب إلى النّزهة. تذكّري المثلّجات! قد لا تتاح لي أيُّ فرصة أخرى في حياتي كي أعرف طعمها.

نفضتْ ماريلاّ عنها يدي آنْ المتوسّلتين بنفور.

«لا حاجة إلى التّوسّل يا آنْ. قلتُ لن تذهبي إلى تلك النّزهة. وهذا قرار نهائيّ. لا أريد أن أسمع أيّ كلمة أخرى».

أيقنتْ آنْ أنّ ماريلاّ لن تتزحزح عن رأيها. فشبّكتْ أصابعَ يديها. وأطلقت صرخةً مُدوّيةً. ثمّ ألقت بنفسها على السّرير، وهي تنشجُ وتتلوّى مُستسلمةً لنوبة من الخيبة واليأس.

«بحقّ الرّبّ»، شهقت ماريلاّ مُتفاجئة وهي تعجّلُ بمغادرة الغرفة. «أعتقدُ أنّ هذه الفتاة مجنونة. إذ لا طفلة في مداركها العقليّة السّليمة تتصرّف على هذا النّحو. فإذا لم تكن مجنونة، فهي حتما سيّئة الطّباع. آه، يا إلهي! أخشى أن تكون رايتشلْ محقّة منذ البداية. ولكنّ الفأس قد وقعت في الرّأس. وفات أوانُ التّراجع الآن».

لقد كان صباحا مُنهِكا، عملت ماريلاّ خلالَه بلا هوادة حتّى إنّها فركت أرضيّة الرّواق ورفوفَ الألبان عندما لم تجد ما يشغلها. إذ لم تكن الأرضيّةُ ولا الرّفوف في حاجة إلى ذلك. ثمّ خرجتْ، وأخذتْ تكنسُ الفِناء.

عندما صار الغداءُ جاهزا، نادت على آنْ من أسفل الدّرج. فأطلّ عليها من فوق الدّرابزين وجهٌ ملطّخٌ بالدّموع. وحدّق فيها بحزن شديد.

«انزلي من أجل الغداء يا آنْ».

«لا أريدُ أيّ غداء يا ماريلاّ»، ردّت بصوتٍ قطّعهُ البكاء. «لا أستطيع أكل أيّ شيء. فقلبي منفطرٌ. ستشعرين يوما مّا بتأنيب الضّمير لأنّك كسرتِه يا ماريلاّ. ولكنّني أسامحكِ على ذلك. تذكّري عندما يُقبلُ ذلك اليومُ أنّني قد سامحتكِ حقّا. أمّا الآن، فلا تطلُبي منّي تناول أيّ شيء، وخصوصا إذا كان لحم الخنزير المسلوق مع الخضار».

عادتْ ماريلاّ إلى المطبخ ساخطة. فصبّتْ جامَ غضبها على ماثيو المسكين الذي كان، في تمزُّقِه بين مَيْله إلى العدْل والحقّ وتعاطُفِه غير المشروع مع آنْ، رجلا بائسا جدّا.

«حسنا، ما كان ينبغي لها أن تأخذ المشبك يا ماريلاّ، أو تكذب بشأنه»، اعترف، وهو يرقبُ في كآبةٍ صحنَه المليء بلحم الخنزير غير الرّومنسيّ والخضار، كأنّه يفكّرُ، مثل آنْ، أنّه طعام لا يتماشى مع نوبات الانفعال. «ولكنّها مخلوقةٌ صغيرة... مخلوقة صغيرة مميّزةٌ ومثيرة للاهتمام. ألا تعتقدين أنّه من القسوة المُفرِطة أن تمنعيها عن النّزهة التي طالما رغبت فيها بشدّة؟».

«ماثيو كاثبرت! إنّك تفاجئني حقّا. أعتقدُ أنّني قد تساهلتُ معها في عقابها. كما أنّه لا يبدو عليها الوعيُ بحجم خطئها الشّنيع. وهذا أكثرُ ما يخيفني في الحقيقة. لو أنّها شعرت بالأسف على الأقلّ لما كان الأمرُ محزنا إلى هذه الدّرجة. ولكنْ، لا يبدو أنّكَ تعي مدى خطورة المسألة كذلك. فأنت لا تكفّ عن إنشاء الأعذار لها. ويمكنني ملاحظةُ ذلك بسهولة».

«حسنا، إنّها مخلوقة يافعةٌ صغيرة»، ردّد ماثيو بصوت منخفض. «ولهذا يجدرُ بنا أن نمنحها فرصة أخرى. أنت تعرفين جيّدا أنّها لم تتلقَّ من قبلُ أيّ تربية».

«حسنا، ها هي بصدد تلقّيها الآن»، أجابت ماريلاّ.

ورغم أنّ جوابَها لم يُقنع ماثيو، فقد دفعه إلى الصّمت. كم كان ذلك الغداءُ وجبة كئيبةً جدّا! لم يكن هناك أيّ شيء مرح سوى حضور الصّبي الأجير جيري بوت. وقد بدت ماريلاّ متضايقة من انشراحه، كأنّ فيه نوعا من الإهانة الشّخصيّة لها.

بعد أن غسلتْ ماريلاّ الصّحون وجهّزت عجينةَ الخبز وأطعمت الدّجاجات، تذكّرت أنّها قد لاحظت من قبل تمزُّقا صغيرًا في شالِها المفضَّل المصنوع من الدّانتيل الأسود. كان ذلك أثناء خلعها له مساءَ الاثنين بعد عودتها من أمسية جمعيّة المساعدات. وحينئذٍ، قرّرت أن ترتقه.

كان الشّالُ موضوعا في صندوق داخل خزانتها. وما أن رفعتهُ وسحبتهُ إلى الخارج حتّى حطّت أشعّةُ الشّمس المتسلّلةُ من بين عرائش الكروم المتشابكة عند النّافذة على شيء مّا عالقٍ في شالها، شيء يومضُ مُرسلا بريقا بنفسجيّا. انتزعتهُ ماريلاّ على الفور، وقد شهقت من المفاجأة. إنّه مشبكُ الشّعر الجمشت. وقد علق دبّوسُه في إحدى الخيوط المخرّمة.

«يا ربّ السّماء!»، صاحت ماريلاّ بصوت مرتجف. «ما معنى هذا؟ هذا مشبكي! وهو سليمٌ بألف خير. لقد حسبتُه عالقا في قعر

بركة باري. ماذا قصدت تلك الفتاةُ إذن بقولها إنّها قد أخذته معها إلى الخارج وأضاعته؟ أعترفُ أنّ منزل الضّيعة الخضراء مسحور. ها إنّي أتذكّرُ الآن أنّني عندما خلعتُ شالي مساء الاثنين، وضعتهُ على المنضدة لدقيقة. أعتقدُ أنّ المشبك قد علِق به حينئذ. هكذا إذن!».

حملتْ ماريلاّ نفسَها إلى الغرفة الشّرقيّة من الجملونات، والمشبكُ في يدها. كانت آنْ قد استنفدتْ كلّ قدرتها على البكاء. وجلستْ مُكتئِبةً عند النّافذة.

«آنْ شيرلي!»، صاحت ماريلاّ بحزم. «لقد عثرتُ للتّوّ على مشبكي عالقا بشالي الأسود المخرّم. ولهذا أريدُ أن أفهم فورًا معنى الهُراء الذي أخبرتِني به هذا الصّباح».

«لماذا قلتِ لي إنّك ستُبقينني هنا حتّى أصرّح باعترافي؟»، أجابت آنْ بإعياء. «ولهذا السّبب، قرّرتُ أن أوافق على ذلك لأنّهُ لا بدّ لي من الذّهاب إلى النّزهة. ألّفتُ إذن اعترافي ليلة أمسِ بعد أن أويتُ إلى فراشي. وجعلتُه يبدو مُشوّقا ومُثيرا قدر المستطاع. ثمّ ظللتُ أقرؤُه في سرّي مرّات ومرّات حتّى حفظتُه عن ظهر قلب. ورغم ذلك، لم تسمحي لي بالذّهاب إلى النّزهة. وذلك ما يعني أنّ جهودي قد ذهبتْ سُدى».

اضطرّت ماريلاّ إلى الضّحك رغما عنها. ولكنّ ضميرها قد وخزها.

«آنْ! إنّك فتاة عجيبة! ولكنّني أنا المخطئة في الحقيقة. أعترفُ بذلك أمامك. ما كان عليّ أن أشكّك في كلامك مطلقًا، في حين

أنّك لم تكذبي عليّ من قبل. طبعا، ليس من اللاّئق بالنّسبة إليكِ الاعترافُ بذنب لم تقترفيه. بل إنّ ذلك سيّء جدّا في الحقيقة. ولكن أعترفُ أنّني من دفعكِ إلى ذلك. ولهذا السّبب، إذا سامحتني سأسامحكِ أيضا. وهكذا نطوي الصّفحة كلّيّا. ونستهلُّ صفحةً جديدة بيضاء. أمّا الآن، فجهّزي نفسكِ من أجل النّزهة».

طارت آنْ من مكانها كأنّها صاروخ.

«أوه، يا ماريلاّ! ألستُ متأخّرة عن النّزهة؟».

«لا، إنّها السّاعة الثّانية فحسب. وهذا يعني أنّهم قد اكتفوا بالاجتماع معا. ومازالت أمامكِ ساعةٌ كاملةٌ قبل أن يشرعوا في تناول الشّاي. هيّا، اغسلي وجهك. ومشّطي شعركِ. ثمّ ارتدي فستانكِ القطنيّ. سأعدُّ لك في الأثناء سلّة الطّعام. فهناك الكثير من الوجبات الجاهزة في البيت. وسأطلب من جيري أن يجهّز الفرس والعربة كي يأخذكِ مباشرة إلى موقع النّزهة.

«آه يا ماريلاّ!»، هتفتْ آنْ، وهي تهبّ راكضةً نحو المغسلة. قبل خمس دقائق فحسب، كنتُ بائسةً جدّا. وكنتُ أتمنّى لو أنّي لم أولد. أمّا الآن، فأنا غير مستعدّة لأن أستبدل حياةَ الملائكة بحياتي».

في تلك اللّيلة، رجعت آنْ إلى الضّيعة الخضراء سعيدةً، مُنهَكةً، تغمرُها سعادةٌ لا مجال لوصفها.

«آه يا ماريلاّ! لقد قضّيتُ وقتا عذْبا. عذب هي كلمة جديدة تعلّمتُها اليوم. أليست بليغةً حقّا؟ كان كلّ شيء رائعا. احتسينا شايا لذيذا. ثمّ تجوّل بنا السّيّدُ هارمون آندروز في أفواج سداسيّة

على متن القارب في بحيرة المياه اللاّمعة. أوشكتْ جايْن آندروز أن تسقط في الماء، بينما كانت تنحني لتلتقط الزّنابق. لحسن الحظّ أنّ السّيّد آندروز أمسكها من حزامها في اللّحظة الحاسمة. لو لم يفعل ذلك لكانت قد غرقت فعلا. آه، كم رغبتُ في أن أكون مكانها. يا لها من تجربة رومنسيّة أن يوشك المرءُ على الغرق! سوف يملك حينئذ قصّة عظيمة تستحقّ أن تُروى... كما أنّنا تناولنا المثلّجات. حقّا لا أجد الكلمات المناسبة لوصف مذاقها. إنّني أؤكّدُ لك يا ماريلاّ أنّها تُجاوز الخيال».

في ذلك المساء، روت ماريلاّ الحكاية كلّها على ماثيو، وهي عاكفة على سلّة الجوارب.

«أنا مستعدّة للاعتراف بخطئي»، اختتمت كلامها بصراحة. «ولكنّني تعلّمتُ درسا مهمّا. لا يمكنني تجنّب الضّحك وأنا أفكّر في اعتراف آنْ. ولكن، لا يجدرُ بي أن استسلم لذلك. فقد كان اعترافا كاذبا في نهاية المطاف. على كلّ حال، ليس أسوأ من الاحتمال الآخر. كما أنّني أظلُّ المسؤولة على ما حدث. إنّها فتاةٌ لا يسهل فهمُها. عليّ أن أعترف بذلك أيضا. لكنّني صرتُ مقتنعةً أنّها سوف تكبر لتصير شابّة صالحة. وطبعا، ليس هناك من شكّ أنّ البيت الذي تدخله يغادرهُ السّأم على الفور».

(15)

زوبعةٌ في فنجانِ المدرسة

«يا له من يوم بديع!»، قالت آنْ وهي تستنشقُ نفَسا عميقا. «أليس جميلا أن يكون المرءُ حيّا في يوم كهذا؟ إنّني أشفقُ على من لم يولدوا بعدُ، لأنّهم قد فوّتوه. نعم، يمكنهم أن يحظوا بأيّام أخرى جميلة. ولكنّهم لن يتمتّعوا أبدا بهذا اليوم. والأروعُ من كلّ ذلك، أن أذهب خلالَه إلى المدرسة، سالكةً هذا الطّريق اللّطيف. أليس كذلك؟

«لا شكّ أنّه أفضل من الطّريق الرّئيسيّ المفعم بالغبار والحرارة»، قالت ديانا بأسلوبها العمليّ المعتاد، وهي تختلسُ النّظرَ إلى سلّة طعامها وتحسب كم قضمةً تتاحُ لكلّ واحدة من الفتيات العشر إذا تمّت قسمةُ كعكات التّوت الشّهيّة الدّسمة الثّلاث عليهنّ جميعا.

اعتادت فتياتُ مدرسة أفونلي أن يقْتَسِمن دوما كلّ أطعمتهنّ. ولهذا السّبب، يُمثّلُ انفرادُ فتاةٍ منهنّ بثلاثِ كعكات توت أو حتّى اقتسامُها مع الرّفيقة الأعزّ على قلبها سببًا كافيا لوصْمِها بـ«اللّئيمة الفظيعة» أبدَ الدّهر. ومع ذلك، فإنّ القسمة بين الفتيات لن تؤدّي بكلّ واحدة منهنّ إلاّ إلى سيلان اللّعاب ومن ثَمّ العذابِ الأليم.

كان الطّريقُ الذي سلكته آنْ وديانا نحو المدرسة جميلا حقّا،

حتّى إنّ آنْ قد اعتبرت السّيرَ بين المنزل والمدرسة ممّا لا يستطيع الخيالُ أن يضاهيه. أمّا اقتفاء الطّريق الرّئيسيّ، فهو بالنّسبة إليها خال من الرّومنسيّة والعواطف. إذا كان هناك ما يستحقُّ أن يوصف بالرّومنسيّة فعلا فهو «مسلك العشّاق» و«بركة الصّفصاف» و«وادي البنفسج» و«ممرّ البتولا».

كان مسلكُ العشّاق يشقّ بستان الضّيعة الخضراء. ويمتدُّ صعودًا عبر الأدغال حتّى نهاية مزرعة كاثبرتْ. وهو الطّريقُ الذي يُعتمد أساسًا في نقل الأبقار إلى المراعي الخلفيّة وجلْبِ الحطب إلى المنزل في الشّتاء. أطلقت آنْ عليه اسم مسلك العشّاق قبل أن يمضي شهر على إقامتها في الضّيعة الخضراء.

«ليس ذلك لأنّ العشّاق يسلكون هذا الطّريق فعلا»، قالت وهي تشرح الأمر لماريلاّ. «بل لأنّني أقرأ مع ديانا كتابا مذهلا جدّا. ويردُ في الكتاب ذكرُ مسلكٍ للعشّاق. فأردنا أن يكون لنا مثله. كما أنّ الاسم جميل جدّا. أليس كذلك؟ إنّه رومنسيّ! ويمكننا أن نتخيّل بسهولة مشهد العشّاق وهم يسلكونه. إنّي أحبّ ذلك الطّريق لأنّني أستطيع فيه أن أفكّر جهرا دون أن يتّهمني النّاس بالجنون».

غادرت آنْ المنزل بمفردها في الصّباح. ومشت في مسلك العشّاق حتّى أدركت الجدول، حيث التحقت بها ديانا. ومن ثمّ صعدتا الدّرب. وعبرتا من تحت قوس القيقب المُورِق. «إنّ أشجار القيقب اجتماعيّةٌ جدّا»، قالت آنْ. «فهي تهمسُ وتوشوش بلا هوادة». وعندما أدركتْ الصّبيّتان جسْرًا مرتجَلا، خرجتا عن

المسلك. وتابعتا طريقهما عبر حقل السّيّد باري، مرورا ببركة الصّفصاف التي يوجد خلفها وادي البنفسج الأشبه بغمّازة في أدغال السّيّد آندرو بيلْ الشّاسعة. «طبعا، ليس فيه أيّ بنفسج الآن»، هكذا قالت آنْ لماريلاّ ذات مرّة. «ولكنّ ديانا تؤكّد أنّ آلاف البنفسجات سوف تزهر في الرّبيع. آه، يا ماريلاّ! هل يمكنك تخيّلها؟ إنّ مرآها يحبِس أنفاسي على الفور. لقد سمّيته وادي البنفسج. تقول ديانا إنّها لم تر قطّ من هو أبرعُ منّي في اختراع أسماء الأمكنة الفخمة. من الجيّد أن يكون المرء بارعا في شيء مّا. أليس كذلك؟ ولكن، ديانا هي التي أبدعت اسم ممرّ البتولا. رغبتْ في ذلك بشدّة. فتركتُ لها المجال. ولكنّني متيقّنة من أنّه كان بإمكاني العثور على اسم أكثر شعريّة من مجرّد ممرّ البتولا. إذ يمكن لأيّ شخص أن يعثر على اسم بهذه البساطة. وعلى أيّة حال يا ماريلاّ، أعتقدُ أنّ ممرّ البتولا هو أحد أجمل الأمكنة في العالم».

في الحقيقة، هناك أناس كثيرون بالإضافة إلى آنْ يعتقدون الأمر نفسه كلّما سلكوا ذلك الممرّ. لقد كان سبيلا صغيرا، ضيّقا ومتعرّجا، يلتفُّ نزولا على امتداد تلّة كبيرة في أدغال السّيّد بيلْ، حيثُ ينزلُ النّور مغربَلا بواسطة ظلال زمرّديّة صافية كأنّها قلب ماسة. وعلى جانبيه، تصطفُّ أشجار البتولا اليافعة بجذوعها البيضاء وأغصانها المرنة. وتسترسل على امتداده نباتاتُ السّرخس والأزهار النّجميّة والسّوسن البرّيّ والعناقيد القرمزيّة والتّوت الأبيض. وفي هوائِه، تفوحُ روائحُ زكيّة لذيذة وتسقسقُ عصافيرُ، وتهبُّ رياحٌ ضاحكة بين أغصان الأشجارِ العالية. ومن حينٍ إلى

آخر، يمكنُ للمرء إذا التزم الصّمتَ والهدوء -نادرا جدّا ما كان ذلك يحدثُ مع آنْ وديانا- أن يلمح أرنبا يقطع الطّريق وثبا. أسفلَ الوادي، يدرك المرُّ الطّريقَ الرّئيسيَّ. فلا يتبقّى أمامه سوى أن يقطع تلّ الصّنوبر حتّى يصل إلى المدرسة.

كانت مدرسةُ أفونلي بمثابة مبنى مطليّ بطلاء كلسيّ أبيض، واطئ الأفاريز وعريضِ النّوافذ. وقد أُثّث بمكاتب مريحة قديمة الطّراز وضخمة، قابلة للفتح والغلق. وعلى سطوحها الخشبيّة انتشرت رسومٌ هيروغليفيّة وحروفٌ أوّليّة من أسماء ثلاثة أجيال من طلبة المدرسة. يقعُ المبنى خلف الطّريق الرّئيسيّ. وخلفهُ دغلُ تنوب ظليل وغدير يحفظ فيه الأطفال صباحا قوارير الحليب حتّى تظلّ باردة ولذيذة في موعد الغداء.

تأمّلت ماريلاّ آنْ بقلبٍ تسكنُه الهواجسُ والوساوسُ، وهي تغادر إلى المدرسة في يومها الأوّل. إنّها فتاةٌ غريبة الأطوار. فهل تنجحُ يا ترى في التّعايش مع الأطفال الآخرين؟ وكيف ستتوصّل بحقّ الرّبّ إلى أن تمسك لسانها أثناء حصص الدّراسة؟

ومع ذلك، فقد سارت الأمور على نحو أفضل ممّا توقّعته ماريلاّ. وعادتْ آنْ في ذلك المساء مبتهجة في مزاج حسن.

«أعتقدُ أنّني سأحبّ هذه المدرسة»، قالت. «رغم أنّني لا أتوقّع الكثير من المعلّم. فهو منهمكٌ طيلة الوقت في فَتْلِ شواربه وترقيق نظراته الموجّهة إلى بريسي آندروز. إنّها فتاةٌ شابّة كما تعلمين. قد بلغت السّادسة عشرة. وتدرس من أجل اجتياز امتحان القبول

في الأكاديميّة الملكيّة في شارلوتْ تاوْنْ[1] خلال السّنة المقبلة. بالإضافة إلى ذلك، تزعم تيلي بُولتر أنّ المعلّم متيّم بها. إنّ لديها بشرةً جميلة وشعرا بنّيّا مجعّدا، تسرّحهُ إلى أعلى بطريقة أنيقة جدّا. وهي تجلسُ على المقعد الطّويل في آخر القاعة. وكذلك يفعل هو، في معظم الأحيان، حتّى يشرح لها الدّروس، وفق ما يدّعيه. ولكن، تقول روبي غيليس إنّها رأته يكتبُ شيئا مّا على لوحها، وعندما قرأته بريسي احمرَّ وجهُها مثل نبات الشّمندر وضحكت. كما تؤكّدُ روبي غيليس ألاّ علاقة لما كتبه لها بالدّرس».

«آنْ شيرلي! لا أريدُ أن أسمعكِ تتحدّثين عن معلّمك بهذه الطّريقة مرّة أخرى»، صاحت ماريلاّ بحدّة. إنّكِ لا تذهبين إلى المدرسة من أجل انتقاد المعلّم. أحسبُ أنّ لديه ما يدرِّسُ. ويكمنُ شأنُكِ في تعلّمه على نحو جيّد. كما أنّني أريدُكِ أن تعي جيّدا أنّه لا مجال لتعودي إلى البيت وتشرعي في رواية القصص عنه. هذا أمرٌ لا أقبله بتاتا. وأرجو أنّك أحسنتِ التّصرّف اليوم».

«نعم»، أجابت آنْ في ارتياح. «لم يكن الأمر صعبا كما تتوقّعين. جلستُ إلى جانب ديانا قرب النّافذة، حيث يمكننا أن نتأمّل بحيرة المياه اللاّمعة بسهولة. هناك الكثير من الفتيات اللّطيفات في المدرسة. وقد قضّينا وقتا ممتعا في اللّعب ساعةَ الغداء. كم رائع أن أجد الكثير من الفتيات لأشاركهنّ اللّعب! ولكنّني أحبُّ ديانا طبعا أكثر من أيّ بنت أخرى. وكذلك سوف أظلّ دوما.

---

(1) مدينةٌ كنديّة تعتبر عاصمة لجزيرة الأمير إدوارد.

بل إنّني أعشقُها... للأسف، أنا متخلّفة عن مستوى الآخرين على نحو فظيع. إنّهم يدرسون جميعا كتاب الصّفّ الخامس، بينما أدرسُ كتاب الصّفّ الرّابع. أشعر بشيء من الخزي حيال ذلك. وما يعزّيني هو أنّه لا أحد منهم يضاهي قدرتي على الخيال. سريعا جدّا، استطعتُ التّحقّق من الأمر. لقد درسنا في حصّة اليوم القراءةَ والجغرافيا، ومن ثمّ تاريخ كندا والإملاء. قال السّيّد فيليبس إنّ دقّتي في الرَّسم فظيعة جدّا. ورفع لوحي عاليا حتّى يرى الجميعُ في الصّفّ ما كُتب عليه وما صُحِّح من أخطاء. شعرتُ حينئذ بالإهانة والخزي يا ماريلاّ. ووددتُ لو كان أكثر لطفا مع غريبة مثلي. لقد أعطتني روبي غيليس تفّاحة. وأعارتني صوفيا سلون بطاقة ورديّة جميلة كتب عليها «أيمكنُ أن أراك في البيت؟». ويجبُ أن أعيدها لها غدا. كما سمحت لي تيري بولتر بارتداء خاتمها المصنوع من الخُرَز طيلة الظّهيرة. هل تسمحين لي يا ماريلاّ بأخذ بعض الخُرَز اللّؤلئيّة من وسادة الدّبابيس القديمة في العلّيّة، كي أصنع منها خاتما لي؟ وآه يا ماريلاّ! أخبرتني جاين أندروز أنّ ميني ماكفرسون قد قالت لها إنّها سمعت بريسي آندروز تقول لسارة غيليز إنّ أنفي جميل جدّا. ماريلاّ، إنّه أوّل إطراء أفوز به في حياتي. ولا يمكنك تصوّر الشّعور الغريب الذي أحدثه في قلبي. هل أنفي جميل حقّا؟ هيّا، أعرف أنّك ستقولين لي الحقيقة».

«أنفكِ جيّد بما فيه الكفاية»، ردّت ماريلاّ باقتضاب، وهي تفكّرُ في سرّها أنّ أنفَ آنْ جميلٌ جدّا، وعلى نحو مميّز. لكنّها لم تكن تنوي أن تخبرها بذلك.

حدث هذا قبل ثلاثة أسابيع. ثمّ سار كلّ شيء على ما يُرام حتّى صباح أيلول النّضر هذا، إذ تتبختر آنْ وديانا في مرح وصفاء على امتداد ممرّ البتولا، طفلتان من أسعد الفتيات في آفونلي على الإطلاق.

«أظنُّ أنّ غيلبرت بلايْث سيأتي إلى المدرسة اليوم»، قالت ديانا. «كان في زيارة لأبناء عمومته في نْيُو بورنسْوِيكْ[1] خلال عطلة الصّيف. وها قد عاد إلى بيته ليلة السّبت. إنّه وسيمٌ على نحو فظيع يا آنْ. كما أنّه يثير الفتيات بطريقة رهيبة. بل إنّه يعصف بحيواتنا تماما».

كشف صوتُ ديانا عن رغبتها في أن يُعصَف بحياتها بدل أن تظلّ ساكنةً.

«غيلبرتْ بلايث؟»، قالت آنْ. «أليس هذا هو الاسمُ المكتوب على جدار الرّواق في المدرسة رفقة جوليا بيلْ، وفوقهما «أحيطوا بهما علما»».

«بلى»، أجابت ديانا، وهي تقذفُ برأسها إلى الخلف. «ولكنّني متأكّدةٌ من كونه لا يستلطفها كثيرا. لقد سمعته ذات مرّة يقول إنّه حفظ جدول الضّرب بواسطة النّمش في وجهها».

«آه، لا تتحدّثي عن النّمش أمامي رجاء»، توسّلتْ آنْ. «هذا ليس لائقا بما أنّني أملكُ الكثير منه. ولكنّني أعتقدُ أنّ كتابة مثل هذه الأشياء عن البنات والأولاد على الجدران أمرٌ في غاية السّخافة. وإنّي لأتحدّى أيّ شخص يجرؤ على كتابة اسمي هناك إلى جانب

(1) مقاطعة في كندا عاصمتُها فريدْرِيكتُون.

اسم أحد الأولاد»، ثمّ أردفت مُسرعة بعد لحظة صمتٍ. «لا شكّ طبعا أنّ هذا بعيدٌ عن الاحتمال».

تنهّدتْ آنْ. إذ لم تكن ترغبُ في رؤية اسمها مكتوبا على جدار الرّواق المدرسيّ. ولكنّها شعرت في الآن نفسه بشيء من الإهانة إزاء يقينها من كونها غير معنيّة على الأرجح بذاك الخطر.

«كلام فارغ!»، صاحت ديانا، التي طالما عذّبت عيناها السّوداوان وضفائرُها اللاّمعة فتيانَ مدرسة آفونلي، والتي كُتب اسمُها إلى جانب أسمائهم مرّاتٍ عديدة. «ليس الأمر إلاّ دعابة في الحقيقة. ولا تثقي كثيرا في عدم إدراج اسمك هناك. إنّ تشارلي سلون متيّم بك. وقد أخبر أمّه -ركّزي جيّدا! قلتُ أمّه- أنّكِ أذكى فتاة في المدرسة. وهذا أفضلُ بكثير من أن تكوني الأجمل».

«لا، ليس كذلك»، قالت آنْ بنبرة أنثويّة إلى أبعد حدّ. «أفضّل أن أكون جميلة على أن أكون ذكيّة. كما أنّني أكرهُ تشارلي سلونْ. لا يمكنني احتمالُ صبيّ جاحظ العينين. وإذا كتب شخصٌ مّا اسمي مقترنا باسمه على جدار الرّواق، فلن أتمكّن من التّعافي من هذا المصاب أبدا، ديانا باري! ومع ذلك، فمن الجيّد أن تكون الواحدة منّا الأولى في صفّها».

«اعلمي إذن أنّ غيلبرت بلايثْ سيكونُ من هنا فصاعدًا شريككِ في الصّفّ نفسه»، قالت ديانا. «كما أُعلمكِ أنّه معتادٌ دوما على أن يكون الأوّل. رغم كونه قد أوشك على بلوغ الرّابعة عشر، فهو ما يزال في الصّفّ الرّابع. فقبل أربع سنوات، عانى والدُه من

المرض. واضطرّ إلى أن يسافر للعلاج في مقاطعة ألبِيرْتا. واصطحب ابنه معه. مكثا هناك ثلاث سنوات، لم يزاول غيلْ فيها تعليمه إلى أن رجعا معا إلى آفونلي. منذُ الآن، لن يسهُل عليكِ أن تكوني الأولى في الصّفّ يا آنْ!»

«يسرّني هذا»، قالت آنْ بلهفةٍ. «إذْ ما كنتُ لأشعر بالفخر حقًّا لتفوُّقي على فتيان صغار وبنات يافعاتٍ في سنّ التّاسعة أو العاشرة. أمسِ مثلا عندما قمتُ لتهجئة حروف كلمة غليان، رأيتُ جوزي باي -وقد كانت الأولى في صفّها- وهي تسترق النّظر إلى الكتاب. لم يرها السّيّد فيليبس في آخر المطاف. ولكنّني رأيتُها. واكتفيتُ بأن وجّهتُ إليها نظرة احتقار مجمّدة. فاحمرّت حتّى صارت مثل حبّة الشمندر. ولم تتمكّن من الإصابة في إجابتها».

«فتيات عائلة بايْ هؤلاء يحترفن الغشّ في كلّ شيء»، قالت ديانا في سخط، بينما تتسلّقان السّياج المفضي إلى الطّريق الرّئيسيّ. «أمس، وضعت غيرتي باي قارورة حليبها مكان قارورتي في الغدير. أتصدّقين هذا؟ والآن، أنا أقاطعها الكلام».

عندما كان السّيّدُ فيليبس في آخر القاعة يُصغي إلى بريسي آندروز، وهي تتلو النّشيد اللاّتينيّ الذي حفظته، همست ديانا لآنْ:

«ذاك هو غيلبرت بلايْثْ! إنّه الجالسُ في الجهة الأخرى من الصّفّ المقابل. ألقي عليه نظرةً يا آنْ. وقولي لي ما إذا كنتِ تجدينه وسيما حقّا».

استجابتْ آنْ لطلبها. والتفتتْ إليه. فحصلتْ على فرصةٍ

مواتية للنّظر مليّا. فقد كان المدعوُّ غيلبرتْ بلايْث مُنهمكا في تثبيت ضفيرة روبي غيليزْ الذّهبيّة الطّويلة في ظهر مقعدِها المقابل له بواسطة دبّوس. كان صبيّا طويلا، ذا شعر بنّيّ مجعّد وعينين عسليّتين لعوبتيْن وفمٍ ملتوٍ في ما يُشبه ابتسامةً ماكرة. وفي تلك اللّحظة تحديدا، نهضت روبي غيليز لتعرض نتيجتها الحسابية على المعلّم. لكنّها سقطت إلى الخلف على مقعدها، مُطلقةً زعيقا مدوّيا، وهي تحسبُ أنّ شعرها قد اقتُلع من جذوره. التفت إليها جميعُ التّلاميذ. وحدّق فيها السّيّدُ فيليبس بحدّة حتّى إنّها شرعت في البكاء. وعلى الفور، انتزع غيلبيرت الدّبّوس وأخفاه عن الأنظار. وانكبّ يطالع كتاب التّاريخ بوجه، هو أكثر الوجوه لطافة في العالم. ولكن، بعد أن خمدت الفوضى نظر إلى آنْ وغمزها على نحو طريف جدّا.

«أعتقدُ أنّ غيلبيركِ وسيمٌ حقّا»، اعترفت آن لديانا. «لكنّني أظنّه وقحا جدّا. إذْ ليس من اللاّئق أن يغمز لفتاة غريبة».

ولكن، لم تتأزّم الأمور على نحو حقيقيّ إلاّ بعد الظّهيرة؛ كان السّيّدُ فيليبس في آخِر القاعة يشرحُ مسألةً في الجبر لبريسي آندروز عندما اغتنم التّلاميذُ الفرصة. واستغرقوا في ما يروقُ لهم من الأعمال؛ تناول التّفّاح الأخضر، التّهامس، رسم الصّور على الألواح، اللّعب بالكرات الموصولة بالخيوط. وفي الأثناء، كان غيلبرتْ بلايثْ يحاول أن يلفت انتباه آنْ شيرلي، ويدفعها إلى النّظر إليه. لكنّه فشل تماما، لأنّها كانت شاردة الذّهن، بل إنّها لم تكن غافلةً عن وجود غيلبيرت بلايثْ فحسبُ، وإنّما أيضا عن جميع

التّلاميذ في مدرسة آفونلي وعن المدرسة نفسِها. بذقنٍ مُستنِدٍ إلى يديها وعينين مثبّتتين في وميض بحيرة المياه اللاّمعة التي تفتحُ عليها النّافذة الغربيّة، كانت غارقةً في أرض أحلام خلاّبة، لا تسمعُ ولا ترى شيئا باستثناء رؤاها العجيبة.

لم يعتد غيلبيرت بلايثْ على بذل جهد كي يلفت انتباهَ فتاة وعلى الفشل في تحقيق ذلك. يجبُ أن تنظر إليه تلك المدعوّة آنْ شيرلي، ذات الشّعر الأحمر والذّقن الحادّ والعينين الواسعتين اللّتيْن لا تشبهان عيني أيّ فتاة أخرى في آفونلي.

وثب غيلبيرت عبر الممرّ حتّى أدرك مقعد آنْ. فالتقط طرف جديلتها الحمراء الطّويلة. وسحبها على طول ذراعه، وهو يهمسُ بحدّة:

«جزر! جزر!».

حينئذ، حدّقت آن فيه بنظرة انتقام. بل إنّها لم تكتف بالنّظر. وإنّما وثبت واقفةً على قدميها، وقد تداعت أحلامُها المضيئة وصارت ركاما. رمت غيلبيرت بنظرة سخط تقدح شررا، سرعان ما أفسح المجال للدّموع.

«يا لك من صبيّ لئيم كريه!»، تعجّبت بحدّة. «كيف تجرؤ؟!» ثمّ... طاااخْ. رفعتْ آنْ لوحها. وهوت به على رأس غيلبرتْ. فكسرته نصفين (طبعا، إنّه اللّوح الذي انكسر وليس الرّأس).

تستمتع مدرسة آفونلي دوما بمثل هذه المشاهد. ولكنّ هذا الموقف يملك متعة خاصّة في قلوب من شاهدوه. لقد هتفوا جميعا،

بذعر ممتزج بالابتهاج: «أووه!». وشهقت ديانا، بينما شرعتْ روبي غيليز المشهورةُ بنوباتها العصبيّة في البكاء. أمّا تُومي سْلُونْ، فقد أفلتَ كراته. وظلّ يحدّقُ مشدوهًا في المشهد.

تقدّم السّيّدُ فيليبسْ في الممرّ بين الصّفوف. وحطّ يدا ثقيلة على كتف آنْ.

«آن شيرلي، ما معنى هذا؟!»، سأل بصوت غاضب.

لم تجب آنْ بأيّ كلمة. فقد كانت في حاجة إلى ما يجاوز طاقتها من الجرأة والاحتمال حتّى تعترف أمام المدرسة كلّها بكونها قد لُقّبت بالجزرة. في المقابل، تكلّم غيلبيرت بثبات:

«إنّه خطئي أنا يا سيّد فيليبس. فقد ضايقتُها».

ولكنّ السّيّد فيليبس لم يعرهُ أيّ اهتمام.

«يؤسفني أن يكون أحد تلاميذي بمثل هذا الطّبع وهذه الرّوح الانتقاميّة الحقودة»، قال بنبرة المواعظ، كأنّ مجرّد الانتساب إلى صفّه كفيلٌ باجتثاث جميع النّوازع السّيّئة من قلوب تلك المخلوقات الصّغيرة الفانية وغير المثاليّة. «آن، اذهبي وقفي عند المنصّة أمام السّبّورة لبقيّة اليوم».

كانت آنْ لتفضّل الجَلْد على هذه العقوبة، التي جعلت روحها الحسّاسة ترتجف على الفور كأنّها قد تعرّضت حقّا للجلد. وبوجه أبيض شاحب، استجابت لأمره، بينما التقط السّيّد فيليبس قطعة طبشور. وكتب على السّبّورة فوق رأسها:

«آنْ شيرلي سيّئة الطّبع والمزاج. يجبُ على آنْ شيرلي أن تتعلّم

كيف تضبط نفسها». ثمّ قرأها بصوت عال حتّى يتمكّن الجميع، بما في ذلك تلاميذ الصّفّ الأوّل الذين لا يجيدون قراءة المكتوب، من فهمها.

مكثت آنْ واقفةً هناك طيلة ما تبقّى من اليوم، وقد انتصبت فوق رأسها تلك العبارة. لم تبكِ. ولم تحن رأسها. فقد كان الغضبُ المضطرمُ في قلبها يساعدها على الصّمود إزاء شعورها بالإهانة. بعينين مستاءتين ووجنتين ورّدهُما الغضبُ واجهت نظرة ديانا المتعاطفة وإيماءات تشارلي سلون المعبّرة عن السّخط وابتسامات جوزي باي الخبيثة. أمّا غيلبيرت بلايثْ، فلم تنظر إليه مطلقا. إنّها لن تنظر إليه أبدا. ولن تكلّمه بعد الآن.

عندما انتهى الدّرسُ، سارتْ آنْ مُغادرة وهي ترفع رأسها الأحمر إلى أعلى. حاول غيلبيرت أن يعترضها عند باب الرّواق.

«أنا آسفٌ جدّا لأنّني سخرتُ من شعركِ يا آنْ»، همس في ندم. «صدقا، أنا... هيّا، لا تبقي غاضبة. أرجوك!».

تجاوزته آنْ في ازدراء، دون أيّ نظرة أو علامة على سماعه.

«آه، كيف استطعتِ فعل ذلك يا آن؟!»، هتفت ديانا بينما كانتا تنزلان الطّريق، وقد امتزج في صوتها اللّوم بالإعجاب. إذْ ما كانت هي لتقدر أبدًا أن تقاوم توسُّل غيلبيرت.

«لن أسامح غيلبرتْ بلايثْ بتاتا»، قالت آن بصرامة. «كما أنّ السّيّد فيليبسْ كتب اسمي دون سكون في آخره. لقد نفذ الحديدُ إلى روحي يا ديانا».

لم تفهم ديانا أيّ كلمة ممّا قالته آنْ. لكنّها أدركت أنّها تشير إلى أمر رهيب.

«ما كان يجدر بك أن تنزعجي من سخرية غيلبيرت من شعرك»، قالت بلطف. «إنّه يفعل ذلك مع جميع الفتيات. وهو يسخر من شعري بسبب سواده أيضا. وقد لقّبني بالغراب مرّات عديدة. لكنّني لم أسمعه قطّ يعتذر لأيّ شيء من هذا القبيل».

«هناك فرق شاسع بين أن يُلقّب المرء بالغراب وبين أن يُدعى جزرة»، قالت بكبرياء. «لقد جرح غيلبرتْ بلايثْ مشاعري على نحو مؤلم جدّا يا ديانا».

كان من الممكن أن تخمد الحكاية كلّها دون المزيد من المشاعر الجريحة على نحو مؤلم جدّا. ولكنّ المصائب لا تأتي فرادى.

اعتاد تلاميذُ مدرسة آفونلي في معظم الأحيان أن يقضوا ساعة الغداء في جمع الصّمغ من بستان الصّنوبر الذي يملكه السّيّد بيلْ، والممتدّ على التّلّة خلف المرج الشّاسع. فمن موقعهم ذاك، يمكنهم مراقبة منزل إيبن رايتْ حيثُ يقيم السّيّد فيليبسْ. ونظرا إلى أنّ المسافة التي تفصلهم عن المدرسة تفوقُ تلك التي تفصلها عن منزل السّيّد رايتْ بثلاثة أضعاف، فإنّهم كانوا يبذلون جهودا خارقة كي يصلوا إلى هناك، مقطوعي الأنفاس، لاهثين ومتأخّرين ببضع دقائق قليلة.

في اليوم التّالي، كان السّيّدُ فيليبسْ منغمسا في إحدى نوباته الإصلاحيّة المفاجئة. ولهذا السّبب، أعلن قبل الغداء أنّه يريد من

جميع التّلاميذ العودة في الموعد المحدّد والجلوسَ في أماكنهم دون أيّ تأخير، ومن يتأخّر منهم، فهو عرضة للعقاب.

ومع ذلك، فقد ذهب جميع الفتيان وبعض الفتيات إلى بستان الصّنوبر كالعادة، عازمين على أن يمكثوا لفترة قصيرة تسمحُ لهم بتناول مضغة من الصّمغ. ولكن كان بستان الصّنوبر مغريا والجوز الأصفر الصّمغيّ مضلّلا. فالتقط التّلاميذ ما طاب لهم. ثمّ تاهوا وشردوا في المكان. وكالعادة، لا شيء بإمكانه أن يعيدهم إلى إحساسهم بالزّمن إلاّ صياحُ جيمي غلوفر من فوق صنوبرة عتيقة مهيبة: «المعلّم قادم!».

انطلقت الفتياتُ، اللّواتي كنّ على الأرضيّة، أوّلا. ولهذا توصّلن إلى بلوغ المدرسة في الموعد المحدّد، ولكن دون أن يُهدِرن ولو ثانية واحدة. أمّا الأولاد الذين كانوا مجبرين على نزول الأشجار أوّلا، فقد لحقوا بهنّ متخلّفين. وأمّا آنْ، التي لم تكن مهتمّة بجمع الصّمغ وإنّما ظلّت تتسكّع بسعادة في أقصى البستان، خصرُها مُسوَّر بالسّراخس وهي تغنّي بعذوبة لنفسها، وقد توّجت رأسها بإكليل من أزهار الأرز كأنّها إلهةٌ برّيّة، فقد كانت الأخيرةَ من بين الجميع. ومع ذلك، فقد كان بإمكان آنْ أن تركض مثل غزال. وكذلك فعلت حتّى تمكّنت من اللّحاق بالفتيان. فدخلت المدرسة معهم في اللّحظة التي كان السّيّد فيليبس يعلّق فيها قبّعته.

كانت طاقةُ السّيّد فيليبسْ الإصلاحيّةُ الوجيزة قد نفدت. إذ لم يكن راغبا في إزعاج نفسه بمعاقبة ذلك الكمّ من التّلاميذ.

ومع ذلك، فقد أحسّ بضرورة القيام بشيء مّا حتّى يحفظ وزن كلمته. ولذلك نظر من حوله مُفتّشا عن كبش فداء. فوجده في آنْ التي تهاوت على مقعدها لاهثةً، وإكليلُ أزهارها المنسيّ على رأسها قد مال على إحدى أذنيها مُضفيا عليها مظهرا مشوّشا وغير لائق.

«آنْ شيرلي! بما أنّك مولعةٌ في ما يبدو برفقة الأولاد، فلنحقّق لك رغبتك هذا المساء. هيّا، انزعي هذه الأزهار من شعرك. واجلسي إلى جانب غيلبرتْ بلايثْ».

حمحم بقيّة الفتيان ضاحكين، بينما شحب وجه ديانا على الفور من فرط شفقتها على صديقتها. فأسرعت بتنحية الإكليل عن رأسها. وضغطت على يدها كي تواسيها. أمّا آنْ نفسها، فقد ظلّت جامدةً تحدّق في وجه المعلّم كأنّها قد تحوّلت إلى حجر.

«هل سمعتِ ما قلتُه يا آنْ؟»، سأل السّيّدُ فيليبسْ بحدّة.

«نعم سيّدي»، ردّت ببطء. «لكنّني لم أحسب أنّك تقصد ذلك حقّا».

«أؤكّد لك ذلك إذن»، أردف مسترسلا في نبرة السّخرية التي يمقتُها جميع الأطفال وخصوصا آنْ. «نفّذي ما أمرتكِ به فورا!».

لوهلة، بدا على آنْ أنّها تنوي العصيان. ولكنّها أحسّت ألاّ فائدة من ذلك. فوقفت في استعلاء. ومشت في الممرّ حتّى أدركت مقعد غيلبيرت بلايثْ. ثمّ جلست إلى جانبه. ودفنت وجهها في ذراعيها المبسوطين على سطح المكتب. استطاعت روبي غيليز أن

تلتقط صورة سريعة لذلك الوجه الممتعض. فقالت لبقيّة التّلاميذ في طريق العودة من المدرسة.

«لم أرَ طيلة حياتي قطّ ما يُشبه ذلك الوجه. فقد كان أبيض شاحبا وملطّخا ببقع حمراء صغيرة وفظيعة».

بالنّسبة إلى آنْ، كان ذلك نهاية كلّ شيء. فقد كان سيّئا جدّا وفظيعا أن تُفرَد للعقاب من بين عشرات التّلاميذ المتساوين معها في الذّنب. والأسوأ من ذلك إرسالُها كي تجلس إلى جانب صبيّ. وأن يكون الصّبيُّ غيلبرتْ بلايثْ، فهذه إهانةٌ لا تطاق وألمٌ جارحٌ إلى درجة لا يمكن وصفها أو تحمّلها. أحسّت آنْ أنّها عاجزة عن مكابدة الأمر، وأنّه لا فائدة في المحاولة.

في البداية، نظر إليها التّلاميذُ الآخرون. فتهامسوا. وقهقهوا. وتواخزوا بالمرافق. لكنّ آنْ لم ترفع رأسها مطلقا. وعندما همّ غيلبرتْ بالعمل على الكسور -كأنّ روحه مستغرقة فيها فحسب- انصرفوا إلى أشغالهم الخاصّة، ونسوا أمر آنْ. وعندما نادى السّيّدُ فيليبسْ على تلاميذ صفّ التّاريخ، كان على آنْ أن تنهض أيضا. ولكنّها لم تتحرّك. لكنّ السّيّد فيليبس الذي كان منهمكا في كتابة بعض الأبيات الشّعريّة اللاّتينيّة لبريسيلاّ ظلّ يفتّشُ عن قافية مناسبة دون أن ينتبه إلى غيابها. وفجأة، بينما كان الجميعُ مستغرقين في شؤونهم، أخرج غيلبيرت من درج مقعده قطعة حلوى صغيرة، ورديّة اللّون، على شكل قلب وقد كتب عليها «أنتِ حلوة». ومرّرها من تحت ذراع آنْ. حينئذ، رفعت رأسها. فالتقطت القلب

الورديّ بين أناملها. ورمتهُ أرضا. ثمّ سحقته تحت كعبها حتّى صار دقيقا. وعادت إلى وضعها السّابق دون أن تتفضّل على غيلبيرت بنظرة واحدة.

بعد انتهاء الحصّة الدّراسيّة، اتّجهت آنْ نحو مكتبها. وبكبرياء واضح، أخرجت كلّ أدواتها؛ الكتب والدّفتر، القلم والحبر، الإنجيل وكتاب الحساب. ثمّ رصفتها بعناية على لوحها المكسور.

«لماذا تأخذين كلّ تلك الأشياء معك إلى البيت يا آنْ؟»، سألت ديانا راغبة في معرفة السّبب ما أن وصلتا إلى الطّريق. إذ لم تجرؤ أن تسألها من قبل.

«لن أعود إلى المدرسة بعد الآن»، صرّحت بحزم.

شهقت ديانا. وتأمّلت وجه آنْ لتتثبّت ما إذا كانت تعني ما تقوله.

«هل ستسمح لك ماريلاّ بالبقاء في البيت؟»، سألتْ مرّة أخرى.

«يجبُ عليها أن تفعل ذلك»، قالتْ آنْ. «فأنا لن أعود إلى المدرسة بعد اليوم كي أواجه ذاك الرّجل».

«آه يا آنْ!»، بدتْ على ديانا ملامحُ من يهمّ بالبكاء. «أعتقدُ أنّكِ لئيمة. ماذا سأفعل من دونك؟ سيجبرني السّيّد فيليبس على الجلوس إلى جانب تلك البغيضة غيرتي باي. أعرف أنّه سيفعل ذلك، لأنّها تجلس بمفردها. أرجوك، عودي إلى المدرسة يا آنْ!».

«إنّني مستعدّة للقيام بأيّ شيء من أجلك يا ديانا»، قالتْ بحزن. «حتّى إنّني سأرضى بأن تُقطّع أوصالي عضوا بعد آخر إذا

كان في ذلك ما يفيدك أو يسعدكِ. ولكن، لا يمكنني أن أفعل هذا. ولذلك، لا تطلبيه منّي رجاء. إنّك تجتثّين روحي من جسدي».

«فكّري في كلّ ذلك المرح الذي ستفويّتينه على نفسك»، قالت ديانا مكتئبة. «سنبني معا أجمل منزل جديد في العالم، هناك عند الغدير. وسنلعب بالكرة في الأسبوع المقبل. وأنت.. لم يسبق لك أن لعبت بالكرة من قبل. صدّقيني، إنّ ذلك مثير جدّا! كما أنّنا سنتعلّم أغنية جديدة. لقد شرعتْ جايْن آندروزْ في التمرّن عليها الآن. أمّا أليس آندروز، فستحضر خلال الأسبوع القادم كتابا جديدا، نقرؤه معا بصوت عال، فصلا إثر فصل، هناك عند الجدول... تعرفين مدى محبّتك للقراءة جهرا يا آنْ. أليس كذلك؟».

لا شيء من كلّ ذلك أثار آنْ، ولو قليلا. لقد اتّخذت قرارها الحاسم. ولن تذهب إلى مدرسة السّيّد فيليبسْ بعد الآن. هذا ما أنبأت به ماريلاّ عند وصولها إلى البيت.

«كلام فارغ»، ردّت ماريلاّ.

«ليس كذلك على الإطلاق»، أردفت آنْ، وهي تحدّقُ في وجهها بنظرات ثابتة لائمة. «ألا تفهمين يا ماريلاّ؟ لقد تعرّضتُ للإهانة».

«إهانة! أيّ هراء هذا؟ ستذهبين غدا كالعادة إلى المدرسة».

«آه، حتما لا»، أومأت برأسها بلطف. «لن أعود يا ماريلاّ. وسأتعلّم دروسي في البيت، وأكون مؤدّبة مهذّبة قدر الإمكان. وسأمسكُ لساني ما استطعتُ إلى ذلك سبيلا. ولكنّني لن أعود إلى المدرسة. أؤكّد لكِ ذلك».

لمحتْ ماريلاّ شيئا مّا شبيها بالعناد الجامح القاسي في وجه آنْ الصّغير. وفهمت على الفور أنّها ستواجه صعوبات كثيرة قبل أن تتمكّن من التّغلّب عليه. ولذلك خلصت إلى أنّه من الحكمة الاكتفاء بالصّمت في تلك اللّحظة.

«سأذهب لزيارة رايتشلْ بخصوص هذا الأمر مساء»، فكّرت. «لا فائدة الآن من الجدال مع آنْ. فهي ما تزال منفعلة جدّا. ويبدو أنّها قد تكون عنيدةً إلى أبعد حدّ إذا أصرّت على أمرٍ بعينه. كما أنّني أظنُّ، استنادا إلى روايتها للحكاية، أنّ السّيّد فيليبسْ قد غالى في طريقته المعالجِة للأمر. لكنّ إخبارَها بهذا سيعقّدُ المسألة أكثر. سأكتفي بالتّحدّث إلى رايتشل التي علمت بالقصّة دون شكّ. لقد سبق وأن أرسلتْ عشرة أطفال إلى المدرسة. وهي تملك طبعا خبرةً تفوق ما لديّ. وعلى أيّة حال، فقد صارت الآن على علم بكلّ التّفاصيل. ما من شكّ في ذلك».

وجدتْ ماريلاّ السّيّدة ليندْ، وهي تحوك الألحفة بتركيزها ومرَحها المعتاديْن.

«أحسبُ أنّك تعلمين جيّدًا سبب قدومي إليك»، قالت بنبرة يعتريها شيءٌ من الخجل.

أومأت السّيّدةُ رايتشل موافقة.

«إنّها الضّجّة التي أحدثتها آنْ في المدرسة. أليس كذلك؟ مرّت تيلي بولْتِرْ في طريق عودتها من المدرسة أمام منزلي. وأخبرتني بالقصّة».

«لا أعرفُ كيف يجدرُ بي التّصرّف معها»، قالت ماريلاّ. «إنّها تتحدّثُ عن عدم رغبتها في العودة إلى المدرسة مجدّدا. لم أرَ في حياتي قطّ طفلةً منفعلة إلى تلك الدّرجة. لقد توقّعتُ قدوم المتاعب منذ أن بدأت في مزاولة تعليمها. وعرفتُ أنّ الأمور تجري على ما يُرام، بسلاسةٍ لا يمكن أن تدوم. إنّها متوتّرة جدّا. فما هي نصيحتك لي يا رايتشلْ؟».

«حسنا، بما أنّك طلبتِ نصيحتي يا ماريلاّ»، هتفت السّيّدةُ ليندْ على نحو ودّيّ (وكم كانت تُحبّ أن تُسأل النّصيحة) «فلأقل لك لو كنتُ مكانكِ لتساهلتُ في البداية مع مزاجها. هذا ما كنتُ لأفعله حقّا، لأنّني أعتقدُ أنّ السّيّد فيليبسْ مخطئ. وكما تعلمين، لا فائدة من الاعتراف بهذا الأمر للطّفلة. إنّه محقٌّ طبعا في معاقبته لها أمسِ بسبب فقدانها لأعصابها. ولكنّ الأمر مختلفٌ هذا اليوم. كان عليه أن يعاقبَ الآخرين المتأخّرين عن الدّرس، تماما مثلما فعل مع آنْ. كما أنّ دفع الفتيات إلى الجلوس قرب الفتيان لا يمثّلُ عقابا لائقا بالنّسبة إليّ. ففيه شيءٌ من قلّة الحياء. كانت تيلي بولتر ساخطة جدّا. وهي تقف في صفّ آنْ. وتقول إنّ جميع التّلاميذ مثلها. وعلى نحو مّا، شعرتُ أنّ آنْ قد أصبحت ذائعةَ الصّيت بينهم. في الحقيقة، لم أكن أحسبُ أنّها ستنسجمُ معهم بهذه الطّريقة الرّائعة».

«إذن فأنتِ ترين أنّه من الأفضل أن أسمح لها بالبقاء في البيت؟!»، سأتْ ماريلاّ في ذهول شديد.

«نعم، هذا هو. ولن أتلفّظ بكلمة مدرسة أمامها حتّى تفعل

هي ذلك. ثقي بما أقوله لك. سوف تهدأ في غضون أسبوع واحد أو ما يناهزُه. وسوف تكون مستعدّةً للعودة إلى المدرسة من تلقاء ذاتها. أمّا إذا أرغمتِها الآن على العودة الفوريّة، فالرّبّ وحده يعلم أيّ مصيبة أو نازلة ستنزل بها، وسوف تُحدث المزيد من المتاعب، أكثر من أيّ وقت مضى. حسب رأيي، كلّما قلّت الضّجّة المثارة حول الأمر كان ذلك أفضل. واعلمي أنّها لن تفوّت الكثير على نفسها عند غيابها عن المدرسة. فالسّيّد فيليبسْ ليس معلّما جيّدا. وطريقتُه في حفظ النّظام كارثيّة. كما أنّه يتجاهل الفراخ الصّغيرة. ويركّز جهوده على المتعلّمين الكبار الذين يتأهّبون لاجتياز امتحان الأكاديميّة الملكيّة. وبصراحة، ما كان ليستمرّ في ممارسة التّدريس لو لم يكن عمُّه عضوا في المجلس الدّراسي، أو فلأقلْ إنّه هو المجلسُ المدرسيُّ نفسه بما أنّه يتحكّم بالعضويْن الآخرين. أعلنُ لك صراحةً أنّني لستُ متيقّنةً من مآل التّعليم في هذه الجزيرة».

ظلّت السّيّدةُ ليندْ تهزّ رأسها، كأنّها تقول من خلال ذلك إنّ الأمور كانت لتُدار على نحو أفضل تمامًا لو أنّها ترأّست النّظام التّعليميّ في المقاطعة.

عملت ماريلاّ بنصيحة السّيّدة رايتشلْ. لم تتلفّظ بأيّ كلمة إضافيّة عن المدرسة أمام آنْ التي ظلّت تعمل على دروسها في المنزل، وتهتمُّ بشؤونه وتلعب مع ديانا في شفق الخريف الأرجوانيّ البارد. ولكن، كلّما التقتْ بغيلبرتْ بلايثْ على الطّريق الرّئيسيّ أو اعترضته في مدرسة الأحد بالكنيسة تتجاوزُه بنظرة ازدراء جليديّة، لم يُذِب رجاؤُه الحارّ البادي على ملامحه أيَّ ذرّة منها. وحتّى جهودُ

ديانا للمصالحة بينهما فقد ظلّت تذهبُ في كلّ مرّة سُدى. من الواضح أنّ آنْ قد قرّرت على نحو حاسم أن تكره غيلبيرت بلايثْ حتّى آخر يوم من حياتها.

وبقدر ما كرهت غيلبرتْ، ظلّت محبّةُ آنْ تتعاظمُ في قلبها الصّغير الشّغوف. وذات مساء، بينما كانت ماريلاّ عائدة من البستان تحملُ سلّة من التّفّاح، وجدتْ آنْ جالسة بمفردها عند النّافذة الغربيّة، وهي تبكي بحرقة.

«والآن، ما الذي حدث يا آنْ؟».

«ديانا... إنّني أحبّها كثيرا يا ماريلاّ. ولا أستطيع العيش من دونها مطلقا. لكنّني أعرف جيّدا أنّها سوف تتزوّج عندما نكبر، وتتركني وحدي. أوه، ماذا سوف أفعل حينئذ. إنّني أكره زوجها المستقبليّ هذا. أكرهه بلا هوادة. كنتُ أتخيّل كلّ شيء منذ حين؛ حفل الزّفاف وكلّ شيء آخر، ديانا، وهي ترتدي فستانا ثلجيّ اللّون وتضعُ وشاحا، وتبدو جميلة ومُهيبةً مثل ملكة. أمّا أنا -وصيفة العروس- فأرتدي ثوبا جميلا كذلك ذا كُمّيْن فضفاضيْن، ولكن بقلب مكسور أخبّئه خلف ابتسامتي. ثمّ أقول لديانا وداااااعا». وفي تلك اللّحظة، انهارت آنْ تمامًا. واسترسلتْ في النّحيب.

التفتت ماريلاّ دونها على الفور حتّى تخفي ابتساماتها المكتومة. ولكنّها فشلت في ذلك. فتداعت على أقرب كرسيّ يجاورها. وانفجرت في سلسلة من الضّحكات العالية المجلجلة، حتّى إنّ

ماثيو، الذي كان يعبرُ الفناء في تلك اللّحظة، توقّف مشدوها. متى سمع ماريلاّ تضحك على هذا النّحو من قبل؟

«حسنا يا آنْ شيرلي»، قالت ماريلاّ ما أن تمكّنت من الكلام. «إذا اضطررتِ إلى استعارة المتاعب، فبحقّ الرّبّ استعيري ما يمكنُ حلّه في المنزل على نحو يسير. عليّ أن أعترف بأنّك تملكين خيالا خصبا. هذا مؤّكد!».

(16)

دعوةُ ديانا إلى الشّاي ومآلاتها المأساويّة

كان تشرين الأوّل شهرا جميلا في الضّيعة الخضراء، حيثُ تصيرُ أشجارُ البتولا عند الغدير ذهبيّةً مثل شروق الشّمس وأشجارُ القيقب خلف البستان بلون القرمز الملكيّ، وتكتسي أشجار الكرز البرّيّ المنتصبةُ على امتداد المسلك أجملَ الظّلال من الحُمرة الدّاكنة والخُضرة البرونزيّة، بينما تسترخي الحقول في غمرة الشّمس.

استمتعتْ آنْ بعالم الألوان الذي يُحيط بها.

«آه، يا ماريلاّ»، قالت متعجّبةً صباحَ سبتٍ، وهي تدخلُ المنزل راقصةً، وذراعاها مليئتان بأغصان فاتنة. «أنا سعيدةٌ جدّا لأنّني أعيشُ في عالم يتضمّنُ تشرين الأوّل. كان الأمرُ ليكون فظيعا لو أنّنا قفزنا مباشرة من أيلول إلى تشرين الثّاني. انظري إلى أغصان القيقب هذه. ألا تُحدِث فيك قشعريرة، بل الكثير منها؟ سأزيّنُ غرفتي بها».

«مجرّد فوضى»، قالت ماريلاّ التي لم يتطوّر حسُّها الجماليّ بعد على نحو ملحوظ. «إنّك تغمرين غرفتك بالفوضى بجلبك مثل هذه الأشياء من الخارج يا آنْ. لقد جُعلت غرف النّوم من أجل النّوم فيها فحسب».

«آه، والحلم فيها أيضا يا ماريلاّ. وكما تعلمين، يحلم المرءُ على نحو أفضل في غرفة تحتوي على أشياء جميلة. سأضع هذه الأغصان في الإبريق الأزرق القديم. ثمّ أضعها على طاولتي».

«حاذري أن تُسقطي أوراق الأغصان على الدّرج إذن. إنّني ذاهبة إلى اجتماع تنظّمه جمعيّة المساعدات الكنسيّة في كارمودي هذا المساء يا آنْ. ولن أعود على الأرجح إلى المنزل قبل حلول الظّلام. ستتكفّلين إذن بإعداد العشاء لماثيو وجيري. ولا تنسي إعدادَ الشّاي قبل الجلوس إلى الطّاولة، مثلما فعلتِ في المرّة السّابقة».

«كان فظيعا منّي أن أنسى»، قالت بنبرة اعتذار. «ولكن، كان ذلك ظهيرة اليوم الذي حاولتُ فيه العثور على اسم لوادي البنفسج. فوجدتُ نفسي مستغرقةً في ذلك، شاردةَ الذّهن عن أيّ شيء آخر. ولكنّ ماثيو كان طيّبا معي. ولم يوبّخني مطلقا. بل أعدّ الشّاي بنفسه. وقال إنّه لا مشكلة في الانتظار قليلا. وأثناء الانتظار، رويتُ له حكايةً خرافيّة رائعة، ممّا جعله لا يشعر بمرور الوقت. كانت قصّة خرافيّة جميلة جدّا يا ماريلاّ. في الحقيقة، لقد نسيتُ نهايتَها خلال الحكي. فاخترعتُ لها نهاية جديدةً من عندي. وقال لي ماثيو إنّه لم ينتبه إلى النّقطة التي انقطع فيها خيطُ الحكاية الأولى».

«حتّى إذا قرّرتِ الاستيقاظ في منتصف اللّيل لتناول وجبة العشاء، فإنّ ماثيو لن يجد ذلك مُستغرَبا أو غير طبيعيّ يا آنْ. ولذلك حافظي على عقلك هذه المرّة. وكذلك... لا أعرف ما إذا كنتُ على صواب أم إنّني أدفعكِ إلى المزيد من التّشوُّش والفوضى.

ولكن، يمكنكِ أن تطلبي من ديانا زيارتكِ وقضاءَ المساء معك وتناول الشّاي هنا».

«أوه يا ماريلاّ!»، شبّكت آنْ أصابع يديها. يا للرّوعة المثاليّة! إنّك قادرة آخر الأمر على التّخيّل، وإلاّ لما كنتِ قد عرفتِ كم أتوقُ إلى ذلك فعلا. سيكون الأمرُ رائعا جدّا وشبيها بعوالم الكبار. لا تخشي من نسياني الشّاي ما دمتُ أحظى بالرّفقة العزيزة. آه، ماريلاّ. هل يمكنني استعمال طقم الشّاي المزخرَف ببراعم الورد؟»

«طبعا لا. طقم الشّاي ذو البراعم! ماذا ستطلبين في المرّة القادمة؟! تعرفين أنّني لا أستخدمهُ مطلقا إلاّ عند حضور الكاهن أو سيّدات الجمعيّة. ستكتفين باستخدام طقم الشّاي البنّيّ القديم. ولكن يمكنك فتح الجرّة الصّفراء التي تحتوي على مربّى الكرز. فقد حان موعد تناوله. وأظنّ أنّه يوشك على أن يفسد. يمكنكِ كذلك تناول قطع من كعك الفاكهة والبسكويت والرّقائق».

«يمكنني تصوّر نفسي بوضوح وأنا أجلسُ عند رأس الطّاولة، وأصبّ الشّاي»، قالت آنْ وهي تغمضُ عينيها مُنتشية. «ثمّ أسأل ديانا ما إذا كانت تريد السّكّر. أنا أعرفُ أنّها لا ترغب فيه. لكنّني سأسألها كأنّه لا علم لي بالأمر. ثمّ ألحُّ عليها لتتناول قطعة أخرى من كعك الفاكهة ومزيدا من المربّى. آه يا ماريلاّ، إنّ مجرّد التّفكير في الأمر يبعثُ فيّ إحساسا رائعا. هل يمكنني أن أصطحبها إلى غرفة الضّيوف كي تضع قبّعتها هناك عند وصولها؟ ثمّ إلى الصّالون كي تجلس؟».

«لا! ستكونُ غرفة الجلوس كافيةً بالنّسبة إليك وضيفتك. ولكن هناك قارورة نصف ممتلئة من شراب التّوت بقيت من اجتماع في ليلة سابقة. وهي على الرّفّ الثّاني في خزانة غرفة الجلوس. إذا شئتِ، يمكنك اقتسامها مع ديانا، وتناول البسكويت كذلك خلال المساء. فقد يتأخّر ماثيو عن موعد الشّاي، لأنّه سينقل البطاطا بواسطة العربة إلى القارب».

اندفعتْ آنْ راكضةً نحو الغدير. فتجاوزت نبع الجنّيّات. وعبرتْ ممرّ التنوب باتّجاه منحدر البستان حتّى تدعو ديانا لأمسية الشّاي. وهكذا قدمت معها بعد مغادرة ماريلاّ إلى كارمودي، مرتديةً ثاني أجمل فساتينها في مظهر يليقُ تماما بأمسية شاي. كانت معتادة في سائر الأيّام أن تدخل عبر المطبخ، دون أن تطرق الباب. ولكنّها طرقت الباب الرّئيسيّ هذه المرّة. ففتحت لها آنْ التي كانت ترتدي ثاني أجمل فساتينها هي الأخرى. وتصافحت الصبيّتان بجدّيّة من لم تلتقيا من قبل مطلقا. دام هذا الطّقسُ غير المألوف حتّى بعد أن تمّتْ مرافقة ديانا إلى الغرفة الشّرقيّة من الضّيعة الخضراء كي تخلع عنها قبّعتها وجلوسها عشرَ دقائق في غرفة الجلوس باحتشام واضح.

«كيف حال أمّك»، سألت آنْ بلطف كأنّها لم ترَ السّيّدة باري في ذاك الصّباح وهي تجمع التّفّاح في صحّة جيّدة ومزاج حسن.

«إنّها بألف خير. شكرا لك. أظنُّ أنّ السّيّد كاثبرت سينقل حمولة البطاطا إلى لِيلي سانْدْس هذا المساء. أليس كذلك؟»، سألت

ديانا التي ذهبت صباح ذلك اليوم إلى منزل السّيّد هارمون آندروز على عربة ماثيو.

«نعم. محصولنا من البطاطا وافرٌ جدّا هذه السّنة. أرجو أن يكون محصول والدك كذلك أيضا».

«نعم، إنّه جيّد. شكرا لك. هل جمعتِ الكثير من التّفّاح حتّى الآن؟».

«آه، ما لا يحصى!»، هتفت آنْ، وقد تخلّت عن وقارها المزعوم. ووثبت في مكانها. «فلنذهبْ إلى البستان لنحصل على بعض تلك الفاكهة الحمراء اللّذيذة يا ديانا. فقد سمحت لنا ماريلاّ بقطف كلّ ما تبقّى في الشّجرة. إنّها امرأة كريمة جدّا. قالت لي إنّ بإمكاننا أن نتناول كعك الفاكهة ومربّى الكرز مع الشّاي. ولكن، أحسبُ أنّه من غير اللاّئق إعلامُ الضّيف بما سيُقدَّم له. لهذا السّبب، لن أصرّح لك بالمشروبات التي أتاحتها لنا. وسأكتفي بذكر الحرفين الأوّلين تلميحا فحسب؛ الشّين في الكلمة الأولى والتّاء في الثّانية. وهو ذو لون أحمر ساطع. إنّني أعشق المشروبات الحمراء السّاطعة. فماذا عنكِ؟ أرى أنّها ألذّ من أيّ مشروب آخر بكثير».

كان البستانُ ساحرا جدّا بأغصان أشجاره التي تتدلّى منها الثّمارُ مُوشِكةً على أن تلمس الأرض، حتّى إنّ الصّبيّتين قد أمضتا معظم الأمسية جالستيْن في زاوية مُعشوشِبة، كان الصّقيعُ قد غفل عنها ولم تدركها أشعّةُ شمس الخريف الدّافئة. وطفقتا تأكلان التّفّاحَ منهمكتيْن في أحاديث لا حصر لها. وكانت ديانا تملكُ الكثير لتقوله

لآنْ عمّا يجري في المدرسة؛ لقد أُجبِرت على الجلوس إلى جانب غيرتي باي. وهي تكرهُ ذلك. كما أنّ غيرتي تُقضّي الوقت كلّه وهي تُصرصِر بقلمها، ممّا يُجمّدُ الدّم في عروق ديانا. تخلّصت روبي غيليز من جميع بثورها على نحو سحريّ، بعد أن وهبتها العجوز ماري جو التي تسكنُ في كهف الغدير حصاة سحريّة. يجبُ أن تفركي البثور بواسطة الحصاة. ثمّ ألقي بها من فوق كتفك الأيسر وقتَ بزوغ القمر الجديد. وحينئذ، ستختفي كلّ البثور. دُوّن اسمُ تشارلي سلون على جدار الرّواق مع اسم إيميلي وايتْ. وقد أزعج ذلك إيمْ على نحو فظيع. أمّا سامْ بولترْ، فقد تحدّث إلى السّيّد فيليبسْ بنبرة وقحة، ممّا جعل السّيّد فيليبسْ يعاقبهُ على الفور بضربات حادّة من مسطرته. فجاء والدُ سامْ إلى المدرسة. وحذّر السّيّد فيليبسْ من أن يلمس أيَّ واحد من أبنائه مجدّدا. حصلت ماتي آندروزْ على قلنسوّة حمراء جديدة مع صدار أزرق له شُرّابات[1] كثيرة. وكانت تتبختَرُ مختالةً بطريقة مقزّزة. تخاصمت ليزي رايتْ مع مامي ويلْسون. وانقطع الكلامُ بينهما، لأنّ أختَ مامي ويلسون قد افتكّت حبيبَ أختِ ليزي. وشعرت آنْ أنّها مشتاقة إلى كلّ هذه التّفاصيل والحكايات. وودّتْ لو أنّها تعود إلى المدرسة مجدّدا. وغيلبيرت بلايثْ...

لكنّ آنْ لم تُردْ أن تسمع شيئا عن غيلبرتْ بلايثْ. فوثبتْ واقفةً بسرعة. وعرضت على ديانا أن تدخلا معا إلى المنزل من أجل تناول شراب التّوت.

(1) الشّرُّابةُ: ضمّةٌ من خيوط يُعلّق طرفُها الواحد بالطّربوش أو الصّدار. ويتدلّى منه.

بحثتْ آنْ عن القنّينة على الرّفّ الثّاني من خزانة المؤونة. فلم تجدها. ثمّ واصلت التّفتيش حتّى عثرت عليها في عمق الرّفّ الأعلى. فوضعتها على طبق، ومن ثَمّ على الطّاولة مع كوب.

«والآن، تفضّلي رجاء يا ديانا»، قالت بأدب. «لا أظنّني سأشربُ معك الآن. إذ لا رغبة لي في ذلك بعد كلّ التّفّاحات التي أكلتُها».

ملأت ديانا كأسها. ونظرت إلى لون الشّراب الأحمر الصّافي بإعجاب. ثمّ رشفت رشفة من كأسها بلطف. وقالت:

«هذا شرابٌ لذيذٌ جدّا يا آنْ! لم أكن أعلمُ أنّ شرابَ التّوت رائعٌ إلى هذه الدّرجة».

أنا سعيدةٌ حقّا لأنّه أعجبكِ. رجاء، اشربي قدر ما تشائين. أمّا أنا، فسأذهبُ لإيقاد النّار. هناك مسؤوليّاتٌ كثيرةٌ تقع على عاتق المرء عندما يكونُ مسؤولا عن منزل مّا. أليس كذلك؟».

عندما رجعت آنْ من المطبخ، كانت ديانا تترشّفُ كأسها الثّاني. وإذْ استزادتْها آنْ مُتوسّلةً، لم تمتنع عن تناوُل كأس ثالث. كان الكوبُ كبيرا واسعا وشرابُ التّوت لذيذا جدّا.

«إنّهُ ألذُّ شرابِ توتٍ حظيتُ به في حياتي»، قالتْ ديانا. «بل هو ألذُّ وأحلى من شراب السّيّدة ليندْ التي تتفاخرُ دوما بالشّراب الذي تعدُّه بنفسها. ومع ذلك، فهو لا يقارنُ بهذا أصلا».

«لا مجال للشّكّ يا عزيزتي في أنّ الشّراب الذي تعدُّه ماريلاّ أفضلُ بكثير من شراب السّيّدة ليندْ»، قالتْ آن بنبرة وفاء. «إنّ

ماريلاّ طبّاخةٌ شهيرة. وهي الآن بصدد تعليمي الطّبخ. ولكنّني أؤكّدُ لكِ يا ديانا أنّ الأمر شاقّ إلى حدّ بعيد. وليس هناك في عالم الطّبخ هذا من مجال للخيال سوى فسحةٍ صغيرة جدّا. إذ كلّ ما عليك فعله هو الالتزامُ الصّارم بالقواعد. لقد نسيتُ أن أضع الطّحين في المرّة الماضية خلال إعدادي للكعكة. كنتُ حينذاك مُستغرقةً في تخيُل أجمل قصّة تجمعنا معا، أنا وأنت. تخيّلتُ أنّكِ أصبتِ بالجدري وأنّ الجميع تخلّوا عنكِ في مرضكِ، ولكنّني مكثتُ إلى جانبك بثبات وعزم، واعتنيتُ بك حتّى شُفيتِ. ثمّ انتقلتْ إليّ العدوى. وأدّت إلى وفاتي. فدُفنتُ تحت شجرة الحور في المقبرة. وعند قبري زرعتِ شجيرة ورد. وسقيتِها بدموعكِ. ولم تنسي قطُّ صديقة طفولتك التي وهبت حياتها من أجلك. آه، يا لها من قصّة مؤثّرة يا ديانا! كانت الدّموع تنهمرُ على وجنتيّ بينما أعدُّ الكعكة. ولكنّني نسيتُ الطّحين. فتحصّلتُ على قالبٍ من الفشل الذّريع. إذ الطّحينُ مادّة أساسيّة في صنع الكعك كما تعلمين. غضبت ماريلاّ كثيرا ذلك اليوم. ولا عجب في ردّ فعلها دون شكّ. إنّني ابتلاء عظيم بالنّسبة إليها يا ديانا. فمثلا، كنتُ سببا في شعورها بالحرج والخزي بسبب مرَق الفطائر خلال الأسبوع الماضي. يوم الثّلاثاء، تناولنا عند الغداء فطيرةَ برقوق. فتركنا نصفها مع دورق مليء بالمرق. ورأت ماريلاّ أنّ هناك ما يكفي من أجل وجبة أخرى. فطلبت منّي وضع دورق المرق على رفّ خزانة المؤونة بعد تغطيته بمنديل. أؤكّدُ لكِ أنّني كنتُ أنوي تغطيته فعلا. ولكن، في طريقي إلى خزانة المؤونة، تخيّلتُ أنّني راهبةٌ -طبعا أنا بروتستانتيّة. ولكنّني

تخيّلتُ نفسي كاثوليكيّة[1]- قلتُ إنّني فتاةٌ تمسكُ بحجابٍ كي تدفن قلبها المكسور في عزلة مُسوَّرة وتتمَّ طقوس انخراطها في سلك الرّاهبات. وهكذا نسيتُ تماما كلّ ما يتعلّقُ بتغطية دورق المرق. ولم أتذكّره إلاّ صباح اليوم التّالي. حينئذ، ركضتُ إلى خزانة المؤونة. ولك يا ديانا أن تتخيّلي أيّ رعب هجم على قلبي عندما لمحتُ فأرا غارقا في ذلك المرق! وفي آخر المطاف أخرجتهُ بواسطة ملعقة. ورميتُ به في الفناء. ثمّ غسلتُ الملعقة ثلاث مرّات. كانت ماريلاّ في الخارج تحلبُ الأبقار. وكنتُ عازمةً على سؤالها عند عودتها ما إذا كان ممكنا تقديمُ المرق للخنازير. ولكن، عندما رجعتْ ماريلاّ إلى المنزل، كنتُ منهمكةً في تخيُّل نفسي جنّيّةَ جليدٍ تجوبُ الغابة مُحوِّلةً ألوان الأشجار إلى الأحمر والأصفر، بحسب اللّون الذي ترغبُ فيه الشّجرة. وهكذا نسيتُ كلّ ما يتعلّق بدورق المرق مرّة أخرى. بعد ذلك، أرسلتني ماريلاّ لأقطف التّفّاح. وخلال انهماكي في العمل، زارنا السّيّد والسّيدةُ تْشِستَرْ رُوسْ قادميْن من سبنسرْفايلْ. أتعرفين، إنّهما أنيقان جدّا، وخصوصا السّيّدة تْشِسْتَرْ روسْ. وعندما نادت عليّ ماريلاّ، كان الغداءُ جاهزا والجميعُ جالسا إلى الطّاولة. بذلتُ قصارى جهدي لأكون لطيفة ومؤدّبة قدر الإمكان، لأنّني رغبتُ أن ترى فيّ السّيّدةُ تشستَرْ روسْ مثالا للفتاة المؤدّبة التي تتصرّف

---

(1) البروتستانتيّة هو أحد المذاهب الكبرى في الدّيانة المسيحيّة. تعودُ جذورهُ إلى الحركة الإصلاحيّة التي قامت في القرن السّادس عشر. وهدفها إصلاحُ الكنيسة الكاثوليكيّة. أمّا الكاثوليكيّة، فهي المذهب التّقليديّ المسيحيّ المنسوب إلى الكنيسة الرّومانيّة والمرتبط بجملة من المؤسّسات الدّينيّة والطّقوس والشّعائر، التي يعتبر وجودُ البابا أحد أهمّ ركائزها.

كالسّيّدات المحترمات حتّى لو لم أكن جميلة. وسار كلّ شيء على ما يُرام حتّى لمحتُ ماريلاّ قادمة، وهي تحملُ الفطيرة بيدٍ ودورق المرق، وقد تمّ تسخينُه، بيدٍ أخرى. إنّها لحظة رهيبة يا ديانا، تذكّرتُ فيها كلّ شيء. فوقفتُ على الفور. وصرختُ بعنف: «ماريلاّ، يجبُ ألاّ تستعملي ذاك المرق! لقد غرق فيه فأر. ونسيتُ أن أعلمك بذلك من قبل». أوه يا ديانا! حتّى لو عشتُ لأدرك المائة، فإنّني لن أنسى يوما تلك اللّحظة الفظيعة. اكتفت السّيّدةُ تشسترْ روسْ بالتّحديق فيّ. فوددتُ لو تنشقّ الأرض فتبتلعني. إنّها ربّةُ منزل ممتازة. فتخيّلي ما الذي قالتهُ في سرّها عنّا. أمّا ماريلاّ، فقد احمرّ وجهها حتّى صار شبيها بشعلة من النّار. ولكنّها لم تقل منذ تلك اللّحظة أيّ كلمة أخرى. اكتفت بحمل دورق المرق والفطيرة بعيدا. وأحضرت بدلا عنهما مربّى الفراولة. بل إنّها قدّمت لي بعضا منه. لكنّني لم أستطع أن أضع ولو لقمة واحدة. فقد كنتُ أشعر بأنّ كومة جمر تشتعل في رأسي. بعدا أن غادر الضّيفان وبّختني على نحو عنيف جدّا... لماذا يا ديانا؟ ما بك؟».

وقفتْ ديانا، وهي تترنّحُ بشدّة. ثمّ جلستْ. ووضعت يديْها على رأسها.

«إنّي مريضة جدّا»، قالت بصوت متراخٍ. «أنا... أنا... يجبُ أن أعود إلى البيت فورا».

«آه، لا تحلمي بالذّهاب إلى منزلك قبل تناول الشّاي»، صاحت آنْ بانفعال. «هيّا، سأحضره الآن».

«يجبُ أن أغادر»، ردّدتْ ديانا بنبرة خرقاء ولكن ثابتة.

«دعيني على الأقلّ أحضر لك ما تأكلينه»، توسّلتْ آنْ. «فلأحضِرْ لكِ شيئا من كعك الفاكهة وبعضا من مربّى الكرز. تمدّدي على الأريكة قليلا. وستشعرين بتحسّن. ما الذي يؤلمك تحديدا؟».

«عليّ أن أعود إلى البيت»، هذا ما ظلّت ديانا تردّدهُ بلا انقطاع فيما ذهب توسّلُ آنْ المسترسلُ سُدى.

«لم أسمع من قبل عن ضيافة تنتهي قبل تناوُل الشّاي»، هتفت آنْ بلوعة. «آه يا ديانا! أيُعقَل أنّكِ أُصبتِ بالجدري فعلا. إذا صحّ هذا، فلا تقلقي. يمكنني أن أجلس إلى جانبك وأمرّضكِ. تستطيعين التّعويل عليّ، لأنّني لن أخذلك ما حييت. ومع ذلك، أرجو أن تبقي حتّى تتناولي الشّاي معي. ما هو موضع الألم؟».

«أشعر بدوار ثقيل»، قالت ديانا.

وفعلا، أخذتْ تمشي مترنّحة، بينما اغرورقت عينا آنْ بدموعِ الخيبة. أحضرتْ قبّعةَ ديانا. ورافقتْها حتّى سياج فناء باري. وفي طريقِ عودتها إلى الضّيعة الخضراء، ظلّتْ تبكي وتنتحبُ. وعندما وصلتْ، أعادت قنّينةَ شراب التّوت إلى خزانة المؤونة في حسرة وكآبة. ثمّ أعدّت الشّاي لماثيو وجيري دون أيّ ذرّة من الحيويّة.

كان اليومُ التّالي أحدا. هطل المطرُ سيولا من الفجر إلى الغسق. فلم تغادر آنْ الضّيعة الخضراء. وفي مساء الاثنيْن، أرسلتها آنْ في مهمّة إلى منزل السّيّدة ليندْ. وخلال فترة زمنيّة وجيزة، عادت آنْ

صاعدةً الطّريق، وهي تبكي بحرقة. ثمّ اندفعت إلى المطبخ مُسرعة. وألقت بنفسها على الأريكة. واسترسلت في النّشيج.

«ما الذي حدث الآن يا آنْ؟»، سألتْ ماريلاّ في ارتيابٍ وقلق شديديْن. «أرجو أنّكِ لم تتصرّفي بوقاحة مع السّيّدة ليندْ مرّة أخرى».

ولم تجبْ آنْ إلاّ بمزيد من الدّموع والنّشيج الأعنف.

«آنْ شيرلي! لقد طرحتُ عليك سؤالا. ومازلتُ في انتظار الإجابة. اعتدلي في جلستكِ الآن. وأخبريني فورا بما يُبكيكِ!».

اعتدلتْ آنْ. وبدت في هيئتها تلك كأنّها المأساةُ وقد تجسّدتْ في صورة بشريّة.

«زارت السّيّدةُ ليندْ اليوم السّيّدة باري. فوجدتها في حال فظيعة. وهي تقول إنّني أثملتُ ديانا يوم السّبت، وأرسلتُها إلى البيت في صورة مزرية، وإنّني لا شكّ فتاة سيّئة خبيثة، وهي لن تسمح لديانا مطلقا أن تلعب معي مجدّدا. أوه يا ماريلاّ! لقد تغلّبت عليّ المحنة وهزمني اليأس».

حدّقت ماريلاّ فيها باندهاش وجمود.

«أثملت ديانا؟!»، قالت عندما تمكّنت من استعادة صوتها. «آنْ، إمّا أن تكوني مجنونة وإمّا أنّ السّيّدة باري كذلك. ماذا قدّمت لديانا؟».

«لا شيء سوى شراب التّوت»، أجابت في توتّر. «لم أكن أحسبُ قطّ أنّ شراب التّوت قد يسكر أحدا يا ماريلاّ، حتّى إذا

شرب منه ثلاثة أكواب كبيرة مثلما فعلت ديانا. آه، يذكّرني هذا الأمرُ الآن بزوج السّيّدة توماس... ولكنّي لم أقصد أن أُسكِرَها».

«يا للهراء!»، قالت ماريلاّ. وانطلقت متّجهة نحو خزانة المؤونة في غرفة الجلوس حيثُ عثرت على قنّينة تعرّفت عليها فورا. إنّها تحتوي على نبيذ الزّبيب الذي أعدّتهُ بنفسها في المنزل قبل ثلاث سنوات، وفازتْ بفضلِه بشُهرةٍ كبيرة في آفُونلي. ولكنّ بعضَ السّكّان الأكثرَ صرامة ومحافظةً -ومن بينهم السّيّدة باري- اعترضوا عليه بشدّة. وسرعان ما تذكّرت كذلك أنّها وضعت قنّينة شراب التّوت في القبو وليس في خزانة المؤونة كما أخبرت آنْ.

رجعت ماريلاّ إلى المطبخ حاملة قنّينة النّبيذ، وعضلاتُ وجهها ترتعشُ رغما عنها.

«آنْ، لا شكّ أنّك موهوبة على نحو عبقريّ في الوقوع في المشاكل. لقد سقيْتِ ديانا نبيذ الزّبيب بدل شراب العنب. ألا تعرفين الفرق بينهما؟».

«لم أذقهُ مطلقا. حسبتُه شراب التّوت. وأردتُ أن أكون مضيفة كريمة فحسب. بعد ذلك، شعرت ديانا بتوعّك. فأصرّتْ على العودة إلى البيت. لقد أخبرت السّيّدةُ باري السّيّدةَ ليندْ بأنّ ديانا كانت ثملة جدّا. وقضّت اللّيلة تضحك بشدّة. ثمّ نامت لعدّة ساعات. أمّا أمُّها، فقد تبيّنتْ سُكرَها عندما شمّت رائحةَ نفَسها. ويوم أمسِ، عانت ديانا من صداع حادّ. إنّ السّيّدة باري غاضبةٌ جدّا. ولن تصدّق مطلقا أنّي لم أفعل ذلك عن قصد».

«أعتقدُ أنّه من الأفضل لها أن تعاقب ديانا على جشعِها الذي يدفعُها إلى تناوُل ثلاثة أكواب من أيّ شيء مهما كانت طبيعتُه»، قالت ماريلاّ باقتضاب. «يا إلهي! إنّ ثلاثة أكواب كبيرة كتلك كافيةٌ لجعلها تتوعّكُ حتّى لو كانت مليئة بشراب التّوت فقط. حسنا، ستكون هذه القصّة أداة مناسبة في أيدي أولئك الذين يعترضون على صنعي لنبيذ الزّبيب، رغم أنّي لم أعدَّ أيّ قطرة منه منذ ثلاث سنوات عندما علمتُ أنّ الكاهن ليس موافقا على ذلك أيضا. إنّما احتفظتُ بتلك القنّينة من أجل حالات المرض فحسب. هيّا يا بنيّتي! كفّي عن البكاء الآن! لا لوم عليكِ في ما حدث. وأنا آسفةٌ لأنّك وجدتِ نفسكِ في هذا الموقف».

«يجبُ أن أبكي»، هتفت آنْ. «فقلبي مُنفطِرٌ تماما. إنّ النّجوم في أفلاكها تحاربُ ضدّي يا ماريلاّ! لقد وقع الفراق الأبديّ بيني وديانا. أوه، ماريلاّ! لماذا نزل بي كلّ هذا؟ مازلتُ أتذكّر كيف تعاهدنا على الصّداقة الأبديّة».

«لا تكوني سخيفة يا آنْ. ستغيّر السّيّدة باري رأيها ما أن تفهم الحكاية وتكتشف أنّه لا لوم عليك في ما حدث. لا شكّ أنّها تحسبُ الأمر مزحةً سيّئة منكِ أو شيئا مّا من هذا القبيل. من المستحسن أن تذهبي إلى منزلها هذا المساء وتشرحي لها القصّة بكلّ تفاصيلها».

«تخونني شجاعتي عند التّفكير في مواجهة أمّ ديانا الجريحة»، تنهّدت آنْ. «أرجو أن تذهبي إليها يا ماريلاّ. فأنتِ مبجّلة ومحترمةٌ عندها أكثر منّي. وستُصغي إليك على نحو أيسر ممّا ستفعل معي».

«حسنا، لكِ ذلك»، ردّت ماريلاّ، وهي تفكّر أنّ اقتراح الطّفلة أكثر حكمة على الأرجح. «هيّا، توقّفي عن البكاء الآن! ستعودُ المياهُ إلى مجاريها».

عند عودتها من منحدر البستان، كانت ماريلاّ قد غيّرتْ رأيها بشأن عودة المياه إلى مجاريها. كانت آنْ تترقّبُ عودتَها بلهفة. وما أن رأتها حتّى اندفعت إلى باب الرّواق للقائها.

«آه، ماريلاّ ! يمكنُ لوجهكِ أن يعلن لي الفشل»، قالت بصوت كئيب. «ألن تسامحني السّيّدة باري؟».

«السّيّدة باري! نعم»، قالت بتوتّر. «إنّها الأسوأُ من بين جميع النّساء المفتقراتِ إلى المنطق والعقل، واللّواتي عرفتهنّ في حياتي. أعلمتُها أنّ الأمرَ مجرّد خطإ وأنّه لا لوم عليك في ما حدث. لكنّها لم تصدّقني. واغتنمت الفرصة لتعود إلى النّبيذ، وتذكّرني بأنّي طالما قلتُ إنّه لن يكون ذا أثر سلبيّ على أيّ شخص. فأجبتُها ببساطة أنّ نبيذ الزّبيب لم يُصنع لتُشرَب منه ثلاثةُ أكواب كبرى دفعةً واحدة، وأنّه لو كانت طفلتي جشعة إلى تلك الدّرجة لقوّمتُها بصفعة ملائمة».

اندفعت ماريلاّ نحو المطبخ، منزعجة جدّا ومخلّفةً وراءها روحا صغيرة حائرة إلى أبعد حدّ. وعلى الفور، غادرتْ آنْ المنزل عارية الرّأس في ذلك الغسق الخريفيّ البارد. وفي حزم وثبات، عبرت حقل البرسيم وجسرَ الحطب وبستان الصّنوبر يُنيرُها قمرٌ صغير يتدلّى قريبا من الغابة الغربيّة. اقتربت السّيّدةُ باري من الباب استجابةً

لطرق خجول. فوجدت أمام عتبة بيتها سائلةً شاحبة الوجه متوسّلة العينين.

تغضّن وجهُها على الفور. كانت السّيّدةُ باري امرأة ميّالةً بشدّة إلى الأحكام المسبقة ونَفُورةً. وكان غضبُها باردا حاقدا يصعُب تخطّيه. ولكن يجدر القول من باب الإنصاف إنّها اعتقدت حقّا أنّ آنْ أسكرتْ ديانا عن قصد وبدافع من المكر والخبث. كما أنّها كانت صادقةً في حرصها على حماية ابنتها من أخطار العدوى النّاجمة عن مخالطة فتاة كتلك.

«ماذا تريدين؟»، سألت بجفاء.

شبّكتْ آنْ أصابع يديْها.

«آه، سيّدة باري. أرجوك سامحيني! لم أقصد أن... أن... أسمّم ديانا. وكيف يمكنني ذلك؟ تخيّلي فحسبُ لو كنتِ فتاة صغيرة، يتيمة ومسكينة، تبنّاها أناسٌ لطفاء طيّبون ولم تملك في كلّ العالم سوى صديقةِ قلبٍ وحيدة. هل كنتِ لتسمّميها عن قصد؟ كنتُ أحسب أنّه شراب التّوت. هذا كلّ ما في الأمر. بل كنتُ متيقّنةً تماما من أنّه شرابُ التّوت. آه، أرجوكِ لا تقولي إنّكِ لن تدعي ديانا تلعبُ معي بعد الآن، لأنّكِ إذا فعلتِ ذلك فستحوّلين حياتي إلى غيمة بؤس سوداء».

هذا الخطابُ الذي كان ليُرقّق قلبَ السّيّدة لينْدْ على الفور لم يُجدِ نفعا مع السّيّدة باري، ما عدا أنّه أضاف إلى غيظها وغضبها نصيبا إضافيّا. لقد كانت مرتابة في كلمات آنْ الكبيرة وحركاتها الدراميّة.

فحسبت أنّ الفتاة تستبلهُها أو تسخر منها. ولهذا السّبب، ردّت ببرود وقسوة:

«لا أعتقدُ أنّك فتاةٌ مناسبة لصحبة ديانا. يُستحسن أن تعودي إلي بيتكِ. فتتأدّبي».

مكتبة
t.me/soramnqraa

ارتجفت شفةُ آنْ.

«هل تسمحين لي برؤية ديانا للمرّة الأخيرة... من أجل الوداع فحسب؟».

«لقد غادرتْ ديانا إلى كارمودي مع أبيها»، ردّت السّيّدةُ باري، وهي تغلقُ الباب وتعود إلى الدّاخل. أمّا آنْ، فقد رجعتْ إلى الضّيعة الخضراء ساكنةً من اليأس.

«لقد تبخّر أملي الأخير»، قالت لماريلاّ. «ذهبتُ لرؤية السّيّدة باري بنفسي. ولكنّها عاملتني على نحو مُهين جدّا. أعتقدُ يا ماريلاّ أنّها ليست امرأةً ذات تربيةٍ أصيلة. لم يبق أمامي سوى الدّعاء والصّلاة، رغم أنّني لا أملك الكثير من الرّجاء. إذْ لا أعتقد أنّ الرّبّ نفسهُ يستطيع أن يحقّق نجاحا في هذه المسألة إزاء شخص بمثل عناد السّيّدة باري».

«آنْ! لا يجدرُ بكِ أن تتكلّمي على هذا النّحو»، احتجّت ماريلاّ في نبرة توبيخ وهي تكتمُ ضحكاتها المكبوتة. ولكن، عندما روت القصّة لماثيو في تلك اللّيلة ضحكتْ على سجيّتها وملء قلبها من محنة آنْ. وعندما مرّت على الغرفة الشّرقيّة قبل ذهابها إلى سريرها، عثرتْ عليها، وقد استغرقت في النّوم بعد أن استنفدت كلَّ دموعها.

فتسلّلت الرّقةُ والعطف إلى ملامحها. وقالت: «يا للملاك الصّغير المسكين!»، همستْ وهي ترفعُ خصلة منفردةً عن وجه البنت الملطّخ بالدّموع. ثمّ انحنت. وقبّلت الخدّ المتورّد على الوسادة.

(17)
هدفٌ جديدٌ في الحياة

كانت آنْ مُستغرقةً في الخياطة عند نافذة المطبخ مساءَ اليوم التّالي، عندما ألقت نظرةً مفاجئة فلمحت ديانا عند نبع الجنّيّات، وهي تلوّحُ لها بطريقة غامضة. وفي لمح البصر، صارت آنْ خارج المنزل طائرةً إلى الغدير، وفي عينيها الواسعتيْن تتصارعُ الدّهشةُ والأمل. ولكنّ الأمل انسحب منهما على الفور ما أن رأت وجه ديانا الحزين.

«ألم يرقَّ قلبُ أمّك بعد؟»، قالت لاهثةً.

أومأت ديانا برأسها على نحو كئيب.

«لا... وآه يا آنْ! إنّها تصرّ على منعي من اللّعب معكِ مجدّدا. لقد بكيتُ، وبكيتُ، وقلتُ لها إنّه ليس خطأَك. لكنّ شيئا لم ينفع. أمضيتُ طيلة هذا اليوم، وأنا أستعطفُها لتسمح لي بالقدوم إلى هنا من أجل وداعكِ. وفي نهاية المطاف، وافقت شرط ألاّ أتجاوز عشر دقائق. وهي الآن تُحدّقُ في السّاعة وتحصي لي الوقت».

«عشرُ دقائق لا تكفي لوداع أبديّ»، قالت آنْ باكيةً. «أوه يا ديانا، عديني بكلّ صدق ألاّ تنسيني مطلقا، ألاّ تنسي صديقة

طفولتك، مهما التقيتِ مستقبلا بصديقاتٍ يشرحن صدركِ ويُدخلن البهجة على قلبك».

«لا شكّ في ذلك»، ردّت ديانا منتحبةً. «لن تكون هناك صديقات مقرّبات في حياتي بعد الآن. لا أريدُ ذلك. ولا يمكنني أن أحبّ أيّ شخص مثلما أحبّك».

«آه يا ديانا!»، شبّكت آنْ أصابع يديها. «هل تحبّينني حقّا؟».

«لماذا تسألين؟ طبعا أحبّكِ. ألم تعرفي هذا من قبل».

«لا»، واستنشقت نفَسا عميقًا. «ظننتُ أنّي أعجبكِ بعضَ الشّيء. ولكنّني لم آملْ أن أحظى بحبّك. لم أعتقد أنّه بإمكان شخص مّا أن يحبّني، لأنّ ذلك لم يسبق أن حدث معي، وفق ما تُسعفني به ذاكرتي. آه، هذا رائع! إنّه شعاع نور سوف يظلُّ مُشرقا دوما في طريقي الذي أسلكه مُظلما من دونك. رجاء، قوليها مرّة أخرى».

«أحبّكِ بكلّ ما أوتي قلبي من عاطفة. وسوف أظلُّ أحبّك طيلة حياتي. تأكّدي من هذا».

«وسوف أحبّك دوما يا ديانا»، قالت آنْ بنبرة رسميّة، وهي تمدّ يدها. «خلال السّنوات القادمة، سوف تشرق ذكراك مثل نجمة في سماء حياتي الوحيدة، كما تقول تلك القصّة الأخيرةُ التي قرأناها معا. ديانا، هل تمنحينني خصلة من ضفائرك السّوداء الفاحمة، كنزا يذكّرني بك دوما؟».

«هل لديكِ ما تقصّين به؟»، سألت ديانا بنبرة عمليّة بعد أن جفّفت دموعها التي أسالها سلوكُ آنْ العاطفيُّ مجدّدا.

«نعم، لحسن حظّي أنّني أحملُ في جيب مئزري مقصّ الخياطة»، أجابت آنْ. ثمّ قصّت على نحوِ الطّقوس الرّمسيّة خلصةً من شعر ديانا. وأردفت: «وداعا يا صديقتي الحبيبة! من الآن فصاعدا، سنحيا مثل غريبتيْن، فيما نعيشُ جنبًا إلى جنب. ولكنّ قلبي سوف يظلُّ وفيّا لك دوما».

نهضت آنْ. وراقبتْ ديانا، وهي تتقدّمُ في مجال بصرها. وظلّت تلوّح لها على نحو كئيب كلّما التفتت إليها. وفي آخر الأمر، عادت إلى المنزل، دون أن يواسيها ذاك الوداعُ العاطفيّ ولو قليلا.

«لقد انتهى كلّ شيء»، قالت آنْ. «لن أصادق أيّ شخص آخر بعد الآن. إنّني حقّا في أسوأ حال عرفتُها في حياتي. إذ لم يعد لديّ الآن كاتي موريس ولا فيُوليتّا. وحتّى لو حصلتُ عليهما، فقد اختلف الأمر إلى الأبد. فعلى نحو مّا، تختلفُ بناتُ الأحلام الصّغيراتُ عن صديقة حقيقيّة. لقد كان وداعنا، أنا وديانا، عند النّبع مؤثّرا جدّا. وسوف يظلّ هذا الوداعُ مقدّسا في ذاكرتي حتّى آخر نفَس في حياتي. ففيه استخدمتُ أبلغ أسلوب يمكنني التّوصّل إليه. ومنحتني ديانا خصلة من شعرها. وسوف أخيطها في كيس صغير. وأضعها قلادةً حول رقبتي ما حييتُ. أرجوكِ، احرصي أن تُدفن معي يا ماريلاّ. إذْ لا أعتقدُ أنّني سأعيشُ طويلا. ربّما تراني السّيّدةُ باري مسجّاةً أمام عينيها، جثّةً باردةً، فتشعر حينئذ بالنّدم على ما فعلته وتسمح لديانا بالقدوم إلى جنازتي».

«لا أظنُّ أنّ الموتَ من الحزن والكمد أمرٌ ممكنٌ بالنّسبة إليك

ما دمتِ تثرثرين على هذا النّحو يا آنْ»، قالت ماريلاّ بنبرة تخلو من التّعاطف.

في اليوم التّالي، فاجأت آنْ ماريلاّ، وهي تنزلُ من غرفتها حاملةً سلّة كتبها بين ذراعيها، وعلى شفتيها ارتسم ملمحُ التّصميم والحزم.

«أنا عائدة إلى المدرسة»، صرّحت. «هذا كلُّ ما تبقّى لي الآن في حياتي، بعد أن انتُزِعتْ منّي صديقتي بلا رحمة. في المدرسة، يمكنني النّظر إليها وتذكُّر الأيّام الخوالي».

«من الأحسن لك التّفكُّر في دروسك ومسائلك الحسابيّة»، قالت ماريلاّ، وهي تكتُم ابتهاجها بما آلتْ إليه الأمورُ. «بما أنّك تعودين إلى المدرسة، فأرجو ألاّ نسمع مرّة أخرى قصص الألواح المكسّرة على الرّؤوس وما إلى ذلك من الغرائب. تأدّبي. وأطيعي معلّمك! أفهمتني؟».

«سأحاولُ أن أكون تلميذةً نموذجيّة»، ردّت آنْ بلطف. «أحسبُ أنّ ذلك لن يكون ممتعا. طالما قال لنا السّيّدُ فيليبسْ إنّ ميني آندرُوزْ تلميذةٌ نموذجيّة، فيما لا تمتلكُ تلك البنتُ بريقا واحدا من الخيال أو الحياة. بل هي بليدةٌ ومُضجرة. وليس هناك أيّ انطباع لدى النّاظر إليها أنّها تستمتعُ بوقتها. ولكنّي غارقةٌ في اليأس، حتّى إنّ الأمرَ سيكونُ سهلاً جدّا بالنّسبة إليّ. سأسلكُ الطّريق العاديّ إلى المدرسة، لأنّي لن أطيق السّيرَ وحدي في ممرّ البتولا. ولا شكّ أنّني سأذرفُ دموع الحسرة لو تجرّأتُ على ذلك».

استُقبِلتْ آنْ في المدرسة بأذرع التّرحاب. فقد افتُقدت مخيّلتُها، على نحوٍ مؤلم، في اللّعب، وكذلك صوتُها في الغناء وأسلوبُها الدّراميُّ عند القراءة الجهريّة في موعد الغداء. هرّبت لها روبي غيليز ثلاثَ حبّاتٍ برقوق أزرق خلال حصّة قراءة الإنجيل. ومنحتها إيلا مايْ ماكفِرْسُونْ قصاصةً صفراءَ كبيرة اقتُطعت من موسوعة نباتيّة ورُسمتْ عليها زهرةُ الثّالوث[1]. وهي إحدى الفصائل النّباتيّة المخصّصة لتزيين المقاعد على نحو مُبجَّل في آفُونلي. أمّا صوفيا سْلُون، فقد عرضت عليها أن تعلّمها تصميمًا أنيقا لحياكة شرائط الزّينة. وقالت إنّه تصميمٌ جميل ومناسب لتزيين المآزر. في المقابل، وهبتها كيتي بُولْتِر زجاجةَ عطر فارغةً لتضع فيها الماء المخصّص لمسح اللّوح. ونسخت جوليا بيلْ بعناية شديدة، وعلى قطعة ورق ورديّ شاحب مسنّنةٍ حوافُّه، المقطع التّالي:

إلى آنْ
عندما يُرخي الغسقُ ستارَه
ويشدُّه إلى نجمة
تذكّري أنّ لكِ صديقة
وإنْ كانت بعيدة

«كم رائعٌ أن أشعر بتبجيلهنّ»، قالت آنْ لماريلاّ في ابتهاج تلك اللّيلة. ولكنّ الفتيات لم يكنّ الوحيدات اللّواتي «يُبجّلن» آنْ من بين

(1) الاسم العربيّ لزهرة البانْسِي. وهي زهرةٌ للزّينة تنحدرُ من عائلة البنفسج.

جميع التّلاميذ. عندما رجعتْ آنْ بعد استراحة الغداء إلى مقعدها الذي تجلسُ فيه إلى جانب التّلميذة النّموذجيّة ميني ماكفرسون (كان ذلك استجابة لأمر السّيّد فيليبْسْ)، وجدت على مكتبها تفّاحة حمراء كبيرة. فتناولتها في يدها. وأوشكت أن تقضمها. ولكنّها تذكّرت أنّ المكان الوحيد في آفُونلي الذي ينمُو فيه هذا التّفّاحُ الأحمر هو بستانُ عائلة بلايْثْ القديمُ على الضّفّة الأخرى من بُحيرة المياه اللاّمعة. وحينئذٍ، ألقت آنْ التّفّاحة من يدها كأنّها جمرة ملتهبة حارقة. وفي كبرياء واضح، مسحت أصابعها بمنديل. بقيت التّفّاحة كما هي على مكتبها حتّى صباح اليوم التّالي. إذ عثر عليها الصّغيرُ تيموثي آندروزْ، المسؤول عن كنس المدرسة وإشعال النّار. فالتقطها، مُلحِقا إيّاها بقائمة مكافآته. أمّا بالنّسبة إلى تشارلي سْلُون، فقد استُقبِلت هديّتهُ بترحاب أكبر. إذْ أرسل إلى آنْ بعد استراحة الغداء قلمًا خاصّا بالكتابة على اللّوح، مزركَشًا على نحو رائع بالأحمر والأصفر. إنّه قلمٌ فخمٌ باهضٌ يُقدَّر ثمنُه بسِنتَيْن، أي ضعف ثمن القلم العاديّ. قبلت آنْ بلطف هديّته. وتفضّلت بابتسامة أرسلت الشّابّ المفتون إلى سماء البهجة السّابعة، ودفعتهُ إلى اقتراف أخطاء فظيعة في نصّه الإملائيّ، حتّى إنّ السّيّد فيليبسْ أبقاه بعد انتهاء الحصّة المدرسيّة ليعيد كتابتها، ولكن على هذا النّحو السّليم:

إنّ اختلاس تمثال بروتوس[1] من موكب القيصر

(1) لوشيوس يونيوس بروتوس: مؤسّسُ الجمهوريّة الرّومانيّة وأحد أوائل القناصل عام 509 قبل الميلاد.

لم يزدْ روما إلاّ تذكيرًا بابنها الأبرّ

لم تستطع آنْ تجنُّب الأسف على غياب هديّة ديانا أو أيّ علامة اعتراف من عندها. كما أنّ جلوسها إلى جانب غيرتي باي لم يفعل شيئا سوى الزّيادة في مرارة الموقف.

«كان على ديانا أن تبتسم لي ولو مرّة واحدة»، اشتكتْ لماريلاّ في تلك اللّيلة. ولكنّها تسلّمت صباح اليوم التّالي ورقةً مطويّة وملفوفة بخوف وحرص لا مثيل لهما مع طرد صغير.

«آنْ العزيزة

تقول أمّي إنّه عليّ ألاّ ألعب معك أو أكلّمكِ حتّى في المدرسة. لا ذنب لي في المسألة. فلا تغضبي منّي رجاء، لأنّني مازلتُ أحبّكِ مثلما كنتُ وأكثر. أشتاقُ إليك على نحو فظيع. وكم أودّ أن أحدّثك بكلّ أسراري. كما أنّني لا أحبّ غيرتي بايْ بتاتا. أعددتُ لكِ مؤشّر كتب من مناديل ورقيّة حمراء. إنّها دارجةٌ هذه الأيّام. ولكنّ ثلاث فتيات في المدرسة فحسب من يعرفن كيفيّة إعدادها. تذكّريني كلّما نظرتِ إليها.

صديقتكِ الحقيقيّة

ديانا باري».

قرأت آن الرّسالة. فقبّلتْ مؤشّر الكتب. وأرسلت ردّا فوريّا إلى الجهة الأخرى من المدرسة.

«عزيزتي الغالية ديانا،

لستُ غاضبةً منكِ طبعًا، لأنّ عليك طاعة أمّك. لكنّ روحيْنا

تستطيعان التّواصل في ما بينهما. سوف أحتفظُ بهديّتكِ الجميلة إلى الأبد. إنّ ميني آندرُوزْ فتاةٌ صغيرةٌ لطيفة جدّا، رغم أنّها تفتقرُ تماما إلى الخيال. ولكن، بعد أن كنتُ صديقة ديانا المقرّبةَ لا أستطيعُ أن أرضى بصداقة ميني. أرجوكِ، اغفري لي أخطائي الإملائيّة، لأنّ قدرتي على الكتابة ليست جيّدة، رغم أنّها قد تحسّنت مؤخّرا.

المُخلِصةُ لكِ حتّى يُفرّقنا الموت

آنْ أو كورديليا شيرلي».

«ملاحظة: سأنامُ اللّيلة ورسالتكِ تحت وسادتي».

أو ك. ش

توقّعت ماريلاّ على نحو متشائم أن تزداد المتاعبُ منذ عودة آنْ إلى المدرسة. لكنّ ذلك لم يحدث في واقع الأمر. ولعلّ آنْ قد التقطت نصيبا من الرّوح النّموذجيّة التي تملكُها ميني آندرُوزْ. على الأقلّ، تحسّنتْ علاقتُها مع السّيّد فيليبسْ على نحو مميّز. وهكذا انغمستْ ملء روحها وقلبها في دراستها. وقرّرتْ ألاّ يتفوّق عليها غيلبرتْ بلايثْ في أيّ صفّ. وسرعان ما أصبح التّنافسُ بينهما جليّا. لكنّه تنافسٌ خالٍ من أيّ حقد. في الحقيقة، هذا ما ينطبقُ على غيلبرتْ فحسب. أمّا بالنّسبة إلى آنْ، فالأمرُ مختلف تماما، مع ما تتميّز به من قدرة على الاضطغان إلى أبعد حدٍّ ممكن. وذلك ما لا يمكنُ الثّناءُ عليه، رغم كونه متأتّيًا من حدّة مشاعرها سواء أتعلّق الأمر بالكراهية أم الحبّ. كانت آنْ رافضةً للاعتراف بوجود أيّ

نوع من المنافسة بينها وغيلبرتْ، لأنّ هذا يعني اعترافها بوجوده الذي أقسمت على تجاهله وإنكاره. ورغم كلّ ذلك، فإنّ المنافسة ظلّت قائمة وحقيقيّة. وبقيت أحسنُ العلامات تتأرجحُ بينهما. تارة، يتفوّقُ غيلبيرتْ في صفّ الإملاء. وتارة أخرى تهزمهُ آنْ مع انتفاضة لجدائلها الحمراء الطّويلة في الهواء. ذات صباح، أتمّ غيلبرتْ كلّ عمليّاته الحسابيّة على نحو صحيح. فدُوِّن اسمه على السّبّورة السّوداء ضمن لائحة الشّرف. وفي اليوم التّالي، تفوّقت عليه آنْ بعد أن قضّت مساء اليوم السّابق تتصارعُ بشراسة وحشيّة مع الكسور العشريّة. أمّا اليوم الفظيعُ، فهو ذاك الذي تعادلا فيه. فكُتب اسماهُما جنبا إلى جنب على السّبّورة. وجدت آنْ ذلك سيّئا جدّا، أشبه بأن يُكتَب اسماهُما على جدار الرّواق مع عبارة «أحيطوا بهما علما..».. وبقدر ما أحسّت هي بالخزي لذلك، شعُر غيلبرتْ بالابتهاج. وعندما انطلقت الامتحانات الكتابيّة نهايةَ الشّهر، بدا الجوُّ مفعما بالإثارة والتّشويق. خلال الشّهر الأوّل، تقدّم غيلبرتْ بثلاث علامات. أمّا في الشّهر الثّاني، فقد هزمتهُ آنْ بفارق خمس علامات. ولكنّها فقدتْ لذّة الانتصار عندما هنّأها به غيلبرتْ من صميم قلبه وأمام جميع تلاميذ المدرسة. كان الأمرُ ليبدو ألذّ وأطيب لو أنّه أحسّ بلوعة الهزيمة.

قد لا يكونُ السّيّدُ فيليبسْ معلّما جيّدًا. لكنّ تلميذًا لهُ حرصُ آنْ على العلم وثباتُها العنيدُ في طلبه لا بدّ أن ينتهي به المطافُ إلى إحراز التّقدّم والنّجاح مهما كانت طبيعة المعلّم الذي يدرّسُه. عند نهاية الفصل الدّراسي، تمّ نقلُ آنْ وغيلبرتْ إلى الصّفّ الخامس. وصار

لزاما عليهما أن يدرسا «الموادّ الحقيقيّة»، أي اللاّتينيّة والهندسة والفرنسيّة والجبر. وفي الهندسة، عثرت آنْ على حربها الضّروس.

«إنّها مادّة فظيعة جدّا يا ماريلاّ»، قالت متذمّرة. «وأنا متيقّنة من أنّني لن أستطيع مطلقا أن أميّز رأسها من ذيلها... مجرّد مادّة بائسة لا مجال فيها للخيال. يقول السّيّدُ فيليبسْ إنّني أغبى تلميذة رآها في هذه المادّة. وغيلْ... أقصدُ بعض التّلاميذ الآخرين متفوّقون جدّا فيها. إنّها مسألةٌ مهينةٌ جدّا يا ماريلاّ! حتّى ديانا تتدبّر أمرها في الهندسة على نحو أفضل منّي. لا مانع لديّ في أن تهزمني ديانا طبعا. فرغم أنّنا صرنا نلتقي مثل غريبتيْن الآن، فإنّي مازلتُ أحبُّها حبّا عظيما لا يمكن لشعلته أن تُخمَد إلى الأبد. أحيانا، يدفعُني التّفكيرُ فيها إلى الشّعور بحزن هائل. ولكن، لا يمكن للمرء أن يظلّ حزينًا لفترة طويلة جدّا في عالم مُثير كهذا. أليس كذلك؟

(18)
الاستنجادُ بآنْ

جميعُ الأشياء العظيمة موصولةٌ بأشياء صغيرة وبسيطة. وقد لا يبدو لأوّل وهلة أنّ هناك أيّ صلة تربطُ بين قرار رئيس الوزراء الكنديّ أن يُدرج جزيرة الأمير إدوارد في برنامج جولته السّياسيّة القادمة وقدَر آنْ شيرْلي، الفتاةِ الصّغيرة التي تعيشُ في منزل الضّيعة الخضراء. ولكنْ، أبان مجرى الأحداث خلافَ ذلك.

زار رئيسُ الوزراء في كانون الثّاني مدينة تشارْلُوتْ تاوْنْ للتّحدّث إلى مؤيّديه الأوفياء وغيرهم ممّن اختاروا أن يكونوا حاضرين في اجتماعه الجماهيريّ الحاشد. وكان معظمُ سكّان أفونلي من بين المؤيّدين لسياسة رئيس الوزراء. ولهذا السّبب، قصَد أغلبُ الرّجال وشطرٌ وافرٌ من النّساء ليلةَ الاجتماع المدينةَ. وصارُوا على مسافة ثلاثين ميلا عن منازلهم. كانت السّيّدةُ رايتشلْ ليندْ واحدةً من أولئك. فهي لا تعتقدُ البتّة -وهي صاحبةُ الحماس السّياسيّ المتّقد- أنّه يمكنُ أن ينعقد ذلك التّجمّعُ في غيابها، رغم كونها مناصرةً لخصوم السّيّد الوزير. وهكذا اتّجهتْ نحو المدينة مُصطحِبةً زوجَها معها -سيكون مُفيدا في الاعتناء بالحصان- وكذلك ماريلاّ كاثبرتْ، التي كانت تُضمرُ داخلَها نوعًا من الولع

الخفيّ بالسّياسة، بالإضافة إلى قناعتها بكونها إزاء فرصة قد تكون الوحيدةَ لرؤية وزير حيّ وحقيقيّ. وبالتّالي، انتهزت تلك الفرصة، تاركة آنْ وماثيو من أجل الاعتناء بالمنزل في انتظار عودتها خلال اليوم التّالي.

وبينما كانت ماريلاّ والسّيّدةُ رايتشلْ تستمتعان بوقتهما في الاجتماع الجماهيريّ، تنعّمت آنْ وماثيو بمفردهما بمطبخ الضّيعة الخضراء؛ كانت النّارُ المتوهّجة تشتعلُ في الموقد العتيق، بينما يتلألأ بلّورُ الجليد الأبيضُ والأزرقُ على ألواح النّوافذ. وكان ماثيو مُستلقيا على الأريكة يقرأُ «محامي المزارعين»، (مجلّة الفلاّحين الشّهيرة) بينما تجلسُ آنْ إلى الطّاولة لتعمل على دروسِها بوجهٍ جادّ وعَبُوس، رغم نظراتها المتلهّفة من حين إلى آخر إلى رفّ السّاعةِ حيثُ يستقرُّ كتابٌ جديد أعارتْه لها جاينْ آندروزْ ذلك اليوم. أكّدتْ جاين أنّه كتابٌ مليء بالإثارة والدّهشة، ممّا جعل آنْ متحرّقة للغوص بين دفّتيه. ولكنّ ذلك يعني في المقابل تفوّق غيلبرتْ بلايثْ عليها في الغد. التفتتْ آنْ دون رفّ السّاعة. وحاولتْ أن تتخيّل ألاّ وجود له أصلا.

«ماثيو، هل سبق لك أن درستَ الهندسة عندما كنتَ ترتادُ المدرسة في صغرك؟».

«حسنا، لا. لم أدرسها»، ردّ ماثيو وقد أفاق من غفوته.

«وددتُ لو أنّ العكس صحيح»، أردفتْ وهي تتنهّدُ. «لأنّك في تلك الحال ستكون أكثر قدرةً على التّعاطف معي. إذ لا تستطيع

أن تتعاطف معي كما ينبغي لك إذا لم تدرسها في حياتك قطّ. إنّها تلفّ غيمة سوداء على حياتي. فأنا غبيّة جدّا في هذه المادّة يا ماثيو».

«حسنا، لا أعرف حقّا ما أقوله»، قال ماثيو بهدوء. «ولكنّني متيقّنٌ من أنّك جيّدةٌ في كلّ شيء. لقد التقيتُ السّيّد فيليبسْ الأسبوعَ الماضي في متجر بليرْ في كارمودي. فأخبرني حينذاك أنّكِ أذكى تلميذة في المدرسة وأنّكِ تحقّقين تقدّما سريعا. وتلك هي كلماتُه حرفيّا. ورغم ما يُشاع عن تيدي فيليبسْ من كونه ليس معلّما كُفؤا، فإنّي أعتقدُ أنّه جيّد بما فيه الكفاية».

كان ماثيو مستعدًّا للتّسليم بأنّ كلّ من يمدحُ آنْ جيّدٌ بما فيه الكفاية.

«أنا متأكّدةٌ من قدرتي على التّحسّن في مادّة الهندسة إذا توقّف السّيّدُ فيليبسْ عن تغيير الرّموز الحروفيّة»، قالت في تذمّر. «إذْ كلّما حفظتُ المسألةَ عن ظهر قلب، يرسمُها هو على السّبّورة ويدوّنُ حروفًا مختلفة عمّا ورد في الكتاب المدرسيّ. فيدفعني حينئذ إلى التّشوُّش. أعتقدُ أنّه لا ينبغي للمعلّم أن يتصرّف على هذا النّحو البائس. أليس كذلك؟ نحنُ بصدد دراسة الزّراعة. واكتشفتُ أخيرا ما يجعلُ الطّرقات حمراء. يا لها من راحة طال انتظارُها! أتساءل ما إذا كانت ماريلاّ والسّيّدةُ ليندْ تستمتعان بوقتهما. تقول السّيّدةُ ليندْ إنّ كندا تهوي في اتّجاه مصير الكلاب بسبب السّياسة المتّبعة في أُوتَاوا[1]، وإنّ ذلك نذير واضح للنّاخبين. تقول كذلك

(1) عاصمة كندا.

إذا سُمح للنّساء بالانتخاب فسنرى قريبا انفراجا مباركا. قل لي يا ماثيو، لمن ستصوّت؟».

«للمحافظين»، أجاب ماثيو على الفور. فقد كان التّصويتُ لهم بالنّسبة إليه أمرا عقديّا.

«إذن، أنا أيضا مع المحافظين»، قالت آنْ بثبات. «وأنا سعيدةٌ لذلك، لأنّ غيلْ.. أقصدُ بعض فتيان المدرسة يساندون الإصلاحيّين. وأحسبُ أنّ السّيّد فيليبسْ إصلاحيٌّ أيضا، لأنّ والد بريسي آندرُوزْ كذلك، بينما تقولُ روبي غيليزْ يجدر بالرّجل الذي يتغزّلُ بفتاة ويتودّدُ إليها أن يماثل أمَّها في الدّين ويوافق أباها في السّياسة. أهذا صحيح يا ماثيو؟».

«حسنا، لا أعرف حقّا».

«هل تغزّلتَ من قبل بفتاة يا ماثيو؟».

«حسنا، لا. لا أتذكّر أنّي فعلتُ ذلك»، ردّ ماثيو الذي لم يفكّر قطّ، ودون شكّ، في مسألة كهذه طيلة حياته.

ظلّت آنْ تتفكّر في سرّها، وذقنُها مستندٌ إلى يديها.

«لا شكّ أنّ الأمر مثيرٌ. ألا تعتقدُ ذلك يا ماثيو؟ تقول روبي غيليزْ إنّها سوف تحصلُ في كبرها على صفّ طويل من العشّاق، وسوفَ تجنّنُهم جميعًا بحبّها. ولكنّي أرى في ذلك مغالاةً في الإثارة. وأفضّلُ في المقابل الحصولَ على عاشقٍ واحد فحسبُ، شرط أن يكون سليمَ المدارك العقليّة. ومع ذلك، فإنّ روبي غليزْ تملكُ اطّلاعا واسعا على مثل هذه المسائل بما أنّ لديها الكثير من الأخوات

البالغات. كما أنّ السّيّدة ليندْ تقول إنّ الرّجال يلاحقون بنات غيليزْ مثل الكعك السّاخن. كلّ مساء تقريبا، يذهبُ السّيّدُ فيليبْسْ لرؤية بريسي آندرُوزْ. وهو يزعم أنّ السّبب في ذلك مساعدته لها في العمل على دروسها. لكنّ ميراندا سلُون تتأهّب لاجتياز امتحان القبول في الأكاديميّة الملكيّة أيضا. وأحسبُ أنّها في حاجة إلى المساعدة أكثر من بريسي، لأنّها أغبى منها بكثير. ومع ذلك، فهو لم يذهب قطُّ لمساعدتها في المساء مطلقا. هناك أشياءُ كثيرة في هذا العالم لا أستطيعُ التوصّل إلى فهمها يا ماثيو».

«حسنا، لا أعرف ما إذا كنتُ أفهمُها أنا أيضا»، قال ماثيو بنبرة اعتراف.

«يجبُ عليّ أن أنهي دروسي. ولن أسمح لنفسي بفتح الكتاب الذي أعارته لي جاين قبل ذلك، رغم ما يمثّلهُ من إغراء لا يُقاوَم. فحتّى عندما ألتفتُ دونه، تظلُّ صورتُه تخفق أمام عينيّ. تقول جاين إنّها بكت حدّ السّقم عندما قرأتهُ. وأنا أعشقُ الكتب التي تدفعني إلى البكاء. يبدو أنّني سأنقلهُ إلى غرفة الجلوس. أقفل عليه خزانة المؤونة. ثمّ أسلّمكَ المفتاح. يجب ألاّ ترجعهُ لي يا ماثيو قبل أن أنهي واجباتي المدرسيّة، حتّى لو توسّلتُ إليك جاثيةً على ركبتيّ. من السّهل على المرء أن يقول: «هيّا، قاوم الإغراء!». ولكنّ المقاومة تصير أسهل بكثير إذا كنتَ غير قادر على الحصول على المفتاح. والآن، ما رأيك أن أنزل إلى القبو فأحضر التّفّاح المجفّف. ألا ترغبُ في بعض القطع يا ماثيو؟».

«حسنا، لا أعرف حقّا ما أريدهُ»، ردّ ماثيو الذي لم يتناول أيّ تفّاح مجفّف من قبل، ولكنّه يدرك جيّدا مدى عشق آنْ له.

وما أن أطلّت آنْ من القبو، وهي تحملُ طبق التّفّاح بين يديها، سُمع صوتُ أقدام مُسرعة على الألواح الخشبيّة المكسوّة بالجليد في الخارج. وفجأةً، دُفع بابُ المطبخ بقوّة شديدة. وظهرت ديانا باري شاحبةَ الوجه تماما، منقطعة الأنفاس وهي تلفّ شالا مرتجلا حول رأسها.

ومن شدّة المفاجأة، أفلتت آنْ من بين يديها الطّبق والشّمعة. فتدحرجا على امتداد الدّرج. وبقيا هناك حتّى عثرت عليهما ماريلاّ في اليوم التّالي، فالتقطتهُما وهي تحمد الرّبّ لأنّ البيت لم يحترق.

«ما الأمرُ يا ديانا؟»، صاحت آنْ. «هل رقّ قلبُ أمّكِ أخيرا؟».

«آه يا آنْ! أسرعي!»، توسّلتْ ديانا في توتّر. «مِيني مايْ مريضة جدّا. وهي مصابة بالخانُوق[1]، وفق ما تقوله ماري جُو. أمّي وأبي في المدينة. وليس هناك من يستطيع الذّهاب في طلب الطّبيب. حالة ميني مايْ سيّئة جدّا. وماري جُو لا تعرف ما الذي ينبغي فعلُه. وآه يا آنْ! أنا خائفةٌ جدّا».

وعلى الفور، تناول ماثيو في صمت قبّعته ومعطفه. وتجاوز آنْ، ثمّ غاب في ظلام الفناء.

---

(1) أو التهاب الحنجرة والرّغامى والقصبات: هو مرض يصيبُ الجهاز التّنفّسي. ويحدثُ ذلك عادة بعد تأثّره في المستوى العلويّة بإصابة فيروسيّة حادّة.

«لقد ذهب ليُسرِجَ الفرسَ كي يذهب إلى كارمُودي في طلب الطّبيب»، قالت آنْ، وهي تسرع لالتقاط قبّعتها وسترتها. «أعرف هذا كأنّه قد صرّح به. فأنا وماثيو روحان توأمان. ويمكنني قراءة أفكاره في غياب الكلمات».

«لا أعتقدُ أنّه سيعثر على الطّبيب في كارمودي»، هتفت ديانا باكيةً. «أعرف أنّ الطّبيب بليرْ قد ذهب إلى المدينة. وكذلك فعل الطّبيبُ سبنسِرْ دون شكّ. أمّا ماري جُو، فلم يسبق لها أن رأت شخصا مُصابا بالخانُوق. والسّيّدةُ ليندْ ليستْ هنا. أوه يا آن!».

«لا تبكي عزيزتي ديَا!»، قالت مُواسيةً. «أعرفُ جيّدا ما ينبغي فعلُه لمعالجة الخانوق. أنسيتِ أنّ السّيّدة هامُوندْ حظيت بثلاث توائم؟ عندما يعتني المرءُ بثلاث توائم، فإنّه يُحصّل خبرةً كبيرة في مسائل كثيرة. لقد أصيب أولئك التّوائمُ على التّوالي بالخانُوق. انتظريني لحظة حتّى أعثر على شراب عرق الذّهب[1]. فقد لا أجده عندكم في البيت. هيّا، لنذهب الآن».

أسرعت الصبيّتان الصّغيرتان، وهما تتقدّمان يدا بيدٍ عبر مسلك العشّاق. ثمّ انعطفتا في اتّجاه الحقل الممتدّ وراءهُ، لأنّ الثّلج كان كثيفا جدّا ممّا يمنعهما من عبور طريق الغابة الأقصر. ورغم قلق آنْ على ميني مايْ، فإنّها لم تمنع نفسها من الشّعور برومنسيّة الموقف وحلاوة اقتسام تلك الرّومنسيّة مع روح شقيقة».

(1) دواء سائل كان يُستعمل في ما مضى شرابا لمعالجة السّعال وتحفيز التّقيّؤ. ويتمّ استخلاصُه من نبات عرق الذّهب الذي يحمل اسمه.

كانت اللّيلةُ صافيةً وباردة، ذاتِ ظلال بلون الأبنوس ومنحدراتٍ ثلجيّة فضّيّة. وفيها، توهّجت النّجومُ الكبيرة فوق الحقول الممتدّة السّاكنة. انتصبتْ هنا وهناك أشجارُ التنّوب الدّاكنةُ، وعلى أغصانها توزّعتْ ندفُ الثّلج، بينما ظلّت الرّيح تصفّرُ في ما بينها. شعرت آنْ ألاّ شيء أكثر متعةً من استقراء ذلك الجمال وتلك الرّوعة مع صديقتها المقرّبة التي أُبعِدتْ عنها لفترة طويلة.

كانت ميني مايْ التي تبلغُ سنّ الثّالثة مريضة جدّا بالفعل. تمدّدت على أريكة المطبخ، محمومةً ومنهكة، بينما يُسمعُ صوتُ تنفُّسِها الأجشّ في كامل أنحاء المنزل. أمّا الشّابّة ماري جُو، تلك الفتاةُ الفرنسيّة، الممتلئةُ، ذاتُ الوجه المكوّر والأصول السّاحليّة والمكلّفة من قبل السّيّدة باري بالاعتناء بأبنائها في غيابها، فقد ظلّت مذهولة عاجزةً عن التّفكير في ما ينبغي فعلهُ أو حتّى القيام بأيّ شيء إذا توصّلت إلى التّفكير فيه.

شرعتْ آنْ في العمل بسرعة ونجاعة.

«إنّ ميني مايْ مصابةٌ بالخَانُوق فعلا. وهي في حالٍ سيئّة. لكنّني رأيتُ من قبل ما هو أسوأ. علينا أوّلا تسخينُ الكثير من الماء. ديانا، لا يوجدُ هنا سوى فنجان ماء في الإبريق! ها قد ملأتُه. أمّا أنت يا ماري جو، فهلاّ وضعتِ بعض الحطب في الموقد. المعذرة، لا أريدُ أن أجرح مشاعرك. ولكنْ لو كان لديك نزرٌ قليل من الخيال، لكُنتِ فكّرتِ في هذا بمفردك من قبل. سأخلعُ ملابس ميني ماي الآنْ. وأضعُها في مَهْدها. في الأثناء، ابحثي أنتِ يا ديانا عن قطع

من قماش الفانيلا النّاعم. سأمنحُها أوّلا جرعة من شراب عرق الذّهب».

لم تتقبّل ميني ماي جرعة عرق الذّهب. ولكنّ آنْ لم تهتمَّ برعاية ثلاث توائم سُدى. وهكذا أعادت الكرّةَ مرّاتٍ عديدةً على امتداد اللّيلة الشّاقّة الطّويلة التي عكفت فيها البنتان اليافعتان على تمريض ميني ماي المعذّبة. أمّا ماري جو التي كانت قلقةً على نحوٍ صادق وراغبةً في القيام بما في وسعها، فقد حافظت على النّار مُوقَدة وسخّنت من الماء ما يكفي مستشفى مكتظّا بالأطفال المصابين بالخانوق.

كانت السّاعةُ قد أدركت الثّالثة عندما وصل ماثيو بصحبة الطّبيب. فقد اضطرّ إلى الذّهاب حتّى سبنسرْفايلْ كي يدرك هدفه. ولكنّ الحاجة الملحّة إلى حضور الطّبيب قد ولّت ومضت، لأنّ ميني مايْ تحسّنت كثيرا، واستغرقت في نوم عميق.

«أوشكتُ أن أفقد الأمل يا دكتور»، قالت آنْ. «ظلّت حالها تسوءُ شيئا فشيئا إلى أن فاقت ما بلغه توائمُ السّيّدة هامُوندْ. في الحقيقة، حسبتُ أنّها ستختنقُ حتّى الموت. منحتُها كلّ قطرة من شراب عرق الذّهب. وعندما نفد كلّ ما في القنّينة امتنعتُ عن إعلام ديانا وماري جو بذلك، لأنّني لم أرغب في زيادة قلقِهما. ولكنّي اضطُررتُ إلى ترديد هذه الكلمات لنفسي فقط لأُهوّن عليّ: «هذا هو الأمل الأخيرُ الباقي. وأخشى أن يكون أملا واهيا». ولكن في غضون ثلاث دقائق، أخذت تسعل وتخرج ما في صدرها من بلغم.

ثمّ بدا عليها تحسُّن حالتها. لا شكّ أنّك تتخيّل الرّاحة التي شعرتُ بها حينذاك يا دكتور. فأنا عاجزةٌ عن وصفها بالكلمات».

«نعم، يمكنني ذلك طبعا»، أومأ الطّبيبُ برأسه، وهو يحدّقُ في آنْ كأنّ أفكارا تجول في خاطره بشأنها، ولا يمكنُ كذلك أن توصَف بالكلمات. ولكنّه استطاع لاحقا أن يكشفها للسّيّد والسّيّدة باري.

«تلك الفتاة الصّغيرةُ ذاتُ الشّعر الأحمر التي تعيشُ عند عائلة كاثبرتْ، إنّها ذكيّة بكلّ ما في الكلمة من معنى. لقد أنقذتْ حياة طفلتكما. ولولاها لكان الأوانُ فد فات على إنقاذها. بالنّسبة إليّ، فإنّي وصلتُ إلى منزلكما متأخّرا. يبدو أنّها موهوبة، وصاحبةُ بديهة، ولها من الذّكاء ما يثير العجب بالنّسبة إلى فتاة في مثل سنّها. لم أر في حياتي أيّ شيء يُشبه عينيها، وهي تشرحُ لي طبيعة الحالة».

كانت آنْ قد عادت إلى الضّيعة الخضراء في ذلك الصّباح الشّتويّ البارد المكسوّ بالبياض، وعيناها ثقيلتان من النّعاس. ولكنّها ظلّت تتحدّثُ إلى ماثيو بلا كلل وهما يعبران الحقل الشّاسع الأبيض، ويمرّان من تحت القوس العجيب المتلألئ الذي تُشكّلهُ أشجار القيقب في مسلك العشّاق.

«أوه يا ماثيو! أليس هذا صباحا رائعا؟»، يبدو العالمُ شبيها بشيء مّا تخيّلهُ الرّبُّ من أجل متعته الخاصّة فحسب. أليس كذلك؟ انظر! تبدو تلك الأشجار متأهّبة للطّيران بنفخة واحدة منّي. بوووف! أنا سعيدةٌ لأنّني أعيشُ في عالم يظهرُ فيه الجليدُ. ما رأيك أنت يا ماثيو؟ وفي نهاية المطاف، يسرّني أنّ السّيّدة هامُونْدْ قد أنجبت

ثلاث توائم. لو لم تفعل لعجزتُ عن إيجاد طريقة لتمريض ميني. كما يؤسفني أنّني غضبتُ يوما من السّيّدة هامُوند بسبب إنجابها لتوائمها. آه يا ماثيو! أشعرُ بحاجة شديدة إلى النّوم. ولا أستطيع الذّهاب إلى المدرسة. أعرفُ جيّدا أنّني سأفتحُ عينيّ بصعوبة في الصّفّ، وستظهر عليّ ملامحُ الغباء. ومع ذلك، فأنا أكره أن أبقى في البيت لأنّ غيلْ... أقصدُ أنّ بعض التّلاميذ سيتفوّقون في الصّفّ وسيعسُر عليّ تدارُك الأمر. ولكن كلّما صعبت المهمّة، زادت البهجةُ عند النّجاح فيها. أليس كذلك؟».

«حسنا، أعتقدُ أنّك ستتدبّرين أمركِ على نحو جيّد»، قال ماثيو وهو يتأمّل وجه آنْ الصّغيرَ الشّاحب والظّلال الدّاكنة تحت عينيْها. «عليكِ فقط أن تذهبي إلى سريرك فورا. وسأتكفّل بشؤون المنزل».

استجابتْ آنْ لنصيحة ماثيو. واتّجهت إلى فراشها. ثمّ غرقت في نوم عميق وطويل، حتّى إنّها لم تستيقظ إلاّ بعد الظّهر. إذْ نزلت من غرفتها إلى المطبخ، حيثُ وجدت ماريلاّ جالسةً ومنهمكةً في الحياكة.

«آه، هل رأيتِ رئيس الوزراء؟»، هتفت آنْ على الفور. «كيف بدا شكلُه يا ماريلاّ؟».

«حسنا، ما كان ليصير رئيس وزراء لو كان المظهرُ هو المقياس المعتمد في ذلك»، ردّت ماريلاّ. «يا لأنف ذلك الرّجل! ولكنّه خطيبٌ بارع، حتّى إنّه دفعني إلى الشّعور بالفخر لكوني محافظة. طبعا، لم يعجب رايتشلْ لِيندْ -اللّيبراليّة المتحمّسة- في شيء. إنّ

طعامكِ في الفرن يا آنْ. ولكِ أن تحصلي على بعض مربّى البرقوق الأزرق من حجرة المؤونة. لا بدّ أنّكِ جائعة. روى لي ماثيو ما حدث في اللّيلة الماضية. يجدر بي أن أقول إنّه لحسن الحظّ أنّكِ عرفت كيف تتصرّفين. ما كنتُ لأملك أدنى فكرة عن الأمر. إذ لم يسبق لي أن رأيتُ شخصا مصابا بالخانوق من قبل. هيّا، لا تقولي شيئا حتّى تتناولي طعامكِ. إنّي أرى بوضوح في ملامحك أنّك تتوقين إلى إلقاء خطب لا تنتهي. ولكن، تستطيعين تأجيلها على الأقلّ».

في واقع الأمر، كانت ماريلاّ هي التي تؤجّل الإفصاح عن أمر مّا لآنْ، متيقّنةً من أنَّ حماسَها المتوقّع سيدفعُ عنها كلّ ما هو مادّيّ بما في ذلك تناول الطّعام. وبعد أن أتمّت الصّغيرةُ آخر ما في صحنها من مربّى، قالت لها:

«لقد زارتنا السّيّدةُ باري خلال الظّهيرة. ورغبتْ في رؤيتك. لكنّني أبيتُ أن أوقظكِ. تقول إنّها مدينةٌ لك لأنّك أنقذتِ حياة ميني مايْ، وهي آسفةٌ جدّا لأنّها تصرّفت معك على نحو سيّء بالنّسبة إلى قصّة نبيذ العنب. فقد أدركت أخيرا ألاّ ذنب لك في ما حدث. وهي ترجو أن تغفري لها وتستأنفي صداقتكِ مع ديانا. بل إنّها تسألك زيارتهم هذا المساء لأنّ ديانا مصابة بزكام حادّ ولا تستطع حتّى أن تدرك عتبة المنزل. أمّا الآن يا آنْ شيرلي، فأرجوك لا تفقدي رشدكِ ولا تطيري في الهواء».

بدا إنذارُ ماريلاّ غير ضروريّ. فقد وثبت إلى أعلى. وحطّت على قدميها، بينما تشعُّ في ملامحها شعلة روحها العميقة.

«آه يا ماريلاّ! هل أستطيع الذّهاب الآن قبل غسل الصّحون؟ سأؤجّل ذلك إلى عودتي. أمّا الآن، في هذه اللّحظة المثيرة، فإنّي لا أستطيعُ أن أنهمك في عمل مُفرَغ من العواطف مثل غسل الصّحون».

«نعم. اذهبي!»، قالت ماريلاّ في لطف. «آنْ شيرلي! هل جُننتِ؟ عودي فورا. وضعي معطفا أو سترة أو... هل أنادي الرّياح؟ لقد غادرت دون قبّعة أو شال. ها هي تعدو عبر البستان، وشعرُها متطاير إلى الخلف. إذا نجت من زكام قاتل فإنّ السّماء قد رحمتها».

رجعت آنْ إلى البيت راقصةً، والغسقُ الشّتويّ الأرجوانيّ يغمر الثّلوج المنتشرة. وبعيدا في الجنوب الغربيّ، لمعت نجمة ذاتُ وميض عظيم يُشبه بريق اللآلئ في سماء يمتزجُ فيها لونُ الذّهب الشّاحب بالأثير الورديّ. فتُضيء الفضاءات البيضاء ووديان التنوب المظلمة. تصاعد رنينُ أجراس عربات الثّلج بين التّلال، كأنّه إيقاعاتٌ سحريّة تتذبذبُ في الهواء. ولكنّ تلك الإيقاعات لم تكن أحلى من الأغنية التي تسكن قلبَ آنْ وشفتيْها.

«إنّكِ بصدد النظر إلى شخص سعيدٍ على نحو مثاليّ يا ماريلاّ»، صرّحت آنْ. «نعم، أنا سعيدةٌ على نحو مثاليّ، رغم شعري الأحمر. إنّ لي روحا في هذه اللّحظة لا يمكنُ أن تلتفت إلى حمرة شعري. لقد قبّلتني السّيّدةُ باري. وبكتْ. وقالت إنّها آسفةٌ وعاجزة طيلة حياتها عن بيان امتنانها لي. شعرتُ بخجل لا مثيل له. لكنّي أجبتُها بأدب وتهذيب: اطمئنّي يا سيّدة باري. فأنا لا أحمل أيّ ضغينة تجاهك.

وأؤكّدُ لكِ للمرّة الأخيرة أنّي لم أقصد أن أسمّم ديانا. ولهذا السّبب، يجدر بي أن أكسو الماضي بعباءة النّسيان. أليس ذلك أسلوبا لائقا في الكلام يا ماريلاّ؟ شعرتُ أنّي أكوّم جمرا متّقدا في رأس السّيّدة باري. ثمّ قضّيتُ مع ديانا مساء رائعا، علّمتني خلالهُ طريقةً مُميّزة في الحياكة حفظتْها عن عمّتها التي تعيشُ في كارمودي. وليس هناك أيُّ مخلوقٍ في آفونلي يجيدُها باستثنائنا نحن. وقد أقسمنا ألاّ نكشفها لأيّ شخص. ثمّ أهدتني بطاقةً جميلة مع إكليلٍ من الورود، كُتِب عليها بيتٌ من الشّعر.

إذا كنتِ تحبّينني مثلما أحبّكِ
فوَحْدهُ الموتُ يفصلُني عنكِ

وهذا صحيحٌ تماما يا ماريلاّ. سنطلبُ من السّيّد فيليبْس أن يسمح لنا بالجلوس مجدّدا جنبا إلى جنب. ويمكن لغيرتي باي حينئذ أن تجلس مع ميني آندرُوزْ. كان الشّايُ الذي تناولناهُ لذيذا جدّا. وقد قدّمتهُ لنا السّيّدةُ باري في طقم من الخزف الصّينيّ هو أفضل ما لديها، كأنّني ضيفة حقيقيّة في بيتها. لا أستطيع أن أصف لك مشاعري يا ماريلاّ. لم يسبق لأحد أن استخدم طقم شاي خصّيصا من أجلي. لقد أكلنا كعك الفاكهة أيضا وكعك الأرباع[1] والكعك المَقلِيّ المُحلّى. وسألتني السّيّدةُ باري ما إذا تناولتُ الشّاي. ثمّ قالت لزوجها: «با، هلاّ قدّمت البسكويت لآنْ رجاء؟». من اللّطيف أن

(1) أو كعك الباوندْ يدينُ باسمه إلى مكوّناته الأربعة المتساوية. وهي الدّقيق، الزّبدة، السّكّر والبيض.

يدرك المرءُ سنّ الرّشد يا ماريلاّ. إذْ يكفي أن يُعامَل كأنّهُ كذلك حتّى يشعُر بالرّوعة العظيمة».

«لا أعرف حقّا»، قالت ماريلاّ وهي تتنهّدُ.

«حسنا، عليّ على أيّة حال عندما أكبرُ سأعامل الفتيات الصّغيرات كأنّهنّ في مثل سنّي. ولن أسخر منهنّ مطلقا إذا استخدمن عبارات كبيرة. أعرفُ جيّدا، واستنادا إلى تجارب حزينة، كم يجرح ذلك مشاعر المرء. بعد تناوُل الشّاي، أعددتُ أنا وديانا حلوى «التافي». ولكنّها لم تكن جيّدة. فهذه هي المرّة الأولى التي نجرّبها فيها. أوصتني ديانا بتحريك الخليط بينما تدهن الأوعية بالزّبدة. ولكنّي غفلتُ عن ذلك. فاحترق. وعندما تركناهُ على حافّة السّياج في الخارج، مشت القطّة على أحد الأطباق. فاضطررنا إلى التّخلّص منه. ورغم كلّ شيء، فإنّ عمليّة الإعداد في حدّ ذاتها كانت ممتعة جدّا. في نهاية الزّيارة، قالت لي السيّدة باري إنّ بإمكاني القدوم إلى منزلهم متى شئتُ. ووقفت ديانا عند النّافذة، ترسلُ إليّ القبل على امتداد مسلك العشّاق. أؤكّد لك يا ماريلاّ أنّ قلبي يرنو إلى الصّلاة اللّيلة. وأشعرُ أنّي سأخترعُ صلاة جديدةً تماما احتفاءً بهذه المناسبة».

(19)

حفلٌ موسيقيّ، كارثةٌ واعتراف

«ماريلاّ، هل تسمحين لي بالذّهاب لرؤية ديانا لبضع دقائق فحسب؟»، سألتْ آنْ وهي تنزلُ مُسرعةً من غرفتها الشّرقيّة ذات مساء في شهر شباط.

«لا أرى داعيا لتسكُّعك في الخارج بعد حلول الظّلام»، ردّت ماريلاّ. «لقد صحبتكِ ديانا في طريق المدرسة. ثمّ وقفتما معا على الثّلج لنصف ساعة، منغمستيْن في الثّرثرة بلا هوادة. والآن، لا أظنّكِ في حاجة إلى رؤيتها من جديد».

«بل هي التي تريدُ ذلك»، هتفتْ آنْ بنبرة توسُّل. «وتقول إنّ لديها أمرا مهمّا ينبغي أن تُطلعني عليه».

«وكيف عرفتِ هذا؟».

«أرسلتْ لي الآن إشارةً من نافذتها. فقد توصّلنا إلى ابتكار طريقة نتواصل بواسطتها، اعتمادا على الشّموع وبطاقات الورق المقوّى. نضعُ الشّمعة عند حافّة النّافذة ونطلق عددا معيّنا من الومضات عبر تقديم قطعة الورق المقوّى وتأخيرها. فإذا تتالت الومضاتُ بشدّة فإنّ ذلك يُشير إلى طارئ مّا. كانت تلك فكرتي يا ماريلاّ».

«أنا متيقّنةٌ من ذلك. أمّا خطوتكما التّاليةُ، فهي إضرامُ النّار في السّتائر بواسطة هذه الإشارات التّافهة».

«لا تقلقي! نحنُ حذرتان جدّا يا ماريلاّ. الأمر مثير حقّا. انظري! ومضتان تعنيان «هل أنت هناك؟». وتعني ثلاث ومضات «نعم». أمّا أربع، فهي «لا». وبالنّسبة إلى خمس ومضات فالمُرادُ منها «تعالي بأقصى سرعة. لديّ نبأٌ مهمٌّ يجبُ أن أطلعكِ عليه». وهذا ما أرسلتهُ ديانا إليّ للتّوّ. ولهذا، أنا متشوّقة جدّا لمعرفة الأمر».

«حسنا، لا داعي لمزيدٍ من العذاب إذن»، ردّت ماريلاّ ساخرةً. «يمكنك الذّهابُ إليها. ولكن يجدرُ بك العودةُ بعد عشر دقائق بالضّبط. أفهمتِ؟».

فهمت آنْ أمر ماريلاّ جيّدا. واستجابتْ له. إذ رجعتْ إلى المنزل في التّوقيت المحدّد لها، رغم أنّه ما من بشر يمكنه أن يتخيّل كم كلّفها إنهاءُ حوارِها المهمّ مع ديانا في حدود تلك الدّقائق العشر.

«ماريلاّ، أريدُ أن أطرح عليك سؤالا. غدًا عيدُ ميلاد ديانا. وقد أعلمتْها أمُّها أنّ بإمكانها دعوتي إلى منزلهم بعد المدرسة وقضاء اللّيلة عندهم. ستأتي بناتُ أعمامها من نيوبريدْجْ في مركبة ثلج كبيرة. وسيذهبْن إلى حفلة موسيقيّة ينظّمُها نادي المناظرات في قاعة الاحتفالات ليلة الغد. ويُرِدْن اصطحابي أنا وديانا معهنّ... إذا سمحتِ لي بذلك طبعًا. هل توافقين يا ماريلاّ؟ أوه، إنّني متحمّسة إلى أبعد حدّ».

«يمكنكِ أن تشرعي في الهُدوء إذن، لأنّكِ لن تذهبي إلى أيّ

مكان. فحالُكِ أفضل دون شكّ في سريرك. أمّا بالنّسبة إلى حفلة النّادي تلك، فهي مجرّد هراء لا معنى له. ولا ينبغي السّماحُ للفتيات الصّغيرات بارتياد مثل تلك الأماكن مطلقا».

«أنا متيقّنةٌ من أنّ نادي المناظرات محترمٌ جدّا»، قالت آنْ في استعطاف واضح.

«لم أقل إنّه ليس محترما. ولكنّك لن تشرعي منذ الآن في ارتياد الحفلات الموسيقيّة والسّهر خارج البيت حتّى ساعة متأخّرة من اللّيل. يا لها من مسائل تناسب الأطفال! يدهشُني حقّا أنّ السّيّدة باري سمحت لديانا بالذّهاب إلى الحفلة».

«ولكنّ المناسبة مميّزة جدّا»، تنهّدت آنْ وهي توشكُ أن تبكي. «لا تملكُ ديانا سوى عيدِ ميلاد واحد طيلة السّنة. وليستْ أعيادُ الميلاد بالأمر العاديّ أو الهيّن يا ماريلاّ. ستُلقي بْرِيسي آندرُوزْ قصيدة «لن يُعلنَ عن حظر التّجوّل اللّيلة»[1]. وهي قصيدةٌ جميلة تدعو إلى القيم النّبيلة يا ماريلاّ. وسيُفيدني سماعُها جدّا دون شكّ. ستغنّي الجوقةُ كذلك أغاني مؤثّرة هي أشبهُ بالأناشيد. وكذلك... آه، ماريلاّ! نسيتُ أن أقول لك إنّ الكاهن سيشارك في الحفلة. صدّقيني! سيُلقي كلمة لا تختلفُ عن الموعظة في شيء. أرجوكِ يا ماريلاّ! ألا أستطيعُ الذّهاب؟».

«لقد سمعتِ جيّدا ما قلتُه لك يا آنْ. أليس كذلك؟ والآن، انزعي جزمتكِ. واذهبي إلى النّوم. لقد مرّت السّاعة الثّامنة».

---

(1) قصيدة شهيرة للشّاعرة والكاتبة الأمريكيّة رُوزْ هارتْوِيكْ ثُرُوبْ (1850/ 1939).

«هناك أمر آخر فحسب يا ماريلاّ»، قالتْ آنْ بنبرة من يُحاول إصابة هدفه بطلقة أخيرة. «لقد قالت السّيّدةُ باري لديانا إنّ بإمكاننا أن ننام في غرفة الضّيوف. فكّري في ذاك الشّرف الذي ستحظى به صغيرتكِ آنْ بعد أن تُمنَح سريرًا في غرفة الضّيوف».

«إنّه شرفٌ سوف تتعوّدين على العيش من دونه. اذهبي إلى النّوم. ولا أريد أن أسمع أيّ كلمة إضافيّة تخرجُ من بين شفتيك».

ما أن شرعت آنْ في صعود الدّرج، ودموعها تنسكبُ على وجنتيْها، حتّى فتح ماثيو عينيه بعد أن بدا عليه الاستغراقُ في النّوم طيلة الحوار. قال: «ماريلاّ، أعتقدُ أنّ عليك السّماح لها بالذّهاب».

«أمّا أنا، فلا أعتقدُ ذلك»، ردّت ماريلاّ بحدّة. «من منّا يُشرف على تربية هذه الطّفلة؟ أنا أم أنت؟».

«حسنا، أنتِ».

«لا تتدخّل إذنْ!».

«حسنا، ليس هذا ما أفعله الآن. إنّني أبدي رأيي فحسب. وليس إبداءُ الرّأي إقحاما لنفسي في ما لا شأن لي به».

«أنا متأكّدة أنّ رأيكَ سيكونُ في صفّها حتّى لو طلبتْ منّي السّماحَ لها بالذّهاب إلى القمر»، كان هذا جوابُ ماريلاّ اللّطيف. «كنتُ لأسمح لها بقضاء اللّيلة مع ديانا إذا كان هذا كلّ ما في الأمر. أمّا مخطّط الحفلة، فهذا ما لا أوافق عليه بتاتا. ستذهبُ إلى هناك من أجل زكام حادّ آخرَ المطاف والكثير من التّرّهات والحماس

الذي لن ينطفئ على امتداد الأسبوع كلّه. ما الفائدةُ من كلّ ذلك يا ماثيو؟».

«أعتقدُ أنّ عليك السّماح لآنْ بالذّهاب»، كرّر ماثيو كلماته بعناد واضح.

لم يكن الجدالُ إحدى مواطن قوّة ماثيو. لكنّ العناد دون شكّ كذلك. أطلقت ماريلاّ زفرة استسلام. واكتفتْ بالصّمت.

صباحَ اليوم التّالي، كانتْ آنْ تغسلُ الصّحون في حجرة المؤونة عندما وقف ماثيو مُتأهّبًا للذّهاب إلى البيدر، فقال لماريلاّ: «أعتقدُ أنّ عليك السّماح لآنْ بالذّهاب».

بدا على ماريلاّ أنّها تهمّ بقول كلماتٍ لا يجدرُ الإفصاحُ عنها. ثمّ عدلت عن ذلك، وقد أذعنت لما تجلّى لها باعتباره موقفا لا مفرّ منه. وقالت بحدّة:

«حسنا إذن. يمكنها الذّهابُ بما أنّك لن ترضى بغير ذلك».

طارت آنْ مُغادرة حجرة المؤونة، وهي ما تزالُ تمسكُ في يدها خرقة الغسل التي ظلّتْ تقطرُ على الأرضيّة.

«آه يا ماريلاّ! قولي تلك الكلمات المباركة مرّة أخرى».

«أحسبُ أنّ المرّة الأولى كافيةٌ جدّا. هذا قرار ماثيو علي أيّة حال. وأنا في حِلٍّ منه. وإذا أصابكِ التهابٌ رئويّ بسبب النّوم في سريرٍ آخر أو بعد مغادرة قاعة الحفل فلا تلوميني بتاتا، وإنّما وجّهي لومكِ حينئذ إلى ماثيو. إنّك تقطّرين الدّهون على الأرضيّة يا آنْ! لم أر في حياتي كلّها طفلة طائشة إلى هذا الحدّ».

«ياه! أعرفُ أنّي ابتلاءٌ عظيم بالنّسبة إليكِ يا ماريلاّ»، هتفت آنْ مُعتذِرةً. «فأنا كثيرةُ الأخطاء. ولكن، فكّري كذلك في تلك الأخطاء التي لا أرتكبُها. سأُحضر رملا. وأفرُك البقع قبل أن أغادر إلى المدرسة. آه يا ماريلاّ! كم كان قلبي معلّقا بالذّهاب إلى تلك الحفلة. إذ لم يسبق لي أن كنتُ في حفل موسيقيّ طيلة حياتي. وكلّما سمعتُ الفتيات الأخريات يتحدّثن عن الحفلات في المدرسة أشعرُ بكوني غريبة عن هذا العالم. إنّك لم تُدركي طبيعةَ مشاعري إزاء هذه المناسبة. ولكنّ ماثيو تمكّن من ذلك، لأنّه يفهمني. وكم رائع أن يجد المرء من يفهمه يا ماريلاّ!».

كانت آنْ مُشوّشةً جدًّا حتّى إنّها لم تنتبه إلى دروسها في الفصل. ولذلك تفوّق عليها غيلبرتْ بلايثْ في ذلك اليوم. وتخطّاها في درس الحساب. ومع ذلك، لم تشعر بالإهانة على النّحو الذي اعتادت عليه. فقد كانت عظمةُ الحفل الموسيقيّ وغرفة الضّيوف تهيمنُ على أفكارها، ممّا جعلها تثرثر مع ديانا حول المناسبة طيلة اليوم. ولو كان معلّم الصّفّ أكثر صرامة وحزما لوبّخهما بشدّة.

أحسّت آنْ أنّها لم تكن لتُطيق غيابها عن الحفل الموسيقيّ. إذْ راح الجميعُ في المدرسة يتحدّثون عنه بلا انقطاع. كان من عادة نادي المناظرات في آفونلي أن ينظّم لقاءً نصفَ شهريّ طيلةَ الشّتاء، يُقيم فيه بعض الأنشطة الصّغيرة. ولكنّ الحفلَ الموسيقيّ يمثّل حدثًا عظيما، حتّى إنّ ثمن تذكرته المخصّصَ لدعم المكتبة بلغ عشرة سنتات. أمّا شبّانُ آفونلي، فقد ظلّوا يتدرّبون ليوم العرض عدّة أسابيع. وأبدى جميعُ التّلاميذ في المدرسة اهتمامهم به، نظرا إلى

أنّ أحد إخوتهم أو أخواتهم مشارك فيه لا محالة. كما ترقّب كلّ من تجاوز التّاسعة أن يكون حاضرا يوم الحفل، باستثناء ماري سلُون التي وافق رأيُ والدها رأيَ ماريلاّ في ما يتعلّقُ بذهاب الفتيات الصّغيرات إلى الحفلات الموسيقيّة اللّيليّة. يا للمسكينة! قضّت فترة ما بعد الظّهيرة كلّها وهي تبكي بحرقة وتذرفُ دموعها على كتاب النّحو، مسلّمةً بأنّ الحياة غير جديرة بأن تُعاش.

انطلقت الإثارةُ الحقيقيّة بالنّسبة إلى آنْ عندما انتهت الحصّةُ الدّراسيّة. ثمّ راحت تتدرّجُ في ارتفاع حتّى أدركت القمّة. وتهاوت في شكل ابتهاج جذل.

تناولت مع ديانا «شايا رفيعا جدّا». ثمّ حان موعدُ الانهماك في ارتداء الملابس بغرفة ديانا في الطّابق العلويّ. صفّفت ديانا غرّة شعر آنْ وفق تسريحة بُومْبادورْ[1] الحديثة. وعقدتْ آنْ الشّرائط على شعر ديانا على نحو مميّز جدّا. كما جرّبت كلّ منهما طرُقًا كثيرة في تصفيف الجدائل الخلفيّة. وفي نهاية المطاف، جهزتا وقد صارت وجناتهُما بلون القرمز وأشعّت عيونهما من الحماس الشّديد.

في الحقيقة، لم تستطع آنْ أن تمنع نفسها من الشّعور بالحسرة عندما نظرت إلى معطفها الرّماديّ العاديّ بكمّيه الضّيّقيْن وطرازه البسيط وقلنسوّته السّوداء البشعة، وقارنتْهُ بسترة ديانا الجميلة الأنيقة

---

(1) تسريحة شعر تُنسبُ إلى جانيتْ أنطوانيتْ بْواسون (1721/ 1764)، ماركيزةُ مقاطعة بومبادور.

وقلنسوّتها ذات الفرو النّاعم. لكنّها سرعان ما تجوزت حسرتها. إذْ فكّرت أنّها تملك خيالا واسعا، ويمكنها الاستفادةُ منه.

ثمّ جاءت قريباتُ ديانا، بنات عائلة موراي القادمات من نيوبريدْجْ. فاحتشد الجميعُ جنبا إلى جنب في العربة الثّلجيّة بين أغطية القشّ والفرو. وأثناء اتّجاه العربة إلى قاعة الحفل، حرصت آنْ على الاستمتاع بكلّ لحظة كما ينبغي لها. كانت العربةُ تتقدّمُ بسلاسة على الطّرقات النّاعمة الملساء الشّبيهة بقماش الساتان. وكلّما مرّت على الثّلوج حوّلتها إلى كتل متغضّنة تحت مزلاجيها. وكان الغروبُ بديعا، وهو يحطُّ على التّلال الثّلجيّة ومياه خليج سايْنتْ لورانس العميقة الزّرقاء، بينما تُسمع أجراسُ عربات الثّلج وصدى الضّحكات البعيدة قادمة من كلّ صوبٍ، كأنّها أصواتُ مرح الجنيّات في الغابة.

«أوه يا ديانا!»، هتفت آنْ وهي تلتقطُ نفسا عميقا، وتضغطُ على يدها المقفّزة من تحت غطاء الفرو. «أليس كلّ هذا شبيها بحلم جميل؟ هل أبدو لك مثل سائر الأيّام؟ أشعرُ أنّي مختلفة جدّا، حتّى إنّني أعتقدُ أنّ هذا الفرق بادٍ دون شكّ على ملامحي».

«إنّكِ رائعة على نحو رهيب!»، قالت ديانا التي تلقّت للتّوّ مديحا من إحدى قريباتها، وشعُرت أنّ عليها أن تنشره بين الجميع. «لونُ بشرتكِ رائع جدّا».

لقد كان برنامجُ اللّيلة بمثابة سلسلة طويلة من المشاعر المتدفّقة المؤثّرة بالنّسبة إلى متفرّجة واحدة على الأقلّ. وقد أكّدت آنْ لديانا

أنّ كلّ تيّار عاطفيّ أقوى من سابقه. وعندما تقدّمت بريسي آندرُوزْ لتصعد درج المنصّة الصّغير وقد أحاط بها الظّلامُ الحالكُ، أحسّت آنْ بتعاطف عظيم معها. كانت بريسي ترتدي فستانا ورديّا مشدودا عند الخصر. وتضعُ عقدا من اللّؤلؤ حول رقبتها البيضاء الفتيّة، وتزيّنُ شعرها بقرنفلات حقيقيّة. قِيل في الحفل إنّ المعلّم هو الذي تكفّل بإحضار كلّ ذلك من المدينة، من أجلها. وعندما أنشدت الجوقة «بعيدا، خلف الأقحوان اللّطيف»، حدّقتْ آنْ في سقف الصّالة كأنّه مزدحم بصور الملائكة. وحين شرع سام سلون في تقديم عرضه الوجيز «كيف باض سوكري دجاجةً»، ضحكت آنْ بشدّة حتّى أضحكت معها كلّ من يجلس على مقربة منها. وذلك تفاعلا معها أكثر من التّأثّر بسلسلةٍ النّكاتِ التي تُعتبر مُبتذلَة حتّى في آفونلي. ولمّا ألقى السّيّدُ فيليبْس كلمة مارك أنثُوني[1] أمام جثمان القيصر بأداءٍ هو الأكثرُ قدرةً على النّفاذ إلى القلب -وهو يفتّشُ بنظراته عن بْرِيسي آندرُوزْ في نهاية كلّ جملة- أحسّتْ آنْ بأنّ لها الجرأة على النّهوضِ من مكانها وإعلانِ التمرُّد لو أنّ مواطنًا رومانيّا فحسبُ ساندَها في ذلك.

فشلت فقرةٌ وحيدة من البرنامج كلّه في الفوز بانتباه آنْ. وهي وقفةُ غيلبرتْ بلايثْ لتلاوة قصيدة «بينْغِنْ آمْ راينْ». فحينئذ، تناولتْ كتابَ رودا موراي. واستغرقت في قراءته إلى أن أتمّ إنشادَ

(1) أو ماركوس أنطونيوس: قائد وسياسّي وقنصل رومانّي. وُلد بروما حوالي 83 ق.م. ومات في الإسكندريّة سنة 30 ق.م.

القصيدة. فشرعت ديانا في التّصفيق حتّى وخزتْها يداها، بينما ظلّت هي جامدة في مكانها دون أدنى حركة منها.

عادت الصّبيّتان إلى المنزل عند السّاعة الحادية عشرة ليلا، مفعمتينْ بالسّرور والرّضا. ومع ذلك، فقد شغلتا نفسيْهما باسترجاع كلّ تفاصيل الحفل والانغماس في الحديث عنها. كان البيتُ ساكنا ومظلما، أي إنّ الجميع غارقون في النّوم. ولهذا السّبب، مشتْ كلاهُما على أطراف الأنامل حتّى وصلتا إلى حجرة طويلة ضيّقة تنفتح على غرفة الضّيوف. كان المكانُ دافئا على نحو لذيذ، تضيئُه بخفوت جمراتُ الموقد.

«فلنخلعْ ملابسنا هنا!»، اقترحتْ ديانا. «فالمكان جميلٌ ودافئ».

«ألم نقضِ وقتا ممتعا حقّا؟»، تنهّدتْ آنْ في ابتهاج. «لا بدّ أنّه من الرّائع أن يقف المرء هناك على المنصّة ويلقي الشّعر. هل تعتقدين أنّنا سنُؤتى هذا الحظّ يوما مّا يا ديانا؟».

«نعم، بالتّأكيد... ذات يوم. إنّهم يرغبون دوما في أن ينشد التّلاميذُ الكبار الشّعر معهم. طالما شارك معهم غيلبرتْ بلايثْ. وهو لا يكبرنا إلاّ بسنتيْن فحسب. أوه يا آنْ! كيف استطعتِ التّظاهر بعدم الإصغاء إليه. عندما أدرك السّطر الذي يقول «وهناك أخرى، ليست أختا»، حدّق في عينيّ مباشرة.

«ديانا!»، صاحت آنْ. «صحيح أنّك رفيقة قلبي. ولكنّ هذا لا يسمح لك بالحديث إليّ عن ذلك الشّخص. والآن، هل أنت جاهزة للنّوم؟ فلنتسابقْ ونرى من تصل الأولى إلى السّرير».

أُعجِبتْ ديانا بالاقتراح. وسُرعان ما هبّت الطّفلتان في ثوبيْهما البيضاويْن. فعبرتَا الحجرة ثمّ دخلتا إلى غرفة الضّيوف. وقفزتا إلى السّرير في الآن نفسه. حينئذ، تحرّك شيءٌ مّا تحتهما، قبل أن يطلق شهقة، تلتها صرخة فكلمات مخنوقة:

«يا ربّ السّماوات الرّحيم!».

لن تستطيع آنْ وديانا أن تفهما مطلقا كيف تمكّنتا من النّهوض من ذلك السّرير والخروج من الغرفة. كلّ ما أدركتاه هو أنّهما تسلّلتا على أطراف الأنامل إلى غرفة الطّابق العلويّ، وهما ترتجفان بشدّة من الرّعب.

«أوه، ماذا كان ذاك؟ ما هو بالضّبط؟»، همست آنْ، وأسنانها تصطكّ من البرد والهلع.

«إنّها العمّةُ جوزِفينْ»، أجابت ديانا، وهي تشهقُ ضاحكةً. «إنّها العمّةُ جوزِفينْ يا آنْ! والرّبّ وحده يعلمُ سبب وجودها هناك. ورغم ذلك، فأنا متيقّنة من سخطها الشّديد. إنّ ذلك لأمر رهيب وفظيع حقّا. ولكن يا آنْ، هل وجدتِ نفسك يوما في موقف مضحك إلى تلك الدّرجة؟».

«من هي العمّةُ جوزِفينْ؟».

«إنّها عمّة أبي. وتعيشُ في تشارلوتْ تاوْنْ. هي امرأة مُسنّة جدّا، في السّبعين من العمر. ويصعبُ عليّ أن أصدّق أنّها كانت يوما مّا طفلة يافعة. كنّا نترقّب زيارتها، ولكن في موعد آخر. إنّها ذاتُ طبع حادّ ومتزمّت. وستوبّخني بشدّة بسبب ما حدث للتّوّ.

هذا ممّا لا ريب فيه. هيّا، لننم مع ميني مايْ. لم يعد لدينا أيّ خيار آخر. آه، لا يمكنك تخيّل ركلات قدميها أثناء النّوم».

صباح اليوم التّالي وفي موعد الإفطار، لم تظهر العمّةُ جوزفين. ابتسمت السّيّدةُ باري للطّفلتيْن بلطف شديد.

«هل استمتعتما بوقتيْكما أمس؟ انتظرتُ عودتكما لأعلمكما بأنّ العمّة جوزفينْ هنا وأنّ عليكما أن تناما في الطّابق العلويّ. لكنّني شعرتُ بالإعياء الشّديد. وغلبني النّعاس. أرجو أنّك لم تضايقي العمّة يا ديانا؟».

لزمتْ ديانا الصّمت بينما تبادلت مع آنْ ابتساماتٍ وجيزةً. وما أن انتهى الإفطارُ حتّى عادت آنْ إلى الضّيعة الخضراء. ومكثتْ هناك طيلة اليوم، غافلةً تماما عن الأحداث المأساويّة التي شغلت منزل باري. وظلّت غارقة في تلك الغفلة إلى أن أرسلتها ماريلاّ آخر المساء إلى منزل السّيّدة ليندْ.

«هكذا إذن؟! كادت السّيّدة جوزفينْ المسكينة أن تهلك فزعا بسببكما، أنت وديانا، ليلة أمس»، قالت السّيّدةُ ليندْ بصرامة رافقتها غمزة وجيزة. «لقد مرّت السّيّدة باري بمنزلي اليوم، وهي في طريقها إلى كارمودي. بدا عليها التّوتّر الشّديدُ بسبب ما حدث. فالسّيّدةُ العجوز استيقظت في مزاج سيّء جدّا هذا اليوم. وتلك ليست مزحة. صدّقيني! إنّها ترفضُ التّحدّث إلى ديانا رفضا قاطعا».

«لم يكن خطأ ديانا»، قالت آن بصوت متحسّر. «إنّني السّبب في ما حدث للأسف، لأنّني اقترحتُ عليها فكرة التّسابق إلى السّرير».

«ها! كنتُ متيقّنةً من ذلك»، هتفتْ السّيّدة ليندْ بمتعة من صدق تخمينُه. «عرفتُ أنّ فكرةً كتلك لا يمكنُ أن تخرج إلاّ من رأسكِ أنت. حسنا، فلأقلْ لك إنّك تسبّبت في مشكلة كبيرة. كانت الآنسةُ العجوز باري تنوي المكوث طيلة شهر كامل. ولكنّها أضربت عن ذلك الآن. وقرّرت العودة غدا إلى المدينة بغضّ النّظر عن كونه يوم الأحد. ولو وجدت من يصطحبها لكانت غادرت اليوم. ورغم أنّها وعدت من قبل أن تسدّد تكاليف دروس الموسيقى لديانا، فقد أحجمت عن ذلك أيضا وقالت إنّها لن تقدّم أيّ شيء لتلك الفتاة الغليظة الشّبيهة بالأولاد. هاه! أحسبُ أنّه كان صباحا فريدا من نوعه في بيت باري. لا شكّ أنّ أفراد العائلة يشعرون بالاستياء. فالآنسة العجوز باري ثريّة جدّا. ومن المستحسن لهم أن يحافظوا على صلة متينة وحسنة بها. طبعا، هي لم تصرّح بأيّ شيء يتعلّقُ بحرمانهم من الميراث وما إلى ذلك. لكنّني عليمة بما تبطنه النّفوس البشريّة. أتفهمين قصدي؟». مكتبة سر من قرأ

«يا لي من فتاة تفتقرُ إلى الحظّ!»، اشتكتْ آنْ. «إذْ لا أكفّ عن الوقوع في المشاكل وسحبِ أفضل أصدقائي معي إلى هوّتها... أقصد أولئك الذين قد أبذُلُ دماء قلبي من أجل نجاتهم. أرجوك، هلاّ قلت لي سبب ذلك يا سيّدة ليندْ؟».

«يكمن السّببُ في تهوّرك المفرط واندفاعك الشّديد يا بنيّتي. هذه هي الحقيقة فعلا. إنّكِ لا تتوقّفين للتّفكير والتّريّث مطلقا. وكلّ ما يخطر ببالك قولُه أو فعلُه تقولينه أو تفعلينه على الفور، دون لحظة تفكُّر واحدة».

«أوه، ولكنّ هذا أجملُ ما في الأمر»، احتجّت آنْ. «أن يومض شيءٌ مّا في ذهنك، ويكون حماسيّا مثيرا على نحو لا يتيحُ لك إلاّ الاستجابة لسحره. فإذا توقّفتِ للتّفكير فيه، أفسدت الأمر كلّه. ألم تشعري بذلك من قبل مطلقا يا سيّدة ليندْ؟».

لا، لم يسبق للسّيّدة ليندْ أن شعرت بذلك. ولهذا السّبب، أومأت برأسها على نحو يشي بالحكمة.

«يجبُ أن تعوّدي نفسك على التّفكير قليلا قبل اقتحام الأشياء يا آنْ. إنّك في حاجة إلى مصاحبة المثل القائل «النّظر قبل القفز»، خصوصا إذا كان هذا القفز في غرف الضّيوف».

ضحكت السّيّدةُ ليندْ في انشراح بعد أن ألقت نكتتها الخفيفة. لكنّ آنْ ظلّت مستغرقة في التّفكير. ولم تر في المقابل ما يستحقُّ الضّحك في مثل ذلك الموقف الموغل في الجدّيّة. وما أن غادرت بيت السّيّدة ليندْ حتّى ركضت عبر الحقول المكسوّة بالثّلوج، وعبرت منحدر البستان وصولا إلى منزل عائلة باري، حيث اعترضتها ديانا عند المطبخ.

«عمّتكِ جوزفينْ غاضبةٌ جدّا ممّا حدث. أليس كذلك؟»، همست آنْ.

«بلى»، أجابتْ ديانا، وهي تكتم ضحكتها وتنظر خلف كتفيْها إلى باب غرفة الجلوس المغلق. «لقد هاجت وماجت يا آنْ. وليتكِ سمعتِ توبيخها لي. قالت إنّها لم تر قطُّ بنتا سيئّة الأخلاق مثلي وإنّ على والديّ أن يشعرا بالخزي والعار حيال ذلك. قالت أيضا إنّها لا

تريدُ المكوث عندنا. وهذا لا يهمّني مطلقا. لكنّ أبي وأمّي منزعجان جدّا».

«لماذا لم تقولي إنّني السّبب في ما حدث؟»، سألتْ آنْ.

«وكأنّك لا تعرفين أنّ هذا ليس طبعي!»، ردّتْ ديانا في استغراب. «لستُ واشيةً آنْ شيرلي! وعلى أيّة حال، فأنا أتحمّلُ نفسَ القدر من المسوليّة».

«إذن، سأنبئُها بذلك بنفسي»، قالتْ في تصميم واضح.

حدّقت فيها ديانا. وهتفت: «آنْ شيرلي. لن تفعلي أيَّ شيء من هذا، وإلاّ فإنّها ستأكلك حيّة!».

«لا تدفعيني إلى مزيد الشّعور بالرّعب»، توسّلتْ آنْ. «إنّي أفضّلُ أن أواجه فوهة مدفع على أن أواجهها هي. ومع ذلك، فلا خيار لديّ يا ديانا. الذّنبُ ذنبي أنا. وعليّ أن أعترف بذلك. ولحسن حظّي أنّي قد تمرّستُ في مسألة الاعتراف هذه».

«حسنا، إنّها في الغرفة»، قالت ديانا. «يمكنك الذّهابُ إليها إذا شئتِ. أمّا أنا فلا أجرؤ على ذلك مطلقا. ولا أعتقدُ أنّك ستتوصّلين إلى جبر أيّ ضرر».

بهذه الكلمات المشجّعة، تحدّت آنْ الأسد في عرينه. مشت بثبات نحو غرفة الجلوس. فطرقت الباب بلطف. وسمعت «ادخل» وهي تهجمُ على سمعها في حدّة جليّة.

كانت الآنسةُ جوزفينْ باري النّحيلة الغليظة جالسةً عند الموقد، تحوكُ في توتّر. ولم تكن نيران غضبها قد خمدت. مازالت عيناها

تقدحان شررا من خلال نظّارتها الذّهبيّة. التفتت، وهي جالسة على كرسيّها متوقّعة أن ترى ديانا أمامها. فإذا بفتاة ذات وجه شاحب تقفُ على مقربة منها. ومن عينيها الواسعتان تشرقُ الشّجاعةُ ممتزجةً بالخوف والفزع.

«من أنت؟»، سألت الآنسةُ جوزفينْ دون تكلّف.

«آنْ، ابنةُ الضّيعة الخضراء»، ردّت الزّائرةُ الصّغيرة مرتجفةً وهي تشبّكُ كعادتها أصابع يديها. «وقد جئتُ من أجل الاعتراف إذا سمحتِ لي».

«الاعتراف؟ بم؟».

«بأنّ الذّنبَ ذنبي في ما يتعلّقُ بمسألة القفزِ على السّرير ليلةَ أمسِ. أنا التي اقترحت هذا على ديانا. أمّا في، فلم تفكّر في الأمر مطلقا. إنّي متيقّنة ممّا أقوله لك. فديانا فتاة مهذّبةٌ. ولها أدبُ السّيّدات الرّاقيات يا آنسة باري. ولهذا يجبُ عليكِ أن تعرفي كم ظالمٌ أن يقع اللّوم عليها».

«آه، يجب عليّ إذن! أفضّل أن أصدّق أنّ ديانا تملكُ نصيبا في مسألة القفز تلك. يا للوقاحة التي تغمرُ البيوت المحترمة!».

«ولكن، كنّا نلعبُ فحسب»، تابعت آنْ. «أرجو أن تغفري لنا يا آنسة باري... بما أنّنا قد اعتذرنا لك، أو سامحي ديانا على الأقلّ... من فضلك! ولا تحرميها من دروس الموسيقى رجاء. إنّ قلب ديانا معلّقٌ بدروسها الموسيقيّة يا آنسة باري. وأنا أعي جيّدا معنى أن يعلّق قلبُ إنسان بأمل مّا، ثمّ يخيبُ ظنّه. إذا كان لا بدّ لك

أن تغضبي على شخص مّا، فاغضبي عليَّ. إنّي معتادة على ذلك. ويمكنُ تحمّل الأمر أكثر من ديانا».

اختفى معظمُ السّخط من عيني العجوز. وحلّ مكانه بريق اهتمام واضح. ومع ذلك، قالت في حزم:

«لا أرى في لعبكما أيّ عذر مقنع. عندما كنتُ صغيرة، لم تكن الفتياتُ اليافعات ليرمين بأنفسهنّ في مثل هذه الألعاب الفظيعة. إنّك لا تعرفين معنى أن تغرقي في نوم عميق بعد رحلة طويلة منهكة، وفجأة تثبُ على جسدك بنتان كبيرتان، وتمضيان في القفز مرارا وتكرارا».

«نعم، إنّي لا أعرفُ ذلك. ولكن، يمكنني تخيُّله»، قالتْ آن بحماسٍ. «أنا متأكّدةٌ من أنّ الأمر مزعجٌ جدّا. ولكن، هناك زاويةُ نظر أخرى تخصُّنا نحن. هل تملكين أيّ خيال يا آنسة باري؟ إذا كان الإثباتُ إجابتكِ، فضعي نفسك مكاننا. حسِبنا أنّ السّريرَ شاغرٌ. وقد أفزعتِنا حتّى كدنا نموتُ هلعا. وفي نهاية المطاف، حُرمنا من النّوم في غرفة الضّيوف بعد أن وُعدنا بذلك وقضّينا النّهار كلّه متلهّفتيْن إلى ذلك. أعتقدُ أنّك معتادة على النّوم في غرف الضّيوف. ولكن، تخيّلي لو كنتِ طفلة يتيمة لم يسبق لها أن حظيت بمثل هذا الشّرف مطلقا!».

وفي تلك اللّحظة، تبخّر كلُّ السّخط الذي كان في قلب الآنسة باري. بل إنّها أطلقت ضحكةً جعلتْ ديانا تسترخي وتشعر بالابتهاج الشّديد، بعد وقوفها الصّامت المفعم بالقلق في المطبخ.

«أخشى أن تكون مخيّلتي قد صدئت قليلا. فقد مضى وقتٌ طويل على استعمالي لها. أقرّ في الحقيقة أنّ زاوية نظرك تساوي في وجاهتها زاويتي. يعتمدُ الأمرُ كلّه على الطّريقة التي ننظر وفقها إلى الأشياء. تعالي. واجلسي إلى جانبي. وحدّثيني عن نفسكِ قليلا».

«يؤسفني جدّا أنّني لا أستطيعُ ذلك»، قالت آنْ بصوتٍ حاسم. «كم أودُّ البقاء حقّا. فأنتِ تبدين سيّدةً جديرةً بالاهتمام. بل لعلّ رُوحيْنا متشابهتان، رغم المظاهر التي تَشي بخلاف ذلك. ولكنّ واجبي يتمثّلُ في العودة إلى المنزل من أجل الآنسة ماريلاّ كاثبرتْ. وهي سيّدةٌ لطيفةٌ جدّا، احتفظتْ بي في بيتها كي تُربّيَني كما ينبغي لي. إنّها تبذُل أفضل ما في وُسعها. ولكنّه عملٌ مُحبِط في نهاية المطاف. ولهذا لا تلوميها رجاءً على قصّة القفز على السّرير. ولكن قبل أن أغادر، أرجو أن تسامحي ديانا وأن تمكُثي في آفونلي طيلة الفترةِ التي عزمْتِ عليها منذ البداية».

«قد أفعل ذلك ربّما، شرْطَ أن تزوريني هنا وتتحدّثي إليّ من حين إلى آخر»، قالت الآنسةُ باري.

في ذلك المساء، وهبت الآنسةُ باري ديانا سوارا فضّيّا. وأعلمت والديها بأنّها أفرغت حقائبها من جديد.

«لقد قرّرتُ البقاء عندكم فقط كي أوطّد علاقتي بتلك الفتاة المدعوّة آنْ»، قالت بصراحة. «إنّها تُسلّيني، فيما أعيشُ فترة من حياتي يندُر فيها أن يسلّيني أيّ شخص».

عندما سمعت ماريلاّ الحكاية، التفتت إلى ماثيو. واكتفت بتعليق واحد: «لقد أخبرتك بهذا من قبل».

قضّت الآنسةُ باري شهرها كلّه. وقد كانت ضيفةً مريحة أكثر من قبل. فقد جعلتها صحبة آنْ في مزاج حسن. وسرعان ما أصبحتا صديقتين مقرّبتين.

وعندما همّت الآنسةُ باري بالرّحيل، قالت: «تذكّري أيّتها البنيّةُ آنْ أن تزوريني عندما تقصدين المدينة. وسوف أمنحكِ أجمل سرير في أفضل غرفة ضيوف في بيتي».

«لقد اتّضحَ في نهاية المطاف أنّ الآنسة باري تملكُ روحا شقيقة لروحي»، اعترفتْ آنْ لماريلاّ. «لا يمكنكِ اكتشافُ هذا بمجرّد النّظر إليها. ولكنّها كذلك فعلا. لا يسهلُ استجلاءُ ذلك في البداية، تماما مثلما حدث مع ماثيو. ولكنْ شيئا فشيئا، تتجلّى للمتأمّل تلك الحقيقة. ليست الأرواح الشّقيقة نادرة على النّحو الذي كنتُ أحسبه. وكم رائع حقّا اكتشافي أنّ هناك الكثير منها في العالم!».

(20)

إفراطٌ في الخيال

عاد الرّبيعُ مرّة أخرى إلى الضّيعة الخضراء. إنّه الرّبيعُ الكنديّ الجميلُ، متقلّبُ المزاج، النّافرُ الذي يتمطّى على امتداد نيسان وأيّار في سلسلة من النّهارات الحلوة المنعشة، ذات شموس غاربة ورديّة ومعجزاتٍ لا حدّ لها من الانبعاث والنّماء. غمرت البراعمُ الحمراء أشجار القيقب في مسلك العشّاق، بينما نمت أوراقُ السّرخس الصّغيرةُ المتغضّنة حول نبع الجنّيّات. وبعيدًا خلف منزل السّيّد سيلان سلون، أزهر الزّعرورُ البرّيّ، نجومًا من الحلاوة الورديّة والبيضاء تحت الأوراق البنّيّة. لقد استمتع جميعُ فتيان المدرسة وفتياتها بالأمسيات اللّطيفة هناك، حيث ينهمكون في قطف الأزهار أثناء عودتهم إلى منازلهم مغمورين بضوء الشّفق، بينما تمتلئ أيديهم وسلالهم بغنائمهم الزّهريّة.

«كم أشعر بالحزن على النّاس الذين يعيشون في أمكنة لا زعرور فيها»، قالت آنْ لماريلاّ. «تقول ديانا ربّما كانوا يملكون ما هو أفضل. لكنّ هذا غير ممكن إطلاقا. هل يوجد في الدّنيا ما هو أفضل من الزّعرور والأزهار؟ وتقول ديانا إنّ من لم يعرف الزّعرور لن يفتقدهُ. ولكنّي أحسبُ أنّ الأمر أسوأ على هذا النّحو. إذ يعتبر

جهلهم بوجوده أمرا مأساويّا دون شكّ. أتعرفين كيف أنظر إلى الزّعرور يا ماريلاّ؟ إنّني أعتقدُ أنّ حبّاته هي أرواحُ الأزهار التي ماتت خلال الصّيف الماضي. وهذا الرّبيعُ هو جنّتها. آه يا ماريلاّ! ليتكِ تعرفين كم كان اليومُ رائعا. تناولنا الغداء في غَوْر تكسوهُ الطّحالب قرب بئر قديمة. ويا له من مكان رومنسيّ! تحدّى تشارلي سْلُونْ آرتي غيليزْ أنْ يقفزَ فوقها. وكذلك فعل، لأنّه لا يطيق أن يتحدّاهُ أيّ شخص. لا أحد يفعل هذا في المدرسة حيث صار من الرّائج القيام بتحدّيات طيلة الوقت. أهدى السّيّد فيليبس كلّ ما جمعه من أزهار الزّعرور إلى بريسي آندرُوزْ. كما أنّني سمعتُه يقول لها: «الحلاوةُ للحُلوة». أعرفُ أنّه اقتبس ذلك من كتاب. ولكن هذا يكشفُ أنّ لديه نصيبا من الخيال. لقد قُدّمت إليّ كذلك أزهارُ الزّعرور. فرفضتُها في ازدراء واضح. ولكنّي لن أخبرك باسم الشّخص الذي حاول إهداءها لي، لأنّني أقسمتُ أنّ اسمه لن يرد على لساني مطلقا. بعد الغداء، صنعنا أكاليل من الأزهار وزيّنّا بها قبّعاتنا. وعندما حان موعد العودة إلى منازلنا، مشينا في موكب مُشكَّل من أزواج متتالية على امتداد الطّريق، ونحنُ نغنّي «بيتي على التّلّة». آه، كان مشهدا مؤثّرا جدّا يا ماريلاّ، حتّى إنّ جماعة السّيّد سيلاسْ سْلونْ اندفعوا لمشاهدة عبورنا. وبالإضافة إلى ذلك، وقف كلُّ من التقانا على الطّريق محدّقا ومتأمّلا فينا. لقد أشعنا في المكان حماسا حقيقيّا».

«لا عجب في ذلك. يا للسّخافات!»، قالت ماريلاّ.

بعد أزهار الزّعرور حان دورُ البنفسج الذي غمر وادي البنفسج.

وهناك مشتْ آنْ في طريقها إلى المدرسة، بخطواتٍ وقورة وعينيْن خاشعتينْ كأنّها تطأُ أرضًا مقدّسة.

«على نحو مّا»، قالت لديانا. «عندما أمرّ من هنا، لا أكترثُ ما إذا كان غيلبرتْ... أقصدُ ما إذا تفوّق عليّ أيُّ تلميذ في الصّفّ. ولكنّ الأمر مختلفٌ جدّا عندما أكون في المدرسة. يبدو أنّ هناك ذواتٍ كثيرةً في داخلي، حتّى إنّني أفكّر أحيانا أنّ ذلك هو سبب تعرّضي المستمرّ للمتاعب. إذْ لو كنتُ آنْ واحدةً فحسب، لعشتُ في راحة أكبر. ومع ذلك، فإنّي سأفتقرُ حينئذ إلى التّشويق والإثارة».

ذات مساء في شهر حزيران، جلستْ آنْ عند النّافذة الشّرقيّة. واستغرقت في التّأمّل. كانت البراعمُ الورديّةُ قد غمرت البساتين من جديد، والضّفادعُ تغنّي فتحرّك صفحة المستنقعات الرّماديّة عند رأس بحيرة المياه اللاّمعة. فاح في الجوّ عطرُ حقول البرسيم وعبير أدغال التنّوب البلسميّة. كانت آنْ تعمل على مراجعة دروسها. وعندما أظلمت الغرفةُ، غرقت هي في أحلام يقظتها، شاردة في الأفق وراء أغصان ملكة الثّلوج التي اختالت بخصلاتها المزهرة.

لم تكن غرفةُ الجملونات الشّرقيّة قد تغيّرت كثيرا في الحقيقة. فقد حافظت على الجدران البيضاء نفسها والكراسي الخشنة ذات الصّفرة الأبديّة. ومازالت وسادةُ الدّبابيس في مكانها، وقد تصلّبت أكثر من أيّ وقت مضى. ومع ذلك، فإنّ طبيعتها العامّة قد تبدّلت. إذ يشعر المرءُ فيها بنبض حياة جديدة تغمرُ كلّ أركانها وأشيائها. وهي حياة لا علاقة لها بالكتب المدرسيّة والفساتين والشّرائط ولا

الإبريق الأزرق المتصدّع على الطّاولة والفائض بأزهار التّفّاح. بدا الأمرُ كأنّ جميع الأحلام التي يمكنُ لساكنة الغرفة أن تتخيّلها، سواء أكانت اللّيليّة أم النّهاريّة، اتّخذتْ شكلا مرئيّا ولكنّه غير ملموس، وأنّ الغرفة العارية قد لبست ستائر نُسجت من أقواس قزح ومن أشعّة القمر.

دخلت ماريلاّ بخفّة إلى الغرفة، وهي تحملُ بعض مآزر آنْ المدرسيّة المكويّة حديثا. علّقتها على ظهر كرسيّ. ثمّ جلست، مُطلقة تنهيدة وجيزة. لقد كانت تعاني من صداع رأسها المعتاد. ورغم أنّ آلامها سكنت قليلا، فقد ظلّت تشعر بالإعياء، وفق كلماتها. أمّا آنْ، فقد حدّقت فيها بنظرات متعاطفة.

«أتمنّى حقّا لو كان بإمكاني أن أكابد هذا الصّداع بدلا عنك يا ماريلاّ. كنتُ لأفعل ذلك بكلّ سرور».

«أعتقدُ أنّكِ ساهمتِ في تخفيف آلامي من خلال القيام بالأشغال المنزليّة وإتاحة الفرصة لي كي أستريح»، قالت ماريلاّ. «يبدو أنّك تحسّنتِ كثيرا وأنّ أخطاءك أخذت تقلّ عن العادة. طبعا، لم يكن من الضّروريّ تنشية مناديل ماثيو. كما أنّه عندما يضع معظمُ النّاس فطيرة في الفرن من أجل العشاء، فإنّهم يخرجونها ما أن تصير ساخنة بدل أن يتركوها هناك حتّى تصير رقاقة محترقة. ودون شكّ، يبدو أنّك تعملين على نحو مختلف».

طالما وسم الصّداعُ ماريلاّ بميسم السّخرية.

«آه، أنا آسفةٌ حقّا»، قالت آنْ بنبرة ندم. «لقد نسيتُ تلك

الفطيرة منذُ أن وضعتُها في الفرن حتّى الآن، رغم أنّني أحسستُ على نحو غريزيّ أنّ هناك شيئا مّا ناقصا على طاولة العشاء. عندما حُمّلتُ مسؤوليّة البيت هذا الصّباح، عزمتُ على ألاّ أتخيّل أيّ شيء وأركّز انتباهي على الوقائع. وفعلا، نجحتُ في ذلك إلى حدّ بعيد إلى أن وضعتُ الفطيرة في الفرن. وحينئذ، تملّكني إغراءٌ لا يقاوم بأن أتخيّل نفسي أميرة في عالم سحريّ، سجينة في برج بعيد، بينما يخِبُّ فارس وسيم على جواده الفاحم مُحاولا أن ينقذني. وعلى هذا النّحو، نسيتُ الفطيرة. كما أنّني لم أكن واعية بأنّني أنشّي مناديل ماثيو أثناء كيّها. فقد استغرقتُ في التّفكير في اسم مناسب لجزيرة اكتشفتُها أنا وديانا حديثًا عند الغدير. يا له من مكان خلاّب يا ماريلاّ! تتدفّقُ فيه مياه الغدير من كلّ جانب. كما أنّ فيه شجرتي قيقب رائعتان. قرّرتُ في نهاية المطاف أن أسمّيه جزيرة فكتوريا، لأنّنا اكتشفناهُ يوم عيد ميلاد الملكة. وكما تعرفين جيّدا، أنا وديانا وفيّتان للوطن. وعلى أيّة حال، فأنا آسفة جدّا من أجل الفطيرة والمناديل. أردتُ أن أبلي بلاء حسنا هذا اليوم، لأنّه عيد بالنّسبة إليّ. ها تذكرين يا ماريلاّ ما حدث في مثل هذا اليوم من السّنة الماضية؟».

«لا، لا يخطر ببالي أيّ شيء مميّز».

«أوه يا ماريلاّ، إنّه اليومُ الذي وصلتُ فيه إلى الضّيعة الخضراء. لن أنسى ذلك ما حييت. فهو منعطفُ حياتي الرّئيسيّ. طبعا، قد لا يمثّل كلّ هذه الأهمّيّة بالنّسبة إليك. ولكنّي أقول لك إنّ سنة بأكملها مضت على وجودي هنا. وكم كنتُ سعيدة خلالها. نعم، لقد واجهتُ مشاكل كثيرة دون شكّ. ولكن يستطيع المرء أن يشقّ

طريقه عبر المشاكل ويستمرّ في الحياة. هل تشعرين بالنّدم لأنّك احتفظتِ بي يا ماريلاّ؟».

«لا، لا يمكنني أن أقول إنّي نادمة على ذلك»، ردّت ماريلاّ التي كانت تتساءل أحيانا كيف أمكن لها أن تحيا قبل قدوم آنْ إلى الضّيعة الخضراء. «لستُ نادمة طبعا... إذا أنهيتِ دروسكِ، فاذهبي إلى السّيّدة باري واطلبي منها أن ترسل إليّ طراز مئزر ديانا».

«آه، الظّلام حالك»، هتفت آنْ.

«ظلام حالك؟! إنّه الغسق فحسب. الرّبُّ وحده يعلمُ كم غادرتِ البيت من مرّة بعد حلول الظّلام».

«سأذهبُ في الصّباح الباكر»، قالتْ آنْ بحماس. سأستيقظُ عند شروق الشّمس. وأذهب إلى بيت باري يا ماريلاّ».

«ما الذي يجولُ برأسك الآن يا آنْ شيرلي؟ أريد ذلك الطّراز لأفصّل مئزركِ هذا المساء. هيّا، تعقّلي واذهبي الآن!».

«سأضطرُّ إلى أن أسلُك الطّريق الرّئيسيّ إذن»، قالت آنْ، وهي تتناول قبّعتها مُكرهةً.

«ماذا؟ تسلكين الطّريق الرّئيسيّ؟ وتهدرين نصف ساعة إضافيّة؟ مستحيل!».

«لا يمكنني عبور الغابة المسكونة يا ماريلاّ»، هتفت آنْ في يأس، بينما حدّقت فيها ماريلاّ مليّا.

«الغابة المسكونة؟ هل جننتِ؟ وهل هناك أيّ شيء تحت السماء يُدعى الغابة المسكونة؟».

«نعم، غابة التنّوب فوق الغدير».

«أيّ هراء هذا؟ ليس هناك أيّ غابة مسكونة في أيّ مكان. من هذا الذي يملأ رأسك بمثل هذه التّرّهات؟».

«لا أحد»، اعترفتْ آنْ. «لقد تخيّلنا، أنا وديانا، ذلك لأنّ كلّ الأماكن هنا... كيف يجدر بي أن أسمّيها؟ آها، إنّها مألوفة جدّا وعاديّة. ولهذا السّبب، اخترعنا حكاية الغابة المسكونة من أجل المتعة فحسب. بدأنا ذلك في شهر نيسان الماضي... غابة مسكونة، يا لها من فكرة رومنسيّة! اخترنا غابة التّنوب لأنّها شاحبة كئيبة. آه، لقد تخيّلنا أكثر الأشياء رعبا يا ماريلاّ؛ هناك سيّدة بيضاء عند الجدول تتمشّى في مثل هذا الوقت تقريبا. وهي تفركُ يديها. وتصيح على نحو مفزع. إنّها تظهر كلّما أوشك أن يموت شخص مّا في العائلة. يوجد كذلك شبحُ طفل صغير مقتول يسكن تلك الزّاوية عند فردوس البرّيّة. يزحف خلف العابرين. ويضع أصابعه الباردة في كفوفهم. آه يا ماريلاّ، يرتجفُ جسدي بأكمله كلّما فكّرتُ في ذلك. هناك أيضا رجل مقطوع الرّأس يتسكّع على امتداد المسلك وهياكلُ عظميّة تحدّقُ في العابر من بين أغصان الأشجار. آه، ماريلاّ! لا أريد عبور الغابة المسكونة بعد حلول الظّلام مهما كان السّبب. أنا متيقّنة من أنّ تلك الأشياء البيضاء ستدركني من خلف الأشجار وتقبض عليّ».

«أيّ كلام فارغ هذا؟!»، صاحت ماريلاّ التي كانت تُصغي مَشدُوهةً بفَم فَاغرٍ. «آن شيرلي، هل تريدين إخباري بأنّك تصدّقين كلّ تلك التّرّهات النّاجمة عن خيالك؟».

«لا أصدّق ذلك على نحو دقيق»، هتفتْ آنْ في حماس. «على الأقلّ، لا أفعل ذلك في وضح النّهار. أمّا بعد حلول الظّلام، فالأمر مختلف تماما. إنّه في تلك السّاعة تبدأ الأشباح في العمل».

«لا وجود لشيء اسمه الأشباح يا آنْ».

«بلى، إنّها كذلك يا ماريلاّ، قالت آنْ في حماس شديد. «أعرفُ من سبق له أن رآهم. وهو من الأشخاص المحترمين الصّادقين. لقد أخبرنا تشارلي سلُونْ أنّ جدّته رأت جدّه يقود الأبقار إلى البيت ذات ليلة تعقبُ دفنه بسنة كاملة. تعرفين أنّ جدّة تشارلي سلون لا تملك سببا وجيها لاختلاق قصّة كتلك. إنّها امرأة متديّنةٌ جدّا. والدُ السّيّدة توماس كذلك طارده حمل من نار له رأس مقطع يتدلّى على جسمه بشريط من الجلد. لقد صرّح لاحقا بمعرفته أنّ الحمل روح أخيه. وقد كان ذلك إنذارا بموته في غضون تسعة أيّام. في الواقع، لم يمت بعد تسعة أيّام وإنّما بعد سنتيْن. أترين إذن؟ كان الإنذارُ حقيقيّا. تقول روبي غيليزْ كذلك..».

«آنْ شيرلي»، قاطعتها ماريلاّ بحزم. «لا أريد أن أسمعك تخوضين في هذه البدعة مجدّدا. سبق أن ارتبتُ في تلك المخيّلة التي تملكينها. وإذا كانت هذه هي المآلات التي تأخذك إليها، فإنّي سأمنعك من تخيّل أيّ شيء. أريدك أن تذهبي فورا إلى منزل عائلة باري. وستعبرين بستان التّنّوب حتّى يكون ذلك عقابا لك وإنذارا. وإيّاك أن أسمع منك أيّ كلمة أخرى عن الغابات المسكونة!».

كانت آنْ مذعورة حقّا. فقد جعلها إفراطها في الخيال تخشى

من غابة التّنّوب حقّا، وتجد في عبورها بعد حلول الظّلام أمرا مفزعا على نحو قاتل. كان بإمكانها أن تبكي وتتوسّل ماريلاّ كما تشاء. ولكنّ ذلك لم يُجد نفعا. فقد قادت رائية الأشباح الصّغيرة حتّى الجدول. وأمرتها أن تجتاز الجسر فتتقدّم في أعماق الغياهب حيثُ تجول النّساء الصّائحاتُ والأشباحُ مقطوعة الرّؤوس.

«أوه يا ماريلاّ! كيف يمكنك أن تكوني قاسية إلى هذا الحدّ؟»، قالتْ آن باكية. «كيف سيكونُ شعورك إذا تمسّك بي شبحٌ أبيض واختطفني؟».

«يمكنني أن أجازف بذلك»، ردّت ماريلاّ ببرود. «إنّك تعرفين جيّدا أنّني أعني دوما ما أقوله. سأعالجك من تخيّل الأشباح في كلّ الأمكنة. هيّا، تقدّمي!».

تقدّمت آنْ، أو بالأحرى تلكّأتْ وهي تتقدّمُ بصعوبة لتعبر الجسر. ثمّ غرقت مفزوعة في الطّريق المظلم خلفه. ولا شكّ أنّها لم تنس طيلة حياتها ذلك الممشى. بل إنّها ندمت على العنان الذي أطلقتهُ لمخيّلتها.

تربّصَ بها عفاريتُ مُخيِّلتها بين الظّلال المُحيطة بها. مدُّوا أياديهم الباردةَ والعارية من اللّحم نحوها كي يمسكوا بالفتاة الصّغيرة المرعوبة التي أرسلتهم إلى الوجود.

فجأة، طارت في الهواء قطعةٌ من لِحاء شجرة بتولا. وحطّتْ على الأرضيّة التُّرابيّة البنّيّة. فكاد قلبُها يتوقف عن النّبض. ثمّ أطلق غُصْنَا شجرةٍ عويلا مكتوما عند احتكاكِهما بعضهما ببعض.

فتصبّب العرقُ على جبينها. وعندما، حلّقت الخفافيش في الظّلام فوقها بدت لها أشبه بمخلوقات أجنبيّة عن الأرض. أمّا حين أدركت حقل السّيّد ويليام بيلْ، تجاوزته وهي تهبُّ مثل الرّيح كأنّ جيشا من الأطياف البيضاء يُلاحقها. وصلت آخر المطاف إلى باب مطبخ عائلة باري مقطوعة الأنفاس. طلبت طراز المئزر، وهي تلهثُ بشدّة. لم تكن ديانا هناك. ولذلك لم تملك أيّ سبب لتتريّث قليلا، بينما كانت رحلة العودة المفزعةُ في انتظارها. واقتحمتها آنْ بعينين مغمضتيْن مفضّلة الاصطدام بفروع الأشجار على رؤية تلك الأشباح البيضاء. وما أن تعثّرت قدمها بجسر الحطب حتّى أطلقت نفسا عميقا ومرتجفا من الارتياح.

«حسنا، يبدو ألاّ شيء قد اختطفكِ»، قالت ماريلاّ بنبرة خالية من التّعاطف.

«آه يا مار... ماريلاّ!»، تلعثمتْ آنْ. «سأقنع منذ اليوم بالأماكن المألوفة العاديّة».

مكتبة
t.me/soramnqraa

(21)

فنُّ النّكهات الجديد

«يا لي من مسكينة! ليس هناك أيّ شيء في هذا العالم سوى لقاء ففراق، كما تقول السّيّدةُ ليندْ»، هتفت آنْ متذمّرة، وهي تضعُ لوحها وكتبها على طاولة المطبخ في آخر يوم من أيّام حزيران، وتمسحُ عينيها الحمراويْن بمنديل ناعم. «ألم يكن من حسن حظّي أنّي أخذتُ معي اليوم منديلا إضافيّا إلى المدرسة؟ لقد شعرتُ سلفا أنّي سأحتاجُ إليه».

«لم أحسب يوما أنّك مولعة بالسّيّد فيليبسْ إلى هذه الدّرجة التي تجعلك في حاجة إلى منديليْن من أجل تجفيف دموعك على فراقه».

«لا أظنُّ أنّي بكيتُ بسبب ولعي الشّديد به»، أجابت آنْ وهي تتفكّرُ في ما سمعته. «بكيتُ لأنّ هذا ما فعله الآخرون. كانت روبي غيليزْ من استهلّ كلّ شيء، رغم أنّها اعتادت أن تصرّح بكرهها للسّيّد فيليبسْ. ومع ذلك، ما أن وقف ليلقي كلمة الوداع حتّى انفجرتْ دموعها. ثمّ شرعت بقيّة الفتيات في البكاء، الواحدة تلو الأخرى. أمّا أنا، فحاولتُ الصّمود. وسعيتُ إلى تذكّر ذلك اليوم الذي دفعني فيه إلى الجلوس إلى جانب غيلْ... إلى جانب

صبيّ واليوم الذي كتب فيه اسمي على السّبّورة على نحو خاطئ دون سكون في آخره، كم كان يردّد إنّه لم يعرف أغبى منّي في مادّة الهندسة وكم سخر من قدراتي الإملائيّة، وتذكّرتُ كذلك جميع المرّات التي كان فيها ساخرا ولئيما معي. وفي آخر المطاف، فشلتُ في تجنّب البكاء يا ماريلاّ. كان عليّ أن أنضمّ إلى مجموعة الباكيات. لقد أمضت جايْن آندروزْ شهرا كاملا، وهي تردّدُ أنّها ستبلغُ قمّة السّعادة إذا غادر السّيّدُ فيليبسْ وأكّدت أنّها لن تذرف دمعة واحدة عندما يحينُ ذلك. ورغم كلّ ذلك، فقد كانت في حال أسوأ من الجميع حتّى إنّها اضطرّت إلى أن تستعير منديلا من أخيها -طبعا لم يبكِ الأولاد- لأنّها لم تجلب معها أيّ منديل. إذ لم تتوقّع أنّها ستحتاجه أصلا. آه يا ماريلاّ! كان ذلك حدثا ينفطر له القلب. ألقى السّيّدُ فيليبسْ كلمة وداع جميلة استهلّها بقوله: ها قد حان الوقتُ لنفترق. كانت مؤثّرة جدّا في الحقيقة. كما أنّ عينيه كانتا دامعتين كذلك. أحسستُ بالأسف والنّدم الشّديدَيْن على جميع المرّات التي ثرثرتُ فيها أثناء الدّرس، ورسمتُ له صورا على لوحي، وسخرتُ منه وبريسي. صدّقيني، تمنّيتُ لو كنتُ تلميذة نموذجيّة مثل ميني آندروزْ. لا شكّ أنّها لا تملكُ ما يعذّبُ ضميرها الآن. بكت الفتيات طيلة طريق العودة من المدرسة. وكلّ بضع دقائق، كانت كاري سلُونْ تردّد: ها قد حان الوقتُ لنفترق، فيدفعنا ذلك إلى البكاء مجدّدا كلّما أوشكنا أن نقع في فخّ الابتهاج. أنا حزينةٌ على نحو فظيع يا ماريلاّ. ولكن لا يمكن للمرء أن يكون في أعماق اليأس، وهو مُقبِلٌ على عطلة تدوم شهريْن كاملين. أليس كذلك؟ بالإضافة إلى

ذلك، التقينا الكاهن الجديد وزوجته قادميْن من المحطّة. ورغم حزني الشّديد على فراق السّيّد فيليبسْ، فإنّي لم أستطع منعَ نفسي من الاهتمام قليلا بقُدوم الكاهن الجديد. ألا يجدر بي ذلك؟ زوجتُه سيدة جميلةٌ جدّا. ليست ذات جمال مُهيب طبعا. إذْ لا يمكنُ لكاهن أن يتزوّج امرأةً ذاتِ جمال مهيب. فقد يصيرُ بذلك قدوة سيّئة للآخرين. تقولُ السّيّدةُ ليندْ إنّ زوجة الكاهن في نْيُوبريدْجْ قدوة سيّئة، لأنّها ترتدي ملابسَ أنيقةً جدّا وفق ما هو دارجٌ دوما. أمّا زوجة كاهننا الجديد، فهي تلبسُ فستانا من الموسلين الأزرق ذا كُمّيْن فضفاضين جميلين وقبّعة مزيّنة بالورود. قالت جايْن آندرُوزْ إنّ الأكمام الفضفاضة دنيويّة جدّا بالنّسبة إلى زوجة كاهن. لكنّي لم أشأ أن أشارك في هذه الملاحظات المتعصّبة. فأنا أعرفُ جيّدا لهفة المرء على الأكمام الفضفاضة. بالإضافة إلى ذلك، لم يمضِ على زواجها بالكاهن إلاّ فترة وجيزة. ألا يجدر بالمرء أن يجد لها الأعذار في كلّ ما سبق ذكرهُ؟ علمتُ أنّهما سيقيمان في بيت السّيّدة ليندْ إلى أن يصير منزل الكاهن جاهزا.

إذا كان هناك أيُّ سببٍ آخر في ذهاب ماريلاّ إلى منزل السّيّدة ليندْ ذلك المساء، عدا تذرُّعها بإعادة طُرُز الألحفة التي استعارتْها خلال الشّتاء الماضي، فإنّه لا شكّ الفضولُ البريءُ الذي يشتركُ فيه معظمُ سكّان آفونلي. أشياءُ كثيرةٌ أعارتها السّيّدةُ ليندْ من قبل، دون أن تأمل في أغلب الأحيان أن تعود إليها، كانت قد رجعت إلى بيتها في تلك اللّيلة محمولةً من قبل من استعاروها بأنفسهم. فقد كان قدومُ الكاهن -بل كاهنٌ وزوجتُه- موضوعًا مثيرا

للفضول في مستوطنة صغيرة هادئة حيثُ الأنباءُ المثيرة نادرةٌ ومتباعِدةٌ زمنيّا.

كان السّيّدُ بنتْلي العجوز، الذي تعتبرهُ آنْ مفتقرا بشدّة إلى الخيال، قد قضّى ثمانية عشر عاما في خدمة كنيسة آفونلي. جاء إليها أرملَ. وكذلك مكث فيها، رغم الإشاعات التي ظلّت تزوّجه من هذه وتلك على امتداد سنوات إقامته فيها. وأخيرا، استقال من منصبه في شهر شباط الماضي. ورحل مُخلِّفا الحسرةَ في قلوب أتباعه الذين نشأت المودّةُ في قلوب معظمهم بسبب المخالطة الطّويلة لكاهنهم العجوز، رغم قدراته الخطابيّة المتواضعة. ومنذ ذلك الحين، استمتعت كنيسةُ آفونلي بتنويع دينيّ ملحوظ. فقد ظلّت تستقبلُ أحدًا بعد أحد مرشّحين كثيرين متقدّمين من أجل منصب الكهانة، مُلقين خطبَهم وعظاتهم على سبيل الاختبار. وكان هؤلاء يصمُدون أو يسقطون بحسب حُكم أمّهات آفونلي وآبائها عليهم. ولكنّ فتاةً صغيرة ذات شعر أحمر، تجلس بخنوع في الرّكن على مقعد عائلة كاثبرتْ القديم في الكنيسة، كانت تملكُ هي الأخرى آراءَها الخاصّة عنهم. وطالما ناقشتها بالتّفصيل مع ماثيو رغم معارضة ماريلاّ الدّائمة على ذلك، استنادا إلى مبدإ عدم نقد القساوسة والكهّان بأيّ شكل من الأشكال.

«لا أعتقدُ أنّ السّيّد سْمِيثْ كان سيفي بالغرض يا ماثيو»، أعلنتْ آنْ حكمها النّهائيّ. «تقولُ السّيّدةُ ليندْ إنّ آداءه متواضع جدّا. ولكنّ عيبَه الفادح بالنّسبة إليّ هو افتقاره إلى الخيال، تماما مثل السّيّد بنتْلي. أمّا السّيّدُ تيري، فقد كان مُفرطا في الخيال، حتّى إنّه

يستسلمُ لتيّاره المتدفّق مثلما فعلتُ أنا في حكاية الغابة المسكونة. بالإضافة إلى ذلك، تقول السيّدةُ ليندْ إنّ معارفه الدّينيّة مشكوكٌ فيها. السّيّدُ غريشام في المقابل رجلٌ طيّب جدّا ومتديّن ورعٌ. لكنّه فقد الكثير من وقاره بسبب استمراره في قصّ الحكايات المضحكة في الكنيسة. لا بدّ للكاهن أن يحافظ على وقاره يا ماثيو. أليس كذلك؟ بدا لي السّيّدُ مارْشالْ جذّابا فعلا. لكنّ السّيّدة ليندْ تقول إنّه غير متزوّج وليس خطيبا لأيّ فتاة. فقد أجرت عنه بعض التّحرّيات. وأكّدتْ أنّ الأمرَ لا يمكنُ أن ينجح في أفونلي مع كاهنٍ شابّ غير متزوّج، لأنّه قد يتزوّج في الأبرشيّة ممّا سيسبّبُ المشاكل. أليست السّيّدة ليندْ امرأة بعيدة النّظر يا ماثيو؟ أنا سعيدة جدّا لدعوة السّيّد آلانْ. لقد أحببتهُ لأنّ موعظته مثيرة للاهتمام حقّا. كما أنّه صلّى على نحو يشي بالصّدق. ولم يبدُ عليه أنّه يكرّر عملا اعتاد عليه فحسب. تقول السّيّدة ليندْ إنّه ليس مثاليّا. ولكنّها تؤكّد أنّه لا يجدر بنا توقّع الحصول على كاهن مثاليّ بأجر لا يتجاوز سبع مائة وخمسين دولارا في السّنة. وعلى أيّة حال، فإنّ معارفه الدّينيّة لا بأس بها. فقد امتحنته بدقّة في جميع أسس العقيدة. كما أنّها تعرف عائلة زوجته. وهم أناسٌ محترمون جدّا. وجميع نسائهم ربّاتُ بيوت حاذقات. تقول السّيّدة ليندْ إنّ رجلا عليما بعقيدته وامرأة عليمة بشؤون بيتها يُشكّلان معا قِرانا مثاليّا بالنّسبة إلى عائلة كاهن.

كان الكاهنُ الجديد وزوجتهُ شابّين لطيفيْن وجميليْن ما يزالان في شهر العسل، مفعمين بالحماس المتّقد لنمط الحياة الذي اختاراه لنفسيْهما. ومنذ البداية، فتحتْ آفونلي قلبَها لهُما. فأحبّ كلٌّ منْ فيها

من الكبار والصّغار ذلك الشّابَّ البشُوشَ وتلك السّيّدةَ اليافعة اللّطيفة واللاّمعةَ التي تكفّلتْ بالإشراف على مدرسةِ الأحد. أمّا آنْ التي وقعتْ على الفور، وملْءَ قلبها، في حُبّ السّيّدة آلانْ، فقد اكتشفتْ روحًا أُخرى شقيقةً لروحها.

«إنّ السّيّدة آلانْ رائعة جدّا»، أعلنت ذات مساء أحد. «تتكفّل الآن بتدريس صفّنا. وهي معلّمة ممتازة. صرّحت منذ البداية أنّه من غير المنصف أن يطرح المعلّم كلّ الأسئلة بمفرده. وطلبت منّا أن نطرح أسئلتنا الخاصّة. وكذلك فعلتُ مرّات ومرّات. إنّي ماهرة في طرح الأسئلة يا ماريلاّ».

«إنّي أصدّقكِ»، ردّت ماريلاّ في تعاطف.

«لم يطرح أحدٌ غَيرِي أيّ سؤال، باستثناء روبي غيليزْ التي سألتْ ما إذا كانتْ هناكَ نزهة جماعيّة خلال هذا الصّيف. لم أشعر أنّه سؤال لائق. إذْ لا علاقة له بالدّرس -الذي كان موضوعُه النّبيّ دانيال في جُبّ الأسود- وعلى أيّة حال، اكتفتْ السّيّدة آلانْ بالابتسام، وقالت سيتمُّ تنظيمُ النّزهة على الأرجح. ابتسامةُ السّيّدة آلانْ جذّابةٌ جدّا. ولها غمّازتان دقيقتان ورائعتان. كم أتمنّى لو كنتُ أملكُ غمّازتيْن مثلهما يا ماريلاّ. ورغم كوني لم أعد هزيلة مثلما كنتُ عند قدومي إلى هنا، فإنّي مازلتُ دون أيّ غمّازة في وجنتيّ. لو كانت لديّ غمّازتان جميلتان لاستطعتُ على الأرجح أن أحفّز النّاس على فعل الخير. لقد قالت السّيّدةُ آلانْ إنّ علينا التّأثير على النّاس وتشجيعهم على فعل الخير. كما أنّها تحدّثت على نحو رائع في كلّ

شيء. لم أعرف قطّ أنّ الدّين يمكنُ أن يكون مسألة مُبهجة وممتعة. إذْ طالما حسبتُه أمرا مفعما بالكآبة. ولكنّ السّيّدة آلانْ ليست كذلك. ومن أجل أن أشبهَها، أقبلُ بسعادةٍ أن أصيرَ مسيحيّة صالحة. فأنا لا أريد أن أصبح مثل السّيّد النّاظر بيلْ».

«من السّيّء أن تتحدّثي هكذا عن السّيّد بيلْ»، قالت ماريلاّ موبّخة. «إنّه رجل صالح».

«أوه، هو رجل صالح طبعا»، أردفت آنْ موافقة. «ولكن لا تبدو عليه الاستفادة من هذا الصّلاح. لو كنتُ صالحة، لظللتُ أرقصُ وأغنّي طيلة الوقت فرحا بصلاحي. أظنُّ أنّ السّيّدة آلانْ أكبر سنّا من أن ترقص وتغنّي. كما أنّ ذلك غير لائق بالنّسبة إلى زوجة كاهن. ومع ذلك، فأنا أشعر بسعادتها لكونها مسيحيّة. وأحسبُ أنّها ستُعتبر كذلك حتّى لو لم تصعد للسّماء لتشهد بإيمانها.

«أرى أنّه يجدر بنا دعوة السّيّد والسّيّدة آلانْ لتناول الشّاي في بيتنا خلال الأيّام القادمة»، قالت ماريلاّ، وهي تفكّر في الأمر. «لقد دُعيا إلى معظم البيوت في آفونلي باستثناء بيتنا. فلأنظر في الأمر. نعم، سيكون الإربعاء القادمُ يوما مناسبا لاستقبالهما. ولكن، لا تُخبري ماثيو بأيّ شيء لأنّه إذا علم بزيارتهما فسيختلقُ عذرا ليغيب عن المنزل. لقد اعتاد ماثيو على صحبة السّيّد بنتلي. ولم يكن يتضايق من وجوده في المنزل. أمّا الآن، فسيجدُ صعوبة كبيرة في التّعرّف على كاهن جديد. بل سيفزعهُ قدوم زوجته حتّى الموت».

«سأكون كتومة مثل ميّت»، طمأنتها آنْ. «ولكن يا ماريلاّ،

هل ستسمحين لي بإعداد كعكة من أجل المناسبة؟ سأكون مسرورة بعمل شيء مّا من أجل السّيّدة آلانْ. وكما تعرفين، صرتُ ماهرة في إعداد الكعك اللّذيذ».

«يمكنك إعداد كعكة بالقشدة».

انطلق الاستعدادُ العظيمُ يومي الاثنين والثّلاثاء في منزل الضّيعة الخضراء. فقد كان استقبالُ الكاهن وزوجته في البيت لتناوُل الشّاي مسؤوليّةً هامّة وجدّيّة. وكانت ماريلاّ عازمة على أن تتفوّق على جميع ربّات البيوت في آفونلي. أمّا آنْ التي عصف بها الحماسُ والابتهاجُ، فقد استغرقت في الحديث عن المناسبة لديانا يوم الثّلاثاء عند الغسق، عندما كانتا جالستيْن على الصّخور الحمراء الكبيرة عند نبع الجنّيّات، تصنعان أقواس قزح في الماء بواسطة أغصان صغيرة مغمّسة في بلْسَم شجر التنّوب.

«أصبح كلّ شيء جاهزا يا ديانا، باستثناء كعكتي التي سأعدّها في الصّباح وبسكويت الخميرة الذي ستُعدُّه ماريلاّ قبل تناوُل الشّاي مباشرة. أؤكّدُ لك يا ديانا أنّي قضّيتُ وماريلاّ يومين حافلين بالعمل. فدعوةُ عائلة الكاهن إلى الشّاي مسؤوليّة كبيرة حقّا. ولم يسبق لي أن جرّبتُ ذلك من قبل. يجدر بك أن تلقي نظرة على حجرة المؤونة في بيتنا. إنّه مشهدٌ يستحقّ أن يُرى. سنأكل دجاجا وألسُنا باردة. وسنقدّم نوعين من الهُلام، واحد أصفر وآخر أحمر، وقشدة مخفوقة وفطيرة ليمون وفطيرة كرز وثلاثة أنواع من الرّقائق وكعكة الفاكهة ومربّى ماريلاّ الشّهير المُعدّ من الخوخ الأصفر الذي تحتفظُ

به خصّيصا للكهنة، وكذلك كعكة الزّبدة بالسّكّر وبسكويت كما سبق أن قلتُ لك، وخبزا طازجا وخبزا قديما (إذا كان الكاهنُ يعاني من عسر الهضم ولا يستطيعُ أكل الخبز الطّازج). تقول السّيّدةُ ليندْ إنّ معظم الكهنة يعانون من عسر الهضم. ولكن، لا أظنّ أنّ السّيّد آلانْ قد قضّى وقتا طويلا معهم حتّى يُصاب بأيّ تأثير سلبيّ. كلّما فكّرتُ بكعكتي أشعرُ بأنّ العرق البارد يتصبّبُ على جبهتي. أوه يا ديانا! ماذا لو لم تنجح؟ تخيّلي أنّي حلمتُ ليلة أمسِ بغول يطاردني من كلّ الجهات. كان مُخيفا جدّا وله رأسٌ في شكل كعكة كبيرة».

«سيكونُ كلّ شيء على ما يُرام. لا تخافي!»، أكّدت ديانا، وهي صديقةٌ تجد دوما الكلمات التي تبعثُ الرّاحة في القلب. «ثقي أنّ الكعكة التي أعددتِها قبل أسبوعيْن وتناولناها عند فردوس البرّيّة كانت لذيذة جدّا».

«هذا صحيح. ولكنّ الكعك يملك عادة سيّئة. فهو ينقلبُ دوما إلى حال سيّئة كلّما احتجتِ إلى أن يكون جيّدا»، تنهّدت آنْ، وهي تلقي في الماء غُصينًا بعد أن غمرتهُ جيّدا بالبلسم. «على أيّة حال، لا حلّ أمامي سوى الثّقة في الرّبّ والحذر من نسيان الطّحين. آه، انظري يا ديانا! يا له من قوس قزح جميل! أتعتقدين أنّ الحوريّة ستظهرُ بعد مغادرتنا لتأخذه وشاحا لها؟».

«تعرفين ألاّ وجود للحوريّات يا آنْ»، أجابت ديانا.

كانت أمُّ ديانا قد اكتشفت حكاية الغابة المسكونة. وغضبت بسبب ذلك كثيرا. ولهذا توقّفت ديانا عن مجاراة آنْ في وثبات

خيالها المجنّح. وصارت عازمة على عدم تعزيز قناعتها حتّى بوجود حوريّة مسالمة.

«ولكن من السّهل جدّا تخيُّل وجودها»، قالت آنْ. «كلّ ليلة قبل أن أنام، أنظرُ عبر نافذتي وأتساءل ما إذا كانت الحوريّة تجلسُ هنا حقّا، تُسرّحُ خصلات شعرها وتتّخذُ من النّبع مرآة. وأحيانا، أبحثُ عن آثار أقدامها في ندى الصّباح. أرجوكِ يا ديانا، لا تتخلّي عن إيمانك بالحوريّات!».

حلّ صباحُ الأربعاء. استيقظتْ آنْ عند شروقِ الشّمس. فقد منعها حماسُها من مواصلة النّوم. كانت تعاني من زكامٍ حادّ بسبب لعِبها بالماء عند النّبع مساءَ اليوم السّابق. لكنّها وجدت ذلك أمرا عرضيّا تافهًا. وعلى أيّة حال، فما من شيء عدا الالتهاب الرّئويّ الحادّ كان بإمكانه أن يحوّل انتباهها عن مهمّتها في ذلك اليوم. وهكذا شرعتْ في إعداد كعكتها بعد وجبة الإفطار. وعندما أغلقت باب الفرن عليها أطلقت نفس الانشراح العميق.

«أنا متأكّدة من أنّني لم أنس شيئا هذه المرّة يا ماريلاّ. ولكن أتعتقدين أنّها ستنتفخ؟ ماذا لو كانت الخميرة فاسدة مثلا؟ لقد استعملتُ الخميرة الجديدة. لكنّ السّيّدة ليندْ تقول إنّ المرء غير قادر هذه الأيّام من التّأكّد ما إذا كانت الخميرة التي اشتراها جيّدة أم لا. فقد أصبح كلّ شيء مغشوشا. وتقول أيضا يجبُ على الحكومة التّركيز على هذه المسألة والتّصدّي لها. ولكن، لا يمكنُ ترقّب ذلك من حكومة المحافظين. ماذا إن لم تنتفخ الكعكة يا ماريلاّ؟».

«لدينا الكثير من الطّعام حتّى في غيابها»، كانت هذه كلمات ماريلاّ الباردة وأسلوبها الخالي من العاطفة في النّظر إلى الأمر.

آخرَ الأمر، انتفخت الكعكة. وخرجت من الفرن خفيفة وهشّة كأنّها رغوة ذهبيّة. احمرّت آنْ من البهجة. ووضعت الهُلام على مختلف الطّبقات. ورأت في ما يراهُ الحالمُ السّيّدة آلانْ، وهي تأكل قطعة منه وقد تفكّر في طلب قطعة أخرى.

«طبعا، ستستعملين أفضل طقم شاي عندكِ يا ماريلاّ. هل يمكنني إعداد الطّاولة وتزيينها بأوراق السّراخس والورود البرّيّة؟».

«أعتقد أنّ هذا لا معنى له، وأنّ أهمّ شيء هو الطّعام وليس الزّينة التّافهة».

«لقد زيّنت السّيّدةُ باري طاولتها»، قالت آنْ دون أن يخلو تعليقها من المكر. «وقد مدحها الكاهنُ على ذلك. وقال إنّ الطّاولة كانت مأدبة للعين وللفم».

«حسنا، افعلي ما تشائين»، أجابت ماريلاّ الحريصة على ألاّ تتفوّق عليها السّيّدة باري ولا أيّ شخص آخر. «ولكن، لا تنسي أن تتركي مجالا كافيا للأطباق والطّعام».

انهمكتْ آن في التّزيين بكلّ ما تملكُه من حماسٍ وبراعة، حتّى تخطّتْ إنجازَ السيّدة باري بمراحلَ. وجعلت من طاولة الشّاي تلك تحفةً من الجمال، حتّى إنّ الكاهن وزوجته عند جلوسهما قد عبّرا عن إعجابهما الشّديد بروعتها.

«إنّه عملُ آنْ»، قالت ماريلاّ وهي تنصف الصّغيرة في تجهّم.

وأحسّتْ آنْ أنّ الابتسامة التي ارتسمت على شفتي السّيّدة آلانْ كانت أكثر ممّا يستحقّه هذا العالم.

كان ماثيو جالسا معهم كذلك. وعلى نحوٍ لا يعلمُه إلاّ الرّبّ وآنْ، رغِب في المشاركة في تلك الحفلة. في البداية، دفعته الدّعوة إلى الشّعور بارتباك وتوتّر شديدين، حتّى إنّ ماريلاّ استسلمت في نهاية المطاف ويئست من حضوره. ولكن نجحت آنْ في التّعامل معه بعد ذلك ممّا جعله يجلس إلى الطّاولة، وهو يرتدي أجمل ملابسه ويضع ياقته البيضاء. بل إنّه تحدّث إلى الكاهن باهتمام واضح. في المقابل، لم يوجّه أيّ كلمة إلى السّيّدة آلانْ. ولكنّ ذلك لم يكن متوقّعا منه على الأرجح.

مرّ كلّ شيء سلِسا مثل زيت فوق ماء حتّى ظهرت كعكةُ آنْ. ولكنّ السّيّدة آلانْ امتنعت عن تناول أيّ قطعة منها بعد أن أُتخمت بكلّ تلك الأطعمة المدهشة في تنوّعها. ولكنّ ماريلاّ، التي رأت ملامح الخيبة على وجه آنْ، قالت مبتسمةً:

«يجدر بك تناوّل قطعة من هذه يا سيّدة آلانْ. فقد أعدّتها آنْ خصّيصا من أجلك».

«في هذه الحال، ينبغي لي إذن أن أتذوّق قطعة منها»، قالت السّيّدة آلانْ ضاحكة، وهي تسحب إليها مثلّثا منتفخا. وكذلك فعل الكاهنُ وماريلاّ.

وما أن وضعت السّيّدةُ آلانْ لقمة في فمها حتّى ارتسم على وجهها أغربُ ملمح يمكن للنّاظر أن يراه. ولكنّها لم تقل أيّ كلمة.

بل أسرعت بابتلاعها فورا. لاحظت ماريلاّ ذلك. فتذوّقت الكعكة على الفور.

«آنْ شيرلي! بحقّ السّماء، ماذا وضعتِ في هذه الكعكة؟».

«لا شيء يخرج عن الوصفة يا ماريلاّ»، أجابتْ آنْ، وقد تجهّمت بشدّة. «آه، أليست لذيذة؟».

«لذيذة؟ إنّها بكلّ بساطة رهيبة المذاق. أرجوكِ يا سيّدة آلانْ، لا تأكلي المزيد منها. أمّا أنت يا آنْ، فجرّبيها بنفسك. ما هو المنكّه الذي استخدمتِه فيها؟».

«الفانيلا»، ردّتْ آنْ، وقد صار وجهُها أحمر قرمزيّا ما أن تذوّقت الكعكة. «لا شيء سوى الفانيلا. لا بدّ أنّها الخميرة يا ماريلاّ. لقد كنتُ مرتابة في الخميـ...».

«خميرة! أيّ هراء هذا؟ اذهبي وأحضري زجاجة الفانيلا التي استعملتِها.

اندفعت آنْ مُسرِعة إلى حجرة المؤونة. وعادت، وفي يدها زجاجةٌ صغيرة تحتوي على كمّيّة قليلة من سائل بنّيّ. وكُتب على مُلصقها: أفضل فانيلا. أمسكتها ماريلاّ. فتحت غطاءها. وشمّت ما بها.

«ليرحمنا الرّبّ! آنْ، لقد نكّهتِ كعكتكِ بمُسكّن الأوجاع. لقد كسرتُ زجاجة المسكّن خلال الأسبوع الماضي. فسكبتُ ما فيها داخل زجاجة فانيلا قديمة. أحسبُ أنّي مسؤولة عن نصف الخطإ إذن. إذ كان عليّ أن أنبّهكِ إلى ذلك. ولكن، لماذا لم تشمّيها يا آنْ؟».

وتحت وطأة هذا الخزي المزدوج، انفجرتْ آنْ باكيةً.

«لم أستطع... فقد كنتُ مصابة بزكام»، أطلقت آنْ كلماتها هذه. ثمّ طارت إلى غرفة الجملونات الشّرقيّة، حيثُ ألقت بنفسها على السّرير وانتحبت مثل من لا يريد لنفسه أيّ خلاص.

فجأة، سُمع صوت خطوات خفيفة على الدّرج. ثمّ دخل شخصٌ مّا الغرفة.

«أوه يا ماريلاّ»، هتفتْ آنْ، دُون أنْ تلتفت. «لقدْ حلَّ بي العارُ والخِزْيُ إلى الأبد. ولنْ أتمكّن من مُواصلة حياتي كما سبق. ستَنْتشِرُ الحكايةُ سريعًا، لأنّ ذلك ما تعرفهُ الأخبارُ دوْمًا في آفونلي. حينئذ، ستسألُني ديانا عن الكعكة. وسأُضطرُّ إلى إخبارِها بالحقيقةِ. وهكذا، سوف يُشار إليّ دوما بأنّي الفتاةُ التي نكّهتْ الكعكةَ بمُسكِّن الأوجاع. أمّا غيلْ... أقصدُ الأولاد في المدرسة، فلن يتوقّفوا مُطلقا عن السّخرية منّي. أُوهٍ يا ماريلاّ، إذا كنت تملكين قبَسا طفيفا من الشّفقة فلا تطلبي منّي النّزول لغسل الصّحون الآن. سوف أفعل ذلك بعد مغادرة الكاهن وزوجته، لأنّي لن أستطيع مواجهتهما بعد اليوم. بل قد تعتقدُ السّيّدة آلانْ أنّي حاولتُ تسميمها. تقول السّيّدة ليندْ إنّها تعرف فتاة يتيمة حاولتْ تسميم من أحسنوا إليها. ولكن مسكّن الأوجاع ليس سامّا. فهو مُعَدٌّ للتّناول عن طريق الفم -حتّى لو لم يكن ذلك في كعكة. هلاّ أخبرتِ السّيّدة آلانْ بهذا رجاء؟».

«ماذا لو نهضتِ لتقولي لها هذا بنفسكِ»، تكلّم صوتٌ مرح في الغرفة.

قفزتْ آنْ واقفة. فوجدت السّيّدة آلانْ عند سريرها، تتأمّلها بعينين ضاحكتيْن.

«بنيّتي العزيزة! لا يجدر بك البكاء على هذا النّحو»، قالت وقد كدّرها وجه آنْ العابس. «لمَ كلّ هذا؟ لا يعدو الأمر أن يكون خطأً مضحكا قد يقع فيه أيّ شخص آخر».

«أوه، تعرفُ هذه الأخطاء طريقها إليّ دوما»، قالت آنْ بصوت حزين. «كم وددتُ أن تكون الكعكة مُتقنة من أجلك يا سيّدة آلانْ».

«نعم، أعرفُ يا عزيزتي. وأؤكّدُ لك أنّي أقدّر لطفكِ واهتمامك، تماما كما لو أنّ الكعكة كانت جيّدة. والآن، توقّفي عن البكاء. واصطحبيني معكِ لرؤية أزهار الحديقة. أعلمتني الآنسة كاثبرتْ أنّ لكِ قطعة أرضك الخاصّة. وأريد أن أراها. فأنا مولعةٌ بالأزهار».

أتاحتْ آنْ لنفسها أن تُقاد إلى الأسفل فتُواسَى في مُصابها، وهي تحمدُ الرّبّ لأنّ مجرى الأحداث قد أوضح أنّ روح السّيّدة آلانْ روحٌ شقيقة. ومنذ تلك اللّحظة، لم يرد ذكرُ مسكّن الأوجاع. وعندما غادر الضّيوفُ، أحسّت آنْ بكونها قد استمتعت بالأمسية أكثر ممّا كانت تتوقّع -طبعا، إذا أخذت الحادثة بعين الاعتبار- ومع ذلك، تنهّدت من أعماقها.

«ماريلاّ، أليس من اللّطيف التّفكير بأنّ الغد يومٌ جديد لا أخطاء فيه؟».

«إنّي أضمنُ لكِ أنّك ستقترفين منها الكثير»، قالت ماريلاّ. «لم أر في حياتي قطّ من يضاهيك في ارتكاب الأخطاء يا آنْ».

«نعم، معك حقّ»، أقرّت آنْ بنبرة حزن. «ولكن ألم تلاحظي فيّ أمرا مشجّعا؟ إنّي لا أرتكبُ الخطأ نفسه مرّتين».

«لا أعرفُ ما إذا كان هذا الأمر مُفيدا إذا كنتِ تُبدعين خطأ جديدا في كلّ مرّة».

«آه، ألا تفهمين قصدي يا ماريلاّ؟ لا شكّ أنّ هناك حدودا لأخطاء المرء. وعندما أدركُ هذه الحدود، فهذا يعني أنّي تجاوزتُ جميع الأخطاء. يا لها من فكرة مُواسية جدّا!».

«حسنا، يجدرُ بك الآن أن تقدّمي تلك الكعكة للخنازير»، قالتْ ماريلاّ. «فهي لا تصلح طعاما لأيّ مخلوق بشريّ. بل إنّها لا تصلحُ حتّى لجيري بوت».

(22)
دعوةُ آنْ إلى تنـاوُل الشّاي

«ولماذا تجحظُ عيناكِ الآن كأنّهما تحاولان الخروج من محجريكِ؟»، سألت ماريلاّ ما أن عادت آنْ راكضةً من مكتب البريد. «هل اكتشفتِ روحا أخرى شقيقة لروحك؟».

كان الحماسُ يلفُّ آنْ مثل ثوب. وينبثقُ متوهّجا من عينيها. ويتّقدُ في كلّ ملامحها. لقد عادت إلى البيت راقصة طيلة الطّريق، كأنّها جنّيّة صغيرة تُطيّرها الرّياحُ عبر أشعّة الشّمس الدّافئة وظلال آبْ المسائيّة.

«لا يا ماريلاّ. ولكن، ما الذي قد يخطرُ ببالك؟ إنّي مدعوّة لتناول الشّاي في منزل الكاهن غدا. لقد أودعت السّيّدة آلانْ رسالة الدّعوة في مكتب البريد. انظري إليها يا ماريلاّ! «الآنسة آنْ شيرلي، الضّيعة الخضراء». هذه أوّل مرّة ألقّب فيها بآنسة! يا للإثارة التي شعرتُ بها وأنا أقرأ تلك الكلمة مقترنة باسمي. سوف أحتفظُ دوما بهذه البطاقة، معتبرة إيّاها واحدة من أثمن كنوزي على الإطلاق».

«أخبرتني السّيّدةُ آلانْ أنّها تنوي دعوة تلاميذ مدرسة الأحد تِباعا إلى تناول الشّاي في بيتها»، قالت ماريلاّ، وهي تتلقّى الخبر

ببرود. «لا داعي لكلّ هذا الهيجان يا صغيرتي. يجدر بكِ أن تتعلّمي التّعامل مع الأشياء بهدوء».

بالنّسبة إلى آنْ، يعني التّعاملُ مع الأشياء بهدوء تغيير طبيعتها العميقة. فقد كانت من «روح ونارٍ وندًى». وذلك يعني أنّ مسرّات الحياة وآلامها تحطّ في قلبها، وقد تضاعفت ثلاث مرّات. كانت ماريلاّ واعيةً بهذه الحقيقة التي تدفعها إلى القلق على آنْ. فهي تعرف أنّ تقلّبات الحياة الكثيرة ستثقل على روح آنْ المندفعة وغير الواعية بأنّ قدرتها الهائلة على الابتهاج إنّما هي تعويض على آلام سابقة. وبالتّالي، أحسّت ماريلاّ انّ من واجبها أن تدفع آنْ إلى مزيد الاعتدال والتّوازن الغريبيْن عنها غربتَهما عن شعاع شمسٍ راقص على سطح المياه. وكما اعترفت ماريلاّ لنفسها، لم تحقّق أيّ تقدّم ملحوظ. فقد ظلّت خيبةُ أمل بسيطة تنزل بآنْ إلى «أعماق اليأس» والمحن، فيما يرفعُها تحقّقُ أيّ رجاءٍ إلى عوالم الابتهاج المُصيبة بالدّوار. لهذا السّبب، أوشكت ماريلاّ أن تُحبَط تماما وتيأس من تهذيب تلك المتشرّدة وصقلها وفق معايير الفتاة النّموذجيّة، ذات المزاج المعتدل الرّصين والسّلوك القويم. ومع ذلك، فهي لم تعتقد أنّ بإمكانها أن تحبّها على النّحو ذاته لو كانت فتاة نموذجيّة.

أوت آنْ إلى سريرها في تلك اللّيلة، وقد أخرسها البؤسُ. فقد قال ماثيو إنّ هبوب الرّياح من جهة الشّمال الشّرقيّ قد تعني غدا ممطرا. انزعجت لسماع حفيف أوراق الحور حول المنزل. وبدا لها شبيها بصوت المطر وهو يهطل. أمّا هدير الخليج البعيد الذي اعتادت

أن تصغي إليه بابتهاج ومتعة، فقد شُبّه لها كأنّه نذير عاصفة ونبوءة شؤم تُلقى في وجه صبيّة صغيرة رغبت في يوم ذي طقس معتدل. وعلى هذا النّحو، شعرتْ آنْ أنّ الصّباح لن يأتي مطلقا.

ولكن لكلّ شيء نهايتُه، بما في ذلك اللّيالي التي تسبق يوم دعوة المرء إلى تناوُل الشّاي في منزل الكاهن. وخلافا لتوقّعات ماثيو، كان الصّباحُ مُشمسا. وفي ضوئه، ارتفعت معنويّات آنْ إلى قممها.

«آه ياماريلاّ! في قلبي اليوم ما يجعلني أحبّ كلّ من تحطّ عليه نظرتي»، هتفت وهي تغسل ماعون الإفطار. «لا يمكنك تخيّل السّعادة التي أشعر بها. ألن يكون رائعا أن تدوم؟ أعتقدُ أنّي أستطيع أن أصبح فتاة نموذجيّة إذا دُعيتُ إلى تناول الشّاي كلّ يوم. ولكن، آه يا ماريلاّ! هذه ليست مجرّد دعوة عاديّة. إنّها مناسبة رسميّة كذلك. وهذا ما يدفعني إلى القلق الشّديد. ماذا لو لم أحسن التّصرّف. إنّه لم يسبق لي أن تناولتُ الشّاي في منزل كاهن من قبل. ولستُ عليمة بكلّ الآداب الضّروريّة في مناسبة كهذه، رغم أنّي عكفتُ على دراسة قواعد الآداب المدوّنة في كتاب «عائلة هيرالْدْ» منذ قدومي إلى هنا. أخشى أن أرتكب حماقة مّا أو أغفل عن عمل شيء يجدر بي القيام به. أيكون من غير اللاّئق يا ترى أن أستزيد في طعام أحبّه كثيرا؟».

«إنّ مشكلتك يا آنْ أنّك تغالين في التّفكير في نفسك. عليك أن تفكّري في السّيّدة آلان فحسبُ، وفي ما قد يكون لائقا بالنّسبة إليها»، أجابت ماريلاّ التي تمكّنت لأوّل مرّة في حياتها من توجيه نصيحة جيّدة ودقيقة. وقد أدركتْ آنْ ذلك على الفور.

«إنّكِ على حقّ يا ماريلاّ. سأحاولُ منذ الآن ألاّ أفكّر في نفسي مطلقا».

كان من الواضح أنّ آنْ قد اجتازت زيارتها دون أيّ «انتهاك» فادح لآداب السّلوك. فقد رجعت إلى المنزل عند الغسق تحت سماء عظيمة موشّاة بغيوم زعفرانيّة وورديّة، وهي في مزاج رائق. وروت لماريلاّ في سعادةٍ فائقة كلَّ تفاصيل زيارتها، وهي تجلسُ على عتبة الحجارة الرّمليّة الحمراء عند المطبخ وتُسند رأسها الصّغير المتعب إلى حِجْر ماريلاّ.

هبّت ريحٌ باردة فوق حقولِ المحاصيل من فوق تلال التّنّوب الغربيّة. ودوّتْ بين أشجار الحُور، بينما لمعت نجمةٌ واحدة في سماء البستان، وطارت اليراعاتُ في مسلك العشّاق متغلغلة حينا بين السّراخس وحينا آخر بين الأغصان. كانت آنْ تتأمّل المشهد أثناء حديثها إلى ماريلاّ. وشعرت فجأة أنّ الرّيح والنّجوم واليراعات قد تشابكتْ بعضُها ببعض لتشكّلَ وحدةً حلوة وساحرة لا يمكنُ وصفها.

«آه يا ماريلاّ! لقد قضّيتُ وقتا مدهشا لا مثيل له. أشعر أنّي لم أعش حياتي سُدى. وسوف أحتفظُ بهذا الشّعور دوما حتّى إذا لم أُدعَ إلى تناول الشّاي في منزل كاهن مجدّدا. عندما وصلتُ، استقبلتني السّيّدة آلانْ عند الباب. وكانت ترفل في فستانها الجميل ذي الموسلين الورديّ الفاتح والزّخارف الكثيرة والكمّين الفضفاضين، كأنّها ملاك. أعتقدُ يا ماريلاّ أنّي أريد الزّواج من قسّ عندما أكبرُ.

فهو لن يهتمّ كثيرا الشعري الأحمر، بما أنّه مسألة دنيويّة بحتة. ولكن، يجدر بي حينئذ أن أكون صالحة. وهذا مستحيل ولا مجال لتحقّقه. يملكُ بعض النّاس كما تعلمين فطرةً طّيبة، فيما لا يملكُ آخرون هذه الطّبيعة الأصليّة. وأنا واحدة من هؤلاء الآخرين. تقول السّيّدةُ ليندْ إنّي مفعمة بالخطيئة الأصليّة[1]، ولا أمل في محاولة إصلاحي ومهما بذلتُ من جهد فإنّي لن أستطيع تجاوز ذلك. أعتقدُ أنّ الأمر شبيه بمشكلتي مع الهندسة. ولكن، ألا تعتقدين يا ماريلاّ أنّ المحاولة الجادّة والمستمرّة يمكن أن تؤتي أُكلها؟ إنّ السّيّدة آلانْ امرأة ذات فطرة طيّبة. وأنا أحبّها كثيرا. فهي وماثيو ينتمون إلى أولئك النّاس الذين يتعلّق بهم المرءُ على الفور، دون الحاجة إلى التّعمّق في معرفتهم. أمّا أولئك الذين يشبهون السّيّدة ليندْ، فينبغي على المرء بذلُ جهد عظيم حتّى يحبّهم. إذ يعي جيّدا أنّ لديهم معرفةً كبيرة بأشياءَ كثيرة، وأنّهم ناشطون جدّا في ما يتعلّق بأعمال الكنيسة. ومع ذلك، من المستحسن أن يظلّ يذكّر نفسه بكلّ هذا حتّى لا ينساه، فتقع منه محبّتهم. لقد التقيتُ في منزل الكاهن صبيّة أخرى. وهي عضوة في مدرسة الأحد بقرية وايتْ ساندسْ. اسمها لُورِيتّا براِدْلي. ورغم أنّها ليست روحا شقيقة، فإنّي أعتقدُ أنّها لطيفة جدّا. كان الشّايُ لذيذا. وأحسبُ أنّي تصرّفتُ وفق الآداب المتعارف عليها. بعد تناول الشّاي، عزفت السّيّدة آلانْ وغنّت، ودفعتنا أنا ولوريتّا إلى الغناء أيضا. قالت لي السّيّدةُ آلانْ إنّ صوتي

(1) عقيدة مسيحيّة تُشير إلى نزوع الإنسان إلى اقتراف الآثام وقابليّة وقوعه في الخطيئة بسبب ذنب آدم الأوّل المتعلّق بشجرة معرفة الخير والشّرّ والسّقوط من الجنّة.

جميل ويجدر بي أن أغنّي في جوقة مدرسة الأحد. كم تأثّرتُ بمجرّد تخيّل الأمر. إذْ طالما كنتُ متشوّقة إلى الغناء في جوقة الأحد مثل ديانا. ولكنّي حسبتُه شرفا لا أمل لي في بلوغه. غادرت لوريتّا في وقت مبكّر كي تدرك حفلا موسيقيّا، تُشارك فيه شقيقتُها، في فندقِ وايتْ ساندْسْ اللّيلة. هي تقولُ إنّ الأمريكيّين يُقِيمون حفلا كلّ أسبوعين. ويخصّصون مداخيله لمساعدة مستشفى شَارْلُوتْ تاوْنْ. وفي كلّ مرّة، يطلبون من أهالي وايت ساندْسْ المشاركة فيه. أخبرتنا لوريتّا أنّها تتوقّع أن تُطلب منها المشاركة ذات يوم هي الأخرى. وقد حدّقتُ فيها حينئذ في اندهاش. بعد أن غادرت، انغمستُ أنا والسّيّدة آلان في حديثِ القلب إلى القلب. رويتُ لها كلّ شيء عن السّيّدة توماس والتّوائم وكاتي موريس وفيوليتّا والقدوم إلى الضّيعة الخضراء ومشاكلي في الهندسة و... هل تصدّقين يا ماريلاّ أنّ السّيّدة آلانْ قالت لي إنّها كانت بليدة الذّهن في مادّة الهندسة؟ لا يمكنك تخيّل التّشجيع الذي شعرتُ به عند سماعي لذلك. قدمت السّيّدة ليندْ إلى منزل الكاهن قبل أن أغادره تماما. أتعرفين ما هو النّبأ يا ماريلاّ؟ لقد عيّن المجلسُ الدّراسيّ معلّما جديدا في المدرسة. في الحقيقة، إنّه معلّمة! واسمها الآنسة موريلْ سْتايْسي. أليس اسما رومنسيّا؟ قالت السّيّدةُ ليندْ إنّه لم يسبق أن درّست معلّمةٌ في آفونلي من قبل. وهي تعتبرُ ذلك بِدْعةً خطيرة. ولكنّي أرى في المقابل أنّه من الرّائع أن تكون لنا معلّمة. ولستُ أعرف حقّا كيف سأطيقُ الانتظار خلال الأسبوعيْن القادمين اللّذيْن يفصلانني عن العودة المدرسيّة. إنّي متلهّفة إلى رؤيتها».

(23)
إصابةُ آنْ في مسألة شرف

اضطرّت آنْ إلى أن تكابد الانتظار أكثر من أسبوعين قبل أن تلتقي المعلّمة الجديدة. فبعد أن مضى شهرٌ تقريبا على حادثة مسكّن الأوجاع والكعكة، حان موعدُ المتاعب من جديد، على اختلاف أنواعها؛ كانت أخطاء صغيرة، مثل أن تُفرغ وعاءً من الحليب المقشُود في سلّة كراتِ الغزل في حجرة المؤونة وهي شاردة الذّهن، بدل أن تسكبه في سطل الخنازير، أو أن تمشي على حافّة جسر الحطب، مستغرقةً في حلم من أحلام يقظتها حتّى تسقط في الغدير مباشرة. ولكنّ هذا النّوع من الأخطاء غير جدير بالذّكر بالنّسبة إلى آنْ.

أقامت ديانا باري حفلةً بعد أسبوع من دعوة آنْ إلى تناوُل الشّاي في منزل الكاهن.

«حفلة صغيرة بضيوف تمّ اصطفاؤهم بعناية»، أكّدتْ آنْ لماريلاّ. «فتياتُ صفّنا فحسب».

قضّت الفتيات وقتا ممتعا، دون أن يطرأ أيّ حادث إلى أن انتهيْن من تناول الشّاي. فقد وجدن أنفسهنّ في حديقة باري ضجرات من جميع ألعابهنّ المعتادة ومتأهّبات لاستقبال أيّ إثارة جديدة. وقد تمثّلت هذه الإثارةُ بالنّسبة إليهنّ في لعبة التّحدّي.

كانت لعبةُ التّحدّي هي التّسليةَ العصريّة الدّارجةَ بين صغار آفونلي في تلك الفترة. انتشرتْ في البداية بين الفتيان. ثمّ انتقلتْ بعد ذلك إلى الفتيات. ويمكنُ لجميع الأفعال السّخيفةِ التي اقترفها المُتحدُّونَ خلال ذلك الصّيف في آفونلي أن تملأ كتابا بأكمله.

أوّل الأمر، تحدّتْ كاري سْلُون روبي غيليزْ أن تتسلّق شجرة الصّفصاف العملاقة العتيقة أمام باب البيت الرّئيسيّ، وتبلغ حدّا مرتفعا منها. ورغم رُعب روبي غيليزْ من اليرقات الخضراء التي تحتشدُ في أغصان الشّجرة وخوفِها الشّديد من عقاب أمّها إذا مزّقت فستانَ الموسلين الجديد، فقد تسلّقت الشّجرة برشاقة، مُنتصِرةً على ذلك النّحو في مواجهة التّحدّي ضدّ كاري سْلُونْ.

بعد ذلك، تحدّتْ جوزي بايْ جايْن آندرُوزْ أن تثِب على قدمها اليُسرى، فتطوف الحديقة كلّها دون أن تضع قدمها اليُمنى على الأرض. وذلك ما عزمت جايْن على فعله لولا أنّها استسلمتْ عند الزّاوية الثّالثة. واعترفت بهزيمتها. لقد أعلنت جوزي بايْ عن انتصارها بطريقة مغالية وموغلة في التّشفّي، حتّى إنّ آنْ شيرْلي تحدّتها أن تمشي على السّياج الخشبيّ الذي يحدّ الحديقة من الجهة الشّرقيّة.

يقتضي المشيُ على السّياج الخشبيّ مهارة وتوازُنا أكثر ممّا قد يُشبَّه لمن لم يجرّبه قطّ. لكنّ جوزي باي التي تفتقرُ إلى ما يجعلها شعبيّة بين رفيقاتها، تتمتّع في المقابل بموهبة خاصّة في السّير على الأسْيِجة. لقد وُلدتْ هذه الموهبة معها. ودأبتْ صاحبتها على

تطويرها باستمرار. وهكذا، وثبتْ جوزي بايْ على السّياج. وقطعته باستخفاف واضح، كأنّها تقول إنّه عملٌ تافه لا يستحقّ أن يُدرج في لعبة التّحدّي. تلقّت الفتيات تلك الرّسالة. واضطررن إلى الإشادة بنجاحها. فقد عانيْن من قبل كثيرا في السّير على السّياج. وتكرّرت محاولاتهنّ الفاشلة مرّات كثيرة. وما أن ترجّلتْ جوزي بايْ، ومشَتْ مزهوّة بانتصارها متورّدة الوجنتيْن حتّى وجّهت نظرةً متحدّية إلى آنْ. فردّت عليها آنْ بنفض جدائلها الحمراء إلى الخلف.

«لا أعتبر السّير على سياج واطئ وقصير أمرا رائعا جدّا»، هتفتْ آنْ. «عرفتُ في مدينة مارسيفيلْ فتاة تستطيعُ أن تسير على رافدة السّقف الأفقيّة».

«لا أصدّقكِ»، صاحتْ جوزي. «لا أصدّق أنّه بإمكان أيّ شخص أن يمشي على رافدة السّقف. وعلى أيّة حال، فأنتِ لا تستطيعين ذلك».

«لا أستطيع؟!»، صرخت آنْ بشدّة.

«أتحدّاكِ إذن أن تفعلي ذلك»، قالتْ جوزي بتحدٍّ. «أتحدّاكِ أن تتسلّقي إلى سطح مطبخ باري وأن تسيري على رافدته».

شحُبت آنْ على الفور. ولكن، كان من الواضح أنّ هناك خيارا واحدا أمامها. سارتْ نحو المنزل، حيثُ يستندُ سلّمٌ إلى جدار المطبخ. صاحت جميعُ فتيات الصّفّ الخامس معا «أوه!»، وقد امتزجتْ في أصواتهنّ الإثارة بالفزع.

«لا تفعلي ذلك يا آنْ»، توسّلتْ ديانا. «ستسقطين. وينتهي

أمرك. لا تهتمّي بما تقوله جوزي بايْ. فليس مُنصفا أن يتمثّل التّحدّي في عملٍ خطير إلى هذه الدّرجة».

«يجب أن أقبل التّحدّي. فشرفي على المحكّ»، قالت آن بصوت جادّ. «يجدر بي أن أمشي على تلك الرّافدة يا ديانا أو أهلك وأنا أحاول ذلك. إذا متُّ، فإنّ خاتمي اللّؤلؤيّ لكِ».

تسلّقتْ آنْ السّلم في غمرة الصّمت المُطبق والأنفاس المكتومة. أدركت الرّافدةَ الأفقيّة. ثمّ اعتدلت. وتحقّقتْ من توازنها. فجأة، شعرت بإحساس غامض ومُربِكٍ يدفعُها إلى الوعي بارتفاعها الشّاهق. كما أنّها فكّرت أنّ المشي على الرّوافد الخشبيّة ليس نشاطا ينفعُ فيه الخيال. وهكذا، نجحت في اجتياز بعض الخطوات قبل أن تقع الكارثة. كانت بصدد التّقدّم قليلا عندما ترنّحت، وفقدت توازنها. ثمّ سقطتْ عن السّطح الذي حَمَتْهُ الشّمسُ لتقع بين العرائش المتسلّقة في الأسفل. ودفعة واحدة، دوّت الصّرخةُ الجماعيّةُ عاليا.

لو سقطت آنْ من الجهة التي صعدت منها، لكانت ديانا قد أصبحت الوريثة الشّرعيّة لخاتم آنْ ذي الخُرَز اللّؤلؤيّة. ولكنّها سقطت -ولحسن حظّها- من الجهة الأخرى، حيثُ ينبسطُ السّطح الخشبيُّ ويميل في اتّجاه الشّرفة عند مستوى غير بعيد عن الأرض. وعلى هذا النّحو، كان سقوطُ آنْ أقلّ خطورة دون شكّ. عندما اندفعتْ ديانا وبقيّةُ الفتيات فزعات -باستثناء روبي غيليز التي تجذّرتْ في الأرض وانفجرت باكية بحدّة- وجدن آنْ ممدّدةً على أكوام العرائش المتكسّرة، هامدة وشاحبة اللّون تماما.

«هل متِّ يا آنْ؟»، صاحت ديانا وهي تجثو على ركبتيْها. «آه يا آنْ! عزيزتي آنْ! رُدّي عليّ ولو بكلمة واحدة. هل متِّ؟».

ابتهجت الفتياتُ على نحو عظيم لا يمكنُ وصفه، وخصوصا جوزي باي التي تصوّرت رغم افتقارها إلى الخيال مستقبَلها الذي تُعيَّرُ فيه باعتبارها البنت التي تسبّبت في مقتل آنْ شيرلي المأساويّ وهي في ريعان شبابها. فقد جلست آنْ، وهي تشعر بالدّوار. وأجابت آنْ في نوع من الارتياب:

«لا يا ديانا. لم أمتْ. ولكن، يبدو أنّي سأفقدُ وعيي».

«أين؟»، سألتها كاري سْلُون مُنتحبة. «أين يا آنْ؟».

وقبل أن تتمكّن من الإجابة، أطلّت السّيّدةُ باري. وما أن لمحتها آنْ حتّى حاولت النّهوض على قدميها. ولكنّها تهاوت على الأرض من جديد، مطلقة صرخة ألم حادّة.

«ماذا حدث؟ أين آذيتِ نفسكِ؟»، سألت السّيّدةُ باري.

«كاحلي!»، شهقت آنْ. «ديانا، ابحثي عن أبيك رجاء. واطلبي منه أن يصطحبني إلى البيت. أعرف أنّي لن أتمكّن من المشي. ولن أستطيع الوثب على قدم واحدة لمسافة بعيدة. إذ لم تستطع جاينْ أن تتمّ دورة واحدة حول الحديقة».

كانت ماريلاّ واقفةً في البستان، تقطفُ بعض ثمار التّفّاح عندما رأت السّيّد باري وهو يجتاز جسر الحطب، ويتقدّم عبر المرتفع، بينما تجلسُ السّيّدةُ باري إلى جانبه وخلفهُما كوكبةٌ من الفتيات الصّغيرات. كان يحملُ آنْ بين ذراعيْه، ورأسُها مُستند في وهن إلى كتفه.

في تلك اللّحظة، شعرت ماريلاّ بحقيقة مّا تبدّت لها كأنّها إلهامٌ قلبيّ. لقد أدركتْ ما تعنيه آنْ بالنّسبة إليها حقّا، عندما أحسّت بطعنة الخوف تثقبُ قلبها فعلا. كانت في ما مضى مستعدّةً للاعتراف بأنّها مُعجبة بآنْ، أو إنّ قلبها متعلّق بها. أمّا الآن، بينما تركضُ في هلع على امتداد المنحدر، فقد تيقّنت من أنّ الصّغيرة أصبحت أغلى الكائنات الأرضيّة على قلبها.

«سيّد باري! ما الذي حدث لها؟»، شهقت ماريلاّ وقد شحُب لونُها وارتعش جسدُها تماما. وبدت في صورة لم يرها أحد فيها منذ سنوات بعيدة.

أجابتها آنْ بنفسها، وهي تحاول رفع رأسها:

«لا تهلعي يا ماريلاّ. كنتُ أمشي على رافدة السّطح. فسقطت. أظنّ أنّي لويتُ كاحلي. ومع ذلك، فلننظر إلى المسألة من زاوية إيجابيّة. كان يمكن أن أكسر عنقي».

«كان عليّ أن أدرك أنّكِ ستُقحمين نفسك في المتاعب عندما وافقتُ على ذهابك للحفلة»، قالت ماريلاّ بنبرة اطمئنان لم تخل من حدّة وتجهّم».

«خذها إلى الدّاخل من فضلك يا سيّد باري. مدّدها هنا على الأريكة. الرّحمة ياربّ! لقد أغمي عليها».

لم تكن ماريلاّ مخطئة. فبسبب الآلام الرّهيبة التي شعرت بها آنْ، أغمي عليها. وبذلك تحقّقت أمنيةٌ أخرى من أمنياتها الكثيرة.

نودي على ماثيو بسرعة من حقل الحصاد. وأُرسل في طلب

الطّبيب الذي وصل في الوقت المناسب. وأعلن أنّ الحالة أخطر ممّا بدت لهم أوّل الأمر. فقد كسرت آنْ كاحلها.

عندما اتّجهت ماريلاّ في تلك اللّيلة إلى الغرفة الشّرقيّة، حيث تمكث البنت الصّغيرة الشّاحبة، استقبلها صوتٌ كئيب من السّرير:

«ألا تأسفين لحالي يا ماريلاّ؟».

«إنّكِ مسؤولة عمّا حدث»، ردّت ماريلاّ، وهي تسدلُ السّتائر وتشعل المصباح.

«ولهذا السّبب تحديدا يجبُ أن تأسفي لحالي»، أردفتْ آنْ. «فمجرّد التّفكير في أنّي المسؤولة عمّا حدث لي يجعل الأمر أشدّ عسرا. لو كان بإمكاني إلقاءُ اللّوم على شخص آخر، لكنتُ الآن في حال أفضل. لو تحدّاكِ شخصٌ مّا أن تسِيري على رافدة السّقف، ماذا كنتِ ستفعلين يا ماريلاّ؟».

«كنتُ لأسند قدميّ جيّدا إلى الأرض، دون أن أبالي بتحدّيه التّافه ذاك. أيّ تفاهات هذه؟!».

تنهّدت آنْ. ثمّ قالتْ:

«ولكنّكِ امرأة ذاتُ عزم يا ماريلاّ. وأنا لا أشبهكِ في هذه المسألة. شعرتُ أنّي لن أطيق سخرية جوزي بايْ منّي، وأنّها سوف تظلّ تنعقُ في وجهي وتذكّرني بفشلي ذاك طيلة حياتي. وأعتقدُ أنّي نلتُ عقابا شديدا حتّى إنّك لستِ في حاجة إلى أن تفرطي في الغضب عليّ. اكتشفتُ أخيرا يا ماريلاّ أنّ الإغماء ليس تجربةً رومنسيّة ولطيفة. بالإضافة إلى ذلك، آلمني الطّبيبُ على نحو لا

يمكنُ وصفُه عندما راح يُعالجُ كاحلي. وقال إنّي لن أقدر على الحركة طيلة سبعة أسابيع. آه، سأفوّتُ على نفسي فرصة لقاء المعلّمة الجديدة. وعندما أعودُ أنا إلى المدرسة، ستكفّ عن كونها معلّمة جديدة. كما أنّ غيلْ... أقصدُ أنّ جميع التّلاميذ في الصّفّ سيتفوّقون عليّ. يا لي من مخلوقة بائسة! ومع ذلك، سأحاول أن أكابد الأمر بشجاعة إذا لم تغضبي عليّ يا ماريلاّ».

«حسنا، حسنا. لستُ غاضبة»، ردّت ماريلاّ. «لا شكّ في كونك طفلة تفتقرُ إلى الحظّ. ولكن مثلما قلتِ للتّوّ، ينبغي عليك أن تكابدي الأمر بشجاعة. والآن، حاولي تناول القليل من الطّعام».

«أليس من حسن حظّي يا ماريلاّ أنّي أملكُ خيالا شاسعا؟ سوف يساعدني ذلك في أن أشقّ طريقي في الحياة. تُرى ماذا يفعل النّاس الذين لا يملكون خيالا عندما تُكسر عظامهم؟».

كانتْ آنْ على حقّ في مباركتها لمخيّلتها مرّاتٍ عديدة خلال تلك الأسابيع السّبعة المضجرة التي تلت حادثتها. ورغم ذلك، فهي لم تكتفِ بالاعتماد على الخيال فحسب. إذْ حظيتْ بزياراتٍ كثيرة. ولم يمُرَّ يومٌ واحدٌ دون أن تُطلّ فتاةٌ أو اثنتان من زميلات الدِّراسة اللّواتي كنّ يُقبلْن عليها محمّلاتٍ بالأزهار والكتُب وجميع الأنباء والتّفاصيل التي تحدُث في عالم آفُونلي اليافع.

«لقد كان الجميعُ لطفاء وطيّبين معي يا ماريلاّ»، قالتْ آنْ، وهي تتنهّدُ بسعادة يومَ تمكّنت من المشيء أخيرا، وهي تعرجُ. «ليس لطيفا على الإطلاق أن يظلّ المرءُ طريح الفراش. ولكن، هناك

جانبٌ إيجابيّ في المسألة. إذ تتّضحُ للمرء عظمةُ أصدقائه ولطفهم. حتّى النّاظر بيلْ زارني في مرضي يا ماريلاّ! وقد اتّضح أنّه شخص لطيف. طبعا، روحه ليست شقيقة لروحي. ومع ذلك، فإنّه لطيف وكيِّسٌ. وأنا آسفة لأنّي انتقدتُ طريقته في الصّلاة. بل صرتُ متيقّنة من أنّه يصلّي بصدق وخشوع ومن أعماق روحه. إنّ اعتياده على أداء الصّلاة هو ما شبّه لي أنّه بصدد الافتعال. أحسبُ أنّ بإمكانه أن يتجاوز تلك الرّتابة إذا بذل القليل من الجهد. ولهذا السّبب تحديدا، حاولتُ أن ألمّح إلى الأمر. وقلتُ له إنّي أسعى دوما إلى جعل صلواتي الصّغيرة والخاصّة مُثيرة للاهتمام. لقد روى لي قصّة كسره لكاحله عندما كان صبيّا. وقد عسُر عليّ تخيّل السّيّد بيلْ وهو يافعٌ صغير. فمخيّلتي كذلك تملكُ حدودا. وفي كلّ مرّة كنتُ أحاولُ فيها أن أتصوّره فتى صغيرا، يلوحُ أمامي بسالفيْن أشيبيْن ونظّارات، شبيها بما يبدو عليه في مدرسة الأحد ولكن في صورة مصغّرة. في المقابل، ليس هناك ما هو أسهل من تخيّل طفولة السّيّدة آلانْ. تصوّري يا ماريلاّ، لقد زارتني أربع عشرة مرّة. أليس هذا ممّا يفتخرُ به المرءُ؟ فزوجة الكاهنُ تملكُ مشاغل كثيرة في نهاية المطاف. إنّها امرأةٌ تنشرُ البهجةَ والمرح من حولها. وهي لا تقولُ لي إنّ الذّنب ذنبكِ أو تلمّحُ إلى ضرورة أن أتعلّم الدّرس من هذه الحادثة لأصير في المستقبل فتاة صالحة. هذا ما قالتهُ لي السّيّدةُ ليندْ عندما زارتني. قالت ذلك على نحوٍ جعلني أشعرُ بأنّها كانت لترجو حقّا أن أصير فتاة صالحة، لكنّها لا تصدّق ذلك فعلا. أمّا جوزي باي التي زارتني كذلك، فقد ألزمتُ نفسي على أن أستقبلها بأدب. فهي تشعرُ بالأسف دون

شكّ على تحدّيها لي أنْ أسيرَ على رافدة السّقف. ولو متُّ حينئذ لكان عليها أن تحمل عبئا ثقيلا أسود على عاتقها طيلة حياتها. بالنّسبة إلى ديانا، فقد ظلّتْ صديقة وفيّة كعادتها. ودأبت على زيارتي كلّ يوم. ولم تتركني لوحشة العزلة. ولكنّي الآن سعيدة جدّا بعودتي إلى المدرسة. فقد سمعتُ أخبارا رائعة عن المعلّمة الجديدة. تقول جميعُ الفتيات إنّها رائعة على نحو مثاليّ. وتقول ديانا إنّ لديها شعرا مجعّدا هو الأجمل على الإطلاق وعينيْن فاتنتيْن جدّا. وهي أنيقة الملبس. وترتدي فساتينَ ذاتِ أكمام فضفاضة أكثر ممّا سبق للعين أن رأتْ في آفونلي كُلِّها. ومرّةً كلّ أسبوعين، خلال أمسية الجمعة، تُخصّصُ الحصّةَ للإلقاء. وعلى كلّ تلميذ أن يشارك بمقطع شعريّ أو يشارك في حوار دراميّ. أوه، يا ماريلاّ. إنّ مجرّد التّفكير في الأمر يشعرني بالرّوعة. عبّرت جوزي بايْ عن كرهها لحلقات الإلقاء تلك. ولكنّ السّبب واضح وجليّ. فجُوزي تملك مخيّلة فقيرة ومتواضعة. أعلمتني ديانا أنّها بصدد الإعداد لحوار دراميّ عنوانه «زيارة صباحيّة» رفقة روبي غيليز وجايْنْ آندرُوزْ. وذلك من أجل أمسية الجمعة القادم. أمّا بالنّسبة إلى أمسيات الجمعة التي لا إلقاء فيها، فإنّ الآنسة سْتايْسي تصطحبُ جميع التّلاميذ في درس ميدانيّ في الغابة. وهناك يقومون بدراسة نباتات السّرخس والأزهار والعصافير. كما أنّهم يؤدّون تمارين التّربية البدنيّة صباحا ومساء. تقول السّيّدةُ ليندْ إنّها لم تسمع بمثل هذه الغرائب من قبل. والسّبب كلّه عائدٌ إلى تعيين معلّمة في المدرسة. أمّا أنا، فأرى ذلك رائعا. وأعتقدُ أنّي سأجد في الآنسة ستايْسي روحا شقيقة».

«هناك أمر واحد واضحٌ للعيان يا آنْ»، قالت ماريلاّ. «وهو أنّ سقوطك عن سطح عائلة باري لم يُصب لسانكِ بأيّ شيء على الإطلاق».

(24)

الآنسة ستايْسي وتلاميذُها ينظّمون حفلاً موسيقيّا

كان شهرُ تشرين الأوّل قد عاد من جديد عندما صارت آنْ جاهزة للعودة إلى المدرسة. وكان مُهيبا بظلاله الذّهبيّة والحمراء وصباحاته اليانعة التي يغمرُ فيها الضّبابُ الرّقيق مجاري الوديان، كأنّ أرواح الخريف قد سكبتهُ هناك كي تجفّفه الشّمس من ألوانه العديدة؛ البنفسجيّة واللّؤلؤيّة والفضّيّة والورديّة والزّرقاء الدّاخنة. كان النّدى كثيفا حتّى إنّ الحقول ما فتئت تلمعُ كأنّها فرُشٌ فضّيّة، بينما تهتزُ أوراق الأشجار المتساقطة في الهواء، ثمّ تتكدّسُ أكواما بين الأدغال. أمّا ممرّ البتولا فقد تحوّل إلى قبّة صفراء، ذبلت فيها نباتات السّرخس ومال لونها إلى البنّيّ. انتشر في الجوّ عبيرٌ زكيٌّ ألهم قلوب الصّبايا المتبخترات في اتّجاه المدرسة. كانت العودةُ إلى المقعد البنّي حيثُ تجلسُ ديانا بهجة عظيمة بالنّسبة إلى آنْ. وما أن شرعت روبي غيليزْ في إطلاق الإيماءات من مقعدها، وراحت كاري سْلُون توزّع رسائلها في شكل قصاصات صغيرة وطفقتْ جوليا بيلْ تهرّب العلكة من تحت مقعدها، حتّى استنشقتْ آنْ نفَس السّعادة، وسنّنتْ قلمها وانهمكت في ترتيب

الصّور التي ستزيّن بها مقعدها. لا شكّ أنّ الحياة قد استعادتْ إثارتها القديمة.

وجدتْ آنْ في المعلّمة الجديدة صديقةً أخرى حقيقيّة وخدومةً. فقد كانت الآنسةُ ستايْسي شابّة يافعة لطيفة ولامعة، تملكُ موهبة خاصّة في الفوز بعواطف تلاميذها واستدراجهم إلى إفضل صورهم الذّهنيّة والأخلاقيّة. وفي هذا الجوّ الرّائع، تفتّحت زهرةُ آنْ إذن. وظلّت تعود إلى ماثيو المعجبِ بها وماريلاّ المنتقدة على الدّوام أخبارا سارّة عن عمل المدرسة وأهدافها.

«أحبُّ الآنسة ستايْسي بكلّ ما أوتيتُ من عاطفة في قلبي. إنّها مثال السّيّدة المحترمة. كما أنّ لها صوتا عذبا. وكلّما تلفّظتْ باسمي، أشعرُ، على نحو غريزيّ، أنّها تضعُ سكونًا في آخره. كانت حصّة هذا المساء خاصّة بالإلقاء. وليتكِ كنتِ هناك يا ماريلاّ لتُصغي إليّ وأنا ألقي قصيدة «ماري، ملكة اسكتلندا». لقد سكبتُ روحي فيها! وعندما كنتُ راجعة إلى البيت، أخبرتني روبي غيليزْ أنّي جمّدتُ الدّم في عروقها حين أدركتُ السّطر الذي يقول: «والآن، لذراع أبي، قالتْ. قلبي يقول الوداع»».

«حسنا، يمكنك أن تقرئيها عليّ في الإسطبل خلال هذه الأيّام»، اقترح ماثيو.

«سأفعل ذلك دون شكّ. ولكنْ، لا أعتقد أنّي سألقيها على نحو جيّد. إذ لن يكون الأمرُ مثيرا للحماس مثلما هو الحال عندما تصغي إليك المدرسة كلّها، وهي تكتمُ أنفاسها متلهّفة إلى الكلمات

تنسابُ من فمك. أظنُّ أنّي لن أتوصّل إلى تجميد الدّم في عروقك».

«تقول السّيّدةُ ليندْ إنّ الدّم قد تجمّد في عروقها يوم الجمعة الماضي، وهي ترى الأولاد يتسلّقون الأشجار العالية في تلّة السّيّد بيلْ، ويفتّشون عن أعشاش الغربان»، قالت ماريلاّ. «أستغربُ حقّا كيف تشجّعهم الآنسةُ ستايْسي على ذلك».

«ولكنّنا احتجنا إلى عشّ غراب من أجل درس علوم الإحياء»، ردّتْ آنْ مُوضّحة. «كان ذلك خلال أمسية الدّرس الميدانيّ. يا له من درس رائع يا ماريلاّ! أتعرفين؟ تشرحُ الآنسة ستايْسي كلّ شيء على نحوٍ جذّاب. يجدر بنا أن نكتب نصوصًا وجيزةً عن الأمسيات الميدانيّة. وأنا أكتبُ أفضلها على الإطلاق».

«إنّه لمن الغرور والتّكبّر أن تقولي هذا عن نفسك. من الأفضل لك أن تتركي مثل هذه الأحكام إلى المعلّمة».

«ولكنّي أنقل لكِ ما قالته هي يا ماريلاّ. كما أنّي لم أغترّ بذلك فعلا. كيف أفعل، وأنا خرقاء تماما في مادّة الهندسة؟ ومع ذلك، فقد بدأت أشقّ بعض الخطوات في شعابها الآن. إنّ الآنسة ستايْسي تجعلها تبدو واضحة وبسيطة. ولكنْ سأظلّ عاجزة عن التّميّز فيها. مجرّد التّفكير بالأمر يدفع المرء إلى التّواضع. أمّا الكتابة الإنشائيّة، فأنا أعشقها تماما. كما أنّ الآنسة ستايْسي تسمحُ لنا غالبا باختيار مواضيع التّأليف. سنكتبُ في الأسبوع القادم مواضيع عن شخصيّة شهير ذائع الصّيت. وليس هناك أصعبُ من انتقاء شخصيّة شهيرة ومؤثّرة من بين كلّ أولئك الذين عاشوا في هذا

العالم. أليس من المذهل أن يكون المرء مميّزا، ثمّ يحظى بالكتابة عنه بعد موته. آه، كم أودّ أن أكون كذلك! أعتقدُ أنّي سأصبحُ ممرّضة عندما أكبر. وسأذهب مع الهلال الأحمر إلى ساحات المعارك لأكون رسولة رحمة. سوف يكون ذلك طبعا إذا لم أغادر إلى بلاد أخرى باعتباري مُبشّرة بالرّبّ. وسوف يكون الأمر رومنسيّا جدّا. لكن يحتاج المرءُ إلى أن يكون صالحا جدّا حتّى يصير مُبشّرا. وتلك عقبة كبيرة في طريقي. صرنا نمارس تمارين التّربية البدنيّة كلّ يوم كذلك. وهي تجعل المرء رشيقا وتحفز قدرته على الهضم».

«تحفّز الهراء!»، هتفت ماريلاّ، وهي تعتقدُ أنّ كلّ ما قالته آنْ على لسانها ليس سوى لغو لا قيمة له.

انطفأ بريقُ الأمسيات الميدانيّة وحلقات الإلقاء وتمارين التّربية البدنيّة إزاء مشروع جديد اقترحتهُ الآنسةُ ستايْسي خلال شهر تشرين الثّاني. فقد اقترحتْ أن ينظّم تلاميذُ المدرسة حفلا موسيقيّا في قاعة الاحتفالات، مساء عيد الميلاد، وأن تجمع مداخيل الحفل من أجل غاية نبيلة، وهي اقتناء علم للمدرسة. تحمّس التّلاميذُ فرادى وجماعات لهذه الفكرة. وانطلق الإعدادُ لها على الفور.

وكانت آنْ من بين أكثر المشاركين حماسا. فرغم اعتراض ماريلاّ على الفكرة واعتبارها لها مجرّد حماقة لا أكثر، فإنّها انغمست ملء روحها وقلبها في المشروع.

«لا يعدو الأمرُ أن يكون حشوا لرؤوسكم بالسّخافات. إنّها تهدر وقتا ثمينا كان ينبغي أن يخصّص للدّروس»، قالتْ ماريلاّ

مُتذمِّرةً. «لستُ ممّن يشجّع الأطفال على تنظيم الحفلات الموسيقيّة والاستغراق في التّدريبات. فذلك يجعلهُم مغرورين، وقحين ومتسكّعين بلا جدوى».

«ولكن فكّري ولو قليلا في نُبل هدفنا. سيجذّرُ العلمُ الرّوح الوطنيّة فينا يا مالاريلاّ».

«يا للمكر! ليس فيكم أيّ ذرّة للوطنيّة. إنّما أنتم راغبون في الاستمتاع بوقتكم فحسب».

«حسنا، إذا استطاع المرء أن يقرن الوطنيّة بالمتعة، فما العيبُ في ذلك؟ من الرّائع طبعا أن نحظى بحفل موسيقيّ. سنحصل على ستّ جوقات، بالإضافة إلى ديانا التي ستكون المغنّية الرّئيسيّة. بالنّسبة إليّ، فإنّي أشاركُ في مشهدين دراميّيْن: «المجتمع ضدّ النّميمة» و«ملكة الجنّيّات». وسيُؤدّي الأولادُ مشهدًا حواريّا كذلك. وبعدهم، ألقي مقطعيْن شعريّيْن. كلّما فكّرتُ بالأمر تملّكتني الرّجفة يا ماريلاّ. في الختام، سأعرضُ أنا وديانا وروبي مشهدًا راقصا عنوانه «الإيمان، الأمل والإحسان». ومن أجله، سنرتدي أثوابا بيضاء ونسدل شعورنا. سأتقمّصُ دور الأمل. وسأقف في مكاني ثابتة بيديْن مشبّكتيْن، وعيناي راسختان في الأعلى. سأذهب إلى العلّيّة لأتمرّن على إنشاد المقطوعات الشّعريّة. لا تفزعي رجاء يا ماريلاّ إذا سمعتني أئنُّ بكلّ جوارحي أثناء القراءة. أتعرفين؟ إنّه من الصّعب جدّا التّوصّل إلى تحقيق أنين فنّيّ. غضبت جوزي بايْ كثيرا لأنّها لم تفز بالدّور الذي تُريده في

المشاهد الدّراميّة. رغبتْ في أن تكون ملكة الجنّيات. ولكنّ الأمر سخيف جدّا. إذ كيف تكون ملكة الجنّيات بدينة مثل جوزي؟ ألا ينبغي أن تكون نحيلة؟ ستتكفّل جايْن آندروزْ بتقمُّص شخصيّتها. وسأكون أنا إحدى وصيفاتها. تقول جُوزي إنّ جنّيّة حمراء الشّعر مسألة سخيفة لا تُصدّق، تماما مثل الجنّيّة البدينة. لكنّ ما تقوله جوزي هو آخر همّي في الحقيقة. سأضعُ على شعري إكليلا من الورود البيضاء. وأستعير من روبي غيليزْ نعْلها لأنّي لا أملك أيّ نعل. وكما تعلمين يا ماريلاّ، يجبُ أن ترتدي الجنّيّةُ نعلا، لأنّ المرء لا يستطيع أن يتخيّل جنّيّة ترتدي حذاء. أليس كذلك؟ وخصوصا إذا كانت مقدّمة الحذاء مكسوّة بالنّحاس. سنزيّنُ القاعةَ بعرائش التّنّوب وأوراقِ الأشجار الأخرى. وسنضعُ ورودا ورقيّة في ما بينها. ثمّ نسير بعد جلوس الحضور في موكب مُشكَّل من أزواج متسلسلة، بينما تعزفُ إيما وايتْ لحنا عسكريّا على الأورغن[1]. آه يا ماريلاّ! أعرفُ أنّك لستِ متحمّسة للحفل مثلي. ولكنْ ألا تأملين أن يبرز نجمُ صغيرتكِ آنْ؟».

«كلّ ما أرجوه هو أن تُحسني التّصرّف. وسأكون سعيدة عندما تنتهي كلّ هذه الجلبة. فتهدئي قليلا. فأنت الآن غير مفيدة في شيء، بما أنّ رأسك محشوٌّ بالحوارات والقصائد والأنين واللّوحات الرّاقصة. أمّا بالنّسبة إلى لسانك، فمن معجزات السّماء أنّه لم يهترئ بعد».

(1) آلة موسيقيّة قديمة نسبيّا تعود إلى القرن الثّالث قبل الميلاد. كانت تعزف في اليونان القديمة وروما. ثمّ اقترنت بعد ذلك بالكنائس.

تنهّدتْ آن. واتّجهت إلى الفناء الخلفيّ حيثُ يشرقُ من بين أغصان الحور الجرداء قمرٌ صغيرٌ متوهّج، يطلّ من سماء غربيّة خضراء بلون التّفّاح، وحيثُ ينهمكُ ماثيو في قطع الحطب. جلستْ على كومة منه. وانطلقت في الحديث عن الحفل الموسيقيّ، وهي متيقّنة هذه المرّة على الأقلّ من أنّ سامعَها يُشاركها حماسها ويتعاطف معها.

«حسنا، أعتقدُ أنّه سيكونُ حفلا جيّدا جدّا. وأتوقّع أنّكِ ستُؤدّين أدواركِ على نحو مُتقَن»، قال، وهو يبتسمُ للوجه الصّغير المفعم بالحيويّة. فردّت آنْ له الابتسامة. إنّهما أعظمُ صديقيْن. وكم استحسن ماثيو حظّه وشكر ربّه مرّات كثيرة في سرّه لأنّه لم يُكلّف بالإشراف على تربيتها بنفسه. إنّها مهمّةُ ماريلاّ الحصريّة دون شكّ. ولو كان الأمرُ خلاف ذلك، لغرق في الحيرة وظلّ مُمزَّقا بين ما يرنُو إليه قلبُه وما يحتّمهُ عليه الواجبُ. أمّا في هذه الحال، فبإمكانه أن يدلّل آنْ -على حدّ عبارة ماريلاّ- مثلما يشاء. ولكن، ليس ذلك اتّفاقا سيّئا في نهاية المطاف. فبعضٌ من التّقدير والمحبّة المعلَنة يُحدثان أحيانا خيرا كثيرا يُساوي ما تحقّقُه كلُّ إجراءات التّربية الحازمة في العالم.

(25)

إصرارُ ماثيو على الأكمام الفضفاضة

اضطُرّ ماثيو إلى أن يُكابد تلك الدّقائق العشر. دخل المطبخ عند الغسق البارد والرّماديّ ليوم من أيّام كانون الأوّل. جلس على الصّندوق الخشبيّ في الرّكن حتّى ينزع عنه جزمته الثّقيلة. وإذا به ينتبه إلى آنْ ومجموعة من رفيقاتها في المدرسة، وهنّ يتمرّنَّ على مشهد ملكة الجنّيّات. وسرعان ما اجتمعن في الرّواق مُتّجهات إلى المطبخ، ضاحكاتٍ مرحاتٍ وغافلات تماما عن رؤية ماثيو الذي تكوّر على نفسه مُتراجعا إلى ظلّ الصّندوق الخشبيّ في الخلف، وهو يحمل جزمة في يدٍ وأداةَ خلع الجزم في الأخرى. وبينما انشغلت الفتياتُ بارتداء قبّعاتهنّ ومعاطفهنّ، وهنّ يثرثرن عن الجنّيّات والحفل الموسيقي، ربض ماثيو في مكانه وتأمّلهنّ بارتباك طيلة تلك الدّقائق العشر.

وقفتْ آن في وسطهنّ، وهي تُشاركهنّ بريق الحماس في العينيْن ونشاطهنّ النّابض بالحياة. ورغم ذلك، فقد شعُر ماثيو فجأة بأنّ شيئا مّا فيها يجعلها مختلفة عن صديقاتها. وما أقلقهُ في الحقيقة هو شعوره بأنّه ما كان ينبغي لذلك الاختلاف أن يوجد. تملكُ آنْ وجها أشدّ إشراقا منهنّ، وعينيْن أكثر اتّساعا ولمعانا وملامحَ أكثر

دقّة -فحتّى ماثيو الخجول، قليلُ الملاحظة تعلّم كيف يقتنصُ تلك التّفاصيل- ولكنّ الاختلاف الذي ضايقه لم يكن في أيّ واحدة منها. فما هو إذن؟

ظلّ هذا السّؤال يلحّ على ماثيو بلا هوادة بعد أن غادرت الفتيات وتقدّمنَ متشابكات الأيدي على امتداد المسلك المكسوّ بالجليد وانصراف آنْ إلى كتبها. وطبعا، كان يعلم جيّدا أنّه لن يستطيع أن يتحدّث في الأمر إلى ماريلاّ التي ستطلق على الأرجح زفيرا مفعما بالازدراء، ثمّ تقول إنّ الاختلاف الوحيد الذي يمكنُ ملاحظته بين آنْ وبقيّة الفتيات هو أنّهنّ يمسكن من حين إلى آخر ألسنتهنّ، فيما لا تفعل هي ذلك مطلقا. وهذا ما لم يكن يمثّل في نظر ماثيو مساعدة حقيقيّة.

لجأ ماثيو في ذلك المساء إلى غليونه، مُستعينا به في تفحّص الأمر. وبعد ساعتيْن من التّدخين والتّأمّل العميق، أدرك ماثيو حلاّ لمشكلته. كانتْ آنْ مُختلفة عن بقيّة الفتيات في لباسها. وكلّما استغرق في التّفكير أكثر، تبيّن له أنّها لم تلبس قطّ على النّحو الذي يشبه أزياء الفتيات الأخريات، منذ أن جاءت إلى الضّيعة الخضراء. فقد حرصتْ ماريلاّ دوما أن تظلّ ملابسها بسيطة، غامقة الألوان وذات طراز واحد. وكان ماثيو لا يعرف الكثير عن عالم الأزياء، إلاّ أنّ معرفته الضّئيلة لم تمنعه من ملاحظة الاختلاف الجليّ بين أكمام فساتين آنْ وأكمام الأخريات. استحضر في ذاكرته مشهد البنات في تلك الأمسية، وهنّ يتحلّقن حولها مُنشرحاتٍ بفساتين حمراء،

زرقاء، ورديّة وبيضاء. وتساءل في سرّه عمّا يدفع ماريلاّ إلى الإصرار على أن يكون ملبس آنْ بسيطا جدّا وموغلا في الرّصانة.

طبعا، لا شكّ أنّ المسألة مقبولة. فماريلاّ تعرفُ هذه المسائل على نحو أفضل. كما أنّها هي المسؤولة عن تربية آنْ. ولا شكّ أنّها تملكُ حافزا وجيها لم يستطع هو في المقابل تبيُّنه. ومع ذلك، لا ضير في أن تملك البنيّةُ فستانا واحدا جميل ومُشرقا مثل تلك الفساتين التي ترتديها دوما ديانا باري.

وهكذا، قرّر ماثيو اقتناء فستان جديد لآنْ، على ألاّ يُعتبر ذلك اقتحاما لمجال لا يخصّه. فتذرّع بعيد الميلاد الذي سيحلّ بعد أسبوعيْن. فوجد فيه مناسبة مواتية ليقرن بها تلك الهديّة. وما أن استقرّ رأيه على هذا، أطلق نفس ارتياح وأزاح عنه غليونه. ثمّ ذهب إلى النّوم، بينما فتحتْ ماريلاّ جميع الأبواب قصد تهوئة المنزل.

وفي مساء اليوم التّالي، قصد ماثيو كارمودي كي يقتني الفستان. كان مصمّما على تجاوز أعسر ما في الأمر والانتهاء منه دفعة واحدة. فهذه المهمّة تُثقل عليه دون شكّ. إذ يستطيع ماثيو أن يشتري أشياء كثيرة بيُسر شديد. بل يمكنه أن يثبتَ أنّه بارع في ذلك ومُساومٌ جيّد. أمّا بالنّسبة إلى شراء فستان لبنت صغيرة، فقد كان واعيا بأنّه سيخضعُ لسلطان صاحب المحلّ.

بعد تردُّد كبير، عزم ماثيو على الذّهاب إلى متجر صامويل لوسُون بدل متجر ويليام بليرْ. اعتادت عائلة كاثبرتْ أن تقتصر على متجر ويليام بلير. وذلك ممّا يندرج في مبادئهم الخاصّة التي

تضمُّ ارتياد الكنيسة البروتستانتيّة والتّصويت للمحافظين وما إلى ذلك. ولكن دأبت ابنتا ويليام بليرْ على استقبال الزّبائن هناك. ورغم ارتباك ماثيو الشّديد في تعامله معهما، إلاّ أنّه كان قادرا على تدبّر أمره لو كان مدركا على نحو دقيق لما يريده. أمّا في مثل حاله تلك التي تقتضي أن يطرح أسئلة ويستوضح أشياء يجهلها في واقع الأمر، فإنّه في حاجة إلى رجل يقفُ خلف منضدة المتجر. وهذا ما دفعه إلى الذّهاب إلى متجر لوسون، حيث يمكنه أن يتعامل مع صامويل أو ابنه.

يا للأسف! لم يكن ماثيو على علم بأنّ تجارة صامويل قد ازدهرت مؤخّرا، ممّا جعله يوظّف بائعة جديدة في متجره. وهي ابنةُ أخت زوجته؛ شابّة مفعمة بالحيويّة والنّشاط، ذاتُ عينيْن بنّيّتيْن واسعتيْن ونشيطتيْن. ولها ابتسامة عريضة فاتنة. كانت أنيقة جدّا ـ ترتدي ملابس نُسّقت على نحو ذكيّ. وفي يديها ترنُّ أساور كثيرة أثناء حركتها. ارتبك ماثيو تماما ما أن رآها داخل المحلّ. وهجم عليه مشهدُ تلك الأساور دفعة واحدة.

«كيف أستطيعُ مساعدتك يا سيّد كاثبرتْ؟»، سألت الآنسةُ لوسيلا هاريسْ في مجاملة، وهي تنقرُ المنضدة بكلتا يديْها.

«هل يوجد لديكم أيّ، أيّ.. أيّ.. حسنا، أقصدُ مجرفة حدائق؟»، هكذا تلعثم ماثيو.

بدتْ المفاجأةُ واضحةً على ملامح الآنسة هاريسْ، وهي تتلقّى طلبا لمجرفة حدائق في منتصف شهر كانون الأوّل.

«أعتقد أنّ لدينا مجرفة أو اثنتيْن متبقّيتيْن. ولكنّهما في الأعلى مع الحطب. سأذهبُ وأتثبّتُ من ذلك».

وأثناء غيابِها، حاول ماثيُو أن يتجلّدَ ويستجمع نُثار شجاعته من أجل محاولةٍ أخرى. وعندما رجعت الآنسةُ هاريسْ حاملةً المجرفة، وسألته بمرح: «أيّ شيء إضافيّ يا سيّد كاثبرتْ؟»، كان هو قد استمسك بكلّ جرأته، وقال:

«حسنا، بما أنّك قد سألتِني، أظنّ أنّي أرغبُ في... قد أشتري... ربّما... بعض البذور».

كانت الآنسةُ هاريسْ قد سمعتُ من قبل أنّ ماثيو كاثبرتْ رجلٌ غريبُ الأطوار. ولكنّها استخلصتْ في تلك اللّحظة أنّه مجنون تماما.

«إنّنا نبيع البذور في الرّبيع فحسب»، قالت في استعلاء. «ولذلك، ليس لدينا أيّ بذور الآن».

«آه، طبعا طبعا. ما قلتِه صحيح دون شكّ»، تلعثم ماثيو مجدّدا وفي حزن، وهو يلتقطُ المجرفة مُسرعا نحو الباب. وعند العتبة، تذكّر أنّه لم يُسدّد ثمنها. فعاد على الفور. وبينما كانت الآنسةُ هاريسْ تحصي النّقود، استقدم كلّ قواه من أجل محاولة أخيرة:

«حسنا، المعذرة على الإزعاج. ولكن، قد أطلبُ أيضا... أعني، أريدُ أن أرى...ما إذا... قليلا من السّكّر».

«أبيض أم بنّيّ؟».

«هاه، حسنا، سكّر بنيّ»، أجاب ماثيو بصوت ضعيف.

«يوجد برميل سكّر بنّيّ هناك»، أشارت الآنسةُ هاريس وهي تهزُّ أساورها. «إنّه النّوع الوحيد في المتجر».

«أريدُ... أريدُ عشرين رطلا منه»، هتف ماثيو، والعرق الباردُ يتصببُ على جبهته.

كان ماثيو قد أدرك منتصف المسافة إلى البيت، عندما استعاد طبيعته من جديد. لقد كانت تجربة فظيعة بالنّسبة إليه. ولكنّه رأى في ما حدث له درسا لا يُنسى. فقد هرطق بذهابه إلى متجر جديد. ولم يحصّل أيّ شيء في نهاية الأمر. عندما وصل إلى البيت، أخفى المجرفة في حجرة الأدوات. أمّا السّكّر، فقد قدّمه إلى ماريلاّ.

«سكّر بنّيّ!»، صاحت ماريلاّ. «أيّ جنّ تلبّس بك لتشتري كلّ هذه الكمّيّة؟! تعرفُ جيّدا أنّي لا أستعمل هذا النّوع من السّكّر إلاّ في إعداد الثّريد للفتى الأجير أو لتلوين كعكة الفاكهة. بالنّسبة إلى جاري، فقد رحل. أمّا الكعكة، فقد أعددتها منذ فترة طويلة. زدْ على ذلك أنّه ليس من النّوع الجيّد. بل هو خشنٌ وغامق اللّون. ليس من عادة ويليام أن يحضر سكّرا كهذا».

«حسبتُ أنّكِ قد تحتاجين إليه يوما مّا»، قال ماثيو متملّصا بذكاء.

استغرق ماثيو في التّفكير في المسألة مجدّدا. وتوصّل إلى أنّه ينبغي أن تتكفّل امرأة بتدبيرها. طبعا، كانت ماريلاّ غير معنيّة بذلك. فقد كان ماثيو متيقّنا من أنّها ستسكب الماء البارد على مشروعه فورا. لم يتبقَّ حينئذ إلاّ السّيّدة ليندْ. إذْ ليس هناك أيّ امرأة أخرى يتجرّأ

على طلب المساعدة منها. وهكذا قصد ماثيو منزل السّيّدة ليندْ التي قبلتْ على الفور وبطيبة قلبٍ أن ترفع العبء عن كاهل الرّجل المعذَّب.

«أختار لك فستانا تُهديه إلى آنْ؟ سأفعل ذلك دون شكّ. غدا أذهبُ إلى كارمودي. وأتمّم الأمر. هل تفكّر في شيء معيّن؟ لا؟ حسنا، سأتصرّفُ وفق ما أراهُ مناسبا. أظنّ أنّ اللّون البنّيّ الفاتح سيكون مناسبا لآنْ. أتذكّر أنّ ويليام بليرْ يبيعُ نوعا من الحرير الصّوفيّ الممتاز. وهو جميل حقّا. لعلّك تريدُ منّي أن أخيطه لها أيضا؟ لأنّه إذا تكفّلت ماريلاّ بذلك، فإنّ آنْ ستلاحظه على الأرجح، وتفسد المفاجأة. حسنا، سأتدبّر هذا أيضا. لا، لا مشكلة في الأمر. فأنا أحبّ الخياطة. سأجعله في نفس قياس ابنة أختي، جيني غيليزْ. فهي وآنْ شبيهتان بحبّتي بازلاّء».

«حسنا، أنا ممتنٌّ لك جدّا»، قال ماثيو. «ولكن، لا أعرفُ... أريدُ أن... أحبّ أنْ... أعتقدُ أنّ الأكمام تغيّرت في أيّامنا هذه عمّا كانتهُ في السّابق. أرجو ألاّ أثقل عليك إذا طلبتُ منكِ أن يكون كُمَّا هذا الفستان على الطّريقة الحديثة».

«فضفاضيْن؟ طبعا. لا تفكّر في الأمر بعد الآن يا ماثيو. سأخيطُ الكُمّين وفق أحدث طراز دارج»، قالت السّيّدةُ ليندْ. وعندما خرج ماثيو، أردفتْ:

«سيكون من المُبهج حقّا أن ترتدي البنتُ المسكينة شيئا محترما لأوّل مرّة. إنّ طريقة لباسها التي تحدّدها لها ماريلاّ سخيفةٌ جدّا.

وطالما رغبتُ في أن أفاتحها في الأمر. لكنّي ظللتُ أكبحُ نفسي. فماريلاّ تحسبُ نفسها امرأة حصيفة جدّا، وترفض أن توجّه لها النّصائح. ويُشبّه لها أنّها أعلمُ منّي بشؤون تربية الأطفال رغم كونها عانسا. ولكن، هكذا تسيرُ الأمور دوما. يعرف النّاس الذين ربّوا أطفالا من قبلُ أنّه ليس هناك من طريق مختصر أو طريقة فعّالة وناجعة تُلائمُ جميع الأطفال في تربيتهم. أمّا الذين لم يجرّبوا ذلك من قبل، فيحسبون أنّ الأمر سهل وبسيط، تماما مثل قاعدة الثّلاثة في الحساب. إذ يكفي أن تضع المعطيات الثّلاثة في مكانها حتّى يستقيم الحسابُ وتتّضح النّتيجةُ السّليمة. ولكنّ عالم اللّحم والدّم لا يخضع للحساب الرّياضيّ. وهذا ما تفشلُ في إدراكه ماريلاّ. أحسبُ أنّها تريدُ أن تطوّر في شخصيّة آنْ روح التّواضع من خلال اختيار ملابسها على ذلك النّحو. ولكنّها أقربُ بذلك إلى تطوير الغيرة والاستياء في طبعها. إذْ لا شكّ أنّ البنتَ قد لاحظت الفرق الشّاسع بين ملابسها وملابس الفتيات الأخريات، وقد جعلها ذلك تشعر بالأسى. ولكن، كيف تمكّن ماثيو من ملاحظة ذلك؟! هذا هو العجبُ العُجاب! يبدو أنّ الرّجل أخذ يستيقظُ بعد سُباتٍ دام أكثر من ستّين سنة».

عرفت ماريلاّ خلال الأسبوعيْن التّاليين أنّ شيئا مّا يشغلُ فكر ماثيو. لكنّها عجزت عن تحديد طبيعته، إلاّ عشيّة عيد الميلاد عندما أحضرت السّيّدةُ ليندْ الفستان الجديد. وعلى نحو عامّ، تصرّفت ماريلاّ بلباقة رغم ارتيابها في أسلوب السّيّدة ليندْ الدّبلوماسيّ، وهي تشرحُ لها أنّها تكفّلتْ بخياطة الفستان فقط لتجنّب آنْ اكتشاف المفاجأة قبل أوانها.

«هذا هو إذن سرُّ غموض ماثيو وغرابته خلال الأسبوعيْن الماضيينْ، وابتساماته المتكرّرة في وحدته!»، قالت في تصلّب ولكنْ على نحو متسامح. «كنتُ مُدرِكةً لاستغراقِه في حماقة مّا. حسنا، يجدرُ بي أن أقول إذنْ إنّ آنْ ليستْ في حاجة إلى فستان إضافيّ. فقد أعددتُ لها في الخريف ثلاثة فساتين شتويّة، عمليّة، دافئة وجميلة. وأيّ شيء يزيدُ عنها لا يعدو إلاّ أن يكون تبذيرا لا ضرورة له. أنا متأكّدة من أنّ هذيْن الكُمّيْن لوحدهما يستهلكان قماشا كافيا لخياطة صدريّة فستان. إنّك تُفرطُ في دلالها يا ماثيو، وتزيدُ من اختيالها بنفسها. أليس يكفي أنّها الآن أشبهُ بطاووس؟ حسنا، أرجو أن تشعر بالرّضى في نهاية المطاف، لأنّها ظلّت تتحدّثُ عن توقها إلى الأكمام الفضفاضة منذ أن صارت رائجة. ومع ذلك، لم تقل كلمة واحدة عن الأمر منذ أن نهرتُها عنه في المرّة الأولى. لقد ظلّت هذه الأكمام في انتفاخ متزايد حتّى صارت آيةً في السّخف، وصارت أشبه بالبالونات. أعتقدُ أنّ من سيرتدي فستانا بهذه الأكمام في السّنة القادمة سيكون مُضطرّا إلى اجتيار الباب على نحو جانبيّ».

أشرق صباحُ عيد الميلاد في عالم يغمرهُ البياضُ. كان الطّقسُ معتدلاً طيلة الشّهر. وترقّب النّاسُ أن يكون العيدُ أخضرَ. ولكنّ الثّلج تساقط طيلة اللّيلة. فحوّل منظر آفونلي تماما. حدّقتْ آنْ في المشهد بعينيْن مُبتهجتيْن من خلال نافذة الغرفة الشّرقيّة المكسوّة بالثّلج. كان التنّوبُ المُورِقُ في الغابة المسكونة رائعا وأشجارُ البتولا والكرز موشّاة باللآلئ البيضاء. أمّا الحقول المحروثة، فقد بُسطت

بياضا ثلجيّا. وانتشر فيها العبيرُ الزكيّ. اندفعتْ آنْ، نازلةً الدّرجَ وهي تُغنّي بقوّة، حتّى إنّ صدى صوتِها قد تردّد في مُختلِف أرجاء الضّيعة الخضراء.

«عيد ميلاد مجيد يا ماريلاّ! عيد ميلا مجيد يا ماثيو! أليس عيدا رائعا هذه السّنة؟ أنا سعيدةٌ لتساقط الثّلج وانتشار البياض. فخلافًا لذلك، لا يشعرُ المرءُ بأنّ العيد حقيقيّ. أليس كذلك؟ أنا لا أحبّ عيد الميلاد عندما يكون الطّقس دافئا والأراضي خضراء. بل هي في الحقيقة ذاتُ لون رماديّ أو بنّيّ شاحب ومُقرف. آه، ما الذي يدفع النّاس إلى القول إنّها خضراء. لماذا؟ لماذا يا ماثيو؟ أهذا من أجلي؟ آه يا ماثيو!».

كان ماثيو قد بسط الفُستان في صمتٍ، بعد أن أخرجه من لفافته الورقيّة. فرفعهُ عاليا، وهو يرقبُ ماريلاّ بنظراتٍ مُرتبكة من حين إلى آخر. ورغم أنّ ماريلاّ تظاهرتْ بعدم المبالاة وبانهماكها في ملْءِ إبريق الشّاي، إلاّ أنّها ظلّتْ تُتابع من زاوية عينها ما يحدثُ بينهما. أمسكتْ آنْ الفستان بين يديها. وتأمّلته في صمتٍ خاشع. آه، كم هو جميل حقّا! كان الفستانُ بنّيَّ اللّون من الحرير الصّوفيّ النّاعم. له تنّورةٌ ذات زخرفة جميلة. أمّا خصره، فهو فضفاضٌ ومُفصّل على الطّريقة الدّارجة. وعند الياقة، التفّتْ شرائطُ شفّافةٌ ومُتموِّجة. ولكن، ماذا عن الكُمّين؟ إنّهما تاجُ المجد بالنّسبة إلى الفستان. كانا كُمّين طويليْن يُدركان المرفقين. وفوقهما طبقات من الزّينة والشّرائط البنّيّة الحريريّة.

«إنّها هديّتكِ في عيد الميلاد يا آنْ»، قال ماثيو في خجل. «لماذا يا آنْ؟ لماذا؟ ألم تعجبكِ؟ حسنا، الآن... اهدئي قليلا».

كانت عينا آنْ قد اغرورقتا بالدّموع فجأة.

«تعجبني؟! أوه يا ماثيو!» وضعت آنْ الفستان على كرسيّ. وشبّكتْ أصابع يديها. «إنّه مُتقَنٌ على نحو مثاليّ. ولا أعتقد أنّي أستطيع مطلقا أن أفِيَكَ حقّك من الشّكر والامتنان. انظر إلى الكمّين! يبدو لي أنّ هذا أشبه بحلم رائع».

«حسنا، حسنا. فلنتناول فطور الصّباح»، قاطعتهما ماريلاّ. «يجدرُ بي أن أعترف لكِ يا آنْ أنّي لم أعتقد أنّك في حاجة إلى الفستان. ولكن مادام ماثيو قد أحضره لك، فحافظي عليه إذن. لقد تركت السّيّدةُ ليندْ شريطا للشّعر من أجلك. تعالي الآن. واجلسي إلى المائدة!».

«لا أعرفُ كيف سأتمكّنُ من تناول الفطور»، هتفت آنْ. «فهو يبدو لي الآن شيئا عاديًّا جدًّا مُقارنةً بكلّ هذه الإثارة. أفضّلُ أن أُشبع عينيّ من تأمّل الفستان. كم أنا سعيدة لأنّ الأكمام الفضفاضة مازالت دارجة. فطالما شعرتُ بأنّي لن أتعافى من حسرتي إذا صارت قديمة دون أن أجرّبها. أقدّر لطف السّيّدة ليندْ التي أهدتني شريط الشّعر كذلك. وأشعر أنّ عليّ أن أكون بنتا صالحة. ففي مثل هذه الأوقات، أشعر بالأسف حقّا لأنّي لستُ بنتًا نموذجيّة. وأصمّمُ على أن أبذل قصارى جهدي لأصير كذلك. لكنّي أقع في كلّ مرّة في فخّ إغراءٍ لا يُقاوَم. فيفشلُ مُخطّطي. ومع ذلك، يجدرُ بي أن أكرّر المحاولة بجدّ أكبر».

عندما انتهت وجبةُ الفطور، أطلّت ديانا بملامحها المنشرحة ومعطفها القرمزيّ، وهي تعبر جسر الحطب المكسوّ بالثّلج. وسرعان ما اندفعت آنْ راكضة نحوها.

«عيد ميلاد مجيد يا ديانا! صدّقيني، إنّه كذلك حقّا. لديّ شيء رائع لأريه لكِ. أهداني ماثيو أجمل ثوب على الإطلاق. وفيه كُمّان لا يمكنُ وصفهما بالكلمات. لم يكن بوسعي أن أتخيّل ما هو أجمل منه».

«ولديّ شيء آخر لكِ»، قالت ديانا لاهثة. «انظري! هذه العلبة! لقد أرسلت العمّةُ جوزفينْ إلينا طردا كبيرا مليئا بأشياء كثيرة. أمّا هذه العلبة فهي لك خصّيصا. لم أستطع إحضارها لكِ ليلة أمس، لأنّ الطّرد وصل متأخّرا بعد الغروب. وكما تعرفين، لم أعد قادرة على اجتياز الغابة المسكونة في الظّلام».

فتحت آنْ العلبة. واسترقت النّظر إلى داخلها. فرأت بطاقة كُتب عليها: «إلى البُنيّة آنْ، عيد ميلاد مجيد!». وإلى جانبها نعْلٌ من أحلى نعال الأطفال على الإطلاق، تزيّنُه الخُرَزُ في موضع الأصابع وأقواسُ ساتان وإبزيم لامع.

«أوه»، صاحت آنْ. «هذا كثير جدّا يا ديانا. يبدو أنّي أحلم».

«أمّا أنا، فأسمّي هذا العنايةَ الإلهيّة»، ردّت ديانا. «لستِ في حاجة الآن إلى استعارة نعل روبي. وهذه نعمةٌ أخرى، لأنّ قدمها أكبرُ حجما من قدمك بكثير. وليس أبشع من رؤية جنّيّة تجرجر قدميها على الأرض. كانت جوزي باي لتسعد عند رؤيتك تسيرين

على ذلك النّحو. بالمناسبة، أتعرفين أنّ رُوبْ رايتْ رافق غيرتي بايْ إلى المنزل بعد انتهاء التّمارين في اللّيلة ما قبل الماضية. هل سبق لك أن سمعت بشيء مماثل من قبل؟

في ذلك اليوم، كان جميعُ تلاميذ مدرسة آفونلي مُفعَمين بالحماسِ الشّديد. فقدْ وَجب عليهم تزيينُ القاعة وتجريبُ الأداء الختاميّ قبل العرض.

وأخيرًا، أُقيم الحفلُ الموسيقيُّ مساءَ ذلك اليوم. وقد حقّق نجاحا كبيرا. احتشدتْ القاعةُ الصّغيرةُ بالحضور. وتألّق جميعُ المؤدّين في تلك الأمسية. ولكنّ آنْ كانت نجمةَ المناسبة المتألّقةَ على نحو مميّز، حتّى إنّ الغيرةَ التي تَحلُّ في جسدِ جوزي بايْ لم تُنكر ذلك.

«آه، يا لها من أمسية مُذهلة!»، تنهّدتْ آنْ عندما انتهى كلّ شيء، وسارت هي وديانا في طريق عودتهما إلى المنزل تحت سماء مظلمة ومليئة بالنّجوم.

«سار كلُّ شيء على نحو ممتاز»، قالتْ ديانا بنبرة عمليّة. «أعتقدُ أنّنا توصّلنا إلى جمع ما يناهز عشرة دولارات. أتعرفين أنّ السّيّد ألانْ سُيعلم جرائد تشارلوتْ تاوْن بالأمر؟»

«آه يا ديانا! أحقّا سنرى أسماءنا مطبوعة على صفحات الجريدة؟ إنّ مجرّد التّفكير في الأمر يغمرني بالسّعادة. كان أداؤكِ في الغناء ساحرا. بل إنّي شعرتُ بفخر عظيم عند الإصغاء إليكِ يفوقُ فخركِ بنفسك عندما طلب منك الحضورُ إعادةَ الأغنية من جديد.

لقد اكتفيتُ بالقول في سرّي: إنّها صديقة قلبي العزيزة، هذه التي تحتفون بها!».

«حسنا، ولكنّ إلقاءَكِ زلزل القاعة كلّها. كان المقطعُ الحزينُ بكلّ بساطة مُذهلا جدّا».

«آه، كنتُ متوتّرة جدّا يا ديانا. وعندما نادى عليّ السّيّدُ آلانْ، شعرتُ برعب عظيم، حتّى إنّي لا أعرفُ كيف وصلتُ إلى ذلك الرّكح. أحسستُ كأنّ مليون عين تحدّقُ فيّ ومن خلالي. ولوهلة -كم كانت فظيعة- شُبّه لي أنّي لن أستطيع الانطلاق في القراءة. فتذكّرتُ فجأة كُمّيَّ الفضفاضيْن الجميلين، ممّا أتاح لي أن أستجمع شجاعتي. كنتُ أعرفُ جيّدا أنّ عليّ أن أكون في مستوى الكمّين الرّائعين. وهكذا انطلقتُ في الإلقاء. وحسبتُ أنّ صوتي قادم من بعيد، كأنّي مجرّد ببّغاء. لقد قادتني الرّحمةُ الإلهيّة إلى التّمرّن على نحو مستمرّ على المقاطع الشّعريّة في حجرة العلّيّة. وإلاّ لما تمكّنتُ من المتابعة وإكمال القراءة. هل وجدتِ أنيني جيّدا؟».

«نعم، دون شكّ. كان عذبا»، أكّدت ديانا.

«لاحظتُ أنّ السّيّدة سْلُونْ كانت تمسحُ دموعها عندما عدتُ إلى مكاني. كم رائع أن أثير عاطفة شخص مّا! رومنسيٌّ جدّا أن يفوز المرء بدور في حفل موسيقيّ. أليس كذلك؟ إنّها مناسبة لا يمكنُ أن تُمحى من الذّاكرة».

«ألم يكن حوارُ الفتيان جيّدا؟»، قالت ديانا. «أمّا أداءُ غيلبرتْ بلايثْ، فهو بكلّ بساطة عظيم. ولأكنْ صريحة معك يا آن؛

معاملتكِ له لئيمة جدًا. انتظري حتّى أخبركِ بأمر. بعد أن أتممتِ مشهد الجنّيّات ونزلتِ عن المنصّة، سقطت من شعرك وردة. وقد رأيتُ غيلْ، وهو يلتقطها ويضعُها في جيب سترته. حسنا، أعرف أنّك رومنسيّة جدًا. ويجدر بك أن تبتهجي لذلك».

«ما يفعله ذلك الشّخصُ لا يعنيني بأيّ شكل من الأشكال»، أجابتها آنْ في ازدراء واضح. «لا يمكنني بكلّ بساطة أن أهدر أيّ لحظة في التّفكير فيه».

في تلك اللّيلة، جلس ماثيو وماريلا قرب موقد المطبخ بعد أن صعدتْ آنْ لغرفتها كي تنام.

«حسنا، أعتقدُ أنّ بُنيَّتنا آنْ قد أبلت بلاء حسنا، تماما مثل بقيّة التّلاميذ».

«نعم، هذا صحيح»، أقرّت ماريلاّ بذلك. «إنّها صبيّة لامعة يا ماثيو. كما أنّها بدت جميلة جدًا خلال الحفل. لم أؤيّد قصّة الحفل تلك من قبل. ولكنّي غيّرتُ رأيي الآن. ولا أرى أيّ مشكلة فيها. على أيّة حال، شعرتُ بفخر شديد بآنْ اللّيلة، رغم أنّي لن أعترف لها بذلك».

«حسنا، أنا أيضا فخور بها. ولكنّي قلتُ لها ذلك قبل أن تخلد إلى النّوم»، قال ماثيو. يجدرُ بنا أن نفكّر في ما يمكننا القيامُ به من أجلها لاحقا. إذْ ستصيرُ في حاجة إلى ما هو أكبرُ من مدرسة آفونلي».

«هناك ما يكفي من الوقت للتّفكير مليّا في مسألة كهذه»، ردّت ماريلاّ. «ستبلغ في شهر آذار المقبل الثّالثةَ عشرة فحسب. ومع ذلك،

فقد تفاجأتُ اللّيلة وأنا ألاحظ أنّها بصدد التّحوّل إلى شابّة يافعة. لقد جعلتْ ليندْ فُستانها مُفرطا في الطّول إلى حدّ مّا، حتّى إنّها بدتْ فارعة الطّول. آنْ ذكيّةٌ جدّا وسريعة التّعلّم. وأعتقدُ أنّ أفضل شيء نفعلُه من أجلها هو إرسالها في فترة لاحقة إلى الأكاديميّة الملكيّة. لكنّنا لا نحتاج إلى الخوض في هذه المسألة قبل سنة أو اثنتيْن على الأقلّ».

«ومع ذلك، لا ضير في التّفكير فيها من حين إلى آخر»، أضاف ماثيو. «فمثل هذه المسائل تؤولُ إلى الأحسن كلّما تدبّرها المرءُ مليّا».

مكتبة
t.me/soramnqraa

(26)

تأسيسُ نادي القصّة

كان من الصّعب على يافعي آفُونلي أن يرجعوا بعد ذلك الحفل الموسيقيّ إلى الرّتابة المعتادة. وبالنّسبة إلى آنْ تحديدا، بدا كلُّ شيئ بعد قدح الإثارة الذي ظلّت تحتسي منه طيلة أسابيع سطحيًّا، عتيقًا ولا نفع منه على نحو رهيب. هل تستطيعُ الآن العودة إلى تلك المسرّات الهادئة التي سبقت الحفل بزمن بعيد؟ هي على الأرجح غير قادرة على ذلك. وهذا ما اعترفتْ به لصديقتها ديانا.

«أنا متيقّنةٌ يا ديانا من أنّ الحياة لن تعود إلى مجراها السّابق، كما كانت في تلك الأيّام الخوالي»، قالت في حسرة، كأنّها تُشير إلى حقبة من الزّمن قبل خمسين عاما». قد أعتادُ هذا مُستقبلا. لكنّي أدركُ الآن أنّ الحفلات الموسيقيّة تُفسد حياة النّاس اليوميّة. لعلّ هذا هو السّبب الحقيقي في اعتراض ماريلاّ عليها. فهي امرأة رصينة ذاتُ رأي راجح. لا شكّ أنّه من الأفضل أن يكون المرءُ مثلها. لكنّي عاجزةٌ في المقابل عن ذلك. إذ يبدو لي أنّ العقلانيّة تنزعُ عن المرء رومنسيّته. تقول لي السّيّدة ليندْ إنّه لا خطر عليّ في أن أصبح رصينة وعقلانيّة. ولكن، من يدري؟ أشعرُ اللّحظةَ أنّ هذا ممكنُ الحدوث. ولكن قد يكون السّبب في كوني مرهقة. إذ لم أنم جيّدا ليلة أمس.

ظللتُ ممدّدة على السّرير، دون أن أغمض عينيّ مطلقا. ورحتُ أسترجع كلّ تفاصيل الحفل، مرّة تلو أخرى. وتلك إحدى مزايا هذه المناسبات الرّائعة؛ عذبٌ جدّا استحضارُها وتذكّرها».

في نهاية المطافِ، تمكّن تلاميذُ مدرسة آفونلي من استعادةِ نظام حياتهم القديم واهتماماتهم المعتادة، رغم الآثار الأكيدة التي خلّفها الحفلُ في أنفُسهم. فمثلا، توقّفت روبي غيليزْ وإيما وايْت عن الجلوس في نفس المكتب بسبب الشّجار الذي شبّ بينهما، والذي تعلّق بمكان وقوف كلّ منهما على الرّكح. وعلى هذا النّحو، انهارت تلك الصّداقةُ الواعدةُ التي دامت ثلاث سنوات كاملة. أمّا جوزي بايْ، فقد خاصمت جُوليا بيلْ طيلة ثلاثة أشهر، لأنّ جوزي قالت لبيسي رايتْ إنّ مشهد انحناء جوليا بيلْ عند صعودها إلى الرّكح من أجل إلقاء الشّعر ذكّرها بدجاجة تهزّ رأسها. فنقلت بيسي تلك الكلمات إلى جوليا. بالنّسبة إلى أولاد عائلة سْلُون، فقد انقطعوا عن مخالطة بني بيلْ جميعا، لأنّهم أشاعوا كلاما مفاده أنّ أبناء سْلون تفرّدوا بأنشطة كثيرة في الحفل. فكان ردّ هؤلاء قولهم إنّ جماعة بيلْ كانوا فاشلين في إنجاز القليل الذي تكفّلوا به. وأخيرا، تشاجر تشارلي سْلُونْ مع مُودي سْبيرجِنْ ماكْفِرسونْ لأنّ مودي زعم أنّ آنْ تتصنّعُ في إلقائها وتغالي في ذلك، ممّا أدّى إلى الإلقاء بمودي جانبا دون أن يلاحظه أحد. ونتيجة لهذا الخصام، امتنعت إيلا مايْ، شقيقة مودي سبيرجنْ، عن الحديث إلى آنْ طيلة الشّتاء. وباستثناء هذه المُناوشات التّافهة، استمرّ العمل في مملكة الآنسة سْتايْسي الصّغيرة في سلاسة وانتظام.

مرّتْ أسابيعُ الشّتاء بسرعة. وكانت أيّامُه، خلافا للعادة، معتدلةً قليلة الثّلوج، حتّى إنّ آنْ وديانا استمرّتا في الذّهاب إلى المدرسة كلّ يوم عبر ممرّ البتولا. وفي يوم عيد ميلاد آنْ، كانتا تتبختران فيه على مهل وهما تتأمّلان كلّ تفصيل فيه، وتحرصان على تبيُّن أدقّ دقائقه. فقد صرّحت الآنسةُ ستايْسي من قبل، مُعلِنةً عن اقتراب كتابة موضوع إنشائيّ عنوانه «نزهة شتويّة في الغابة».

«تصوّري يا ديانا، لقد بلغتُ اليوم الثّالثة عشرة»، هتفتْ آن بصوت مروَّع. «أكادُ لا أصدّق أنّي أدركتُ سنوات المراهقة. عندما استيقظتُ هذا الصّباح، بدا لي أنّ كلّ شيء ينبغي أن يختلف تماما. مرّ شهرٌ على بلوغكِ الثّالثة عشرة. أحسبُ إذن أنّ الأمر لم يعد جديدا بالنّسبة إليك. تدفع هذه السّنوات الحياة إلى المزيد من الإثارة. في غضون سنتيْن، سوف أنتمي إلى عالم الكبار. آه، كم يبهجني أن أستخدم عبارات كبيرة دون أن يضحك منّي الآخرون!».

«تقول روبي غيليزْ إنّها تنوي أن تتّخذ لنفسها حبيبا ما أن تدرك الخامسة عشرة»، قالت ديانا.

«لا شيء يشغلُ بال روبي غيليزْ سوى العُشّاق»، قالتْ آنْ بتَعال. «إنّها تبتهجُ في الحقيقة كلّما كتب أيّ شخص اسمَها على جدار الرّواق مع عبارة «أحيطوا بهما علما»، رغم تظاهرها بالغضب والانزعاج من ذلك. آه، أخشى أنّ ما قلتُه للتّوّ ليس عملا صالحًا. تقول السّيّدةُ آلانْ إنّه لا ينبغي للمرء أن يستغرق في الكلام غير الصّالح. ولكنْ، ألا توافقينني يا ديانا في أنّ هذا النّوع من الكلام

يفرضُ نفسه دوما قبل أن يتبيّن صاحبُه طبيعتَه؟ لا أستطيعُ بكلّ بساطة الحديث عن جوزي بايْ دون أن يكون كلامي غير صالح. لا شكّ أنّك لاحظتِ ذلك. في الحقيقة، أبذل قصارى جهدي لأشبه السّيّدة آلانْ، لأنّها مثاليّة في نظري. وهذا ما يعتقده كذلك السّيّدُ آلانْ. إذْ تقول السّيّدةُ ليندْ إنّه يعبد التّراب الذي تمشي عليه. وتلك مسألة لا تليق بكاهن، حسب رأيها، لأنّه يعلّق عواطفه بمخلوق فانٍ. أمّا أنا، فأرى أنّ الكهنة والقساوسة ليسوا إلاّ بشرا مثلنا، ولهم ذنوبهم وخطاياهم التي تحاصرهم كذلك. لقد جمعني حديثٌ شيّق مع السّيّدة آلانْ يوم الأحد الماضي. وقد تطرّقنا فيه إلى موضوع الخطايا المُغوِيَة. طبعا، هناك مسائلُ معيّنة تليق بنقاشات الأحد. وهذا أحدها. إنّ الذّنب الذي يُحاصرني شخصيّا هو الإفراطُ في الخيال ونسيان واجباتي. إنّي أحاول بكلّ ما أوتيتُ من قوّة أن أتخلّص منه وألاّ أقع فيه مجدّدا. أمّا وقد بلغتُ الثّالثة عشرة، فقد أتوصّل إلى ذلك ربّما».

«بعد أربع سنوات، سوف يُتاح لنا أن نرفع شعرنا إلى أعلى»، قالت ديانا. «لا تجاوزُ أَلِيسْ بِيلْ السّادسة عشرة. وهي تفعل ذلك الآن، رغم أنّي أجد ذلك سخيفا. وأفضّل الانتظار حتّى السّابعة عشرة».

«لو كنتُ أملكُ أنف أليس المعقوف»، هتفتْ آنْ في ثبات. «لما... ولكن هناك... لا، لن أكملُ ما هممتُ بقوله لأنّه كلام غير صالح. بالإضافة إلى أنّي قارنتُ أنفها بأنفي. وهذا اختيال وتكبّر.

أخشى أنّي صرتُ كثيرة التّفكير في أنفي منذُ أن تلقّيتُ إطراء بشأنه. لا أنكرُ في الحقيقة أنّه يمثّل عزاء وسلوى بالنّسبة إليّ. آه، انظري يا ديانا! ثمّتَ أرنبٌ هناك. يجدر بنا تذكّر هذا عند صياغة الموضوع الإنشائيّ عن نزهة الغابة. أعتقدُ حقّا أنّ الغابة رائعة في الشّتاء والصّيف على حدّ سواء. إذ يجعلها الشّتاءُ بيضاء وساكنة، كأنّها مُستغرقة في نوم عميق وأحلام جميلة».

«ليستْ لديّ أيّ مشكلة في الكتابة عن نزهة الغابة عندما يحينُ الوقتُ لذلك»، تنهّدتْ ديانا. «يمكنني أن أتدبّر أمري في الكتابة عن الغابات. لكنّ ما يُقلقني حقيقةً هو موضوع يوم الاثنين. أقصد فكرةَ الآنسة سْتايْسي الغريبةَ تلك التي نكتب بموجبها موضوعا نخترعهُ نحن».

«لماذا؟ إنّه أسهل من إغماض العين»، قالتْ آنْ.

«سهل بالنّسبة إليك، لأنّك تملكين خيالا خصبا»، أجابتْ ديانا. «ولكن، ماذا يفعل من يفتقر إلى الخيال. أحسبُ أنّك أنهيتِ صياغتكِ. أليس كذلك؟».

أومأتْ آنْ إيجابًا، وهي تحاولُ أن تخفي زهوَها بنفسِها. لكنّها فشلتْ في ذلك فشلا ذريعا وواضحا.

«ألّفتُ موضوعي مساءَ الاثنيْن الماضي. وعنوانُه «الخصمُ الغيُور، أو من لا يفرّقهُم الموت». قرأتُه على ماريلاّ. فقالت لي إنّه مليء بتفاهات سخيفة. ثمّ قرأتُه على ماثيو. فأعجب به. وهذا هو النّقد الذي أحبُّه. إنّها قصّة لطيفة وحزينة. ولقد بكيتُ كالأطفال

أثناء كتابتها. وتُخبر أحداثها عن صبيّتيْن جميلتيْن اسمهما كُوردِيليا مُونْتْمُورِنْسي وجيرالْدِينْ سايْمُور. كانتا تعيشان في قرية واحدة، متعلّقتيْن بعضهما ببعض. كانت كوردِيليا سمراء ذات شعر أسودَ فاحم وعينيْن سوداويْن لامعتين. أمّا جيرالدين، فهي بيضاء على نحو ملكيّ وذاتُ شعر ذهبيّ وعينين أرجوانيّتين رقيقتين».

«لم أسمع قطّ عن أيّ شخص يملكُ عينين أرجوانيّتيْن»، قالت ديانا في ارتياب جليّ.

«ولا أنا. ولكنّي تخيّلتُ ذلك. فقد رغبتُ في شيء خارج عن المألوف. تملكُ جيرالدينْ كذلك جبينا مرمريّا. اكتشفتُ مؤخّرا معنى الجبين المرمريّ. ولا شكّ أنّ هذا أحدُ مزايا سنّ الثّالثة عشرة. إذ يعرفُ المرءُ مسائلَ كثيرة جدّا مقارنة بالثّانية عشرة».

«وما الذي حدث مع كورديليا وجيرالدينْ؟»، سألتْ ديانا التي بدأت تشعرُ بالاهتمام بمصيرهما.

«كبُرتا معا في سعادة وهناء حتّى بلغتا السّادسة عشرة. ثمّ جاء إلى قريتهما برْترامْ دي فيرْ. ووقع في حبّ الشّقراء جيرالْدينْ. لقد أنقذَ حياتها عندما جمح بها جوادُها، واندفع بعربتها بعيدا. ثمّ إنّه أغمي عليها بين ذراعيه. فحملها إلى منزلها طيلة ثلاثة أميال. حملها هو، لأنّ العربة تحطّمت طبعا. لقد كان عسيرا عليّ يا ديانا أن أتخيّل الطّريقة التي طلب بها برترام يدها للزّواج. فأنا لا أملكُ أيّ خبرة في المسألة كي أستند إليها. سألتُ روبي غيليزْ ما إذا كانت تفقهُ شيئا في مسألة خطبة الرّجال للنّساء. إذْ حسبتُها واسعة الاطّلاع في

هذا المجال بسبب أخواتها المتزوّجات. ولكنّها أعلمتني أنّها كانت مُختبئة في حجرة المؤونة، عندما تقدّم مالكومْ آندرُوزْ لخطبة أختها سوزانْ. قالت إنّ مالكوم أعلم سوزان بأنّ أباه قد وهبه المزرعة. ثمّ أضاف: «ما رأيكِ يا صغيرتي أن نرتبط في الخريف القادم؟». وحينئذ، ردّت سوزان: «نعم، لا... لا أعرف. امنحني فرصةً للتّفكير في الأمر». وعلى هذا النّحو، تمّت خطوبتهما بسرعة شديدة. لم أشعر أنّ تلك الطّريقة في عرض الارتباط رومنسيّة مطلقا. ولذلك، وجب عليّ أن أتخيّل الأمر على أفضل نحو ممكن. جعلتُ العرض في القصّة مُنمَّقا وشاعريّا جدّا. ولهذا السّبب، جثا برترام على ركبتيه عند طلبه ليد جيرالدينْ، رغم أنّ روبي غيليزْ أكّدت لي أنّ الرّجال ما عادوا يفعلون ذلك في هذه الأيّام. وفي نهاية المطاف، وافقتْ جيرالدينْ من خلال خطاب قدّمته امتدّ على صفحة كاملة. يمكنني أن أؤكّد لك أنّي عانيتُ كثيرا خلال كتابتي لذلك المقطع، حتّى إنّي أعدتُ كتابته خمس مرّات كاملة. وهو بالنّسبة إليّ إحدى الدّرر التي أبدعتُها. أهداها برترامْ خاتما ماسيّا وعقدا من الياقوت. وأخبرها أنّهما سيُسافران إلى أوروبا لقضاء شهر العسل هناك. فقد كان ثريّا جدّا. ولكنّ العتمة للأسف غمرت حياتهما سريعا. أغرمتْ كورديليا سرّا ببرترام. وعندما أعلمتها جيرالدْين بمسألة الخطوبة، غضبت واحتدّت كثيرا، خصوصا عندما رأت الخاتم الماسيّ وعقد الياقوت. وفي تلك اللّحظة، انقلب حبُّها لجيرالدينْ إلى كراهية مريرة. وأقسمت ألاّ تسمح لزواجها ببرترامْ أن يتمّ. ولكنّها في المقابل، ظلّت تتظاهر أمام جيرالدْين بكونها رفيقتها

المخلصة المعتادة. وذات مساء، بينما كانتا واقفتيْن عند جسرٍ فوق تيّار هائج متدفّق بعُنف، دفعتْ كورديليا جيرالدينْ وهي تحسبُ أنّهما بمفردهما تماما. ثمّ صاحت بها على نحو ساخر وعنيف: ها ها ها! ولكنّ برترام رأى كلّ شيء. فقفز على الفور، وهو يصرخ: سأنقذك عزيزتي جيرالدين، يا محبوبتي الفريدة! ولكنّه نسي للأسف أنّه لا يجيد السّباحة. فغرقا معا متعانقيْن عناقا أبديّا. وبعد أن أخرج الموجُ جثّتيهما، دُفنا معا في قبر واحد. كانت جنازتهما مؤثّرة جدّا يا ديانا. أعتقدُ أنّ إنهاء قصّة بجنازة هو أمر أكثر رومنسيّة من اختتامها بزفاف. أمّا بالنّسبة إلى كورديليا، فقد جُنّت بسبب ندمها الشّديد. وأودعت في مصحّة الأمراض العقليّة. لقد وجدتُ في هذه النّهاية عقابا شاعريّا لها على جريمتها».

«يا لها من قصّة رائعة»، تنهّدتْ ديانا التي كانت تنتمي إلى مدرسة ماثيو النّقديّة. «لا أعرفُ حقّا كيف يمكنكِ ابتداعُ كلّ هذه الأشياء المثيرة من رأسكِ يا آنْ. أتمنّى لو كانت مخيّلتي خصبة ونشيطة مثل مخيّلتكِ».

«يمكن لها أن تصير كذلك إذا اعتنيْتِ بها جيّدا»، قالت آنْ في ابتهاج. «خطرت ببالي فكرة يا ديانا. فلنُؤسّس معا نادي قصّة. ولنتمرّن فيه على الكتابة. ما رأيك؟ سأقدّم لك المساعدة حتّى تتوصّلي آخرَ الأمر إلى كتابة حكاياتك بمفردك. يجدرُ بك أن تطوّري مخيّلتك كما تعرفين. هذا ما تقوله الآنسةُ سْتايْسي. كلّ ما علينا فعله هو اقتفاء الطّريق السّليم. إذْ عندما رويتُ لها حكايةَ الغابة المسكونة، قالت لي إنّا سلكنا الطّريق الخاطئ».

وعلى هذا النّحو وُلد نادي القصّة. اقتصر في البداية على آنْ وديانا. وسرعان ما اتسّع أكثر. فضَمّ جايْن آندرُوزْ ورُوبي غيليزْ، بالإضافة إلى فتاة أخرى أو اثنتيْن وجدَتا أنّ خيالهُما يحتاجُ كذلك إلى الرّعاية والتّطوير. لم يُسمح للأولاد بالانضمام إلى هذا النّادي، رغم أنّ روبي غيليزْ رأت في ذلك مزيدا من الإثارة والحماس. وطُلب من كلّ عضوة أن تكتب قصّة واحدة كلّ أسبوع.

«الأمرُ مُثير جدّا»، قالتْ آنْ لماريلاّ. «ينبغي على كلّ فتاة أن تقرأ قصّتها بصوت عال. ثمّ نناقشها في ما بيننا. سوف نحتفظُ بهذه القصص من أجل أبنائنا وأحفادنا يا ماريلاّ. كما أنّ كلّ واحدة منّا توقّع قصصَها باسم فنّيّ مُستعار. أمّا اسمي، فهو رُوزامُوندْ مونتْمُورنْسي. تُبلي جميعُ الفتيات بلاء حسنا. بالنّسبة إلى روبي غيليزْ، فهي مُنقادة إلى مشاعرها نوعا مّا. وتُفرط في كتابة مشاهد الحبّ في قصصها. ولكنّ الإفراط في مشاهد الحبّ -كما تعلمين- أفضل من نُدرتها وشحّها. جايْن مثلا لا تضعُ في قصصها أيّ مشهد عاطفيّ. وتبرّر ذلك بكونها لا تستطيعُ قراءتها بصوت عال دون أن تشعر بالحرج والسّخافة. في المقابل، قصصُها عقلانيّة إلى أبعد حدّ، بينما تُفرطُ ديانا في ابتداع الجرائم داخل حكاياتها. تقولُ إنّها تشعر بالحيرة في معظم الأحيان عمّا ينبغي لها فعله بشخصيّاتها القصصيّة. ولذلك تقتلهم كي تتخلّص منهم. معظمَ الأحيان، أختارُ لهنّ ما يكتبن فيه. ولكنّ ذلك ليس صعبا بالنّسبة إليّ، لأنّ لديّ ملايين الأفكار في رأسي».

«نادي القصّة هذا هو أسخف فكرة سمعتُ بها على الإطلاق»، قالتْ ماريلاّ في سخرية. «سوف ينتهي بكم المطاف إلى حشو رؤوسكنّ بالتّرّهات والسّخافات. وسوف تبذّرون وقتا ثمينا كان ينبغي استثمارُه في الدّراسة بجدّ. إنّ قراءة القصص عادة سيّئة بما يكفي. أمّا كتابتها، فهي أسوأ بكثير».

«ولكنّنا حريصات على إدراج العبر الأخلاقيّة فيها»، قالتْ آنْ لتشرح موقفها. «إنّي أشدّدُ دوما على العبرة. ودوما ما يُكافَأُ الصّالحون ويُعاقَب الفاسدون على نحوٍ يليق بهم. يقول السّيّدُ آلانْ إنّ العبرة هي الأهمّ على الإطلاق. وحدث أن اتّفق مع السّيّدة آلانْ في أنّ العبرة التي أدرجتُها في إحدى قصصي التي قرأتُها عليهما كانت ممتازة جدّا. ولكن، ما حيّرني هو ضحكُهما في مواضع لا ينبغي الضّحكُ فيها. في واقع الأمر، أفضّل أن أُبكي النّاس على أن أُضحكهم. غالبا ما تبكي جاين وروبي كلّما قرأتُ المقتطفاتِ المؤثّرة في قصصي. لقد راسلتْ ديانا عمّتها جوزفين. وأخبرتْها بنادي القصّة. ابتهجت العمّةُ بالخبر. وقالت إنّها تُريد الاطّلاع على بعض القصص التي كتبناها. وهكذا، انتخبْنا أربع قصص من أفضل ما ألّفناهُ. فنسخناها. وأرسلناها إليها. قالت العمّةُ جوزفين في ردّها إنّها لم تقرأ من قبل ما هو أكثرُ إمتاعا منها. أدهشنا كلامها جدّا، لأنّ الحكايات كانت مثيرة للشّفقة والحزن بالإضافة إلى أنّ جميع الشّخصيّات ماتت في النّهاية. ومع ذلك، فأنا سعيدة لأنّ الآنسة باري أعجبت بها. هذا دليل كافٍ على أنّ نادينا يملكُ شيئًا صالحا يقدّمه للعالم. تؤكّدُ السّيّدةُ آلانْ أنّ علينا أن نروم الصّلاح في كلّ

ما نفعله. وفي واقع الأمر، أسعى دوما إلى أن أجعله غايتي. لكنّي أنسى ذلك ما أن أشرع في الاستمتاع بوقتي. أتمنّى حقّا أن أماثل السّيّدة آلان عندما أكبرُ، أو أن أشبهها بعض الشّيء على الأقلّ. أتعتقدين أنّ لديّ أملا في تحقّق هذا الرّجاء يا ماريلاّ؟».

«لا يجدر بي القول إنّه أمل كبير»، كانت تلك كلمات ماريلاّ المشجّعة. «أنا متأكّدةٌ من أنّ السّيّدة آلانْ لم تكن يوما فتاة صغيرة طائشة ومهملة مثلك».

«لا. ولكنّها لم تكن دوما مثاليّة كما هي الآن»، قالت آنْ بنبرة جادّة. «هذا ما أعلمتْنِي به بنفسها. قالت إنّها كانت مُزعجةً وكثيرةَ الوقوع في المشاكل. شجّعتْني كلماتُها هذه يا ماريلاّ. ولكنْ، أليس فسادًا فيَّ أن أشعر بالتّشجيع إزاء أخطاء الآخرين وطيشهم. هذا رأيُ السّيّدة ليندْ على أيّة حال. وقد قالت كذلك إنّها تُصاب بالصّدمة كلّما علمت أنّ شخصا مّا -مهما صغر سنّه- يتصرّف بسوء وطيش. أخبرتني أنّها سمعت قسّا ذات مرّة، وهو يعترفُ بسرقته لكعكة توت من خزانة مؤونة عمّته عندما كان صغيرا. ومنذ تلك اللّحظة، فقَدتْ احترامَها لهُ نهائيّا. لو كنتُ مكانها، لما شعرتُ بنفس الشّيء مطلقا. بل كنتُ لأرى في اعترافه تصرّفًا نبيلا وقدوة صالحة للأطفال الصّغار الذين يقعون في الإساءة والخطإ، عارفين رغم ذلك أنّ بإمكانهم أن يصبحوا قساوسة وكهنةً ذات يوم. هكذا كنتُ سأشعر حيال الأمر يا ماريلاّ!».

«أمّا شعوري الآن يا آنْ»، قالت ماريلاّ. «فهو أنّ عليك أن

تنهضي لغسل تلك الصّحون. لقد ضيّعتِ نصف ساعة من الوقت، وأنت تُثرثرين بلا هوادة. يجبُ أن تتعلّمي أنّ العمل يأتي أوّلا. وبعد ذلك تكلّمي قدر ما تشائين».

telegram @soramnqraa

(27)

كبرياءُ الرّوح واستياؤُها

بينما كانت ماريلاّ عائدةً إلى البيت ذاتَ أمسية أواخرَ نيسان إثر اجتماع جمعيّة المساعدات الكنسيّة، تبيّنتْ أنّ الشّتاء قد ولّى أخيرًا مُخلِّفًا وراءهُ تلك البهجة التي لا يفشلُ الرّبيع مُطلقا في استقدامها إلى العجائز والبؤساء وإلى اليافعين والسّعداء على حدّ سواء. لم تكن ماريلاّ موهوبة في تحليل طبيعة أفكارها ومشاعرها. ولكنّها حسبتْ أنّ معظم أفكارها تتوقّف عند المساعدات وصندوق جمع التّبرّعات والسّجّاد الجديد من أجل غرفة مجلس الكنيسة. ولكن خلف هذه الأفكار يحتجبُ وعيُ ماريلاّ المتناغمُ بالحقول الحمراء التي يغمرها الضّبابُ الأرجوانيّ الباهتُ تحت أشعّة الغروب وبظلال أشجار التّنّوب الطّويلة المُسنّنة والممدّدة على المرج خلف الغدير، وكذلك أشجار القيقب ذات البراعم القرمزيّة التي تُسيّج البركة الشّبيهة بمرآة، ووعيُها باليقظة التي تسري في جسد العالم وذبذبة النّبضات الخفيّة التي تهتزُّ تحت كتلة الأرض الرّماديّة.

غمر الرّبيعُ الأرض. فخفّت معهُ خطوة ماريلاّ الرّصينة المتراخيةُ في العادة بسبب كهولتها المتقدّمة، وازدادتْ رشاقتُها بفضل بهجتها العميقة التي تضربُ بجذُورها في بداياتِ الرّوح البشريّة. حطّت

عيناها بعطف على الضّيعة الخضراء. فراحت تتأمّل شبكة الأشجار التي تُحيطها وانعكاسات أشعّة الشّمس على النّوافذ، وهي تتلألأ بوميض خافتٍ. وبينما تابعت ماريلاّ سيرها على امتداد المسلك الرّطب، فكّرت كم رائع أن تعود إلى البيت لتجد نار الموقد مُشتعلة وطاولة العشاء جاهزة ومرتّبة، خلافا لتلك الأيّام التي سبقت قدوم آنْ إلى الضّيعة الخضراء. ففيها، كانت ترجعُ إثر اجتماع الجمعيّة إلى المنزل ليستقبلها البردُ والخواء.

لا غرابة إذن في أن تشعر ماريلاّ بالخيبة والسّخط حين دخلت إلى المطبخ فوجدت الموقد مُطفأ. ولا علامة تدلّ على وجود آنْ في البيت، رغم أنّها طلبتْ من آنْ أن تعدّ الشّاي ليكون جاهزا عند الخامسة تماما. ولكنّها الآن مُجبرة على خلع ثاني أفضل ثوب لديها بسرعة شديدة وإعداد الطّعام بسرعة قبل أن يعود ماثيو من حراثة الحقل.

«سأصفّي حسابي مع الآنسة آنْ عندما تعود إلى المنزل»، قالت ماريلاّ بحزم، وهي تكشطُ الرّماد من الموقد مُنهمِكةً في عملها على نحو مُبالَغ فيه. في الأثناء، عاد ماثيو من الحقل. وجلس في مكانه صامت، وهو ينتظرُ وجبة العشاء. «لا شكّ أنّها تتسكّع مع ديانا في مكان مّا، تؤلّفان القصص أو تتمرّنا على مشهد دراميّ أو أيّ شيء آخر من سخافاتهما المعتادة. وطبعا، تستغرق في ذلك دون أن تفكّر في واجباتها! إنّها في حاجة إلى أن تُؤدّب بحزم وعلى الفور. لا يهمّني قول الآنسة سْتايسي إنّها أذكى وألطف فتاة عرفتها في

حياتها. فقد تكون كذلك حقّا. ولكنّ رأسها مليء بالسّخافات. ولا يمكن للمرء أن يتوقّع أيّ شكل ستتّخذهُ تلك التّرّهاتُ في خطوتها القادمة. فما أن تُشفى من نزوة غريبة حتّى تتعلّق بأخرى. ها إنّي أردّد نفس الكلمات التي قالتها اليوم رايتشلْ ليندْ، والتي أغضبتني وهي تخرجُ من فمها! كم كنتُ سعيدة في المقابل عندما أثنت السّيّدةُ آلانْ على آنْ. لو لم تفعل، لكنتُ هجمتُ على رايتشلْ بكلام حادّ أمام الجميع. لا أنكر أخطاء آنْ الكثيرة. بل وحده الرّبُّ قادر على إحصائها. ولكنّي أنا من تُشرف على تربيتها وليس رايتشلْ ليندْ القادرةُ على استخراج عيوب الملاك جبريل نفسه لو عاش هنا في آفونلي. على أيّة حال، ليس هناك فائدة الآن من هذا الكلام. إذ لا مبرّر لآنْ كي تترك المنزل وتُغفل القيام بواجباتها التي طلبتُها منها بحرص لا مثيل له. في واقع الأمر، رغم نقائصها الكثيرة لم يسبق لها أن عصت أوامري. كما أنّها لم تخن ثقتي بها، ممّا يشعرني بالضّيق الآن حيال ما فعلته».

«حسنا، لا أعرف حقّا»، قال ماثيو الصّبورُ الحكيم -الجائعُ كذلك- والذي اعتبر أنّه من الأفضل السّماح لماريلاّ بأن تُنفّس عن غضبها دون مقاطعتها. فهو يعلمُ جيّدا أنّها تعمل بإيقاع أسرع إذا لم يُثبّطها الجدال. «قد يكونُ حكمكِ عليها مُتسرّعا بعض الشّيء يا ماريلاّ. لا تتّهميها بكونها غير جديرة بالثّقة حتّى تتيقّني من أنّها عصت أوامركِ. فربّما تستطيعُ آنْ شرح موقفها. لا تنسي أنّها بارعة في ذلك».

«إنّها غائبة عن البيت في ساعةٍ طلبتُ منها أن تكون فيها هنا»، ردّت ماريلاّ. «أحسبُ أنّها لن تتمكّن هذه المرّة من تقديم تبرير مقنع. أمّا بالنّسبة إليك، فقد كنتُ أعرفُ أنّك ستقفُ إلى صفّها كعادتك. ولكن، تذكّر يا ماثيو أنّي أنا المسؤولة عن تربيتها».

كان الظّلامُ مُطبقا عندما جهز العشاء. ومع ذلك، لم تظهر أيّ علامة عن قدوم آنْ، مُسرعة عند جسر الحطب أو عابرة مسلك العشّاق وهي تركضُ لاهثة وعلى ملامحها حسرةُ من أغفل واجباته. غسلت ماريلاّ الصّحون. ورتّبتها في أماكنها. ثمّ احتاجت إلى شمعةٍ تُضيء بها القبو. فصعدت إلى الغرفة الشّرقيّة لتُحضر الشّمعة المنتصبة عادة على مكتب آنْ. وما أن أشعلت ماريلاّ الشّمعة والتفتت، حتّى رأتْها ممدّدةً في سريرها ورأسُها غارق بين الوسائد.

«الرّحمةَ يا ربّ!»، هتفت ماريلاّ في ذهول. «هل كنتِ نائمة يا آنْ؟».

«لا».

«هل أنت مريضة إذنْ؟»، سألتْ ماريلاّ في قلق، وهي تدنو من السّرير.

انكمشتْ آنْ على نفسها. وتمسّكت بوسائدها، كأنّها تُريدُ أن تختفي عن جميع الأنظار.

«لستُ مريضة. ولكن، رجاء يا ماريلاّ. اذهبي. ولا تنظري إليّ. إنّي عالقة في أعماق اليأس. ولم أعد أهتمّ بمن يتفوّق في الصّفّ أو يكتب أفضل المواضيع الإنشائيّة أو يغنّي في مدرسة الأحد. لم

تعد تعنيني هذه التّفاصيلُ الصّغيرةُ، لأنّي لن أستطيع الذّهاب إلى أيّ مكان بعد الآن. انتهتْ مسيرتي. فرجاء، غادري يا ماريلاّ. ولا تنظري في وجهي!».

«ما هذا الذي تقولينه؟»، سألت ماريلاّ التي غمرها الفضول. «آنْ شيرلي! ما مشكلتكِ؟ ما الذي حدث لك؟ انهضي الآن. وأجيبيني. اللّحظةَ، قلتُ لك!».

انزلقتْ آنْ من فراشها. ووقفتْ على الأرضيّة مُنصاعة في خنوع.

«انظري إلى شعري يا ماريلاّ»، همستْ.

استجابتْ ماريلاّ لطلبها. فتأمّلت شعرها المنسدلَ بكثافة على ظهرها، وهي تشعر يقينا بأنّ مظهره غريب جدّا.

«آنْ شيرلي! ماذا فعلتِ بشعركِ؟ لماذا؟ إنّه أخضر!».

كان يمكنُ اعتبارُه أخضر لو وُجد فيه أيّ شَبَه بإحدى الألوان الأرضيّة. ولكنّه كان مائلا إلى خضرة برونزيّة فظيعة، تتخلّلهُ بعضُ خصلات حمراء تزيد في فظاعته. طيلة حياتها، لم تر ماريلاّ ما هو أكثر بشاعة وغِلظة من شعر آنْ في تلك اللّحظة.

«هو كذلك... أخضر»، قالتْ آنْ بحزن. «كنتُ في ما مضى أحسبُ ألاّ شيء أسوأ من الشّعر الأحمر. ولكنّي الآن أعرف أنّ الشّعر الأخضر هو الأفظع على الإطلاق. أوه يا ماريلاّ، لا يمكنك تخيّل البؤس الذي يغمرني».

«ولا أعرف أيضا كيف ورّطتِ نفسكِ في هذا المأزق. فما الذي

حدث إذن؟»، قالت ماريلاّ. «الحقي بي إلى المطبخ. الجوُّ باردٌ هنا. وأريدُ أن أعرف ما الذي فعلتِه. كنتُ أترقّبُ إحدى بِدَعكِ منذ فترة. إذْ لم تقعي في أيّ مشكلة منذُ ما يزيدُ عن الشّهرين. وكنتُ واثقة أنّ وقت المتاعب قد حان. ماذا فعلتِ بشعركِ إذن؟».

«صبغتُه».

«صبغتِه؟ صبغتِ شعركِ! آنْ شيرلي! ألا تعرفين أنّ ذلك عمل خبيث؟!».

«بلى. كنتُ على عِلْمٍ بذلك»، اعترفتْ آنْ. «ولكنّي حسبتُ أنّه من الأفضل أن يكون المرءُ خبيثا بعض الشّيء إذا استطاع التّخلّص من الشّعر الأحمر. لقد قدّرتُ التّكلفة مُسبقا يا ماريلاّ. بالإضافة إلى أنّي عزمتُ على مضاعفة أعمالي الصّالحة كي أعدّل الكفّة من جديد».

«حسنا»، قالت ماريلاّ بنبرة ساخرة. «لو قرّرتُ أن أصبغ شعري، فسأختار لونا لائقًا على الأقلّ. أمّا الأخضر، فقطعا لا!».

«ولكنّي لم أقصد أن أصبغه بالأخضر يا ماريلاّ»، اعترضت آنْ في حزن. «إذا أسأتُ التّصرّف ووقعتُ في عمل خبيث، فإنّي ما فعلتُ ذلك إلاّ لسبب وجيه. لقد قال لي إنّ شعركِ سيُصبح أسود جميلا مثل لون الغراب. أكّد لي ذلك بثقة لا ريب فيها. فكيف لي أن أشكّ في ما قاله يا ماريلاّ؟ أعرف جيّدا معنى أن يرتاب النّاس في كلماتك. كما أنّ السّيّدة آلانْ تقول إنّه من غير اللاّئق الشّكُّ في ما يقوله أيّ شخص إلاّ إذا امتلك المرءُ دليلاً قاطعا على كذبه. ولم أكن

أملكُ ذلك الدّليل. الآن، صار بين يديّ. فالشّعر الأخضرُ حجّة كافية لأيّ شخص. ولكنّها حجّة متأخّرة بالنّسبة إليّ. ففي تلك اللّحظة، صدّقتُ كلّ كلمة قالها لي تصديقا أعمى».

«من الذي قال؟ عمّن تتحدّثين؟».

«إنّه البائع المتجوّلُ الذي جاء إلى هنا بعد الظّهر، والذي اشتريتُ الصّبغة منه».

«آنْ شيرلي، كم مرّة طلبتُ منكِ ألاّ تسمحي لأيّ واحد من أولئك الإيطاليّين بالدّخول إلى المنزل! طالما قلتُ إنّي لا أريدُ تحفيزهم على التّجوّل في هذه الأنحاء».

«صدّقيني، لم أُدخله إلى البيت. فقد تذكّرتُ كلماتك تلك. وخرجتُ إليه بعد أن أغلقتُ الباب خلفي بحرص شديد. ثمّ ألقيتُ نظرةً على أشيائه عند العتبة. بالإضافة إلى ذلك، فهو لم يكن إيطاليّا، وإنّما يهوديّا ألمانيّا. وهو يملكُ صندوقا كبيرا مليئا بأغراض مثيرة للاهتمام. قال لي إنّه يعمل بكدّ كبير حتّى يُخرج زوجته وأبناءه من ألمانيا. وتحدّث عنهم بعطف وحنان فائقيْن حتّى رقَّ قلبي له، ورغبتُ في شراء شيء مّا من عنده كي أساعده في تحقيق غايته. وفجأة، لمحتُ زجاجة صبغة الشّعر. قال البائع إنّها كفيلة بتحويل أيّ شعر إلى السّواد الفاحم الجميل. كما أنّ لونها لا يبهُتُ ولا يزولُ مطلقا. حينئذ، تخيّلتُ نفسي بشعر أسود ليليّ يا ماريلاّ. ولم أستطع أن أقاوم الإغراء الرّهيب. ولكن، لم يكن في حوزتي إلاّ خمسون سِنْتًا من مصروفي. أمّا سعر الزّجاجة، فهو خمس وسبعون سِنْتا.

أعتقدُ أنّ البائع المتجوّل ذو قلب طيّب عطوف. فقد قال لي إنّه سيُخفض الثّمن من أجلي تحديدا، وإنّ ذلك أشبه بمنحها لي مجّانا. وهكذا اشتريتُها. وما أن غادر حتّى صعدتُ إلى غُرفتي، وصبغتُ شعري بفرشاة قديمة وفق ما تُبيّنه التّعليماتُ على الزّجاجة. لقد استعملتُ كلّ الصّبغة يا ماريلاّ. صدّقيني، عندما رأيتُ اللّون الرّهيب الذي انقلب إليه شعري، أحسستُ بندم فظيع وتحسّرتُ على الخبث والفساد اللّذيْن وقعتُ فيهما. وعلى ذاك النّحو، مكثتُ حتّى الآن».

«حسنا، أرجو أن يُفيدكَ النّدم في شيء»، قالت ماريلاّ بحدّة. «وأن تنفتحَ عيناكِ على الحقيقة الجليّة؛ لقد ضلّلكِ كبرياؤُكِ. أمّا الآن، فالرّبُّ وحده يعلمُ ما الذي ينبغي فعلهُ. أعتقدُ أنّ عليك أن تغسلي شعركِ جيّدا في البداية. ولنرَ ما سيُفضي إليه ذلك أوّلا».

استجابتْ آنْ لاقتراح ماريلاّ. فغسلتْ شعرها. ورغم أنّها دعكتهُ جيّدا بالصّابون إلاّ أنّه ظلّ على حاله. بل خسرت حينئذ ما تبقّى من خصلات حمراء. لقد قال البائعُ المتجوّل الحقيقة دون شكّ عندما أكّد أنّ الصّبغة لا تبهتُ ولا تزولُ. أمّا في ما عدا ذلك، فإنّ صدقه مظنونٌ به لا محالة.

«ماذا سأفعلُ الآن يا ماريلاّ؟»، سألتْ باكية. «لن أستطيع التّعايُش مع هذه المُصيبة مطلقا. لقد أوشك النّاس أن ينسوا أخطائي السّابقة؛ الكعكة ذات مسكّن الأوجاع، سُكْر ديانا وتطاولي على السّيّدة رايتشلْ ليندْ. أمّا الآن، فلنْ ينسى أحد هذه الحادثة يا ماريلاّ.

وسوف يعتبرني الجميعُ غير جديرة بالاحترام. أوه يا ماريلاّ! «أيّ شبكة معقّدة ننسجُ بأيدينا، عندما يسحبُنا الضّلال أوّل مرّة». هذا مقتطف شعريّ. لكنّه حقيقيّ تماما. آه، كم ستسخر منّي جوزي بايْ وتضحك! ماريلاّ، لا أستطيعُ أن أواجه جوزي بايْ. إنّي أتعسُ فتاة في جزيرة الأمير إدواردْ».

استمرّت تعاسةُ آنْ طيلة أسبوع، لم تغادر خلاله البيت بينما عكفتْ على غسل شعرها بانتظام. وباستثناء ديانا، لم يعلم أيُّ شخص خارج البيت بذلك السّرّ الكارثيّ. ولكنّها أقسمت لآنْ ألاّ تُخبر أحدا بذلك. ويبدو جليّا أنّها وَفتْ بعهدها. لكن، عند نهاية الأسبوع قالت ماريلاّ لآنْ:

«لا فائدة تُرجى من الانتظار يا آنْ. يبدو ألاّ شيء في العالم يُظاهي هذه الصّبغة في قوّتها وفعاليّتها. لا مفرّ إذن من قصّ شعرك. إنّه الحلّ الوحيدُ المتاح أمامكِ. ومن المستحيل أن تغادري البيت بهذا المظهر».

ارتعشتْ شفتا آنْ. ولكنّها أدركتْ الحقيقة المرّة التي تتجلّى في كلمات ماريلاّ. فتنهّدت في اكتئاب عميق. وذهبت لإحضار المقصّ.

«أرجوكِ، قُصيّه دفعةً واحدة يا ماريلاّ. ولينتهِ كلُّ هذا! آه، لقد انفطر قلبي وتحطّم فؤادي. يا لها من مُصيبة غير رومنسيّة! تفقدُ فتياتُ الكتب شعورهنّ بسبب الحمّى أو عندما تُدفعن إلى بيعه من أجل تحصيل المال لعمل خيّر وجليل. ولا شكّ أنّي لا أمانع كثيرا لو كنتُ في مثل حالهنّ. ولكن ما الذي يسلّي القلب ويعزّيه في فقدان

شعر تمّ صبغُه بلون فظيع؟ سأظلّ أنتحبُ وأبكي أثناء قصّكِ له إذا كان ذلك لا يُقاطعك. يا لها من مأساة!».

وهكذا بكتْ آنْ وانتحبتْ. لكنّها عندما صعدت إلى غرفتها وتأمّلتْ وجهَها في المرآة، سكنت من اليأس. أدّت ماريلاّ عملها على نحو مُتقن. وكان من الضّروريّ قصُّ الشّعر عند أقرب نقطة ممكنة من الجذور. ولكي يستخدم المرءُ عباراتٍ لطيفة يمكنُ القول إنّ النّتيجة لم تكن مُشجّعة حقّا. وعلى الفور، أدارتْ آنْ صفحة المرآة إلى الحائط.

«لن أنظر إلى صورتي في المرآة مُطلقا حتّى ينمو شعري من جديد»، هتفت في انفعال.

وفجأة، عدّلت المرآة من جديد. وقالت:

«بل سأنظر إلى نفسي وأذكّرها بذنبها حتّى أكفّر عمّا فعلتُه. سأتأمّلُ صورتي كلّما صعدتُ إلى غرفتي، كي أرى كم صرتُ قبيحة. ولن أحاول كذلك تخيّل الأمر على نحو مُختلف. لم أحسبْ يوما أن أكون مزهوّة بشعري. ولكن رغم لونه الأحمر، يظلّ كثيفا وطويلا ومُجعّدا. والآن، أتوقّع أن تحطّ كارثةٌ أخرى على أنفي».

عندما رجعتْ آنْ إلى المدرسة، أحدث شعرُها القصير ضجّة كبرى. ولحسن حظّها، لم يستطع أيُّ شخص أن يخمّن السّبب الحقيقيّ لهيئته الجديدة، بما في ذلك جوزي بايْ التي لم تُفوّت على نفسها فرصة التّصريح لآنْ بكونها أشبه بفزّاعة حقيقيّة.

«لم أجب بأيّ كلمة عندما قالت لي جوزي بايْ هذا»، اعترفتْ

في ذلك المساء لماريلاّ التي كانت ممدّدة على الأريكة بسبب الصّداع. «اعتبرتُ تعليقها جزءا من عقابي. وبالتّالي، ينبغي عليّ أن أكابده في صمت وصبر. ليس هناك ما هو أقسى من تشبيه المرء بفزّاعة. كم تمنّيتُ أن أردّ عليها في الحقيقة! لكنّي لم أفعل. ألقيتُ عليها في المقابل نظرة ازدراء. ثمّ سامحتُها في سرّي. ألا يشعرُ المرء بالرّفعة والفضيلة عندما يُسامح الآخرين؟ أليس كذلك يا ماريلاّ؟ أنا عازمةٌ على تكريس كلّ جهودي بعد هذه الحادثة من أجل أن أصبح فتاة صالحة. ولن أعمل مجدّدا على أن أصير جميلة. طبعا، من الأفضل أن يكون المرءُ صالحا. أعرفُ ذلك. ولكن، أحيانا يصعبُ على المرء الاعتقادُ في شيء حتّى لو كان يعلمه. أريدُ حقّا أن أصبح صالحة مثلكِ ومثل السّيّدة آلانْ والآنسة سْتايْسي. وأريدُ كذلك أن أكبُرَ وأصيرَ مصدر فخرٍ لك. نصحتني ديانا أن أنتظر حتّى ينمُوَ شعري قليلا، ومن ثَمّ يمكنني أن ألفّ حولهُ شريطا من المخمل الأسود مع عقدة جانبيّة. قالت لي إنّ ذلك سيكونُ جميلا. وسأسمّيها إذن عِصابة الرّأس. يبدو ذلك رومنسيّا. ولكنّي أتحدّثُ كثيرا يا ماريلاّ. هل زدتُ في صداعك؟».

«لقد تحسّنتُ الآن رغم أنّ الصّداع كان فظيعا خلال المساء. لقد صار مُطّردًا جدّا. وهو يسوءُ أكثر في كلّ مرّة. ولذلك، يجب عليّ استشارة الطّبيب في الأمر. أمّا بالنّسبة إلى ثرثرتك، فلا أظنّني منزعجة منها. لقد اعتدتُ عليها آخرَ الأمر».

كانت تلك طريقةَ ماريلا في أن تقول إنّها تُحبُّ سماعَها، وهي تتحدّثُ إليها.

(28)
صبيّةُ الزّنبق عاثرةُ الحظّ

«طبعا، يجبُ أن تكوني إلينْ يا آنْ»، هتفتْ ديانا. «فأنا لا أجرؤ على أن أطفو إلى هناك».

«ولا أنا»، أضافتْ رُوبي غيليزْ. «لن أمانع على الاستسلام للتّيّار إذا رافقتني واحدة أو اثنتان منكنّ على ظهر القارب. يمكننا حينئذ الجلوس عليه. وسينقلبُ الجوُّ إلى المتعة. أمّا أن أُرخي جسدي وأتظاهر بالموت، فهذا محال لأنّني سأموتُ ساعتها من الخوف».

«لا شكّ أنّها تجربة رومنسيّة»، أقرّتْ جايْن آندرُوزْ. «لكنّي أعرفُ أنّني لا أستطيع الثّبات في مكاني. وبدلا من ذلك، سأظلّ أطلّ من حين إلى آخر لأتحقّق من مكاني، وأتثبّت ما إذا كنتُ قد انجرفتُ بعيدا. وكما تعلمين يا آن، سيُفسدُ ذلك المشهدَ كلّه».

«ولكن، كيف تكونُ إلينْ حمراء الشّعر؟ أهناك ما هو أسخف من هذا؟»، احتجّت آنْ في ضيق. «لستُ خائفة من العوْم. كما أنّي أحبُّ فعلا أن أكون إلينْ. ومع ذلك، فالأمرُ ما يزال سخيفًا. وينبغي على رُوبي أن تؤدّي دورها. فهي شقراءُ ذاتُ شعر ذهبيّ طويل. هل نسيتنّ ذلك المقتطف الذي يقول: «كان شعرُ إلينْ اللاّمعُ ينسابُ على سطح الماء»؟ بالإضافة إلى ذلك، كانت إلين

صبيّة بلون الزّنبق. ولا يمكنُ لفتاة صهباء ذات شعر أحمر مثلي أن تكون صبيّةَ الزّنبق».

«إنّ بشرتكِ بيضاءُ فاتحة مثل روبي تماما»، قالت ديانا بجدّيّة. «كما أنّ شعرك صار أشدّ قتامة ممّا كان عليه قبل أن تقصّيه».

«آه، هل تعتقدين ذلك حقّا؟»، هتفتْ آنْ التي تورّدتْ وجْنتَاها على الفور من فرط البهجة. «لاحظتُ ذلك مرّاتٍ كثيرةً. لكنّي لم أجرؤ على سؤالِ أيّ شخص عن ذلك حتّى لا يخيّب ظنّي. ديانا، هل تعتقدين أنّ بإمكاني الآن اعتباره كستنائيّا؟».

«نعم. وأعتقدُ أنّه جميلٌ جدّا»، أجابت ديانا وهي تتأمّل بإعجاب شعرَ آنْ القصير الأجعد المتموّج على رأسها والمثبَّت بأناقة بواسطة شريط مخمليّ أسود ذي عقدة جانبيّة.

كنّ واقفاتٍ عند ضفّة البركة تحت منحدر البُستان، حيثُ يتقدّمُ نتوءٌ أرضيّ صغير مُسوَّرٌ بأشجار البتولا وسط المساه. وفيه بُنيت قاعدةٌ خشبيّة تمتدُّ إلى المياه، كي يستخدمها صيّادو السّمك والبطّ. كانت روبي وجاين تقضّيان تلك الأمسية الصّيفيّة مع ديانا قبل أن تلتحق بهنّ آنْ لتلعب معهنّ.

لقد أمضت آنْ وديانا جُلّ أوقات لعبهما في ذلك الصّيف حول البركة. أمّا فردوسُ البرّيّة، فقد صار جزءا من الماضي، بعد أن قطع السّيّدُ بيلْ بكلّ قسوة حلقة الأشجار الصّغيرة في مرعاهُ الخلفيّ خلال الرّبيع.

في ذلك اليوم، جلستْ آنْ بين الجذوع. وبكتْ طويلا، دون

أن تغفل طبعا عن رومنسيّة الموقف. ولكن سُرعان ما تسلّتْ عنها أحزانُها. ونسيت الأمر. ففي نهاية المطاف، صبيّتان كبيرتان في الثّالثة عشرة وتوشكان على بلوغ الرّابعة عشرة، مثلها هي وديانا، لا تحتاجان بعد الآن إلى التّرفيه عن نفسيهما بالبحث عن مسرح للّعب. بالإضافة إلى ذلك، توجد أنشطة كثيرةٌ ممتعة يمكنُ ممارستُها عند البركة. كان من الرّائع صيدُ سمكِ السّلمون من فوق الجسر أو التّجذيفُ في البركة على متن القارب الصّغير المسطّح الذي يستعملُه السّيّد باري لصيد البطّ، والذي تعلّمتا أخيرا كيفيّة قيادته.

كانت فكرة آنْ أن تقوم الفتياتُ في ذلك المساء بتمثيل قصّة إلينْ. لقد درسن خلال الشّتاء الماضي قصيدة تِنيسُونْ[1] التي تقصّ حكايتها، بعد أن قرّر مُشرفُ التّعليم أن يُدرجها في برنامج اللّغة الإنجليزيّة الخاصّ بكلّ مدارس جزيرة الأمير إدواردْ. وهكذا حلّل التّلاميذُ القصيدة. وقطّعوها ومزّقوها إلى أشلاء صغيرة حتّى صار من العجيب أن يظلّ فيها أيُّ معنى إضافيّ يمكنهم العثور عليه. ولكن على الأقلّ، أصبحت الصّبيّةُ الجميلةُ ذات لونِ الزّنبق وكذلك لانسْلُوتْ وغوِينفِيرْ والملكُ آرثرْ أشخاصا حقيقيّين بالنّسبة إليهم، حتّى إنّ آنْ عانت من الحسرة الشّديدة لأنّها لم تولد في قصر كامْلُوتْ، وظلّت تُردّد في كلّ مرّة: إنّ تلك الأيّام أكثر رومنسيّة من أيّامنا هذه.

(1) ألْفرِيدْ تِنيسونْ (1809-1892): شاعر إنجليزيّ من أبرز شعراء القرن التّاسع عشر. عُيّن شاعر البلاط سنة 1850. له قصيدة شهيرةٌ عنوانها لانسْلُوتْ وإلينْ. وهي القصيدة التي تقصّ حكاية إلينْ صبيّة الزّنبق.

تلقّت الفتياتُ اقتراح آنْ بحماس شديد. وكنّ قد اكتشفن من قبلُ أنّهنّ كلّما دفعن القارب من مرساه، يسحبهُ التّيّار إلى أسفل الجسر ثمّ يُرسيه في بقعة خفيضة عند منعطف البركة. وكان ذلك مواتيا جدّا لتمثيل حكاية إلينْ.

«حسنا، سأمثّل دور إلينْ»، قالتْ آنْ وهي تستسلمُ مُكرهَة، رغم ابتهاجِها بأداء دور البطولة. لقد كان حسّها الفنّيّ يدفعُها إلى الاعتقاد بضرورة استجابة الممثّل لخصائص الشّخصيّة. وهو أمرٌ مستحيل بالنّسبة إليها في ما يتعلّقُ بدور إلينْ. «روبي عليكِ أن تؤدّي دور الملك آرثر. وستأخذُ جاين دور غوينفيرْ. أمّا ديانا، فستتقمّصُ شخصيّة لانسْلُوتْ. ولكن، يجبُ أن تمثّلن في مشاهد البداية أدوار الإخوة والأب. علينا أن نتجاهل دور الخادم الأصمّ. إذ ليس هناك متّسعٌ في القارب لشخصين عندما يكونُ أحدهما ممدّدا. علينا أن نُغطّي القارب بالحرير الأسود، علامةً على الحِداد. سيفي بهذا الغرض شالُ أمّك الأسود يا ديانا».

وإذْ تمّ جلبُ الشّال الأسود، نشرتْهُ آنْ على القارب. ثمّ تمدّدت على سطحه، مغمضة العينين وهي تُقاطعُ ذراعيْها على صدرها.

«أوه، تبدو ميّتة حقّا!»، همست رُوبي غيليزْ في توتّر وهي تتأمّل الوجه الصّغير السّاكن الذي انعكست عليه ظلالُ أشجار البتولا المتمايلةُ. «يدفعُني هذا إلى الشّعور بالذّعر يا بنات. أتعتقدن أنّه من السّليم أن نمثّل على هذا النّحو؟ تقول السّيّدةُ ليندْ إنّ كلّ أنواع التّمثيل مندرجة في الخبائث والأعمال السّيّئة».

«روبي، لا تذكري السّيّدة ليندْ الآن!»، هتفتْ آنْ بحزم. «سيُؤثّرُ ذلك سلبا على آدائنا، لأنّ ما نعيشهُ الآن حدث قبل مئات السّنوات من ميلاد السّيّدة ليندْ. جايْن، تكفّلي بهذه الإجراءات. فمن السّخيف أن تتكلّم إلينْ وهي ميّتة».

اندفعتْ جايْن لتحمّل المسؤوليّة. لم تكن هناك أيّ قطعة قماش ذهبيّة لتغطية الجثّة. فتمّت الاستعاضة عنها بوشاح بيانو يابانيّ أصفر. وقد كان في واقع الأمر خير بديل. أمّا بالنّسبة إلى الزّنبقة البيضاء التي استحال العثور عليها، فقد أبدلتْ بسوسنة زرقاء وُضعت في يد آنْ. ولم تختلف كثيرا عن الصّورة المرجوّة.

«صارت جاهزة»، هتفتْ جايْن. «علينا أن نقبّل جبينها، بينما تقولين أنتِ يا ديانا ما يلي: «الوداعَ الأبديّ يا أختاه!». وأنت يا روبي، ستهتفين: «وداعا أُخيَّتي الحلوة». وحاوِلا أن تجعلا كلماتكما مُفعمةً بالكآبة والحزن قدر استطاعتكما. وأمّا أنت يا آن، فبحقّ الرّبّ ابتسمي قليلا! ألا تتذكّرين كلمات القصيدة التي تُشير إلى أنّ إلينْ «تتمدَّدُ كأنّها تبتسمُ». هكذا أفضل. والآن، هيّا فلندفع القارب!».

وهكذا دُفع القاربُ. فارتطم في البداية بعمودٍ قديم مَطمُور في التّراب. انتظرتْ ديانا وروبي وجايْن إلى أن التقط التّيّارُ القاربَ، وشرع في سحبه إلى الجسر. وحينئذ، ركضن على امتداد الطّريق وسط الغابة حتّى بلغن الأرض المنخفضة، حيث سيستقبلُ لانسْلُوتْ وغوينفيرْ والملكُ آرثر صبيّة الزّنبق.

طيلة بضع دقائق، انزلقتْ آنْ طافيةً على المياه وهي تتلذّذُ ملء قلبها برومنسيّة المشهد. وفجأة، حدث شيءٌ مّا لا علاقة له بالرّومنسيّة. بدأ الماءُ يتسرّبُ إلى القارب. وسريعا، صار لزاما على إلينْ أن تنهض فتقف على قدميها. نفضت عنها قطعة القماش الذّهبيّة. وأزاحت عنها وشاحَ الحداد الأسودَ. ثمّ تفحّصتْ قعر القارب، حيثُ وجدت الشّقَّ الكبير الذي تتسرّبُ منهُ المياه. لا شكّ أنّ العمود الذي اصطدم به القاربُ في البداية هو الذي أحدث هذا الشّقّ. لم تعرف آنْ هذه الحقيقة. لكنّها لم تفشل في تبيُّن الخطر المُحدِق بها في تلك اللّحظات. بل فهمتْ على الفور أنّه إذا استمرّ تدفّق الماء بنفس الوتيرة فإنّ القارب سيمتلئُ سريعا بالمياه، ويغوص إلى الأعماق قبل أن يدرك الأرض المنخفضة. ولكن، ماذا عن المجاذيف؟ لقد تُركتْ هناك على اليابسة.

أطلقتْ آنْ صرخة فزع صغيرة لم تدرك سمع أحد. شحُب وجهها. وابيضّ لونُها حتّى شفتيْها. ولكنّها تمالكت نفسها رغم ذلك. لم تكن لديها أيّ فرصة للنّجاة ما عدا واحدة فحسب.

«لقد كنتُ مذعورةً على نحو فظيع»، قالت للسيّدة آلانْ في اليوم التّالي. «وشُبّه لي أنّ القارب استغرق سنينَ طويلةً قبل أن ينجرف نحو الجسر، بينما ظلّ منسوبُ المياه يرتفع بنسق سريع. حيئنذ، صلّيتُ يا سيّدة آلانْ بخشوع كبير، دون أن أغمض عينيّ، لأنّي كنتُ أعرفُ أنّ الطّريقة الوحيدة التي يمكنُ للرّبّ أن يستخدمها في إنقاذي هي أن يدفع القارب ليدنو من إحدى أعمدة

الجسر، حتّى يتسنّى لي أن أتشبّث به. فكما تعلمين جيّدا، ليست تلك الأعمدةُ سوى جذوعِ أشجار قديمة مازالت تحتفظُ بالكثير من العقد والفروع المتشعّبة. لا شكّ أنّه كان من الضّروريّ أن ألجأ إلى الرّبّ في تلك اللّحظات العصيبة. ولكن، تحتّم عليّ كذلك أن أقوم بدوري من خلال المراقبة والحذر. وقد أدركتُ ذلك على الفور. اكتفيتُ بالقول: «إلهي العزيز، أرجوكَ خذ القارب إلى جوارِ أحد الأعمدة. وسأتكفّلُ بما تبقّى». وظلّلتُ أردّدُ الصّلاة نفسها مرّات ومرّات. طبعا، لا يمكنُ للمرء في ظروفٍ كتلك أن يفكّر في إنشاء صلاة مُزخرَفة بالبلاغة والأساليب الأدبيّة. ولكنّ صلاتي قد قُبلتْ منّي على أيّة حال. واستجاب الرّبُّ لدعائي، لأنّ القارب اصطدم فجأة -ولوهلة- بأحد الأعمدة. لكنّها كانت كلّ ما أحتاجُ إليه كي أضع الغطاء والشّال على كتفي، وأتمسّك بجذع أرسلتهُ العناية الإلهيّة إلى هناك. وهكذا وجدتُ نفسي، متشبّثة بالجذع القديم وعالقة. لا أستطيع صعودا أو نزولا. كم كان الموقفُ خاليا من الرّومنسيّة! ولكنّ الرّومنسيّة كانت آخر همّي في ذلك الحين. إذ لا يُفكّر المرء كثيرا في الرّومنسيّة عندما يفلتُ لتوّه من قبر مائيّ. على الفور، رتّلتُ صلاة حمد. ثمّ ركّزتُ كلّ انتباهي على التّشبّث جيّدا. فقد عرفتُ أنّ عليّ التّعويل على المساعدة البشريّة، على الأرجح، كي أصل إلى اليابسة.

انجرف القاربُ تحت الجسر. ثمّ غرق على الفور في عمق التّيّار المتدفّق. كانت روبي، جاين وديانا ينتظرن قدومي عند الأرض المنخفضة. وعندما لمحن القارب يغرقُ، كنّ متيقّناتٍ من أنّ آنْ

قد غرقتْ معه أيضا. ولوهلة، تسمّرن في مكانهنّ، شاحبات كأنّهنّ قطعُ ورق بيضاء وجامدات من فرط الفزع من المأساة. ثمّ صرخن بكلّ ما تملكهُ أصواتُهنّ من قوّة. وركضن مسعوراتٍ عبر الغابة، دون أن يتوقّفن ولو للحظة أثناء عبورهنّ من الطّريق الرّئيسيّ ليُلقين نظرة على الجسر. وبينما كانت آنْ متمسّكة بملاذها الهشّ، لمحت أطيافهنّ وسمعت صرخاتهنّ المدوّية. ستأتي المساعدةُ قريبا. لكنّ وضعها في الأثناء كان غير مريح وخطيرا جدّا.

مرّت بضع دقائق. وكانت كلّ واحدة منها أشبه بالسّاعة بالنّسبة إلى صبيّة الزّنبق عاثرةِ الحظّ. لماذا لم يصل أحد لإنقاذها؟ أين اختفت الفتيات؟ هل أغمي عليهنّ جميعا يا تُرى؟ ماذا لو لم يأت أحد؟ هل يبلغ بها التّعبُ حدّا تفشلُ معه في مزيد التّشبّث؟ تأمّلت آنْ الأعماق الخضراء الملعونة تحتها، وهي تموّجُ ظلالا دُهنيّة طويلةً. فارتجف جسدُها تماما. وأخذ خيالُها يصوّر لها جميع الاحتمالات المُرعبة.

وفي اللّحظة التي أحسّت فيها أنّها لم تعد قادرة على تحمّل آلام ذراعيْها ومعصميْها، لمحتْ غيلبرتْ بلايْث تحت الجسر، وهو يجدّف في زورق السّيّد هارمُونْ آندرُوزْ. ألقى غيلبرتْ نظرة عابرة. فاندهش تماما، وهو يُلاحظُ وجها صغيرا شاحبا -ولكنّ ملامح الازدراء تكسوه- ذا عينيْن رماديّتين فزعتيْن لا تخلوان من الاحتقار.

«آنْ شيرلي! بحقّ الرّبّ، كيف وصلتِ إلى هنا؟»، صاح في عجب.

ودون أن ينتظر جوابا، اقترب بواسطة الزّورق من العمود. ومدّ يده إليها. لم يكن هناك أيّ مجال لآنْ كي ترفض. تمسّكت بيد غيلبرتْ بلايثْ. وتسلّقت الزّورق. ثمّ جلستْ عند مؤخّرته، مكسوّة بالوحل وغاضبة. وبين ذراعيها، استلقى الشّال الأسودُ المبلّل وغطاء الحرير. لا شكّ أنّ صعوبة الموقف الذي علقت فيه لم يكن يسمح لها بالتّعالي والكبرياء.

«ماذا حدث يا آنْ؟»، سألها غيلبرتْ وهو يرفع المجدافين.

«كنّا نمثّل إلينْ»، قالت آنْ في برود دون أن تتأمّل مُنقذها. «وكان عليّ أن أستلقي على البارجة -أعني القارب- في انتظار أن يجرفني التّيّار إلى قصر كاملوتْ. وفجأة، أخذ الماءُ يتسرّبُ إلى القارب. واضطررتُ إلى التّمسّك بذلك العمود، بينما غادرت الفتيات طلبا للنّجدة. هلاّ تفضّلتَ بإيصالي إلى اليابسة؟».

استجاب غيلبرتْ لرغبة آنْ. فقاد الزّورق إلى اليابسة. وهناك، قفزتْ آنْ برشاقة، بعد أن رفضت أيّ مساعدة منه.

«أنا ممتنّة لك جدّا»، قالت في استعلاء وهي تلتفتُ دونه. لكنّ غيلبرتْ قفز أيضا من الزّورق. واستوقفها واضعًا يدهُ على ذراعها.

«آنْ!»، قال في لهفة. «اسمعيني رجاء! ألا يمكنُ أن نصبح صديقيْن؟ أنا آسف جدّا لأنّني سخرتُ يوما من شعركِ. أردتُ فقط أن أمازحكِ ساعتها. ولكن، حدث هذا منذُ زمن بعيد. وأنا أعتقدُ أنّ شعركِ جميل جدّا. حقّا، أنا أعني ما أقوله. فلننسَ ذاك الماضي رجاء. ولنكنْ صديقيْن!».

تردّدتْ آنْ لوهلة. وأحسّت فجأة، تحت طبقات الكبرياء والغضب، بإحساس غريب مفاجئ. ورأت في تلك النّظرة التي يمتزجُ فيها الخجل باللّهفة في عيني غيلبرتْ العسليّتيْن شيئا مّا لطيفا ومُحبّبا إلى النّفس. أرسل قلبها نبضا غريبا ووجيزا. ثمّ استردّ غيظُها مكانه المألوف. فاسترجعت ذلك المشهد الذي مضت عليه سنتان بنفس الحرارة والحيويّة السّابقة، كأنّه قد حدث أمس. لقد لقّبها غيلبرتْ بالجزرة. ودفعها إلى الشّعور بالخزي والعار أمام المدرسة كلّها. كان استياؤُها، الذي قد يُثير الضّحك على الأرجح بالنّسبة إلى البالغين الكبار، ثابتا صامدا لم ينقص أو يُلطّف في شيء. إنّها تكره غيلبرتْ بلايْث. ولن تسامحه طيلة حياتها مُطلقا.

«لا»، ردّت ببرود. «لن أكون صديقة غيلبرتْ بلايثْ مُطلقا. لا أريد ذلك بتاتا».

«حسنا، لكِ ذلك»، اندفع غيلبرتْ من جديد نحو الزّورق. وقد احمرّت وجنتاهُ غضبا. «لن أطلب منك مجدّدا أن نكون صديقيْن يا آنْ شيرلي! اعلمي أنّ ذلك لا يهمّني».

سحب زورقه بضربات قويّة متحدّية من مجدافيْه، بينما توغّلتْ آنْ في المسلك الصّغير المكسوّ بالسّرخس تحت أشجار القيقب. ورغم أنّها مشت رافعةً رأسها بشموخ، فإنّها لم تستطع منع نفسها من الإحساس بوخز من النّدم، حتّى إنّها تمنّت لو أجابت غيلبرتْ على نحو مغاير. طبعا، لقد أهانها من قبل وبفظاعة رهيبة. ومع ذلك...

وفي مُحصَّل الأمر، شعرت آنْ ألاّ شيء سيدفعها إلى التّوازن من جديد باستثناء أن تخلو بنفسها وتستغرق في البكاء من أعماق قلبها. لقد كانت متوتّرة جدّا. إذ شرع ردُّ فعلها على الخوف الشّديد والتّمسُّك الطّويل بالعمود يُجلي نفسهُ لها.

عند منتصف المسلك، التقتْ آنْ بجايْن وديانا وهما تركضان عائدتيْن إلى البركة، أشبه بالمجنونتيْن. لم تعثر الفتياتُ على من يُساعدهنّ في منحدر البُستان. إذ كان السّيّدُ والسّيدةُ باري خارج المنزل. وهناك انفجرت روبي غيليزْ باكيةً. وفقدت تماسكها تماما. ولهذا السّبب، خلّفتْها جايْن وديانا وحدها حتّى تتجاوز نوبتها. واتّجهتا بسرعة شديدة إلى الغابة المسكونة ومن ثمّ الغدير فالضّيعة الخضراء. لكنّهما لم تعثرا على أحد هناك، لأنّ ماريلاّ غادرتْ إلى كارمُودي بينما كان ماثيو يخلطُ التّبن في الحقل.

«أوه يا آنْ»، صاحتْ ديانا، وهي تحتضنها وتبكي. «أوه يا آنْ! حسبنا أنّ... أنّك... غرقتِ. وشعرنا أنّنا قاتلاتُكِ... لأنّنا أجبرناكِ...على أن تكوني إلينْ. روبي غارقة في حالة هستيريّة. آه، كيف تمكّنتِ من النّجاة؟».

«تمسّكتُ بأحد الأعمدة»، شرحتْ آنْ مُنهكة. «ثمّ جاء غيلبرتْ بلايثْ في زورق السّيّد آندرُوزْ. وأوصلني إلى اليابسة».

«أوه يا آنْ! يا له من فتى رائع! يا للرّومنسيّة!»، قالتْ جايْن وقد عثرتْ أخيرا على نفَسٍ يسمح لها بالكلام. «لا شكّ أنّكما ستتصالحان بعد الآن».

«لا شكّ أنّي لن أصالحه»، صاحتْ آنْ، وقد استعادت لوهلة روحها القديمة. «كما لا أريدُ سماع كلمة رومنسيّة مطلقا، يا جايْن آندروزْ. أنا آسفةٌ جدّا لأنّكما شعرتما بالخوف الشّديد بسببي. الذّنبُ ذنبي. أشعرُ أنّي وُلدتُ دون شكّ مُقترنةً بسوء الحظّ. كلّ ما أفعله يوقعني أو يوقع أحبَّ أصدقائي في ورطة. ها إنّنا قد فقدنا قارب أبيك يا ديانا. ولديّ حدْسٌ بأنّنا سنُمنع من التّجديف في البركة مجدّدا».

أثبت حدسُ آنْ جدارته بالثّقة التي لا تستحقُّها عادة مثل هذه الأحاسيس. وعمّ الذّعرُ في ذلك المساء منزليْ كاثبرتْ وباري عندما أدركهما نبأ ما حدث في البركة.

«متى تملكين ولو نُتفةً من العقل والرّصانة يا آنْ؟»، صاحتْ ماريلاّ.

«آه، سيأتي يوم أحصّلُ فيه ذلك دُون شكٍّ يا ماريلاّ»، أجابتْ آنْ في تفاؤل. فقد لجأتْ سلفا إلى غرفتها الشّرقيّة. وغرقت هناك في عزلة أتاحت لها أن تُسرّح توتُّرها المكبوت في شكل بكاء طويل مسترسل. «لا شكّ أنّ إمكان تعقُّلي قد صار أكبر من أيّ وقت مضى».

«لا أرى ذلك حقّا»، قالت ماريلاّ.

«حسنا»، أضافتْ آنْ بنبرة من يشرحُ شيئا غامضا. «لقد تعلّمتُ اليوم درسا جديدا وقيِّما. ارتكبتُ منذ قدومي إلى الضّيعة الخضراء سلسلةً طويلة من الأخطاء. وقد ساعدني كلّ خطإ في تعلُّم شيء مّا

ومعالجة نفسي من عيب عظيم. علّمتني حكاية مشبك الجمشت ألاّ أعبث بما يملكه الآخرون. وعالجتني قصّة الغابة المسكونة من الانقياد بلا هوادة إلى خيالي. دفعتني الكعكةُ ذاتُ مسكّن الأوجاع إلى الانتباه والتّركيز أثناء الطّبخ. أمّا صبغة الشّعر، فقد عالجتني من الاختيال والكبرياء. وقد توقّفتُ الآن عن التّفكير في شعري وأنفي. أو فلأقلْ إنّي أفعل ذلك نادرا جدّا. أمّا بالنّسبة إلى خطأ اليوم، فسيعالجُني دون شكّ من الإفراط في الرّومنسيّة. لقد خلصتُ إلى أنّه لا فائدةَ من أن يحاول المرءُ أن يكون رُومنسيًّا في آفونلي. إنّ ذلك أيسرُ على الأرجح في كاملوتْ المُسوّرة بالأبراج قبل مئات السّنين. لكنّ الرّومنسيّةَ لم تعُد تحظى بالتّقدير في زمننا هذا. أؤكّدُ لك يا ماريلاّ أنّك ستُلاحظين قريبا تحسّنا عظيما في سلوكي، في ما يتعلّق بهذه المسألة».

«أرجو ذلك حقّا»، قالت ماريلاّ في ارتياب.

أمّا ماثيو الجالسُ في ركنه صامتا، فقد ربَّت بيده على كتف آنْ ما أن غادرتْ ماريلاّ.

«لا تتخلّي عن رومنسيّتكِ كلّها يا آنْ!»، همس في خجل. «فالقليلُ منها أمرٌ مُستحسنٌ وجميل... لا تفرطي فيها طبعا. ولكنْ احتفظي بقليل منها يا آنْ. احتفظي بالقليل».

(29)

حقبةٌ في حياة آنْ

كانت آنْ تقودُ الأبقار من المرعى الخلفيّ إلى المنزل عبر مسلك العشّاق ذات مساء في شهر أيلول، وقد غمرت أشعّةُ الشّمس الغاربةِ كلّ فسحات الغابة وتجاويفها بحمرة أشبه بلون الياقوت. ومن مكان إلى آخر، كانت تلك الحمرةُ تحطُّ بكثافة. وقد استأثرت خصوصا بظلال أشجار القيقب، بينما امتلأت الأفضيةُ تحت أشجار التنّوب بظلال بنفسجيّة داكنة أشبه بالنّبيذ. كانت الرّياح في الخارج عالية في قممها. وليس هناك على سطح الأرض موسيقى أعذبُ من تلك التي تعزفُها الرّياحُ على أوتار أشجار التنّوب مساء.

تبخترت البقراتُ على امتداد المسلك. ومشت آنْ خلفها حالمةً، وهي تردّدُ بصوت عال أبيات «مارْمِيُون»[1] التي كانت كذلك جزءا من برنامج مادّة اللّغة الإنجليزيّة خلال الشّتاء الماضي، والتي حفظتْها هي وزملاؤها عن ظهر قلب استجابةً لطلب الآنسة سْتايْسي. كانت آنْ مُبتهجة، وهي تُنشد القصيدة مُستجيبة لإيقاع

(1) قصيدة ملحميّة للشّاعر الاسكتلنديّ والتر سكوتْ (1771-1832) تسرد أحداث معركة مارميونْ أو معركة فلودنْ فيلدْ الواقعة في التّاسع من أيلول سنة 1513.

أبياتها السّريع، وتصوّرُ أمام عينيها مشهدَ الرّماح المتقارعة. وفجأة أدركت هذا المقطع:

مكتبة
t.me/soramnqraa

وتوارى الرّمّاحون الأشدّاء
في عمق الغابة الظّلماء

وقفت. وأغمضت عينيها في انتشاء، وهي تتخيّلُ نفسها واحدة من حلقة الأبطال تلك. وما إنْ فتحتهُما ثانيةً حتّى لمحت ديانا، تجتازُ بوّابة حقل باري وعلى ملامحها مظهر الجدّ. فخمّنت أنّ لديها أنباء جديدة. لكنّها تمالكت نفسها كي لا تفشي لهفتها وحماسها.

«أليس هذا المساءُ شبيها بحلم أرجوانيّ يا ديانا؟ إنّه يدفعني إلى الابتهاج بكوني على قيد الحياة. في الأصباح، أشعر دوما أنّ الصّباح هو الأفضل. ولكن عندما يأتي المساء، أغيّر رأيي فأرى أنّ المساء أعذبُ حقّا».

«فعلا، إنّه مساء لطيف جدّا»، قالت ديانا. «ولكن، آه! لديّ أنباء عظيمة يا آنْ. فخمّني ما هي. أمنحكِ ثلاث فرص للمحاولة فحسب».

«قرّرت تشارلوتْ غيليزْ أن تتزوّج في الكنيسة أخيرا. وتُريد السّيّدةُ آلانْ منّا أن نزيّنها؟»، صاحت آنْ.

«لا، لن يوافق حبيبُ تشارلوتْ على ذلك، لأنّه ما من أحد قد تزوّج في الكنيسة من قبل. وهو يعتقدُ أنّ ذلك سيكون أشبه بجنازة. هذا لئيم من جهته، لأنّ الأمر كان ليمتعنا كثيرا. خمّني النّبأ مرّة أخرى إذن».

«ستسمحُ والدةُ جايْن لابنتها بإقامة حفل عيد ميلادها؟».

أومأت ديانا برأسها نفيا. ولمعت عيناها من البهجة.

«لا أستطيع التّفكير بشيء آخر»، قالت آنْ مُستسلِمةً. «إلاّ إذا كان مُودي سْبيرجِنْ ماكْفِرسونْ قد أوصلكِ إلى البيت مساءَ أمس بعد اجتماع الصّلاة. هل فعل ذلك حقّا؟».

«لا، لحسن الحظّ»، ردّت ديانا مُنزعجة. «ما كنتُ لأفتخر بمثل هذا. يا له من كائن بغيض! عرفتُ مسبقا أنّك لن تنجحي في تخمين الأمر. حسنا، تلقّت والدتي اليوم رسالة من العمّة جوزفِينْ تدعونا فيها، أنا وأنت، لزيارتها في المدينة يوم الثّلاثاء القادم ومرافقتها إلى المعرض. هذا هو النّبأ العظيم».

«أوه يا ديانا!»، قالتْ آن، وهي تشعر أنّها في حاجة إلى أن تستند إلى شجرة القيقب طلبا للدّعم. «أصحيح ما تقولينه؟ كلّ ما أخشاهُ ألاّ تسمح لي ماريلاّ بالذّهاب. ستقول لي حتما إنّها لا تريد أن تشجّعني على التّسكّع خارجا. هذا ما قالته لي الأسبوع الماضي عندما دعتني جايْن إلى الذّهاب معها في عربتهم ذات المقاعد المزدوجة إلى الحفل الموسيقيّ الأمريكيّ في فندق وايتْ سانْدْسْ. رغبتُ في قبول الدّعوة حقّا. لكنّ ماريلا قالت إنّه من الأفضل لي -ولجاين كذلك- البقاء في البيت ومراجعة الدّروس. يا لها من خيبة أمل عظيمة! لقد انفطر قلبي تمامًا، حتّى إنّي امتنعتُ عن الصّلاة قبل النّوم. ولكنّي ندمتُ على ذلك لاحقا. فاستيقظتُ وسط اللّيل. وتلوتُ صلاتي».

«لديّ فكرة جيّدة»، قالت ديانا. «نطلبُ من أمّي أن تتحدّث إلى ماريلاّ وتطلب منها أن تسمح لك بالذّهاب. على الأرجح، ستوافق حينئذ. وإذا فعلت، فإنّنا سنحظى بفرصة العمر يا آنْ. لم يسبق لي أن حضرتُ أيّ معرض في حياتي. وطالما تضايقتُ جدّا كلّما سمعتُ الفتيات يتحدّثن عن زياراتهنّ للمعارض. لقد زارت روبي وجايْن المعرض مرّتيْن من قبل. وها هما تستعدّان للذّهاب مجدّدا هذه السّنة».

«لن أسمح لنفسي بالتّفكير في الأمر حتّى أتأكّد من ذهابي معكِ»، قالت آنْ بنبرة حاسمة. «لأنّي إذا فعلتُ ذلك ثمّ ترفض ماريلاّ الدّعوة، فسأكابد ما لا أطيقه مطلقا. ولكن، إذا أتيح لي الذّهابُ فإنّي سأسعدُ جدّا لأنّ معطفي الجديد سيكون جاهزا عند المناسبة. قالت ماريلاّ إنّ معطفي القديم مازال صالحا لشتاء آخر وإنّ عليّ أن أكتفي بالحصول على فستان جديد. الفستانُ جميل حقّا يا ديانا؛ أزرق داكن وذو تصميم عصريّ. أصبحتْ ماريلاّ تخيطُ لي فساتين وفق الموضة. وتقول إنّها لا تنوي أن تترك المجال لماثيو والسّيّدة ليندْ. هذا يُسعدني كثيرا في الواقع، لأنّه يسهُل على المرء أن يكون صالحا إذا كانت ملابسه عصريّة. وعلى الأقلّ، أجد هذا صحيحا بالنّسبة إليّ. ورغم ذلك، أصرّ ماثيو على أن أحصل على معطف جديد. فاستجابت له ماريلاّ. واقتنت لي قماشا أزرق فاتحا. ثمّ سلّمته لخيّاط حقيقيّ في كارمودي. سوف نتسلّمه منه يوم السّبت المُقبل. أحاول ألاّ أتخيّل نفسي وأنا أتبختر بمعطفي وقبّعتي الجديديْن في رواق الكنيسة يوم الأحد. إذ أخشى ألاّ يكون من الصّوابُ تخيّل

مثل هذه الأشياء. ولكنّها تنزلقُ إلى رأسي رغما عنّي. قبّعتي الجديدة جميلة جدّا كذلك. اشتراها لي ماثيو يومَ ذهبنا معا إلى كارمودي. إنّها واحدة من تلك القبّعات المخمليّة الصّغيرة الرّائجة في أيّامنا هذه. وهي زرقاءُ فيها شُرّابة ورباط ذهبيّ. بالمناسبة، إنّ قبّعتك الجديدة أنيقة يا ديانا. عندما رأيتكِ ترتدينها في الكنيسة يوم الأحد الماضي، انشرح صدري بهجةً وفخرا لأنّك صديقتي الأعزُّ على قلبي. أتعتقدين أنّه من الخطأ أن نفكّر كثيرا في ملابسنا؟ تقول ماريلاّ إنّه سلوكٌ آثِم. ولكنّي أرى فيه موضوعا مثيرا للاهتمام. أليس كذلك؟».

وافقتْ ماريلاّ على ذهاب آنْ إلى المدينة. وتمّ الاتّفاق على أن يصطحب السّيّدُ باري الفتاتيْن يوم الثّلاثاء التّالي. وبما أنّ شارلوتْ تاونْ تبعُد ثلاثين ميلا وأنّ السّيّد باري كان عازمًا على الذّهاب والعودة في اليوم نفسه، فقد كان لِزامًا عليهم مغادرة آفونلي في وقت مبكّر جدّا. لكنّ آنْ أدرجتْ كلّ هذه التّفاصيل في إطار المتعة. واستيقظت يوم الثّلاثاء قبل شروق الشّمس. وتبيّنت من خلال نافذتها أنّ الطّقس سيكونُ معتدلا. فقد لاحظت أنّ السّماء الشّرقيّة خلف تنّوب الغابة المسكونة فضّيّة وخالية من الغيوم. ومن خلال الفجوة في الأشجار، لاح ضوءٌ في الجملونات الغربيّة لمنحدر البستان، ممّا يعني أنّ ديانا قد استيقظت هي الأخرى.

كانت آنْ قد انتهت من ارتداء ملابسها عندما أشعل ماثيو الموقد. فنزلت من غرفتها. ووجدت وجبة الإفطار جاهزة. لكنّ حماسَها كان أشدّ من أن تنفتح شهيّتُها على الطّعام. وبعد انتهاء الإفطار، ارتدتْ معطفها وقبّعتها الجديديْن. واندفعت نحو منحدر

البُستان عبر الجسر سالكةً دغل التّنوب. فوجدت السّيّد باري وديانا في انتظارّها. وانطلقوا جميعا في رحلتهم إلى المدينة.

ورغم طول المسافة، استمتعت آنْ وديانا بكلّ لحظة من لحظات الرّحلة. لا شيء كان أجمل بالنّسبة إليهما من صوت طقطقة العربة على الطّرقات المكسوّة بالنّدى تحت أشعّة الشّروق الحمراء الزّاحفة إلى حقول الحصاد. كان الهواءُ منعشا نضرا، بينما يغلّفُ الضّبابُ الأزرقُ الدّخانيّ شِعاب الوديان والتّلال. كان الطّريقُ يتفرّعُ من حين إلى آخر عبر الغابات، حيثُ بدأت أشجارُ القيقب تُرخي براعمَها القرمزيّة الشّبيهة بلافتاتٍ مُتدلّية. وأحيانا أخرى، يمتدُّ فوق الأنهار على جسور جعلتْ جسمَ آنْ ينكمشُ مُستجيبًا لذاك الخوف القديم المَشُوب بالمتعة. وفي أحيان أخرى، قد ينعطفُ نحو السّاحل مرورا بأكواخ الصّيد الرّماديّة الصّغيرة ذات الأشكال العنقوديّة. ثمّ يصعدُ من جديد نحو التّلال المُطلّة على المُرتفعات المنحنية والسّماء الزّرقاء المكسوّة بالضّباب. ولكن أنّى تقدّم الدّربُ كشف عن مشاهد مُثيرة وجديرة بالنّقاش فيها. كان النّهارُ قد انتصف تقريبا عندما وصلت العربةُ إلى المدينة. فسلكت طريقها إلى بِيتْشْوُودْ، حيث يقعُ قصرُ الآنسة باري الفخمُ، الفسيحُ والقائمُ على مسافة من الشّارع بين عزلة أشجار الدّردار الخضراء وأشجار الزان مُتشعّبةِ الأغصان. استقبلت الآنسةُ باري ضيوفَها عند الباب، وعيناها السّوداوان الثّاقبتان تتلألآن.

«ها قد جئتِ لزيارتي أخيرا أيّتها البنيّةُ آنْ!»، هتفت. «يا إلهي! كم كبرتِ يا طفلة! أرى أنّكِ صرتِ أطول قامة منّي. كما أنّك صرتِ

أجمل وأحلى. لا شكّ أنّكِ تعرفين هذا طبعا. ولستِ في حاجة إلى من يُنبئِك به».

«لا، لم أكن أعرف ذلك»، أجابتْ آنْ وهي تتوهّجُ حيويّة. «ما أعرفه في المقابل هو أنّي لم أعد منمّشة كما كنتُ في السّابق. وهذا ما أحمدُ الرّبّ عليه. لكنّي لم أجرؤ على ترقّب ما هو أكثر من ذلك. ولذلك، تسرّني كلماتك جدّا يا آنسة باري».

كان الأثاثُ في منزل الآنسة باري «فخما على نحو عظيم»، وفق ما صرّحت به آنْ لاحقا. في البداية، ارتبكتْ الصّغيرتان الرّيفيّتان من روعة الصّالون، حيثُ تركتهما الآنسةُ باري وانشغلت بإعداد الغداء.

«أليس شبيها بالبلاط الملكيّ؟»، همست ديانا. «لم أزُر منزلَ العمّة جوزفينْ من قبل. ولم أكن أحسبُ أنّه شاسعٌ ورحب إلى هذه الدّرجة. آه لو كان بإمكان جوليا بيلْ أن ترى هذا! إنّها لا تكفّ عن التّباهي بصالون أمّها».

«سجّاد مخمليّ!»، تنهّدتْ آنْ في تلذّذ. «وستائر حريريّة! ياه! لقد حلمتُ طويلا بهذه الأشياء يا ديانا. ورغم ذلك، فأنا لا أشعر بالرّاحة الآن وهي تُحيط بي. هناك أشياءُ كثيرة في هذه الغرفة. وهي رائعة مبهرة كلّها، ممّا لا يتيح مجالا واسعا للخيال. إنّ هذا ممّا يعزّي به الفقيرُ نفسه؛ قدرته الكبيرة على تخيّل أشياء كثيرة لا حصر لها».

كانت إقامةُ آنْ وديانا في المدينة حدثا مفصليّا، حتّى إنّهما ظلّتا تؤرّخان بالاعتماد عليه طيلة سنين. فمن بدايتها حتّى نهايتها،

اكتظّت بالمُتع والمسرّات. اصطحبتْهما الآنسةُ باري يوم الأربعاء إلى المعرض. فمكثن هناك طيلة النّهار.

«يا للرّوعة!»، هتفتْ آنْ في وجه ماريلاّ لاحقا. «لم أتخيّل طيلة حياتي ما هو أكثر إثارة من ذلك. لا أستطيعُ في الواقع أن أحدّدَ أيّ قسم كان الأكثر إثارة وإمتاعا على الإطلاق. ولكن، يمكنني القول إنّي أحببتُ قسم الخيول والأزهار والزّخارف أكثر من غيرها. تحصّلتْ جوزي بايْ على الجائزة الأولى في حياكة الشّرائط. فسُعدتُ لذلك كثيرا. ثمّ سعدتُ لسعادتي تلك، لأنّ ذلك يعني أنّي بصدد التّحسّن أخلاقيّا. أليس كذلك يا ماريلاّ، بما أنّي ابتهجتُ لنجاح جوزي؟ فاز السّيّدُ هارمونْ آندروزْ بالجائزة الثّانية في مجال التّفّاح الملقَّم. أمّا السّيّدُ بيل، فحصل على الجائزة الأولى من أجل خنزير. قالت ديانا إنّه من السّخف أن يفوز ناظرُ مدرسة الأحد في الكنيسة بمسابقةٍ في الخنازير. ولكنّي لا أرى سببا لذلك. أليس كذلك؟ قالتْ ديانا إنّها ستظلّ تفكّر في الخنازير كلّما رأتهُ يصلّي في خشوع. حازت كلارا لويزْ ماكفرسنْ على جائزة في الرّسم، بينما فازت السّيّدةُ ليندْ بالجائزة الأولى في صنع الزّبدة والجبنة. لقد وجدت آفونلي خيرَ من يمثّلها. أليس كذلك؟ طبعا، كانت السّيّدةُ ليندْ هناك. ولم أعرف حقّا إلى أيّ حدّ أحبّها حتّى لمحتُ وجهَها المألوف بين كلّ أولئك الغرباء. غصّ المكانُ بآلاف النّاس يا ماريلاّ، حتّى إنّي شعرتُ على نحو فظيع بألاّ قيمة لي. أخذتنا الآنسةُ باري إلى المنصّة الكبيرة كي نشاركها مشاهدة سباق الخيول. أمّا السّيّدةُ ليندْ، فرفضت مرافقتنا، لأنّها تعتبرُ سباق الخيول رِجْسا بغيضا لا يليق بعضوة في المجلس

الكنسيّ مثلها. لقد أرادتْ أن تكون قدوة حسنة من خلال ابتعادها عن المنصّة. ولكنّ الجمهور الحاضر كان غفيرا، حتّى إنّه لا يمكنُ ملاحظة غياب السّيّدة ليندْ في ما أعتقده. ومع ذلك، أحسبُ أنّه لا يجدر بالمرء الذّهابُ كثيرا إلى سباقات الخيول، لأنّها ساحرة أكثر ممّا ينبغي. تخيّلي أنّ الحماس بلغ بديانا حدّا اقترحت عندهُ أن تراهنني بعشر سنتات على فوز الحصان الأحمر! رفضتُ ذلك في المقابل، رغم يقيني من عدم قدرته على الفوز. وذلك لأنّي كنتُ عازمةً على رواية كلّ شيء للسّيّدة آلانْ. ولم أكن لأجرؤ على ذكر مسألة الرّهان تلك. ولا شكّ طبعا أنّ القيام بعملٍ لا يقدر المرءُ أن يحدّث به زوجة الكاهن أمرٌ خاطئ. إنّ صداقة زوجة القسّ بمثابة ضمير إضافيّ بالنّسبة إلى المرء. ولحسن حظّي أنّي لم أراهن ديانا. فقد فاز الحصانُ الأحمر في نهاية المطاف. وكان ذلك ليكلّفني عشر سنتات كاملة. أترين؟ الفضيلة جائزة في حدّ ذاتها. لقد رأينا رجلا يطيرُ إلى أعلى بواسطة بالون. ياه! كم أودّ أن أطير في ذلك البالون يا ماريلاّ! سيكون الأمر فاتنا ومُدهشا إلى أبعد حدّ. التقينا كذلك رجلا ينجّمُ ويبيعُ أخبار المستقبل والحظّ. يكفي أن تمنحيه عشر سنتات حتّى يلتقط عصفور صغير ورقة حظّك الخاصّ. منحتْ الآنسةُ باري عشر سنتات لكلّ واحدة منّا حتّى تفوز بورقة طالعها. كانت ورقتي تقول إنّي سأتزوّج رجلا داكنَ البشرة ثريّا جدّا، وإنّي سأعيشُ في منزل أعبرُ من أجل بلوغه البحار. تفحّصتُ بعد ذلك، وبانتباه شديد، كلّ الرّجال السّمر الذين رأيتُهم. ولكن، لم أشعر باهتمام خاصّ بأيٍّ منهم. أحسبُ أنّ الوقت مازال مُبكّرا

للبحث عن ذلك الزّوج. آه يا ماريلاّ! يا له من يوم لا يُنسَى! كنتُ منهكة جدّا حتّى إنّني لم أستطع النّوم في اللّيل. وقد منحتنا الآنسةُ باري غرفة الضّيوف مثلما وعدتني من قبل. إنّها غرفة فخمة وأنيقة يا ماريلاّ. ولكنّ النّوم فيها مختلفٌ، على نحو مّا، عمّا تخيّلتُه في ما مضى. هذا أسوأ ما يحدثُ للمرء عندما يكبر. وقد بدأتُ أدركُ هذه الحقيقة؛ الأشياء التي نُريدها بلهفة شديدة عندما نكونُ أطفالا لا تحافظُ على نصفِ روعتها عندما نحصل عليها في كبرنا».

يوم الخميس، حظيت البنتان بجولة في الحديقة العامّة. وفي المساء، رافقتهُما الآنسةُ باري إلى حفل أقيم في أكاديميّة الموسيقى، تُشاركُ فيه مغنّية أوبرا شهيرة. بالنّسبة إلى آنْ، كان ذلك المساءُ حلما من المتعة المتلألئة.

«آه يا ماريلاّ! إنّه يفوق كلّ وصف. لقد غمرني الحماسُ تماما، حتّى إنّي عجزتُ عن الكلام. وأحسبُ أنّ هذا يمنحك فكرة عن مدى روعته. كانت السّيّدةُ سيلتْسْكي جميلة على نحو مثاليّ، ترتدي ثوبا أبيض لامعا ومرصّعا بالماس. ولكنّي غفلتُ عن كلّ هذا ما أن سمعتُ صوتَها. لا أملك القدرة على أن أصوّر لك مشاعري حينئذ يا ماريلاّ. لقد شعرتُ أنّ بإمكاني أن أصير بنتا صالحة دون أيّ شقاء. وبدت مشاعري أشبه بتلك التي تغمرني عندما أتأمّل النّجوم. ثمّ اغرورقت عيناي بالدّموع. آه، كانت دموع بهجة، حتّى إنّي حزنتُ عندما انتهى الحفل. وقلتُ للآنسة باري إنّي لا أعرف حقّا كيف سأطيق رتابة الحياة العاديّة بعد ذلك. فأجابتني قائلة إنّي سأتجاوز هذا الشّعور على الأرجح إذا قصدنا المطعم المقابل

واشترينا المثلّجات. بدا لي كلامُها مبتذلا في البداية. ولكنّه أثبت صحّته لاحقا. فقد كانت المثلّجاتُ لذيذة جدّا. وكم كان رائعا يا ماريلاّ جلوسُنا هناك في المطعم على السّاعة الحادية عشرة ليلا لنستمتع بتناوُلها. قالت ديانا أعتقدُ أنّي وُلدتُ لأعيش في المدينة. فسألتني الآنسةُ باري عن رأيي في كلامها. وأجبتها بأنّ عليّ التّفكير مليّا في الأمر قبل أن أحصّل رأيي فيه. وكذلك فعلتُ في تلك اللّيلة بعد أن آويتُ إلى السّرير. ذلك هو الوقتُ الأنسبُ للتّفكير يا ماريلاّ. في نهاية المطاف، خلصتُ إلى كوني لم أخلق لحياة المدينة. بل يُسعدني ألاّ أعيش فيها. طبعا، من الجميل أن يرتاد المرءُ المطاعم الفاخرة من حين إلى آخر، فيُمتّع نفسه بتناول المثلّجات. ولكنّ الحياة اليوميّة أمر آخرُ تماما. إذ لا شيء أجملُ من أنْ أكون في الحاديةَ عشرة ليلا مُستلقِية في سريري، عارفةً أنّ النّجوم تتلألأُ خارج نافذتي وأنّ الرّياح تهبُ على أشجار التنّوب عند الغدير. في الصّباح التّالي وخلال تناول الفطور، أعلمتُ الآنسة باري برأيي في المسألة. فضحكتْ على الفور. إنّها تضحكُ دوما من كلّ شيء أقوله، حتّى إذا تعلّق الأمر بمسألة جادّة. لا أحسبُ أنّ ذلك أعجبني يا ماريلاّ. إذْ ما كنتُ أحاول أن أُضحِك أحدا. ولكنّها أفضل سيّدة مضيافة على الإطلاق. وقد عاملتنا على نحو ملكيّ».

حان يومُ الجمعة أخيرا مُصطحِبًا معه أفُقَ العودة إلى البيت. وجاء السّيدُ باري بعربته ليحمل البنتين إلى آفونلي.

«أرجو أن تكونا قد استمتعتُما بوقتكما هنا»، قالت الآنسةُ باري عندما ودّعتْها.

«نعم، بكلّ تأكيد»، أجابتها ديانا.

«وماذا عنكِ أيّتها البنيّةُ آنْ؟».

«لقد استمتعتُ بكلّ لحظة»، هتفتْ آنْ وهي تفتحُ ذراعيها، وتلفّهما حول عنق المرأة العجوز، ثمّ تُقبّل خدّها المجعّد. ما كانت ديانا لتجرؤ مطلقا على فعل شيء كهذا. بل إنّها صُدمت لطلاقة آنْ وراحتها في التّعبير عن مشاعرها. لكنّ الآنسة باري كانت مسرورة. ووقفت في المدخل تتأمّل العربة وهي تتقدّمُ مبتعدة عنها. ثمّ دخلت منزلها الفخم، وهي تتنهّد. لقد عاد إلى وحشته بعد أن هجرته الصبيّتان المفعمتان بحياة نضرة.

كانت الآنسةُ باري في الواقع عجوزا أنانيّة. وبالتّالي، لم تكن تقيّم النّاس إلاّ بحسب قدرتهم على نفعها. ولقد حظيتْ آنْ باهتمامها ومحبّتها، لكونها مسلّية بالنّسبة إليها. ورغم ذلك، فقد شعرت عند الوداع بأنّ استلطافها للبُنيّة لم يعد منصبّا على طريقة كلامها الطّريفة بقدر ما تحوّل إلى حماسها الصّادق ومشاعرها الشّفّافة وحركاتها اللّطيفة وعذوبة عينيْها وشفتيْها.

«حسبتُ أنّ ماريلاّ عجوز غبيّة عندما سمعتُ أنّها تبنّت فتاة من الميتم»، قالت لنفسها. «كنتُ مخطئة في الحقيقة. إذ أصابتْ في ما فعلتْهُ. ولو كان بيتي يضمّ فتاة مثل آنْ، لكنتُ الآن أسعد بكثير».

استمتعت آنْ وديانا برحلة العودة قدر متعتهما في الذّهاب. بل إنّهما وجدتاها أجمل من الأولى، لأنّهما كانتا متيقّنتان هذه المرّة من أنّ البيت في انتظارهما. كان الغروب وشيكا عندما اجتازوا بلدة وايتْ

ساندسْ. ثمّ سلكوا الطّريق السّاحليّ، حيثُ تجلّتْ أمامهم تلالُ آفونلي داكنةً تحت السّماء الزّعفرانيّة، بينما أشرق القمرُ من خلفهم مُطلاّ على البحر حيثُ تنعكسُ أنواره العظيمة. كانت الخلجان الصّغيرة الممتدّة على الطّريق أعاجيب من المياه المتراقصة. كانت الأمواج تتكسّرُ على الصّخور مُحدثة خشخشة ناعمة، بينما تنتشرُ نكهة البحر في الهواء.

«آه، رائعٌ أن يكون المرءُ حيّا، وأن يعود أخيرا إلى البيت»، قالت آنْ وهي تستنشقُ نفسا عميقا.

عندما اجتازتْ جسرَ الحطب فوق الغدير، غمزَ لها ضوءُ المطبخ في الضّيعة الخضراء مُرحِّبًا بعودتها. ومن خلال الباب المفتوح، لاحتْ نارُ الموقد، مُرسلة وَهَجَها الدّافئ في ليل الخريف البارد. ركضت آنْ صاعدة التّلّة. ثمّ دخلت المطبخ، حيثُ ينتظرها عشاء دافئ على الطّاولة.

«ها قد عدتِ أخيرا!»، قالت ماريلاّ، وهي تطوي أدوات الحياكة.

«نعم. وآه يا ماريلاّ! ما أجمل العودة!»، هتفتْ آنْ في ابتهاج. «يمكنني أن أقبّل كلّ شيء، بما في ذلك السّاعة. أوه، دجاج مشويّ يا ماريلاّ! لا تقولي لي إنّكِ أعددتهِ من أجلي».

«بلى»، ردّت ماريلاّ. «فكّرتُ أنّكِ ستكونين جائعة بعد رحلتك الطّويلة، وأنّه من الأفضل لك تناول طعام شهيّ. أسرعي. واخلعي ملابسك. سنتناول العشاء ما أن يصل ماثيو. أنا سعيدة بعودتك يا

آنْ. فقد كانت الأيّام الأربعة التي غبتِ فيها موحشة. كما أنّه لم يسبق لي أن عشتُ أيّاما أطول منها».

بعد العشاء، جلستْ آنْ أمام الموقد بين ماثيو وماريلاّ. وراحت تقصّ عليهما كلّ تفاصيل رحلتها.

«لقد حظيتُ بوقت رائع»، اختتمتْ كلامها بسعادة. «وأشعرُ أنّه يُعيّنُ حقبةً من حياتي. ولكنّ أفضل ما فيها هو العودةُ إلى البيت».

(30)

تأسيسُ صفّ الأكاديميّة الملكيّة

وضعت ماريلاّ أدوات الحياكة على حِجْرها. وتراختْ مُسندةً ظهرها إلى الكرسيّ. شعُرتْ بألم في عينيْها. وفكّرتْ في سرّها أنّ عليها تغيير نظّارتها عندما تذهبُ في المرّة القادمة إلى المدينة. فقد اشتدّت عليها آلامُ العينين. وصارت عيناها تتعبان كلّما حطّ الظّلام.

في الحقيقة، أوشك الظّلامُ أن يحطّ بعد أن خيّم غسقُ تشرين الثّاني على الضّيعة الخضراء. ولم يبق ما يُضيء المطبخ سوى اللّهب الأحمر المتراقص في الموقد، الذي تجلسُ آنْ بالقرب منه، مُحدّقة في الوهج المتّقد، حيثُ تقطرُ مئات الشّموس الصّيفيّة من حطب أشجار القيقب.

كانت منذُ حين، قبل أن ينزلق كتابُها من بين يديها، مُستغرقةً في القراءة. وها هي الآن تطفو في عالم الخيال، وقد انفتح فمُها راسمًا ابتسامة لطيفةً. طفِقتْ تحلمُ بالقصور الإسبانيّة اللاّمعة، وهي تتشكّلُ من ضبابِ خيالها الجامح وأقواس قزحه، وتخوض المغامرات الرّائعة الآسرة في بلاد السّحب العجيبة. وهي مغامراتٌ طالما آلتْ إلى النّصر دون أن تورّطها في أيّ مأزق، مثلما هو الحال في حياتها الواقعيّة.

أخذتْ ماريلاّ تتأمّل آنْ بحنان كان سيجدُ حرجا كبيرا في التّجلّي إزاء أيّ نور آخر غير النّور الخافت المتموّج من الموقد. إذ يعتبر التّعبيرُ عن الحبّ بسهولة في كلمات واضحة وملامح منشرحة درسا تعجزُ ماريلاّ عن تعلّمه طيلة حياتها. ولكنّها تعلّمت في المقابل كيف تحبّ هذه الفتاة النّحيلة ذات العينين الرّماديّتين بعاطفة أعمق وأشدّ من أيّ كتمان. وطالما دفعها هذا الحبُّ إلى الخشية من التّساهل في تربيتها أكثر ممّا ينبغي. بل إنّها شعرتْ بالقلق أحيانا. إذ بدا لها أنّ تعلُّقَ قلبِها بمخلوق بشريّ فانٍ على النّحو الذي تفعله مع آنْ، أقربُ إلى الإثم منه إلى الصّلاح. ولعلّ هذا ما يدفعُها -دون وعي منها- إلى التّكفير عنه بواسطة الصّرامة مع البنت وانتقادِها أكثر ممّا كانت ستفعلُ لو كان حبُّها لها أقلّ حدّة. ودون شكّ، لم تكن آنْ نفسها واعية بهذه المحبّة العظيمة التي تُكنُّها لها ماريلاّ. بل إنّها كثيرا ما اعتبرتْ ماريلاّ امرأة يصعبُ إرضاؤُها، وهي تفتقرُ إلى التّعاطف والتّفهّم. ولكنّها تطرُد في كلّ مرّة هذه الأفكار من رأسها، مُذكّرةً نفسها بما تدينُ به لها.

«آنْ»، قالتْ ماريلاّ فجأة. «زارتنا اليوم الآنسةُ ستايْسي بعد أن غادرتِ مع ديانا».

استيقظتْ آنْ من عالمها الآخر، وقد أجفلتْ وتنهّدت.

«حقّا؟ يؤسفني أنّي لم أكن هنا. لماذا لم تنادي عليّ يا ماريلاّ؟ كنتُ مع ديانا في الغابة المسكونة. فعلا، لا شيء ألطفُ منها في مثل هذا الوقت من السّنة. لقد غرقتْ كلُّ أشياء الغابة الصّغيرة في

النّوم؛ السّراخسُ والأعشاب اليانعة وثمار التّوت. كأنّ شخصا مّا قد طوى الأرض فخبّأها تحت لحافٍ من أوراق الأشجار في انتظار الرّبيع. أعتقدُ أنّ هذا الشّخص هو جنّيّة رماديّةٌ صغيرة ذاتُ وِشاح من قوس قزح، جاءت في آخر ليلة مقمرة وفعلت ذلك. اعترفتُ باعتقادي هذا لديانا. لكنّها لم تعلّق على كلامي مطلقا. يبدو أنّها لم تنس توبيخ أمّها لها بعد حكاية الغابة المسكونة وأشباحها. ياه! كم أثّر ذلك التّوبيخُ سلبا على خيال ديانا! في واقع الأمر، لقد حطّمه. قالت السّيّدةُ ليندْ إنّ ميرتلْ بيلْ كائنٌ مُحطّم. فسألتُ روبي غيليزْ عن سبب ذلك. وأجابتني مُرجِّحةً أنّهُ هجران حبيبها لها. لا تفكّر روبي في أيّ شيء ما عدا الشّبّان اليافعين. وكلّما تقدّمت في السّنّ ساءت حالتُها أكثر. طبعا، ليس هناك مُشكلةٌ في الشّبّان اليافعين في حدّ ذواتهم. وإنّما المشكلة أن يتمّ إقحامهم في كلّ شيء. أليس كذلك؟ أفكّر أنا وديانا، على نحو جدّيّ، في أن نتعاهد على عدم الزّواج مُطلقا، وأن نعيش معا رفيقتيْن حتّى نصير عجوزين لطيفتيْن. لكنّ ديانا لم تتّخذ بعد قرارها النّهائيّ. إذ تفكّرُ أنّه من الأفضل والأنبل ربّما أن تتزوّج كلّ منّا شابّا همجيّا، فاسدَ الطّبع وعنيفا، ثمّ نحاول هدايته إلى الصّلاح. أتعرفين؟ أصبحنا، أنا وديانا، نتناقشُ في مسائل جادّة مؤخّرا. فنحنُ نشعرُ بأنّنا كبُرنا. وما عادت الأحاديث الطّفوليّة تليق بنا. كم يبدو مُهيبا أن يوشك المرءُ على بلوغ الرّابعة عشرة يا ماريلاّ! يومَ الأربعاء الماضي، اصطحبتْ الآنسةُ ستايْسي الفتياتِ اللّواتي في مثل سنّنا في نزهة عند الغدير. وهناكَ، تحدّثتْ في هذا الأمر. وقالت إنّ علينا أن ننتبهَ جيّدا إلى عاداتنا التي نمارسُها

ونراقبَ المُثُل التي نتبنّاها في سنواتِ مراهقتنا هذه، لأنّنا ما أن ندرك العشرين حتّى تتشكّل شخصيّاتُنا نهائيًّا وتستقيم الأعمدةُ التي تنبني عليها حياتنا المُقبلة. قالت لنا كذلك إنّه إذا لم يكن الأساسُ ثابتًا وراسخًا، فإنّنا لن نتوصّل إلى بناء أيّ شيء جديرٍ بالذّكر أو الاعتبار. وفي طريق عودتنا من المدرسة، تحدّثتُ أنا وديانا في هذا الموضوع. لقد شعرنا برهبة كبيرة يا ماريلاّ. وقرّرنا أن نكون حذرتيْن جدًّا في كلّ ما نفعلُه، وأن نكتسب عاداتٍ محترمةً، ونتعلّم كلّ ما يمكنُنا تعلُّمه، ونتّصفَ بالرّصانة ورجاحة العقل ما استطعنا إلى ذلك سبيلا. وعلى هذا النّحو، عندما ندركُ العشرين تكونُ شخصيّتانا قد تطوّرتا كما ينبغي لهما. إنّه مُروّعٌ جدًّا أن يفكّر المرءُ في سنواته العشرين. إذ يبدو ذلك مقترنا بالكبر والتّقدّم في السّنّ. ولكن، لماذا زارتنا الآنسةُ ستايْسي هذا المساء؟».

«هذا ما أردتُ أن أقوله لك منذ حين يا آنْ لو أتحتِ لي فرصة للكلام. لقد جاءت لتحدّثني في شانٍ يخصّكِ».

«يخصّني؟»، بدت على آنْ ملامحُ الخوف. ثمّ احمرّ وجهُها. وهتفتْ:

«أعرفُ ما قالته لكِ. كنت أنوي أن أخبركِ بذلك يا ماريلاّ. ولكنّي نسيتُ للأسف. لقد أمسكتْ بي الآنسة سْتايْسي، وأنا أقرأ «بِنْ هُورْ»[1] بدل العمل على درس التّاريخ الكنديّ. لقد استعرتُه

---

(1) رواية للكاتب الأمريكيّ لويسْ والاسْ (1827-1905) صدرت سنة 1880. وهي تسردُ قصّة أمير يهوديّ متخيّل اسمهُ يهوذا بن هورْ في عصر المسيح. تمّ اقتباسُ

من جايْن آندرُوزْ. وشرعتُ في قراءته خلال استراحة الغداء. ثمّ وصلتُ إلى المقطع الذي يسردُ سباق العربات عندما حان موعدُ العودة إلى الدّرس. لقد كنتُ أتحرّقُ شوقا إلى معرفة نهاية ذلك السّباق، رغم تيقّني من فوز بنْ هورْ المحتوم. وهكذا فتحتُ كتاب التّاريخ على مكتبي. ودسستُ كتاب بن هورْ بين المقعد وركبتيّ. بدا الأمر كأنّي أطالع كتاب التّاريخ على نحو عاديّ تماما. واستغرقتُ في القراءة حتّى إنّي لم أنتبه إلى الآنسة ستايْسي، وهي تتقدّم مُقبلة من عمق القاعة. ولم ألاحظها إلاّ وهي تطلّ فوق رأسي. وتحدّقُ فيّ بنظرة لائمة. كم شعرتُ بالخجل حينئذ يا ماريلاّ، خصوصا عندما سمعتُ ضحكات جوزي بايْ. أخذت الآنسةُ ستايْسي الكتاب من عندي. ولكنّها لم تقل لي أيّ شيء في تلك اللّحظة. وعندما كنتُ أهمّ بالمغادرة لاحقا، استوقفتني وتحدّثت إليّ. قالت إنّ تصرّفي غير لائق لسببيْن اثنين. أمّا الأوّل، فهو إهدار الوقت المخصّص للدّراسة. وأمّا الثّاني، فهو خداع المعلّمة من خلال تظاهري بقراءة كتاب التّاريخ الكنديّ بينما أطالع في الحقيقة قصّة أدبيّة. لم أدرك حقّا أنّ سلوكي يعتبر خداعا إلاّ في ذلك الحين. ولذلك صُدمتُ يا ماريلاّ. وبكيتُ بحرقة. واعتذرتُ من الآنسة ستايْسي. ثمّ وعدتها ألاّ أكرّر مثل ذلك السّلوك مطلقا. بل إنّي اقترحتُ عليها التّكفير عن خطئي عن طريق الامتناع عن قراءة كتاب بنْ هورْ طيلة أسبوع كامل. وعلى هذا النّحو، أحرم نفسي من معرفة ما آل إليه سباق العربات.

الرّواية وتحويلها إلى شريط سينمائيّ من إخراج ويليام وايلرْ بعنوان: «بن هور: حكاية عن المسيح».

في المقابل، قالت الآنسة ستايْسي إنّها لا تريد منّي أيّ كفّارة. وقد عفت عنّي دون مقابل. ولذلك، أعتقدُ أنّه من غير اللّطيف الآن أن تزوركِ وتخبرك بما حدث».

«لم تخض الآنسةُ ستايْسي في هذا الموضوع مطلقا يا آنْ. وإنّما ضميرُكِ المُؤنَّب قد أوقعك في الفخّ. لا يجدر بك اصطحابُ القصص معكِ إلى المدرسة. كما أنّك تُفرطين في قراءة الرّوايات. عندما كنتُ في مثل سنّك، لم يُسمَح لي بالإكثار من مطالعتها».

«ولكن، كيف تعتبرين بن هُورْ رواية، فيما هو أقربُ إلى الكتاب الدّينيّ؟»، استفهمتْ آنْ بنبرة احتجاج. «طبعا، فيه كثيرة من الإثارة تجعله غير لائق للقراءة يوم الأحد. ولهذا السّبب، لا أقرأ منه إلاّ خلال أيّام الأسبوع. بالإضافة إلى ذلك، لا أقرأ أيّ كتاب إلاّ إذا رأت الآنسةُ ستايْسي أو السّيّدةُ آلانْ أنّه كتابٌ مناسب لفتاة أدركت الثّالثة عشرة وتسعة أشهر. هذا ما وعدتُ به الآنسة ستايسي بطلب منها، بعد أن وجدتني أقرأ قصّة عنوانها «لغزُ القصرِ المسكونِ الرّهيبُ». إنّه كتابٌ استعرته من روبي غيليزْ. وهو يتضمّنُ قصّة مُثيرة ومرعبة يا ماريلاّ، حتّى إنّ الدّم تجمّد في عروقي أثناء القراءة. ولكنّ الآنسة ستايْسي قالت إنّه كتابٌ سخيف ومفسدٌ أيضا. وطلبت منّي التّوقّف عن قراءته، وأن أعدها بعدم قراءة ما يماثله من الكتب. وكم شقّ عليّ أن أعيد الكتاب إلى روبي دون أن أكتشف نهاية الحكاية! آخرَ الأمر، انتصرتْ رغبتي في إرضاء الآنسة ستايْسي على فضولي الحارق. رائعٌ جدّا ما يمكنُ أن ينجزه المرءُ يا ماريلاّ، وهو يتحرّقُ توتُّرا لإرضاء شخص آخر يحبّه».

«حسنا، يبدو أنّني سأُشعل المصباح وأنصرفُ إلى عملي»، قالت ماريلاّ. «من الواضح أنّكِ لا تريدين ما قالته الآنسةُ ستايْسي. وتفضّلين بدل ذلك الاكتفاء بسماع صوتكِ».

«أوه يا ماريلاّ! بل أرغبُ في معرفة ما قالته»، صاحت آنْ نادمة. «لن أتفوّه بأيّ كلمة أخرى. أعرفُ أنّي أفرط في الكلام. ولكنّي أحاول حقّا السّيطرةَ على نفسي وتجاوُز الأمر. ورغم أنّي ما أزال ثرثارةً، إلاّ أنّكِ لو عرفتِ حجمَ الأشياء التي أرغب في التّكلّم فيها لغفرتِ لي وعرفتِ كم أبذلُ من جهد لإصلاح نفسي».

«حسنا، تُريدُ الآنسةُ ستايْسي أن تؤسّس صفّا يضمّ تلاميذها العازمين على اجتياز امتحان الالتحاق بالأكاديميّة الملكيّة. وهي تنوي أن تدرّسهم ساعاتٍ إضافيّةً بعد انتهاء الحصص المدرسيّة المعتادة. وجاءت إلى منزلنا لترى ما إذا كنّا، أنا وماثيو، راغبيْن في إدراجك في هذا الصّفّ. ما رأيك بهذا يا آنْ؟ هل ترغبين في الانضمام إلى الأكاديميّة الملكيّة، كي تُصبحي معلّمة في ما بعد؟».

«آه يا ماريلاّ!»، اعتدلتْ آنْ على ركبتيها. وشبّكتْ أصابع يديْها. «لقد كان هذا حلم حياتي... أعني خلال الأشهر السّتّة الماضية. وذلك منذُ أن شرعتْ روبي وجاينْ تتحدّثان عن الدّراسة من أجل امتحان القبول. ومع ذلك، لم أقل أيّ شيء عن الأمر. فقد قدّرتُ أنّ كلّ كلماتي ستكونُ بلا جدوى. إنّي أرغبُ فعلا في أن أصير معلّمة. ولكن، أليس ذلك مكلّفا على نحو فظيع؟ يقول

السّيّدُ آندروزْ إنّه سدّد مائة وخمسين دولارا من أجل إدخال بريسي إلى الأكاديميّة، علما وأنّ بريسي ليست غبيّة في مادّة الهندسة».

«أحسبُ ألاّ داعي لتقلقي بخصوص هذا التّفصيل. فعندما قرّرنا، أنا وماثيو، أن نتبنّاكِ ونتكفّل بتربيتك، عزمنا على تقديم أفضل ما في وُسعنا لكِ وأن نضمن لك تعليما متميّزا. إنّني أؤمنُ بأهمّيّة أن تقدر البنتُ على كسب عيشها بنفسها، سواء أدُفعتْ إلى ذلك أم كانت غنيّة عنه. طبعا، ستظلّ الضّيعة الخضراءُ بيتكِ طالما ظللتُ أنا وماثيو على قيد الحياة. ولكن لا أحد يعرفُ مسبقا ما سوف يحدثُ في هذا العالم المتقلّب. ولذلك، من الأفضل أن يجهّز المرءُ نفسه دوما للمفاجآت. وهكذا، يمكنك الانضمامُ إلى صفّ الأكاديميّة إذا أردتِ ذلك».

«أوه، شكرا يا ماريلاّ!»، وأحاطت آنْ خصر ماريلاّ بذراعيْها. ثمّ رفعتْ رأسها. وحدّقت فيها بجدّيّة. «أنا ممتنّةٌ جدّا لك ولماثيو. وسوف أنكبُّ على دراستي بجدّ وأبذل قصارى جهدي كي أشرّفكما. ولكنّي أحذّرك من الآمال الكبيرة في ما يتعلّق بالهندسة. أمّا بالنّسبة إلى بقيّة الموادّ، فأحسبُ أنّ بإمكاني أن أتدبّر أمري إذا عملتُ بجدّ».

«أعتقدُ أنّك ستبرَعين في كلّ شيء. فالآنسةُ ستايْسي ترى أنّك ذكيّة ومجتهدة». لا شكّ أنّه ما من قوّة في العالم تستطيعُ أن تدفع ماريلاّ إلى نقل كلمات الآنسة ستايْسي حرفيّا إلى آنْ. كان ذلك ليزيدها غرورا واختيالا دون شكّ. «لستِ في حاجة إلى أن تنهكي

نفسك بالدّراسة والغرق في الكتب. فالآنسةُ ستايْسي تقول إنّه ما من عجلة مُلحّة في الأمر. ولن تكوني جاهزة لاجتياز أيّ امتحان قبل سنة ونصف. ولكن لا بأس من الانطلاق في الوقت المناسب حتّى تشكّلي عمادا قويّا».

«سوف أهتمّ بدروسي الآن أكثر من أيّ وقت مضى»، قالت آنْ في ابتهاج. «فقد أصبح لديّ هدفٌ في الحياة. يقول السّيّدُ آلانْ إنّ على كلّ فرد أن يملك هدفا في الحياة، ويعمل بإخلاص من أجل بلوغه. ولكن ينبغي التّأكّد أوّلا من نبل ذلك الهدف ورفعته. وأعتقدُ أنّ الرّغبة في أن أصبح معلّمةً مثل الآنسة ستايْسي هدفٌ محترم وصالح. ألا توافقينني يا ماريلاّ؟ أعتقدُ أنّها مهنة نبيلةٌ جدّا».

تمّ تأسيسُ صفّ الأكاديميّة الملكيّة في الوقت المناسب. وانضمّ إليه غيلبرتْ بلايثْ، آنْ شيرلي، روبي غيليزْ، جايْن آندرُوزْ، جوزي بايْ، تشارلي سْلُونْ ومودي سْبيرجِنْ ماكْفِرسونْ. لم تنضمّ ديانا باري إلى هذا الصّفّ لأنّ والديها لم يرغبا في إرسالها إلى الأكاديميّة الملكيّة. وقد بدا ذلك أشبه بالكارثة بالنّسبة إلى آنْ. فمنذُ تلك اللّيلة التي أصيبت فيها ميني مايْ بالخانُوق، لم ينجح أيّ شيء في إبعادها عن ديانا. وفي المساء الأوّل الذي مكث فيه صفّ الأكاديميّة في القاعة من أجل الحصص الإضافيّة، تأمّلتْ آنْ وجهَ ديانا وهي تغادر ببطء مع الآخرين. ثمّ عادت لاحقا بمفردها إلى المنزل سالكة ممرّ البتولا ووادي البنفسج. ولم تستطع آنْ أن تفعل أيّ شيء سوى التّمسّكِ بمقعدها وكبحِ جماحها من اللّحاق بصديقتها الحميمة. أحسّت

بغصّة في الحلق. فاحتجبت على الفور خلف دفّتي كتاب النّحو اللاّتينيّ المرفوع إلى أعلى. وانسكبت الدّموعُ من عينيْها. إذْ كانت حريصة على ألاّ تسمح لغيلبرتْ بلايثْ أو جوزي بايْ برؤيتها وهي تبكي، مهما كلّفها ذلك.

«ولكن... آه يا ماريلاّ! لقد شعرتُ بأنّي أتذوّق مرارة الموت حقّا، على حدّ عبارة السّيّد آلان خلال موعظة الأحد، عندما رأيتُ ديانا، وهي تغادر القاعة وحيدة»، قالت مُتذمِّرةً في تلك اللّيلة. «حسبتُ أنّ الصّفّ سيكون رائعا لو أنّ ديانا شاركتني فيه. ولكن مثلما تقول السّيّدة ليندْ دوما؛ لا يمكننا أن نجعل الأشياء مثاليّةً في هذا العالم النّاقص. ليست السّيّدة ليندْ امرأة مُطمئِنة في أغلب الأحيان. ولكنّها تصدحُ بحقائق كثيرة في واقع الأمر. أعتقدُ أنّ صفّ الأكاديميّة الملكيّة سيكون مثيرا للاهتمام حقّا. ترغبُ كلّ من روبي وجايْن أن تُصبحا معلّمتيْن. وهذا هو أقصى طموحهما. قالت روبي إنّها تنوي أن تدرّسَ لسنتيْن فحسب بعد أن تتخرّج من الأكاديميّة. أمّا جايْنْ، فعازمةٌ على أن تكرّس حياتها كلّها للتّعليم. وسوف تمتنعُ نهائيّا عن الزّواج. لقد صرّحت أنّ المعلّمة تتقاضى أجرا على عملها. أمّا الزّوج، فلن يمنح لزوجته شيئا. وسوف لن يرضى إذا طالبته بحصّتها من البيض والزّبدة. أعتقدُ أنّ كلام جايْن متأتٍّ من تجربة أليمة. إذ تقول السّيّدةُ ليندْ إنّ والدها نزقٌ عجوز. وهو أبخلُ من كلب. في المقابل، تزعم جوزي أنّها تريدُ التّسجيل في الأكاديميّة حبّا في الدّراسة والمعرفة. وهي ليست في حاجة إلى تحصيل الأموال أو كسب قوت يومها. وتؤكّد كذلك أنّ

الأمر مختلف طبعا بالنّسبة إلى اليتامى الذين يعيشون على الصّدقة والإحسان، والمُجبرين على أن يشقّوا طرقهم ويجدوا لهم مواطئ أقدام في الحياة. يريدُ مودي سبيرجِنْ أن يصبح قسّا. وتقول السّيّدة ليندْ إنّ اسمهُ لا يخوّل له أيّ عمل آخر. أرجو ألاّ أكون مذنبة في ضحكي كلّما تخيّلتُ مودي سبيرجنْ في هيأة قسّ. إنّ مظهره طريف جدّا بوجهه الكبير السّمين وعينيه الزّرقاويْن الصّغيريْن وأذنيْه المنتصبتيْن كأنّهما جناحا طائر. ولكن، ربّما يبدُو أكثر تعقُّلا ورصانة عندما يكبر. في ما يخصّ تشارلي سْلون، فهو يقول إنّه ينوي التّخصّص في المجال السّياسيّ وأن يصبح عضوا في البرلمان. لكنّ السّيّدة ليندْ لا تُرجّحُ نجاحه في عالم السّياسة، بما أنّ عائلة سلونْ معروفة باستقامة أفرادها، والحال أنّه لا يمكن لأحد ان ينجح في السّياسة في أيّامنا هذه إلاّ إذا كان وغدا».

«ماذا عن طموح غيلبرتْ بلايثْ»، سألت ماريلاّ، وهي تلاحظ أنّ آنْ فتحت كتابها عن يوليوس قيصر.

«لا أعرف شيئا عن طموحات غيلبرتْ بلايث... هذا إذا كان يملكُ أيّ طموح أصلا»، ردّت في استعلاء.

أصبحت المنافسةُ بين آنْ وغيلبرتْ في صفّ الأكاديميّة جليّةً. فقد كانت فيما مضى أحاديّة الجانب. أمّا الآن، فغيلبرتْ كذلك عازمٌ، مثل آنْ، على أن يكون الأوّل في الصّفّ. ولا شكّ أنّه يمثّل بالنّسبة إليها خصما عنيدا. وبالنّسبة إلى بقيّة التّلاميذ الذين كانوا مُتيقّنين من تفوُّق آنْ وغيلبرتْ عليهم، فلم يحلموا أصلا بالانخراط في المنافسة.

كان غيلبرتْ قد شرع في تجاهُل آنْ كلّيّا منذ أن رفضت أن تسامحه عند الغدير يوم حادثة البركة. ولم يستثنِ من هذا التّجاهل سوى مسألة المنافسة التي تدور بينهما. ولطالما مازح الفتيات الأخريات، وتحدّث إليهنّ بحفاوة، وتبادل معهنّ الكتب والألعاب، ورافقهنّ في طريق العودة إلى البيت بعد اجتماع الصّلاة في نادي المناظرات. أمّا آنْ شيرلي، فلم تكن موجودة في عالمه. واكتشفتْ آنْ على ذلك النّحو أنّه ليس مُريحا حقّا أن يُتجاهَل المرءُ. وعبثا ظلّت تقول لنفسها بهزّة رأسٍ إلى الأعلى إنّها لا تهتمّ لذلك. ولكنّها في أعماق قلبها الصّغير المكابر والأنثويّ، كانت تُدرك أنّها تهتمّ وأنّها لو حصلت مجدّدا على فرصة بحيرة المياه اللاّمعة لكان جوابُها مختلفا هذه المرّة. فجأة، أدركتْ أنّ استياءها من غيلبرتْ، الذي تعلّقت به دوما، قد اختفى فيما كانت في أمسّ الحاجة إليه. وكلّما حاولت أن تؤجّجه من جديد، مُستذكِرةً كلّ حادثة وعاطفة، تؤولُ محاولاتُها إلى الفشل. لقد شهد ذلك اليومُ عند الغدير شرارته الأخيرة.

وهكذا أدركتْ آنْ بعد فوات الأوان أنّها سامحتْ غيلبرتْ ونسيت الألم الذي سبّبه لها، رغم عدم اعترافها بذلك. ولم يتبقّ لها أيّ حلّ سوى أن تحجب ندمها عن غيلبرت، بل عن الجميع بما في ذلك ديانا نفسُها. وكم تمنّت في سرّها لو أنّها لم تكن مُفرطة في الكبرياء وبغيضة. كانت مصمّمة على أن تُكفِّن مشاعرها في أعماق النّسيان. ويبدو أنّها نجحت في ذلك. إذ لم يستطع غيلبرتْ، الذي لم يكن غير مكترث في الحقيقة بآنْ، أن يُعزّي نفسه بملاحظة تفاعلها مع ازدرائه الانتقاميّ. شيء وحيد ظلّ يمنحه نوعا من الرّاحة.

وهو تفريغُها الدّائم والعنيفُ لتشارلي سلُون في مسائل لا تستحقّ ذلك.

بخلاف ذلك، مرّ فصلُ الشّتاء مُفعما بالواجبات الممتعة والانغماس في الدّراسة. وتعاقبت الأيّامُ بالنّسبة إلى آنْ شبيهةً بخُرَز ذهبيّة في قلادة السّنة. كانت سعيدةً ومتحمّسة. وبالنّسبة إليها، كانت هناك دروسٌ يجب أن تتعلّمها وشرفٌ يجدر بها أن تفوز به وكتبٌ تنبغي قراءتها وأناشيدُ عليها أن تتمرّن على تلاوتها من أجل مدرسة الأحد وأمسياتُ سبت لذيذة لتقضّيها في منزل السّيّدة آلانْ. وقبل أن تعي آنْ ذلك، أطلّ الرّبيع مجدّدا على الضّيعة الخضراء. وسرعان ما أزهر العالم.

بدأت الدّراسة في صفّ الأكاديميّة تتلكّأ بعض الشّيء. فبينما ينتشرُ التّلاميذُ الآخرون بعد الحصّة المدرسيّة بين الشِّعاب الخضراء والأدغال المورقة والمروج المزهرة، كان تلاميذُ صفّ الأكاديميّة ينهمكون في تأمّل العالم بتَوْق من خلف النّوافذ، وقد اكتشفوا أنّ الأفعال اللاّتينيّة والتّمارين الفرنسيّة فقدتْ على نحو مّا ألَقَها الذي اكتسبته أيّامَ الشّتاء. وحتّى آنْ وغيلبرتْ أصبحا أقلّ اندفاعا وحماسا. كانت المعلّمة والتّلاميذُ سعداء في نهاية المطاف عندما أدرك الفصلُ الدّراسيُّ نهايته ولاحت أمام عيونهم أيّامُ العطلة الورديّة.

«لقد عملتم على نحو جيّد خلال هذه السّنة»، قالت لهم الآنسةُ ستايْسي في آخر أمسية مدرسيّة. «ولا شكّ أنّكم تستحقّون الآن عطلة مفعمة بالمرح والرّاحة. استمتعوا بأوقاتكم في هذه الطّبيعة

الجميلة التي تحيطُ بنا. حافظوا على صحّتكم وطاقتكم وحيويّتكم وطموحكم حتّى تكون لكم سندا خلال السّنة القادمة. إذ ستكون الحربُ في ذروتها؛ إنّها السّنة الأخيرة قبل امتحان القبول».

«هل ستعودين إلينا في السّنة القادمة يا آنسة ستايْسي؟»، سألتْ جوزي بايْ.

لم تكن جوزي بايْ تجدُ حرجا في طرح أيّ سؤال. وفي تلك اللّحظة، شعر الجميع بالامتنان لها. إذ لم يجرؤ أحد على أن يسأل الآنسة ستايْسي ذلك السّؤال رغم رغبتهم الشّديدة في ذلك. لقد ذاعت في المدرسة من قبل إشاعةٌ مفادها أنّ الآنسة لن تعود لتدريسهم بعد أن عُرض عليها منصب تعليميّ في ثانويّة بلدتها، وهي تنوي قبوله. أصاخ تلاميذُ صفّ الأكاديميّة السّمعَ في ترقُّب شديد. وانتظروا الجواب معا بأنفاس مكتومة.

«نعم، أعتقدُ أنّي سأعود»، أجابت الآنسةُ ستايْسي. «كنتُ أفكّر بقبول منصب تعليميّ في مدرسة أخرى. لكنّي قرّرتُ في النّهاية العودة إلى آفونلي. صراحةً، لقد تعلّق قلبي بتلاميذي هنا، ولم أعد قادرة على تركهم. ولهذا لن أترككم قبل الوصول إلى النّهاية».

«هوااه!»، صاح مودي سبيرجنْ بعفويّة على الفور. لم يسبق له في الحقيقة أن استسلم لتيّار مشاعره على ذلك النّحو. ولهذا السّبب، ظلّ وجهُه يحمرّ خجلاً طيلة أسبوع كلّما تذكّر تلك الحادثة.

«آه، أنا سعيدة لذلك»، قالت آنْ بعينيْن لامعتيْن. «آنسة ستايسي العزيزة، سيكون من الفظيع ألاّ تعودي إلينا. ولا أعتقدُ

أنّي سأملك العزم والثّبات اللاّزمين لمواصلة الدّراسة إذا جاء معلّم جديد إلى مدستنا.

عندما رجعتْ آنْ إلى المنزل في ذلك المساء، جمعتْ كلّ كتبها. وحفظتها في صندوق قديم في العلّيّة. ثمّ أقفلتْهُ. وألقت بالمفتاح في صندوق البطّانيّات.

«لن ألقي ولو نظرة واحدة على أيّ كتاب مدرسيّ خلال هذه العطلة»، قالت لماريلاّ. «لقد اجتهدتُ في الدّراسة طيلة السّنة. وانكببتُ على مراجعة الهندسة حتّى صرتُ أحفظ عن ظهر قلب جميع الرّموز في الكتاب الأوّل، سواء أتغيّرت الأحرف أم لم تتغيّر. أمّا الآن، فأشعر بالسّأم من كلّ ما له صلة بالمنطق والعقلانيّة. وسأتيحُ لخيالي أن يُشاغب كيفما شاء أثناء الصّيف. لا، لاتخافي يا ماريلاّ. سأسمح له بالمشاغبة ضمن حدودٍ معقولة فحسب. إنّي عازمة على قضاء صيف ممتع ومرح. فلربّما كان آخر صيف يمرّ على طفولتي. قالت لي السّيّدةُ ليندْ إذا واصلتُ النّموّ على نفس وتيرة هذه السّنة، فإنّ عليّ أن أرتدي في السّنة القادمة تنورة طويلة. وحينئذ، سأشعر يا ماريلاّ أنّ عليّ التّصرّف باحتشام يتناسب وطول تلك التنانير. ولن ينفعني شيءٌ بما في ذلك إيماني بالجنّيّات. ولهذا السّبب، سأعلّق قلبي بهنّ هذا الصّيف، وأستسلم لإيمانٍ عميق بهنّ. أظنّ أنّها ستكون عطلة مرحة جدّا. قريبا، ستقيمُ روبي غيليزْ حفلة عيد ميلاد. وستليها نزهة مدرسة الأحد، ومن ثَمّ حفلُ البِعْثات التّبشيريّة الموسيقيُّ خلال الشّهر القادم. بالإضافة إلى ذلك، صرّح

السّيّدُ باري أنّه سيأخذنا، أنا وديانا، لتناول العشاء في فندق وايتْ ساندْسْ. فكما تعلمين، يقصد النّاس ذلك الفندق خصّيصًا من أجل تناول العشاء. ذهبت جايْن آندروزْ مرّة خلال الصّيف الماضي إلى هناك. وهي تقول إنّ منظره مبهرٌ بما فيه من أضواء كهربائيّة وأزهار وسيّدات أنيقات. وتؤكّدُ أنّها المرّة الأولى التي تُلقي فيها نظرةً على الحياة الرّاقية، ولن تنساها حتّى آخر يوم في حياتها».

قدمت السّيّدةُ ليندْ إلى الضّيعة الخضراء مساء اليوم التّالي لتسأل عن سبب غياب ماريلاّ عن اجتماع جمعيّة المساعدات الكنسيّة يوم الخميس. فالجميعُ يعلم أنّ ماريلاّ لا تغيب عن هذه المناسبة إلاّ إذا كان هناك طارئٌ سيّء في الضّيعة الخضراء.

«تعرّض ماثيو لنوبة قلبيّة يوم الخميس الماضي»، شرحت ماريلاّ. «ولم أستطع أن أتركه بمفرده. نعم، إنّه بخير الآن. ولكنّ هذه النّوباتُ صارت أكثر اطّرادًا بالنّسبة إليه. وأنا قلقةٌ جدّا عليه. قال الطّبيب إنّ على ماثيو أن يتجنّب الإثارة. وهذا سهل طبعا. فكما تعرفين، لا يبحث ماثيو عن الإثارة بأيّ وسيلة من الوسائل. ولكن ينبغي عليه كذلك أن يتّقي كلّ عمل شاقّ. ويمكنُ للمرء أن يطلب منه التّوقّف عن التّنفّس فيوافق. أمّا العمل، فقطعا سيرفض. تفضّلي بالدّخول يا رايتشلْ. اخلعي عنك قبّعتكِ. أتمكثين لتناول الشّاي؟».

«حسنا، بما أنّك تصرّين على ذلك. فقد أمكث قليلا»، قالت السّيّدةُ ليندْ التي لم تحمل أيّ نيّة أخرى على الإطلاق.

جلست السّيّدةُ رايتشلْ وماريلاّ في الصّالون، بينما أحضرتْ

آنْ الشّاي لهما مع رقائق البسكويت الأبيض الهشّ الذي نجا من انتقادات السّيّدة ليندْ.

«يجدر بي القول إنّ آنْ قد أصبحت فتاة صالحة وذكيّة»، اعترفت السّيّدةُ ليندْ لماريلاّ التي رافقتْها حتّى نهاية الدّرب ساعة الغروب. «ولا شكّ أنّها صارت مصدر مساعدة عظيمة لك».

«هي كذلك»، ردّت ماريلاّ. «وقد أصبحتْ فعلا مُستقيمةً وأهلا للثّقة. كم خشيتُ في ما مضى ألاّ تتجاوز طيشها. ولكنّها فعلت. وها لم أعد أخشى أن أكلّفها بأيّ مهمّة مهما كان نوعها».

«عندما رأيتُها أوّل مرّة قبل ثلاث سنوات، لم أحسب أنّها ستتحسّنُ مطلقا»، أضافت السّيّدةُ رايتشلْ. «يا لتلك الذّكرى! هل يمكن لي أن أنسى نوبة غضبها يومها؟ عندما رجعتُ إلى بيتي في ذلك المساء، قلتُ لتوماس: تذكّر ما يلي؛ ستعيشُ ماريلاّ كاثبرتْ حتّى تلعن اليوم الذي تبنّت فيه هذه الطّفلة. ولكنّي كنتُ مخطئة. وكم يسرّني ذلك! طبعا، لستُ من الأشخاص الذين لا يعترفون بخطئهم يا ماريلاّ. ليس ذلك طبعي مطلقا. والحمد للرّبّ! لقد أخطأتُ في حكمي على آنْ. ولا غرابة في ذلك بالنّظر إلى تصرّفاتها السّابقة الشّبيهة بسلوكات ساحرة صغيرة لا مثيل لها في العالم كلّه. لم تكن هناك أيّ وصفة نافعة في الحكم عليها، مثلما هو الحال بالنّسبة إلى بقيّة الأطفال. إنّ التّطوّر الذي أحرزته خلال هذه السّنوات الثّلاث ليس أقلّ من معجزة حقيقيّة، وخصوصا في منظرها. فقد غدتْ صبيّة جميلة، رغم أنّي لا أميل صراحةً إلى هذا النّوع من الجمال

المقترن بشحوب الوجه واتّساع العينيْن. وإنّما أفضّلُ الجمال الأكثر حيويّة والمفعم بالألوان، مثل جمال ديانا باري وروبي غيليزْ. وروبي في الحقيقة فتاةٌ ذاتُ جمال أخّاذ. ومع ذلك، على نحوٍ مّا لا أفهمُه، عندما تكون آنْ بصحبة الفتيات الأخريات -رغم أنّها لا تبلغُ نصفَ جمالهنّ- فإنّها تُصيِّرُهنّ عاديّاتٍ ذواتِ ملامحَ مُبتذلة. يشبه الأمرُ أن يحدّق المرءُ في زنابق حزيران، أو ما تلقّبُه آنْ بالنّرجس، إلى جانب أزهارِ عُود الصّليب الحمراء[1] الكبيرة. لا أعرفُ ما إذا كنتِ تفهمين قصدي حقّا يا ماريلاّ».

(1) نباتٌ عشبيٌّ حولّي أو معمّرٌ شبه مُتخشّب. وله أزهارٌ حمراءُ تُشبه أزهار الورد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(31)

حيثُ يلتقي الجدولُ بالنّهر

حصلت آنْ على صيفها الرّائع. واستمتعت بكلّ ذرّة فيه ملء قلبها. قضّت مع ديانا معظم أوقاتها في الخارج، مستغرقتيْن في كلّ تلك المُتع التي يوفّرها مسلك العشّاق ونبع الجنّيّات وبحيرة الصّفصاف وجزيرة فكتوريا. ولم تعترض ماريلاّ على تجوالها ذاك. فقد حدث أمر مميّز ذات أمسية خلال بداية العطلة. التقى طبيبُ سبنسرْفيلْ، الذي جاء ليلة أصيبت ميني مايْ بالخانُوق، بآنْ في إحدى المنازل بآفونلي. وحينئذٍ، تأمّلها ملِيًّا. لوَى شفتيْه. وأومأ برأسه. ثمّ أرسل إلى ماريلاّ كاثبرتْ عن طريق شخصٍ مّا قائلا:

«احرصي على أن تستمتع تلك الصّهباءُ التي تحتفظين بها في بيتكِ بالهواء الطّلق طيلة الصّيف. ولا تسمحي لها بقراءة الكتب حتّى يعودُ الرّبيعُ إلى خطواتها وتستعيد حيويّتها».

دفعت الرّسالةُ ماريلاّ إلى القلق على صحّة آنْ. وشعُرت بالفزع، وهي ترجّحُ أنّ في إهمالِها حُكْمًا بالسُّلّ على الصّغيرة. وعلى هذا النّحو، حظِيتْ آنْ بصيفِ حياتها الذّهبيّ. فاستمتعتْ بالحرّيّة والمرح قدر استطاعتها. لقد مشتْ في طرق كثيرة. وجدّفت في المياه. وقطفت الثّمار. وحلمت من أعماق روحها. وعندما حلّ شهرُ

أيلول من جديد، كانت عيناها تلمعان طاقة وحيويّة وقلبُها مفعما بالطّموح والاندفاع. ومجدّدا، عاد إلى خطواتها النّشاطُ الذي كان ليرضي طبيب سبنسرفيلْ دون شكّ.

«أشعرُ أنّي متأهّبةٌ للدّراسة بكلّ كدّ وجدّ»، صرّحت آنْ وهي تُنزل كتبها من العلّيّة. «آه يا أصدقائي القدامى! أنا سعيدة لرؤية وجوهكم الجميلة مرّة أخرى... نعم، حتّى أنت يا كتاب الهندسة! كانت هذه العطلةُ رائعة يا ماريلاّ، حتّى إنّي أشعر الآن بنشاطٍ كبير مثل رجل قويّ يتأهّبُ لخوض سباق، وفق عبارة السّيّدة آلانْ الأحدَ الماضي. أليست مواعظُ السّيّد آلانْ عظيمة يا ماريلاّ؟ تقول السّيّدةُ ليندْ إنّه يتطوّرُ باستمرار. وقريبا جدّا، ستختطفه إحدى كنائس المدينة. حينئذ، سنبقى دون قسّ. وسنُضطرّ إلى معاودة البحث عن واعظ آخر يافع لا خبرة له. فنشقى في تدريبه وتطوير مستواه. ولكنّي أستغرب منها هذا الكلام يا ماريلاّ. إذ لا أرى موجبا في مواجهة مشاكل لم تحدث بعد. أليس كذلك؟ أعتقدُ في المقابل أنّه من الأفضل التّنعُّم بوجود السّيّد آلانْ مادام بيننا. أتعرفين؟ لو كنتُ رجلا، لاخترتُ أن أصبح قسّا. إذْ يُمكنُ للقساوسة والكهنة أن يدفعُوا النّاسَ إلى الخير إذا كانتْ عقيدتُهم سليمة وصالحة. أليس من الرّائع إلقاءُ مواعظ عظيمة توقظُ قلوب النّاس؟ لماذا لا تستطيعُ النّساءُ أن تصبحن قسّيساتٍ يا ماريلاّ؟ سألتُ السّيّدة ليندْ عن ذلك. فصُعقت من كلامي. وقالت لو حدث ذلك لكان فضيحة كبرى. ثمّ أضافت أنّه من الممكن أن توجد قسّيسات في الولايات المتّحدة. بل هي ترجّح ذلك فعلا. ولكن، حمدا للرّبّ. فنحنُ لم

نصل إلى تلك الدّرجة من الانحطاط في كندا. وأملت ألاّ نبلغها مطلقا. ورغم ذلك، لم أفهم السّبب في نهاية المطاف. أعتقدُ أنّ النّساء يستطعن أن يكنّ قسّيساتٍ رائعات. فعندما يلتئمُ حدثٌ اجتماعيّ أو تنظّم حفلة شاي في الكنيسة أو يتمّ جمع التّبرّعات، فإنّهنّ من يمسكن بزمام الأمور. وأنا متيقّنةٌ من أنّ السّيّدة ليندْ قادرةٌ على الصّلاة بنفس الإتقان الذي يُصلّي به النّاظر بيلْ. ولا شكّ كذلك في أنّها ستُحسنُ الوعظ إذا تمرّنت على ذلك قليلا».

«نعم، أعتقد أنّها قادرة على ذلك»، ردّت ماريلاّ بنبرة جافّة. «على أيّة حال، هي لا تكفّ عن الوعظ على نحو غير رسميّ. وليس بإمكان مخلوقٍ واحد في آفونلي أن يرتكبَ خطأً، فينجوَ به من رقابة رايتشل».

«ماريلاّ»، صاحتْ آنْ، وقد اجتاحتْها فجأةً رغبةٌ في البوح. «أريدُ أن أقول لك شيئًا مّا. وأطلب رأيك فيه. إنّها مسألةٌ تقلقني على نحو فظيع. وطالما فكّرتُ فيها طويلاً خلال أمسيات الأحد. إنّي راغبة بصدق في أن أصبح فتاةً صالحة. وعندما أكونُ برفقتكِ يا ماريلاّ أو برفقة السّيّدة آلانْ أو الآنسة ستايْسي، فإنّ هذه الرّغبة تزدادُ وتشتدُّ. فأنزع أكثر إلى إرضائكنّ. أمّا حين أكونُ مع السّيّدة ليندْ، فإنّي أشعر بكوني طالحة على نحو فظيع. وتتملّكني رغبةٌ عجيبة في القيام بكلّ ما توصيني بتجنّبه. بل إنّ الإغراء باقترافه يستعصي على المقاومة. فما السّبب في ذلك يا ترى؟ أتعتقدين أنّني فاسدة المعدن وخبيثة حقّا؟».

بدت على ماريلا ملامح الالتباس لوهلة. ثمّ ضحكت.

«إذا كنتِ كذلك، فلا شكّ أنّي أشبهكِ يا آنْ لأنّ هذا الانطباع هو ما تخلّفُه فيَّ رايتشلْ دوما. وكم مرّة فكّرتُ أنّ بإمكانها أن تنجح في توجيه النّاس إلى الخير إذا توقّفت عن التّذمّر عليهم بلا هوادة من أجل أن يسلكوا الطّريق المستقيم. أتعرفين، يجب أن تكون هناك وصيّة خاصّة باتّقاء التّذمّر والشّكوى. ولكن، ها إنّي أتفوّه بما لا ينبغي لي قوله. إنّ رايتشلْ في نهاية المطاف امرأة مؤمنة صالحة ونواياها طيّبة حقّا. وليس هناك في آفونلي كلّها روح أطيبُ من روحها. وهي لا تتهرّبُ مطلقا من نصيبها في العمل والمساعدة».

«يسرّني جدّا أنّ رأيك يُماثل رأيي»، قالتْ آنْ بثبات. «هذا يُشجّعني كثيرا. ولا شكّ أنّه سيخفّف من ثقل قلقي. ومع ذلك، أرجو ألاّ أعثر على أشياء أخرى تُقلقني بدلا ممّا سبق ذكره. إذ لا تكفُّ الأشياءُ المربكة عن الظّهور في حياة الإنسان، كما تعرفين. وكلّما عالج المرءُ مشكلةً وانتهى منها، ظهرت أمامه مشاكلُ أخرى على الفور. هناك مسائلُ كثير في الحقيقة، يُحتاج إلى تدبّرها أثناء النّموّ والانتقال إلى عالم الكبار. وما بين هذا التّفكّر وإيجاد الحلول السّليمة، ضاع وقتي كلّه. أن يكبر المرء... يا لها من مسألة مُفرطة في الجدّيّة! أليس كذلك يا ماريلاّ؟ ومع ذلك، أعتقدُ أنّي قادرة على أن أكبر وأنضج في نجاح مادمتُ أنعم بأصدقاء طيّبين مثلكِ ومثل ماثيو والسّيّدة آلانْ والآنسة ستايْسي. وتأكّدي أنّي إذا فشلتُ فإنّ الذّنب ذنبي وحدي. أشعر أنّي إزاء مسؤوليّة عظيمة يا ماريلاّ.

فالمرءُ يكبر مرّة واحدة. وبالتّالي، فهو يملك فرصة وحيدة فحسب. وإذا لم أحسن استغلال تلك الفرصة، لن أتمكّن من العودة إلى طفولتي مجدّدا. ازدادتْ قامتي طولا ببُوصتين[1] كاملتينْ خلال هذا الصّيف. عرفتُ هذا عندما قاس السّيّدُ غيليزْ طول قامتي في حفلة روبي. لحسن حظّي أنّي جعلتُ فساتيني الجديدة أطول من سابقاتها. ذلك الفستان الأخضر يا ماريلاّ... كم هو جميل! كان لطيفا منك أن تضعي الحواشي المزخرفة على أطرافه. أعرف طبعا أنّها لم تكن ضروريّة. ولكنّها صارت دارجة في هذا الخريف. وجميعُ فساتين جوزي بايْ مزيّنةٌ بتلك الحواشي الحلوة. أنا متيقّنة من أنّ هذه الحواشي ستساهم في إقبالي على الدّراسة بجدّ أكبر، لأنّها بكلّ بساطة ستُذيع في داخلي شعورا عظيما بالرّاحة».

«حسنا إذن، هذا يعني أنّ إضافتها عمليّة تستحقّ العناء»، ردّت ماريلاّ.

عادت الآنسةُ ستايْسي إلى مدرسة آفونلي لتجِدَ كلّ تلاميذها متحمّسين للعمل من جديد، وخصوصًا تلاميذ صفّ الأكاديميّة الملكيّة الذين شمّروا على سواعدهم كي يخُوضوا حرْبًا شرِسةً، لأنّ نهايةَ السّنة، التي بدأتْ تلوحُ لهم من بعيد، كانتْ تُنذِر باقتراب الحدثِ المصيريّ المعروف بامتحان القبول. وكان مجرّد تفكيرهم في ذلك الامتحان يجعل قلوبهم تهوي غارقة في أحذيتهم. ماذا لو لم

(1) وحدة قيس للطّول في نظام الوحدات الإنجليزيّة، مازال متداولا في الولايات المتّحدة الأمريكيّة. وتساوي البوصة الواحدة 2.54 سنتيمتر.

يجتازوه بنجاح؟ لقد ظلّ هذا السّؤالُ المؤرّق يلاحقُ آنْ طيلة ساعات يقظتها في الشّتاء، بما في ذلك ساعات أمسيات الأحد في الكنيسة، حتّى إنّها لم تعد قادرةً على طرح أسئلتها الأخلاقيّة والدّينيّة الكبرى. ومرّاتٍ كثيرةً، رأت نفسَها في كوابيسِها المخيفة، وهي تتأمّلُ بحزن قائمة النّاجحين في امتحان القبول التي يتصدّرها غيلبرتْ بلايثْ دون أن تعثر على اسمها فيها.

وعموما، كان الشّتاءُ مرحا، مُفعَما بالعمل وسريع العبور. وكان العملُ الدّراسيّ مثيرا كعادته والمنافسةُ على أشدّها مثلما اعتادتْ أن تكون. وأمام عيني آنْ المتلهّفتيْن، تفتّحت عوالمُ فكرٍ ومشاعر وطموحاتٍ نضرة جديدة وحقولُ معرفة مدهشة لم تستكشفْ بعدُ.

«كانت تبزغُ تلّة على تلّةٍ وجبلاً على جبل».

وكان معظمُ هذه العوالم ناجمًا عن توجيهات الآنسة ستايْسي الحذرة، الدّقيقة والمنفتحة. كانت تحفّزُ تلاميذَها على أن يعتمدُوا على أنفسهم في إبداع أفكارهم، ويخوضُوا تجاربَهم الخاصّة ويجترحُوا اكتشافاتهم الذّاتيّة. وظلّت تشجّعهم على اتّقاء المسالك القديمة المستهلكة، حتّى إنّ السّيّدة ليندْ والمشرفين على المدرسة قد صعقوا من أسلوبها في التّدريس، كيف لا وهم ينظرون إلى كلّ تجديد للمعايير المكرّسة بعين الشّكّ والرّيبة.

وبغضّ النّظر عن الدّراسة، تمكّنت آنْ من تنشيط حياتها الاجتماعيّة. إذ لم تنسَ ماريلاّ كلمات طبيب سبنسرْفيلْ. وصارت تسمح لها بالخروج من البيت من حين إلى آخر. وفي تلك الأثناء،

ازدهر نادي المناظرات. وأقام العديد من الحفلات، حتّى إنّ حفلة أو اثنتيْن من تنظيمه أوشكتا أن تُماثلا حفلاتِ الكبار الرّاشدين. وبالإضافة إلى ذلك، استمتعت آنْ بالجولات في مركبات الجليد ومختلف الرّياضات الشّتويّة من قبيل التزلّج.

ومع تعاقُب الأيّام، نمَتْ آنْ وكبُرتْ. واستمرّ طولُ قامتها في الزّيادة بسرعة حتّى ذُهلت ماريلاّ ذات مرّة وهي تقفُ إلى جانبها. إذ اكتشفتْ أنّها صارت أطول منها.

«ربّاه، كم كبرتِ يا آنْ!»، هتفتْ وهي لا تكادُ تصدّقُ عينيها. ثمّ تنهّدتْ على الفور. فقد زحف إلى صدرها حزنٌ غامضٌ ممتزجٌ بالحسرة على رؤية تلك البوصات الإضافيّة. لقد اختفت الطّفلة التي ربّتها وتدرّجت في حبّها. وحلّت محلَّها هذه الصّبيّةُ الطّويلة، ذاتُ الخمس عشرة سنة والعينيْن الوديعتيْن والملامح الرّصينة والرّأس الصّغير الشّامخ والفخور. كانت ماريلاّ تحبّ هذه الصّبيّة بقدر محبّتها للطّفلة التي كانتْها. ولكنّها وقعتْ فجأة في فخّ مشاعر اللّوعة والفقد. وفي تلك اللّيلة عندما ذهبتْ آنْ مع ديانا إلى اجتماع الصّلاة، جلستْ ماريلاّ بمفردها في الغسق الشّتويّ البارد. واستسلمت في وَهنٍ للبكاء. ولمّا رجع ماثيو حاملا فانوسا في يده، لمحها وهي تبكي. فوقف في مكانه. وحدّق فيها مليّا، حتّى إنّها أجبرت على الضّحك بينما دموعها تنسكبُ على خدّيها.

«كنتُ أفكّرُ في آنْ»، قالتْ، وهي تشرحُ ما أصابها. «لقد

أصبحت صبيّة ناضجة. وأحسب أنّها ستفارقنا في الشّتاء القادم. سأشتاقُ إليها على نحو فظيع».

«ستتمكّنُ من العودة إلى البيت مرارا»، قال ماثيو، وهو يحاول أن يخفّف على ماريلاّ. وكانت آنْ بالنّسبة إليه ما تزال الطّفلة الصّغيرة النّابضة بالحياة -وستظلّ دوما- التي أحضرها إلى المنزل من بلدة برايتْ ريفرْ في إحدى أمسيات حزيران، قبل أربع سنوات. «عندما تحينُ تلك السّاعة، ستكون سككُ الحديد الجديدةُ والموصلة إلى كارمودي جاهزة».

«سيختلفُ الأمر عن وجودها الدّائم هنا في البيت»، ردّت ماريلاّ وهي تتنهّد بحزن، عازمة على المضيّ في مرارتها إلى أبعد حدّ. «ولكن، هيهات! الرّجال لا يفهمون مثل هذه الأمور».

كانت هناك تغييراتٌ أخرى اجتاحت آنْ. وهي لا تقلّ واقعيّة عن التّغييرات البدنيّة. ومن بينها أنّها أصبحت أكثر هدوءا وصمتا. ربّما صارت تفكّر أكثر من قبل وتحلم بنفس الوتيرة. لكنّها قلّلت من كلامها دون شكّ. أمّا ماريلاّ، فقد لاحظت ذلك. وعلّقت قائلة:

«ما عُدتِ تثرثرين بنصف ما اعتدتِ عليه من كلام يا آنْ. كما أنّ عباراتك الكبيرة قلّت على نحو ملحوظ. فما بك يا ترى؟».

احمرّ وجهُ آنْ. وأطلقت ضحكة وجيزة. ثمّ أغلقت الكتاب. ووضعته جانبا. وراحت تتأمّل حالمة من خلال النّافذة، بينما اسغرقت البراعمُ الكبيرة في التّفتّح تجاوبا مع إغواء أشعّة شمس الرّبيع.

«لا أعرفُ حقّا. لا أشعر بنفس الرّغبة في الكلام»، أجابت وهي تُسند ذقنها إلى سبّابتها وتفكّر في الأمر. «صرتُ أفضّل أن أحتفظ في قلبي بما يخطر ببالي من أفكار جميلة، وأن أصونها داخله مثلما تُخبّأ الكنوز الثّمينة. إذ لم أعد أطيقُ دهشة النّاس من أفكاري تلك أو سخريتهم منها. وعلى نحو مّا، فقدتُ رغبتي في استعمال العبارات الكبيرة. أليس الأمر محزنا حقّا؟ فبعد أن كبرتُ وصار بإمكاني أن أستخدم تلك العبارات هجرتُها. ممتعٌ حقّا أن يوشك المرءُ على أن يصير راشدا. ولكنّها متعةٌ تختلف عمّا توقّعته يا ماريلاّ. هناك الكثير ممّا ينبغي تعلّمه وفعلُه والتّفكير فيه ممّا لا يتيح أيّ وقت للعبارات الكبيرة. بالإضافة إلى ذلك، تقول الآنسةُ ستايْسي إنّ العبارات الوجيزة أفضل وأشدُّ وقعا. وهي تدفعنا إلى كتابة مقالاتنا بأبسط لغة ممكنة. بدا الأمر صعبا عليّ في البداية. فقد كنتُ في ما مضى أحشدُ كلّ الكلمات الرّنّانة التي أعرفها بلا هوادة. أمّا الآن، فإنّي تعوّدتُ على الأسلوب الجديد. وهو أفضل بكثير».

«ما الذي حدث لنادي القصّة؟ لم أسمعكِ تتكلّمين عنه منذ فترة طويلة».

«اختفى نادي القصّة من الوجود. إذْ لم نعُدْ نملكُ أيّ وقت له. وعلى أيّة حال، أعتقدُ أنّنا سئمنا منه. لم يكن من اللاّئق أن نكتب عن الحبّ والجريمة وهرب العشّاق والألغاز. تطلب منّا الآنسةُ ستايْسي كتابة بعض القصص من حين إلى آخر، كي نتمرّن على مادّة الإنشاء. ولكنّها لا تسمح لنا إلاّ بكتابة ما يمكنُ أن يقع في أفونلي

أثناء فترة عيشنا فيها. ثمّ تقومُ بنقد محاولاتنا نقدا لاذعا. وتطلب منّا كذلك أن ننقد بعضنا البعض. ما كنتُ أحسبُ مطلقا أنّ مواضيعي الإنشائيّة تحتوي على كلّ تلك الأخطاء قبل أن أشرع في البحث عنها بمفردي. شعرتُ بخجل شديد حتّى كدتُ أستسلمُ وأتخلّى عن المحاولة. لكنّ الآنسة ستايْسي قالت لي إنّي قادرة على التمكّن من الكتابة على نحو جيّد إذا أصبحتُ أقسى النّقّاد على نفسي. وهذا ما أحاول فعله الآن».

«مازال أمامكِ شهران فحسب لاجتياز امتحان القبول»، قالت ماريلاّ. «أتعتقدين أنّ بإمكانكِ النّجاح فيه؟».

ارتجفتْ آنْ على الفور. وردّت:

«لا أعرف. أحيانا، يبدو لي أنّي سأكون بخير. ثمّ أُباغَتُ بشعور مفاجئ بالذّعر. لقد عملنا بجدّ حقّا. واجتهدت الآنسةُ ستايْسي في تدريبنا على نحو مكثّف. ومع ذلك، قد نفشل في الامتحان. لكلّ منّا حجرُ عثرة في طريقه الخاصّ. بالنّسبة إليّ، يتعلّقُ الأمر بالهندسة. أمّا جايْن، فتعاني من اللاّتينيّة وروبي وتشارلي من الجبر. جوزي لا تطيق الحساب. ويقول مودي سبيرجنْ إنّ هاجسَ رسوبه الأعظم هو التّاريخ الإنجليزيّ. سوف تُجري لنا الآنسةُ ستايْسي امتحانا تجريبيّا في حزيران. وسوف تجعله بقدر صعوبة امتحان القبول الحقيقيّ. يا ربّ، أتمنّى أن ينتهي كلّ شيء بسرعة كبيرة يا ماريلاّ. إذْ يلاحقني هاجسُ هذا الامتحان على الدّوام. وفي بعض الأحيان، أستيقظ في اللّيل وأسأل نفسي عمّا سأفعله إذا لم أنجح فيه».

«لِمَ تقولين هذا؟ يمكنك العودةُ إلى المدرسة في السّنة التّالية والمحاولةُ من جديد»، قالت ماريلاّ مُطمئِنةً.

«لا أعتقدُ أنّي أملكُ الجرأة على ذلك. سوف يكون رسوبي مُذلاّ جدّا، خصوصا إذا نجح غيلْ... أقصدُ بقيّة التّلاميذ. أشعر بتوتّر كبير خلال الامتحانات، حتّى إنّي أصير عرضة لإفساد كلّ شيء. أتمنّى لو كانت لي برودةُ أعصاب جايْن آندروزْ. إذ لا شيء يحرّكُ لها ساكنا».

تنهّدتْ آنْ، وهي تسحبُ نظرها بعيدا عن الرّبيع السّاحر ومفاتن النّهار من النّسيم والزّرقة والنّباتات الخضراء التي تنمو في الحديقة لكي تدفن رأسها بتصميمٍ في كتابها المدرسيّ. سوف يأتي الرّبيعُ مجدّدا، مرّاتٍ ومرّات. لكنّ آنْ كانت مقتنعة أنّها إذا لم تنجحْ في امتحان القبول، فلن تُشفى على نحوٍ كاف كي تستمتع بأيّ ربيع قادم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(32)
صدورُ قائمة النّاجحين

مع قدوم شهر حزيران، حلّت خاتمةُ الفصل الدّراسيّ مصحوبةً بنهاية حكم الآنسة ستايْسي في مدرسة آفونلي. ورجعت آنْ وديانا إلى البيت في تلك الأمسية الأخيرة مُفعمتيْن بالحزن والأسى. كانت عيونهما المحمرّةُ ومناديلهُما المبلّلة دليلا قاطعا على أنّ كلمات الآنسة ستايْسي ضاهتْ في وقعها كلمات السّيّد فيليبسْ التي ألقاها على التّلاميذ في ظروف مماثلة قبل ثلاث سنوات. وبينما كانتا تتقدّمان في طريقهما، التفتتْ ديانا إلى المدرسة من أعلى تلّة التّنّوب. وتنهّدت بعمق قائلة:

«كأنّها نهايةُ كلّ شيء. أليس كذلك؟»، قالت في حزن.

«لا يمكنكِ أن تشعري بنصف الأسى الذي يُعشّشُ في قلبي»، قالت آنْ وهي تبحث عبثا عن موضع جافّ في منديلها. «فأنت ستعودين إلى المدرسة خلال الشّتاء القادم. أمّا أنا، فأظنّ أنّني غادرت هذه المدرسة العزيزة إلى الأبد... إذا حالفني الحظّ طبعا».

«ولكنّها لن تعود إلى عهدها السّابق مطلقا. لن تكون الآنسةُ ستايْسي هنا. وعلى الأرجح، ستغيبين أنتِ وروبي وجايْن كذلك. وسوف أضطرُّ في نهاية المطاف إلى الجلوس بمفردي، لأنّني لن

أطيق اتّخاذ زميلة مقعد أخرى غيركِ. ياه! ألم تكن تلك الأيّام حلوة يا آنْ؟ من الفظيع التّفكيرُ في كونها قد ولّت دون رجعة».

تدحرجت دمعتان كبيرتان من عيني ديانا. ثمّ حطّتا على أنفها.

«إذا توقّفتِ عن البكاء يا ديانا فسأستطيع أن أفعل مثلكِ»، توسّلتْ آنْ. «ما أن أضع منديلي جانبا حتّى أرى دموعك تنسكبُ. فأنهمكُ في البكاء مرّة أخرى. تقول السّيّدة ليندْ إذا لم تستطع أن تبتهج فابتهجْ قدر استطاعتك. وعلى أيّة حال، يبدو أنّني سأعود إلى مدرسة آفونلي في السّنة المقبلة. يقول لي حدسي إنّكِ لن تنجحي هذه المرّة».

«لماذا؟ لقد اجتزتِ امتحاناتِ الآنسة ستايْسي التّجريبيّةَ بنجاح وعلى نحو رائع».

«نعم. ولكن لم تدفعني تلك الامتحانات إلى التّوتّر. أمّا عندما أفكّر في الامتحان الحقيقيّ، فإنّه لا مجال لأصف لكِ يا ديانا أيّ مشاعر باردة تغلّف قلبي حينئذ. بالإضافة إلى ذلك، عددي التّرتيبيّ من بين المترشّحين هو ثلاثة عشر. وجيزي بايْ تقول إنّه رقم الشّؤم وسوء الحظّ. لستُ في واقع الأمر متطيّرةً. وأعرف أنّ العدد لن يحدث فرقا. ومع ذلك، وددتُ لو حصلتُ على عدد ترتيبيّ آخر».

«ليتني كنتُ ذاهبة معكِ»، قالت ديانا. «ألم نكن لنحظى بوقت ممتع حقّا؟ ولكن، أحسبُ أنّ عليك استغلال المساء للاستغراق في الدّراسة».

«كلاّ. طلبت منّا الآنسةُ ستايْسي ألاّ نفتح كتابا واحدا. وأكّدت

لنا أنّ ذلك يساعدنا على التّركيز وتجنّب الإنهاك. كما نصحتنا بمغادرة البيت والتّمشّي في الهواء الطّلق دون أن نشغل تفكيرنا بالامتحانات، وأن نخلد للنّوم باكرا. لا شكّ أنّها نصيحة قيّمة. لكنّي أجد الالتزام بها أمرا صعبا. طالما كانت النّصائح القيّمة عصيّة على التّنفيذ. أخبرتني بريسي آندرُوزْ أنّها كانت تسهر حتّى منتصف اللّيلة طيلة أيّام الامتحان، وأنّها كانت تستغرق في مراجعة دروسها بلا هوادة. أحسبُ أنّ أقلّ ما يمكنني فعله هو مجاراتها في ذلك. كان لطيفا جدّا من عمّتك جوزفينْ أن تدعوني للمكوث عندها في بيتْشُودْ خلال وجودي في المدينة».

«ستكتبين إليّ عندما تصلين إلى هناك. أليس كذلك؟».

«سأكتب لك في ليلة الثّلاثاء حتّى أحكي لك تفاصيل اليوم الأوّل».

«إذن، سألزمُ مكتب البريد يوم الأربعاء صباحا».

غادرت آنْ إلى المدينة يوم الاثنين التّالي. ويوم الأربعاء، لزمت ديانا مكتب البريد مثلما وعدت صديقتها من قبل. وهناك استلمت رسالتها.

«ديانا الحبيبة»، كتبتْ آنْ. «ها قد حلّت ليلةُ الثّلاثاء. وها إنّي أكتبُ لك هذه الكلمات في مكتبة بِيتْشُودْ. قضّيتُ ليلة أمسٍ في وحشة غرفتي، وأنا أشعر بالوحدة على نحو فظيع. وكم تمنّيتُ لو كنتِ معي. لم أستطع في نهاية الأمر أن أراجع دروسي. فقد وعدتُ الآنسة ستايْسي أنّي لن أفعل ذلك. ولكن لم أمنع نفسي من

فتح كتاب التّاريخ مثلما اعتدتُ أن أفعل كلّما حاولتُ تجنّب قراءة القصص قبل الدّراسة.

جاءت الآنسةُ ستايْسي صباح اليوم، لترافقني إلى المعهد. وفي طريقنا، مررنا بجايْن وروبي وجوزي. طلبت منّي روبي في الطّريق أن أتحسّس يديها. فوجدتها باردتيْن مثل قطعتي ثلج. وأخبرتني جوزي بأنّه لا يبدو على ملامحي أنّي نمتُ ولو للحظة واحدة، وأنّها لا تعتقدُ أنّ بإمكاني الصّمود أمام دروس تأهيل المعلّمين حتّى لونجحتُ في امتحان القبول. أشعرُ في أوقات كثيرة أنّي لم أتقدّم ولو شبرا واحدا في تمرّني على أن أحبّ جوزي بايْ.

عندما وصلنا إلى المعهد، التقينا بحشود التّلاميذ القادمين من كلّ أنحاء الجزيرة. وكان أوّل من رأينا ممّن نعرفهم مودي سبيرجنْ. إذ كان جالسا على درج المعهد، يتمتمُ في وحدته دون توقّف. سألته جاينْ عمّ يقوله بحقّ السّماء. فقال إنّه يكرّر جدول الضّرب ليهدّئ من روعه وأنّه يسألها بحقّ الرّبّ ألاّ تقاطعه مجدّدا، لأنّه سيفزع إذا توقّف لوهلة واحدة وسينسى كلّ ما يعرفه. أمّا جدول الضّرب، فكان يحفظ كلّ معلوماته في مكانها السّليم.

وجب على الآنسة ستايْسي أن تغادرنا بعد أن تمّ إسنادُ كلّ واحد منّا إلى قاعته. جلسنا أنا وجايْن معا. وقد كانت متماسكة جدّا حتّى إنّي حسدتها على ذلك. لا تحتاجُ جايْن الرّصينة الثّابتة إلى جدول الضّرب بتاتا. تساءلتُ ما إذا كانت ملامحي تعكسُ مشاعري وما إذا كان يُسمع في القاعة نبضُ قلبي المدوّي. أخيرا، وصل رجل.

وراح يوزّع علينا أوراق امتحان اللّغة الإنجليزيّة. وما أن أمسكتُ الورقة حتّى تجمّدت يدي، وطافت بي الدّنيا. وغمرني شعورٌ مخيف يا ديانا شبيهٌ تماما بما شعرتُ به قبل أربع سنوات وأنا أسأل ماريلاّ ما إذا كانت ستحتفظُ بي في بيتها. ثمّ صفا ذهني فجأة. واستعاد قلبي نبضه المعتاد. آه، نسيتُ أن أخبرك أنّه في تلك اللّحظة تحديدا توقّف عن النّبض تماما! لقد أيقنتُ حينئذ أنّي قادرة على تدبّر أمري مع تلك الورقة.

خلال الظّهر، عدنا إلى البيت من أجل الغداء. ثمّ رجعنا في المساء إلى المعهد من أجل امتحان التّاريخ. كان امتحانا صعبا في الحقيقة. والتبس عليّ الأمر في ما يتعلّق بالتّواريخ. ومع ذلك، مازلتُ أعتقدُ أنّي أبليتُ بلاء حسنا اليوم. ولكن آه يا ديانا! غدا امتحانُ الهندسة. وعندما أفكّرُ في الأمر، أستنفدُ كلّ ذرّة إصرار في داخلي حتّى لا أفتح كتاب القسمة الإقليديّة. ولو كنتُ أعتقدُ أنّ جدول الضّرب سيفيدني، لظللتُ أردّده منذ هذه اللّحظة إلى الغد.

ذهبتُ مساءً للقاء البنات. وفي الطّريق اعترضني مُودي سبيرجنْ، وهو يتسكّع في الأنحاء شارد الذّهن. قال إنّه متيقّنٌ من فشله في امتحان التّاريخ، وإنّه وُلد ليكون خيبةَ أمل لوالديه وسيعودُ إلى البيت غدا في قطار الصّباح. قال أيضا إنّه من الأسهل على أيّة حال أن يصير المرءُ نجّارا من أن يصبح قسّا. حاولتُ أن أروّح عنه. وأقنعتُه في نهاية المطاف أن يبقى ويكمل الامتحانات كلّها لأنّه إنْ لم يفعل فسيكون غير منصف لجهود الآنسة ستايْسي. أحيانا، أتمنّى لو

كنتُ ولدًا. ولكن عندما أنظر إلى مودي سبيرجنْ فإنّي أبتهجُ لكوني فتاةً ولست أخته.

استغرقتْ رُوبي في إحدى نوبات بُكائها عند وصولها إلى مكان الإقامة. إذْ اكتشفت أنّها اقترفتْ خطأ فادحا في امتحان الإنجليزيّة. وبعد أن هدأت، قصدنا وسط المدينة. وتناولنا المثلّجات هناك. ياه! كم تمنّينا لو كنتِ معنا!

آه يا ديانا، أتمنّى لو ينتهي امتحان الهندسة الآن! ومع ذلك، سوف تظلّ الشّمسُ تشرقُ دون شكّ -كما تقول السّيّدةُ ليندْ- وتغربُ كعادتها، سواء أنجحتُ في امتحان الهندسة أم فشلتُ فيه. ذلك صحيح. ولكنّه لا يدفع إلى الشّعور بالرّاحة. وأحسبُ أنّي أفضّل ألاّ تشرق الشّمسُ مجدّدا إذا فشلت فيه».

المُخلصةُ لكِ دوما

آنْ

انتهى امتحانُ الهندسة وبقيّة الامتحانات في الموعد المحدّد. وعادت آنْ إلى البيت مساء الجمعة. كانت متعبة نوعا مّا. ولكنّها حافظت على شيء من ملامح النّصر. ظلّت ديانا تترقّبها عند الضّيعة الخضراء. وما أن وصلت حتّى التقتها كأنّهما قد افترقتا منذ سنين طويلة.

«عزيزتي الغالية، يا لروعة اللّقاء بك مُجدّدا! يُشبّه لي أنّ سنواتٍ كثيرةً مرّتْ على ذهابك إلى المدينة يا آنْ. آه! كيف جرت معك الأمور هناك؟».

«أعتقدُ أنّي أحسنتُ في كلّ شيء ما عدا الهندسة. ولا أعرفُ ما إذا كنتُ سأنجحُ في امتحانها أم لا. لديّ حدسٌ سيّء وعنيدُ بكوني لن أتمكّن من ذلك. آه! ما أحلى العودة إلى البيت! إنّ الضّيعة الخضراء هي المكانُ الأحلى والأغلى في العالم كلّه».

«كيف حال الآخرين؟».

«تقول البناتُ إنّهنّ متيقّناتٌ من عدم نجاحهنّ. ولكنّي أقدّر خلاف ذلك. فقد أبليْن بلاء حسنا على الأرجح. قالت جوزي بايْ إنّ أسئلة الهندسة كانت سهلة جدّا، حتّى إنّ طفلا في العاشرة يمكنه أن يجيب عليها بيُسر. مازال مودي سبيرجنْ مصرّا على رسوبه المتوقّع في مادّة التّاريخ. ويظنُّ تشارلي أنّه لن يجتاز امتحان الجبر بنجاح. ولكن، لا شيء مؤكّد طبعا. ولن يصير كذلك إلاّ عند صدور قائمة النّاجحين بعد أسبوعين. تخيّلي العيش في مثل هذا الرّعب طيلة أسبوعين كاملين يا ديانا! أتمنّى لو كان بإمكاني أن أنام فلا أستيقظ إلاّ وقد انتهى كلُّ شيء».

عرفت ديانا مُسبقا ألاّ نفع من سؤالها عن أداء غيلبرتْ بلايثْ. ولهذا السّبب، اكتفت بقولها:

«لا تقلقي يا آنْ. لا شكّ أنّك ستجتازين الامتحان بنجاح».

«إذا لم يُدرج اسمي في صدر قائمة النّاجحين، فإنّي أفضّل ألاّ أنجح أصلا»، قالتْ آنْ وهي تلمّحُ إلى ما فهمته ديانا ضمنيّا، ومفادهُ أنّ نجاحها سيظلّ ناقصا ومُفعَما بالمرارة إذا لم تتفوّق على غيلبرت بلايثْ.

مُحافِظةً على هذه الغاية في أفق نظرها، استنفدتْ آنْ كلّ ذرّة من أعصابها خلال الامتحانات. وكذلك فعل غيلبرتْ. ورغم أنّهما التقيا مرّات كثيرة في الشّارع إلاّ أنّه لم يظهر على كليْهما أيُّ تعبير يشي بمعرفة سابقة بينهما. ولكنّ آنْ التي ظلّتْ تتجاوزُه مرفوعةَ الرّأس في استعلاء شعُرت بحسرة على رفضها لمصالحته عندما طلب منها ذلك. وعاهدتْ نفسَها، في الآن ذاته، أن تتجاوزه في الامتحان كذلك وتتفوّق عليه. كانت تعرفُ جيّدا أنّ جميع أبناء آفونلي يتساءلون عمّن سيتصدّرُ منهما قائمة النّاجحين. كما تعرفُ كذلك أنّ جيمّي غْلُوفرْ ونِيدْ رَايْتْ قد تراهنا على ذلك، بينما صرّحتْ جوزي بايْ ألاّ مجال لأدنى شكٍّ في أنّ غيلبرتْ هو الذي سيكون الأوّل. وأحسّت أنّها لن تطيق الإهانة والذّلّ النّاتجين عن الفشل إذا كان ذلك.

تملكُ آنْ في واقع الأمر سببا آخر أكثر نبلا لرغبتها في التّفوّق. إنّها تبحث عن «أعلى المراتب» لتسعد ماثيو وماريلاّ، وخصوصا ماثيو الذي أعلن لها قناعته بأنّها «ستهزم الجزيرة كلّها». وذلك ما اعتبرتْهُ آنْ أمرا من السّخيف رجاؤُه حتّى في أجمل الأحلام. ولكنّها رغبت في المقابل أن تكون من بين العشر الأوائل على الأقلّ، حتّى تسعد برؤية عيني ماثيو البنّيّتين اللّطيفتين تلمعان سعادةً بإنجازها. سيكون ذلك مكافأة حلوة لها على عملها الشّاقّ واستغراقها في عالم المعادلات وتصريف الأفعال الخالييْن من الخيال.

عند نهاية الأسبوعيْن، لزمت آنْ مكتب البريد وبصحبتها جايْن، روبي وجوزي. كنّ يفتحن جرائد شارلوتْ تاونْ اليوميّة

بأيادٍ مُرتجِفة باردة وقلوب متوجّسة ومشاعر مُتّقدة خوفًا وتوتُّرا، تماما مثلما حدث لهنّ أيّام الامتحان. ومثلهنّ فعل تشارلي وغيلبرتْ. مودي سبيرجنْ هو الوحيد الذي صمّم على أن يمكث بعيدا.

«لا أملكُ الجرأةَ على الذّهاب إلى هناك وتفحُّص الجريدة بدمٍ بارد»، قال لآنْ. «سأكتفي بالانتظار حتّى يأتي إليّ شخصٌ مّا ويُنبِئني بنجاحي أو رسوبي في الامتحان».

مرّت ثلاثةُ أسابيع من دون أن يتمَّ الإعلانُ عن قائمة النّاجحين. وبدأتْ آنْ تشعر بنفاد الصّبر والعجز عن تحمّل القلق والحيرة أكثر ممّا فعلت. وسرعان ما فقدت شهيّتها للأكل. وفتُر اهتمامُها بما يحدُث من حولها في آفونلي. انتهزت السّيّدةُ ليندْ فرصةَ التّأخير لتقول إنّه ليس هناك أيّ شيء آخر يمكن توقّعه من مسؤول تربيةٍ يكونُ عضوا في حزب المحافظين. أمّا ماثيو الذي لم يغفل عن شحوب آنْ وانعدامِ مُبالاتها وعزوفِها عن الحركة والنّشاط ورُجوعِها من مكتب البريد كلّ مساء بخطوات ثقيلة، فقد أخذ يتساءلُ حقّا ما إذا كان يجدر به أن يصوّت للمحافظين في الانتخابات القادمة.

ولكن ذات مساء، وصلت الأنباءُ أخيرا. كانت آنْ جالسةً عند نافذتها المفتوحة غافلةً عن محنة الامتحانات ونتائجها ومُستغرقةً في تشرّب جمال الغسق الصّيفيّ المعطّر بأنفاس الرّياحين المنبعثة من الحديقة والمنغَّم بحفيف أشجار الحور المتمايلة. فجأة، وبينما كانت غارقة في تأمّل روعة السّماء الشّرقيّة المطلّة على دغل التّنوب والمشُوبة بلون الورد القادم من الغرب وتسأل نفسها ما إذا كانت

روح اللّون متطابقة مع مظهره، لمحت ديانا وهي تُوشكُ أن تطير بين أشجار التّنّوب ثمّ تعبر جسر الحطب وتصعد المرتفع وفي يدها صحيفة ترفرف.

نهضت آنْ واقفة على قدميْها، مُدرِكةً على الفور ما تحتويه تلك الصّحيفة. لقد صدرتْ قائمةُ النّاجحين. دوّم رأسُها. ونبض قلبُها بشدّة حتّى آلمها. ولم تستطع أن تخطو خطوة واحدة. وشُبّه لها أنّ نصف ساعة مرّت قبل أن تصل ديانا وتجتاز الرّدهة، دون أن تطرق الباب، وبحماس شديد.

«آنْ، لقد نجحتِ في الامتحان!»، صاحتْ. «نجحتِ الأولى على الإطلاق... أنت وغيلبرتْ معا. فقد تعادلتما في النّتيجة. ولكنّ اسمكِ مكتوب قبل اسمه في قائمة النّاجحين. آه، كم أنا فخورة بك!».

قذفتْ ديانا الصّحيفة على الطّاولة. واستلقتْ على سرير آنْ، منقطعة الأنفاس وغير قادرة على إضافة أيّ كلمة أخرى. أشعلتْ آنْ القنديل بعد محاولاتٍ كثيرة استهلكتْ فيها يداها المرتعشتان الكثير من أعواد الكبريت. ثمّ التقطت الجريدة أخيرا.

نعم، لقد نجحت. وها إنّ اسمها يتصدّر القائمة التي تتضمّن مائتي اسم. كانت تلك لحظةً جديرة بأن يحيا من أجلها المرء.

«لقد حقّقتِ إنجازا رائعا يا آنْ»، قالت ديانا لاهثةً بعد أن استعادتْ من قِواها ما يكفي لتجلس وتتحدّث. فقد اكتفتْ آنْ بالتّحديق بواسطة عينيْن حالمتيْن دون أن تتلفّظ بكلمة واحدة.

«أحضر أبي الصّحيفة معه من بلدة برايْتْ ريفرْ منذُ عشر دقائق. وصلت الصّحف في قطار المساء كما تعلمين. ولن تبلغ مكتب بريد آفونلي إلاّ صباحَ الغد. ما إن رأيتُ قائمة النّاجحين يا آنْ حتّى اندفعتُ راكضة إليكِ. لقد نجحتم جميعا في امتحان القبول، بما في ذلك مُودي سبيرجنْ رغم أنّه في حاجة إلى إعادة اجتياز امتحان التّاريخ. أبلت جايْن وروبي بلاء حسنا. ويرد اسماهما في منتصف القائمة تقريبا. وكذلك الأمر بالنّسبة إلى تشارلي. أمّا جوزي باي فلم تتجاوز معدّل النّجاح إلاّ بثلاث علامات فحسب. ولكن انتظري حتّى تري زهوها وافتخارها بذلك. ستتصرّف البنتُ كأنّها النّاجحة الأولى والمتفوّقة على الجميع. ألن تبتهج الآنسةُ ستايْسي بنجاحكم؟ آه يا آنْ. كيف تشعرين وقد تصدّر اسمك قائمة النّاجحين؟ لو كنتُ مكانكِ لجننتُ من الفرح. أنا الآن أكادُ أجنّ سعادة من أجلك. ولكنّك هادئة ورصينة مثل يوم ربيعيّ!».

«إنّي منبهرة من الدّاخل»، قالت آنْ. «أريدُ أن أقول مئات الأشياء. وأفتقر إلى الكلمات التي تمنحُها شكلها. لم أحلم بهذا قطّ. بلى... مرّة واحدة فحسب. سمحتُ لنفسي أن أفكّر ذات مرّة: ماذا لو نجحتُ الأولى من بين الجميع؟ ولكنّي تراجعتُ على الفور. إذْ بدا لي من العبث والعجرفة أن أفترض تفوُّقي على تلاميذ الجزيرة كلّهم. المعذرة يا ديانا، سأغيب للحظة حتّى أذهب إلى الحقل وأبشّر ماثيو. ثمّ سنذهبُ معا لنزفّ الأنباء السّعيدة للآخرين».

أسرعت الصّبيّتان إلى حقل البرسيم وراء البيدر، حيثُ كان

ماثيُو بصدد خلط التّبن. ولحسن الحظّ، كانت السّيّدةُ ليندْ آنذاكَ تتحدّث إلى ماريلاّ قرب سياج المسلك.

«ماثيو!»، هتفت آنْ. «لقد نجحتُ. وأنا الأولى. أقصد إحدى الأوّليْن. لا أشعر بالغرور وإنّما بالامتنان للرّبّ».

«حسنا، طالما قلتُ لكِ ذلك»، قال ماثيُو وهو يتأمّلُ قائمة النّاجحين مُستمتِعا. «كنتُ أعرفُ أنّ بإمكانكِ هزيمتهم بسهولة».

«أحسنتِ يا آنْ. يجبُ أن أعترف بذلك»، قالت ماريلاّ، وهي تُحاول أن تُخفي فخرَها الشّديد بآنْ عن عين رايتشلْ الميّالة إلى الانتقاد. ولكنّ تلك الرّوح الطّيبة أردفت في صدق:

«أظنّ أنّها قامت بعمل جيّد. ولا يمكنني أن أنكر هذا أو أتخلّف عن التّصريح به. إنّك مصدر فخر لجميع أصدقائك ولنا نحن أيضا يا آنْ».

قضّتْ آنْ نهاية الأمسية في حوار جادّ مع السّيّدة آلانْ. وفي اللّيل، ركعتْ على ركبتيها بوداعة أمام النّافذة المفتوحة على لمعان القمر العظيم. وتمتمت صلاةَ شُكر وتَوْق إلى الأفضل، خرجت مباشرة من أعماق قلبها. تضمّنت تلك الصّلاة شكرا للرّبّ على ماضيها والتماسا خاشعا من أجل مستقبلها. وعندما وضعت رأسها على وسادتها البيضاء ونامت، كانت أحلامُها مُشرقةً وجميلة ومفعمة بكلّ ما قد يرغبُ فيه قلبُ صبيّة يافعة.

(33)
حفلةُ الفندق

«عليكِ أن ترتدي فستان الأورغانزا[1] الأبيض يا آنْ»، قالتْ ديانا، مُقدِّمةً نصيحتها الرّاسخة.

كانتا معا في غرفة الجملونات الشّرقيّة. وفي الخارج، كان الغسقُ وشيكا. إنّه غسقٌ أخضرُ مَشُوبٌ بشيء من الصّفرة الجميلة في سماء زرقاء صافية. أخذ البدرُ المكتملُ فوق الغابة المسكونة يتحوّل شيئا فشيئا من طيفٍ شاحب إلى قُرص فضّيّ لامع. وكان الهواءُ مُفعمًا بأصوات الصّيف اللّذيذة؛ سقسقة الطّيور النّاعسة، حفيف النّسيم العليل وأصوات وضحكات قادمة من بعيد. ولكن في غرفة آنْ، كانت السّتائرُ مُسدلة والمصباحُ مُضاءً. فقد كانت مشغولة بانتقاء أفضل زينتها.

أصبحت الغرفةُ الشّرقيّة مكانا مختلفا جدّا عن تلك الحُجرة القديمة التي قضّت فيها آنْ ليلتها الأولى قبل أربع سنوات، وقد أحسّتْ حينذاك أنّ عُريها وبردها اخترقا روحها على نحو مؤلم. طفقت التّغييرات التي تغاضت عنها ماريلاّ طوعا تجتاحُ الغرفة على التّدريج، حتّى صارت عشّا لطيفا ومُعدّا وفق رغبات صبيّة يافعة.

(1) قماش رقيق شفّاف يُصنع على الطّريقة التّقليديّة من الحرير.

لا شكّ أنّ رؤى آنْ المبكّرة والمتعلّقة بمشهد الغرفة لم تتحقّق مطلقا. ولكنّ آنْ لم تتحسّر على ذلك، لأنّ أحلامها ظلّت تتبدّل وتكبر معها. وهكذا، لم يظهر السّجّادُ المخمليُّ المزركشُ بالأزهار الورديّة. ولم تنسدل السّتائرُ الحريريّة. بل إنّ السّتائر التي رفرفت استجابةً للنّسيم كانت من الموسلين الرّقيق الأخضر الفاتح. ولم تغلّف الجدران بالبُسُط الذّهبيّة والفضّيّة، وإنّما كساها ورقٌ مزيّنٌ بأزهار التّفّاح اللّذيذ. وعلّقت عليها بعض اللّوحات المهداة من قبل السّيّدة آلانْ، بالإضافة إلى صورة الآنسة ستايْسي التي احتلّتْ مكان الشّرف على الرّفّ الذي حوّلته آنْ إلى موضع وجدانيّ. إذ حرصت على وضع قوس من الأزهار النّضرة تحته. وفي تلك اللّيلة، أضافتْ إليه فرع زنبق أبيض أشاع رائحةً زكيّة في الغرفة أشبه بحلم عطر. لم تكن هناك أيّ قطع أثاث من خشب الماهوغني. في المقابل، وجدت مكتبة بيضاء مليئة بالكتب وكرسيٌّ هزّاز وسرير أبيض واطئٌ ومنضدة زينة مزخرَفةٌ بالموسلين الأبيض ومرآة كانت في ما مضى معلّقة في غرفة الضّيوف، وهي ذات إطار ذهبيّ جميل وقمّة مقوّسة عليها رسمان ورديّان لملاكين صغيرَيْن بينهما عنقود عنب أرجوانيّ.

كانت آنْ تعدُّ نفسها وتتزيّنُ للمشاركة في حفلٍ سيُقام في فندق وايتْ ساندْسْ. وقد نظّمه الضّيوف لجمع تبرّعات لمستشفى شارلوتْ تاوْنْ. بحث هؤلاء المشرفون على الحفل عن مواهب فتيّة في المقاطعات المجاورة. فطلبوا من بيرْتَا سامْبْسُونْ وبيرلْ كلايْ المنتميتين إلى جوقة المعمدان في وايتْ ساندسْ أن تغنّيا أغنية ثنائيّة.

وطلبوا من مِيلْتُونْ كْلارْكْ من بلدة نْيُوبريدجْ أن يؤدّيَ عزْفًا منفردا على الكمان. وسألوا وِيني آدِيلا بْليرْ من كارمودي أن تغنّي قصيدةً اسكتلنديّة. أمّا لورا سْبنسرْ من سبنسرفيلْ وآنْ شِيرْلي من آفونلي، فقد كان عليهما أن تُنشِدا بعض القصائد.

كانت تلك المناسبة تعيّنُ «حقبة من حياة» آنْ وفق كلماتها التي قالتها ذات مرّة. وكان حماسُها لهذا الحدث شديدا. أمّا ماثيو، فقد أدرك سماء الفخر والرّضا السّابعة بفضل الشّرف الذي حظيت به آنْ. ولم تكن ماريلاّ في حال تختلف عنه كثيرا، رغم أنّها كانت تفضّل الموت على أن تقرّ بتلك الحقيقة. وبدلا من ذلك، اكتفت بقولها إنّه ليس من اللاّئق أن يرتاد اليافعون الصّغارُ ذلك الفندق دون مرافقة من وصيّ مسؤول.

خطّطت آنْ وديانا للذّهاب إلى الحفل مع جايْن آندروزْ وشقيقها بِيلي بواسطة عربة عائلة آندروزْ ذات المقاعد المزدوجة. وتأهّب الكثيرُ من شبّان آفونلي وشابّاتها لحضور الحفل كذلك. بالإضافة إلى أنّ النّزل كان يترقّب حضور مجموعة من الضّيوف القادمين من المدينة. وبعد انتهاء الحفل، سيتمّ تقديم العشاء للمؤدّين المشاركين في العرض.

«أتعتقدين حقّا أنّ فستان الأورغانزا أفضل؟»، سألت آنْ في قلق. «لا أرى أنّه أجمل من فستاني الموسلين الأزرق المزيّن بالأزهار. كما أنّ طرازه لم يعد دارجا هذه الأيّام».

«ومع ذلك، فهو يليقُ بك أكثر من فستان الموسلين»، ردّت ديانا.

«إنّهُ ناعمٌ وخفيف ولصيق بالجسم. بالنّسبة إلى فستان الموسلين، فهو من قماش قاسٍ ويجعلك تبدين مغالية في التّأنّق. أؤكّدُ لك أنّ فستان الأورغانزا يبدو كأنّه قد نَما معكِ».

تنهّدتْ آنْ. واستسلمتْ لإلحاح ديانا التي بدأت في اكتساب شهرة كبيرة تتعلّقُ بذوقها الرّفيع في انتقاء الملابس، حتّى إنّ الجميع صار يقصدها طلبا للنّصح والتّقويم. وكانت هي نفسها في تلك اللّيلة أنيقة جدّا، وهي ترتدي فستانا ورديّا فاقعا لا يمكن لآنْ أن تفكّر ولو في خيالها أن تلبس مثله. لكنّ ديانا لم تكن مُنشغلةً بمظهرها، بما أنّها ليست من المساهمين في الحفل. وكانت جميعُ جهودِها ومواهبها مركّزةً على آنْ. إذْ انهمكت في الاهتمام بلباسها وشعرها وزينتها، كأنّها تجهّزُ ملكةً تُشرق باسم آفونلي.

«اسحبي هُدب الفستان قليلا... نعم، هكذا... أحسنتِ. دعيني أربطُ لكِ الحزام. والآن، انتعلي الخفّين. سأضفر لكِ شعركِ في ضفيرتيْن سميكتيْن. ثمّ أرفعهما. وأثبّتهما عند منتصف الرّأس بشرائط كبيرة بيضاء... لا، لا تسحبي على جبينك أيّ خصلة مجعّدة! اكتفي بالخصل الملساء النّاعمة. هذه هي الطّريقة التي تناسبك يا آنْ. تقول السّيّدةُ آلانْ إنّك تبدين مثل السّيّدة العذراء في هذه الهيأة. سأثبّتُ هذه الوردة البيضاء الصّغيرة خلف أذُنكِ مباشرة. لم أجد غيرها في دغلنا. وها قد جلبتُها لك».

«أيجدُر بي أن أرتدي عقد الخُرَز اللّؤلؤيّة؟»، سألت آنْ. «لقد اقتناهُ لي ماثيو الأسبوعَ الماضي من المدينة. وأعرف أنّه سيحبُّ رؤيته عليّ».

زمّت ديانا شفتيْها لوهلة. ثمّ أمالتْ رأسها جانبا في نوع من الرّيبة. ثمّ أصدرت حكمها لصالح العقد. فلُفّ حول عنق آنْ الأبيض الحليبيّ النّحيل.

«هناك شيءٌ مّا أنيقٌ جدّا يتجلّى في مظهركِ يا آنْ»، صرّحت ديانا بإعجابٍ لا حسد فيه ولا غيرة. «إنّكِ ترفعين رأسك عاليا على نحو مميّز. أحسبُ أنّ الأمر متعلّق بقِوامك الرّقيق. أمّا أنا، فلستُ سوى بنتٍ قصيرة وبدينة. ولطالما خشيتُ أن أصبح هكذا. عليّ أن أعترف بهذه الحقيقة في نهاية المطاف».

«ولكنّ لكِ غمّازتيْن رائعتيْن»، قالت آنْ وهي تبتسمُ بحنان لذلك الوجه الجميل المُشرق قرب وجهها. «غمّازتان حلوتان كأنّهما خدشان صغيران في القشدة. بالنّسبة إليّ، فقد فقدتُ الأمل في الحصول على أيّ غمّازة. ولن يتحقّق ذلك الرّجاءُ مطلقا. ومع ذلك، لا يجدر بي أن أتذمّر الآن بعد كلّ تلك الآمال التي تحقّقت. هل صرتُ جاهزة الآن؟».

«جاهزة تماما»، أجابت ديانا مُؤكِّدةً، وهي تلتفتُ إلى ماريلاّ التي ظهرت عند الباب، شبحًا هزيلا ذا عظام ناتئة وشعرٍ أكثر شيبا من قبل، ولكنْ بوجه أكثر رقّة. «اقتربي قليلا. وتأمّلي خطيبتنا الفصيحة يا ماريلاّ. أليست جميلة حقّا؟».

أصدرت ماريلاّ صوتا ما بين الزّفير والنّخير دلالة على الإعجاب.

«تبدو مرتّبة وأنيقة. أعجبتني طريقة تصفيف شعرها. لكنّي أخشى أن تفسد هذا الفستان بالنّدى والغبار وهي في طريقها إلى

الفندق. كما أنّ رقّته تبدو لي غير مناسبة كثيرا لهذه اللّيالي الباردة. وعلى أيّة حال، لا يوجدُ قماش في العالم كلّه أكثر رهافة من الأورغانزا. هذا ما قلتُه لماثيو عندما اشتراه، رغم أنّه لم يعد هناك أيّ جدوى من اعتراضي على ما يفعلُه ماثيو. لقد ولّت تلك الأيّام التي كان يعتمدُ فيها على رأيي ومشورتي. أمّا الآن، فهو يكتفي باقتناء الأشياء مباشرة لآنْ، بينما يعي تُجّار كارمودي جيّدا أنّ بإمكانهم أن يبيعوه أيّ شيء بمجرّد أن يهتفوا أمامه: هذا جميل وعصريّ. على الفور، سيُخرجُ السّيّد ماثيو أمواله ويقتنيه. احرصي على أن يبقى فستانك بعيدا عن عجلة العربة يا آنْ. ولا تنسي أن تضعي سترتك السّميكة».

نزلت ماريلاّ الدّرج، مزهوّةً بجمال آنْ الذي رأته للتّوّ أشبه «بوميض قمريّ يُشعّ بين الوجه والتّاج». وأحسّت بالأسف لأنّها لن تكون حاضرةً في الحفل كي تُصغي إلى صبيّتها وهي تنشدُ الشّعر.

«أخشى أن يكون الجوُّ رطبًا جدّا على هذا الفستان»، قالت آنْ في توجّس.

«مطلقا! ليس هناكَ أيُّ رطوبة»، ردّت ديانا وهي تفتحُ ستائر النّافذة. «إنّها ليلة رائعة خالية من النّدى. انظري إلى ضوء القمر!».

«يسرّني جدّا أنّ نافذتي مشرقيّةٌ تطلّ على الشّمس»، قالت آنْ وهي تدنو من ديانا. «ليس هناك ما هو أروع من الصّباح وهي يتقدّمُ نحو التّلال العالية. ثمّ يتوهّجُ فوق أغصان التنّوب، مُتجدّدا كلّ يوم. كلّما أبصرتهُ شعرتُ أنّ أعماق روحي تغتسلُ في حمّام أشعّته

المبكّرة. ياه! ليتكِ تعرفين يا ديانا كم أحبّ هذه الغرفة الصّغيرة. لا أعرف حقّا كيف سأهجرُها بعد شهر راحلةً إلى المدينة».

«لا تتحدّثي عن الرّحيل هذه اللّيلة»، توسّلتْ ديانا. «يغمرني التّفكير فيه بالبؤس والأسى، فيما أريد أن أستمتع بهذا المساء. قولي لي يا آنْ، ما هي القصيدةُ التي تنوين إلقاءَها؟ وهل أنتِ متوتّرة؟».

«مطلقا! لقد اعتدتُ إنشاد الشّعر أمام النّاس. وما عدتُ أشعر بالتّوتّر بتاتا. قرّرتُ أن أقرأ «نذر العذراء». فهي قصيدة حزينةٌ جدّا. أمّا لورا سبنْسرْ، فستلقي قصيدة هزليّة. لكنّي أفضّل أن أبكي النّاس على أن أضحكهم».

«وماذا ستقرئين إذا استزادكِ الجمهور؟».

«أنا متيقّنة من أنّهم لن يفعلوا ذلك»، قالت آنْ في سخرية رغم أنّها أضمرت رغبتها الخفيّة في أن يحدث خلاف ذلك، حتّى إنّها تخيّلتْ نفسها وهي تسرد الأمر على مسمع ماثيو خلال فطور الصّباح في اليوم التّالي. «ها قد وصل بيلي وجايْن. إنّي أسمع صوت العجلات. هيّا، لنذهب!».

أصرّ بيلي آندروزْ على جلوس آنْ إلى جانبه في العربة. فوافقت على ذلك مُكرهةً، لأنّها أرادتْ أن تنضمّ إلى ديانا وجايْن في المقعد الخلفيّ، حيث تستطيعُ أن تُبادلها الحديث والضّحك مثلما تشاء. في المقابل، لم تكن مجاورةُ بيلي تضمن أيّ شيء من ذلك. إذْ كان فتًى ضخمًا بدينا وبليدًا في العِشرين من عمره. لا ترسمُ ملامحُ وجهه المكوَّر أيّ تعبير. كما أنّ له خللا فادحا في مَلَكة الحوار والحديث إلى

الآخرين. ولكنّه كان معجبا بآنْ على نحو لا يوصف. وقد اختال وانتفخ زهوا عندما حظي بفرصة قيادة العربة إلى وايتْ ساندْسْ وتلك الصّبيّة الجميلةُ النّحيلة جالسة إلى جواره.

توصّلتْ آنْ إلى التّحدّث إلى ديانا وجايْن بصعوبة من فوق كتفها. ومن حين إلى آخر، كانت تمرّر كلمة مجاملة لبيلي، الذي كان يكتفي بالابتسام والضّحك دون أن يتمكّن من التّفكير في إجابة إلاّ بعد فواتِ الأوان. ومع ذلك، تمكّنت آنْ من الاستمتاع برحلة الطّريق.

كانت ليلةً منذورةً للمرح. امتلأ الطّريقُ بالعربات المتّجهة إلى الفندق، بينما انطلقتْ الضّحكاتُ على امتداده. ومن مُختلف الجهات، رنّ صداها المسترسل. وما أن أوشكت العربةُ أن تصل حتّى لاح الفندقُ ساطعا بالأضواء الباهرة من قمّته حتّى قاعدته. وهناك استقبلتهم السّيّداتُ المنخرطات في لجنة التّنظيم. فصحبتْ إحداهنّ آنْ إلى غرفة ملابس المؤدّين التي كانت مكتظّة بأعضاء نادي شارلوتْ تاونْ السمفونيّ. وبينهم أحسّت آنْ فجأةً بالخجل والخوف وضآلة الرّيفيّة البسيطة. فجأةً، أصبح فستانُها الذي كان جميلاً وأنيقا في غرفتها بسيطا وعاديّا جدّا مقارنة بلمعان الحرير والساتان الذي يحيط بها. وأيّ وزن يملكه عقدها اللّؤلؤيّ أمام ماسات السّيّدة الضّخمة الأنيقة والجالسة قربها؟ وكم هي بائسةٌ وردتُها البيضاء إلى جانب كلّ تلك الورود ذات الألوان المختلفة البديعة! خلعتْ آنْ قبّعتها وسترتها. انكمشتْ في بؤس بإحدى الزّوايا. وتمنّت لو أنّها تعودُ إلى غرفتها البيضاء في الضّيعة الخضراء.

ساءت الأمورُ أكثر عندما وجدتْ آنْ نفسها عند مقاعد المنصّة في قاعة الحفلة، حيثُ أبهرتْ الأضواءُ الكهربائيّة عينيْها وأذهلتْها روائحُ العطور وهمهماتُ الحاضرين، حتّى إنّها ودّتْ لو كانت واحدةً من الجمهور، جالسةً إلى جانب ديانا وجاين اللّتيْن بدتا مُستمتعتيْن جدًّا في عمق القاعة. جلستْ آنْ على أحد المقاعد بين سيّدتيْن إحداهما بدينةٌ ترتدي فستانا من الحرير الورديّ والأخرى فتاة طويلة ذات ملامح مَشُوبة بالازدراء وتلبسُ فستانا من الساتان الأبيض. وبعد وهلة، التفتتْ البدينةُ إلى آنْ. وحدّقت فيها من تحت نظّارتها إلى أن شعرت الصّغيرة بالارتباك الشّديدة والرّغبة في الصّياح بأعلى صوتها. أمّا ذاتُ الرّداء الأبيض، فقد انهمكتْ في تلك اللّحظة في الحديث إلى رفيقتها بصوت مسموع، هازئةً من «فلاّحي الأرياف» وجمالِ «الرّيفيّات الغليظات» الجالسات بين الجمهور، ومؤكّدةً في سخريتها الوقحة ألاّ مرح يمكنُ أن تأتي به المواهبُ المحلّيّة التي تمّ إدراجُها في برنامج الحفلة. وحينئذ فكّرت آنْ أنّها ستكره فتاة الفستان الأبيض حتّى آخر يوم في حياتها.

ولسوء حظّها، شاءت الصّدفةُ أن يضمّ الفندق من بين حرفائه مُنشِدةً وخطيبة محترفة. وقد وافقت على أن تلقي الشّعر ضمن فعاليّات الحفلة. كانت امرأةً رشيقة سوداءَ العينين، ترتدي ثوبًا رماديّا لامعا كأنّه وميض قمر منسوج. أمّا صوتُها، فقد بدا متموّجا على نحو رائع. وله قدرةٌ رهيبة على التّعبير وكشفِ الانفعالات والعواطف. نسيت آنْ لوهلة كلّ ما يتعلّق بها وبمتاعبها. وأصغتْ إليها بعينين طرِبتيْن لامعتيْن. ولكن ما أن انتهى الإلقاءُ حتّى

وضعتْ يديها على وجهها. لا يمكنُها، بعد ما سمعته للتّوّ، أن تقفَ، فتصعدَ إلى المنصّة وتتجرّأ على الإلقاء... مطلقا! هل كانت تحسبُ نفسَها بارعة حقّا في الإلقاء؟ أُوهٍ، ليتَها تستطيعُ العودة إلى الضّيعة الخضراء!

وفي نفس اللّحظة غير المواتية تلك، نودي باسمها. وعلى نحو مّا، تمكّنت آنْ من النّهوض والتّقدّم شبه واعية إلى الأمام، دون أن تلاحظ النّظرة الأقرب إلى الشّعور بالذّنب التي ألقتها عليها فتاةُ الفستان الأبيض. شحُب وجهُها جدّا، حتّى إنّ ديانا وجايْن تشبّثتا بعضهما ببعض في تعاطف وتوتّر.

وقعتْ آنْ ضحيّةً لهجمةٍ عنيفة من رهبة الرّكح. وسرعان ما نفدت قواها، وهي تتأمّلُ الحشد الذي لم يسبق لها أن واجهت مثله من قبل. بدا كلُّ ما حولها غريبا، لامعا ومُربكا تماما؛ صفوف السّيّدات المرتديات لفساتين السّهرة، الوجوه المتفحّصةُ بملامح الانتقاد ومناخ الثّروة والثّقافة الذي يُحيط بها. كان ذلك مختلفا جدّا عن مقاعد نادي المحاضرات البسيطة في آفونلي ووجوه الأصدقاء والجيران البشوشة. إنّ هؤلاء الماثلين أمامها ليسوا سوى نقّاد قساة. لعلّهم، مثلما قالت ذات الفستان الأبيض، لا ينتظرون شيئا سوى الاستهزاء بأدائها الرّيفيّ السّاذج. شعرت بانقطاع الرّجاء في قلبها. وأحسّتْ بالخجل والبؤس. ارتجفت ركبتاها. وخفق قلبها من شدّة الاضطراب بعنف. وهيمن عليها وَهنٌ أخرس. فلم تستطع التّلفّظ بأيّ كلمة. وشُبّه لها أنّ الحلّ الوحيد المتبقّي لها يتمثّل في الفرار من القاعة رغم العار الأبديّ الذي سوف يُلاحقها بسبب ذلك.

وفجأة بينما كانت عيناها تجوبان وجوه الحاضرين، لمحتْ غيلبرتْ بلايْثْ جالسا في عمق القاعة. وعلى وجهه ترتسمُ ابتسامةٌ حسبتْها ابتسامة سخرية واستهزاء. وفي واقع الأمر، لم تكن لتلك الابتسامة أيّ علاقة بما فكّرت فيه آنْ. إذ كان غيلبرتْ مشدوها بما يحيط به ومفتونا على نحو خاصّ بأثر قوام آنْ الأبيض النّحيف ووجهها الملائكيّ إزاء خلفيّة النّخيل وراءها. أمّا جوزي بايْ التي جاءت إلى الحفلة برفقته والتي كانت جالسةً إلى جواره، فلا شكّ أنّ السّخرية تعشّشُ حقّا في ابتسامتها. ولكنّ آنْ لم تلاحظ جوزي مطلقا، ولم تكن لتهتمّ بأمرها لو رأتْها.

فجأةً، استنشقتْ آنْ نفَسًا عميقًا. رفعتْ رأسَها عاليا. واهتزّ التّصميمُ عبر جسدِها كأنّه صعقةٌ كهربائيّة. لا، لن تسمح لنفسِها بالفشل أمام عيني غيلبرتْ بلايثْ. لن تُتيح له الفرصة كي يسخر منها مطلقا. وعلى هذا النّحو، تجلّدتْ. وسيْطرت على خوفها وتوتُّرها. ثمّ شرعت في الإلقاء، وهي تُطلق صوتها العذب الصّافي على سجيّته حتّى أدركَ أبعد ركن في القاعة دون رعشة أو تقطُّع. وراحتْ تُنشدُ الشّعر كما لم تفعل قطّ، وقد تملّكتْ نفسَها من جديد مُستفيدةً من الطّاقة التي بعثها فيها التّوتّرُ منذ حين. وما أن أنهتْ الإلقاء، حتّى استقبلتْها عاصفةٌ من التّصفيق الصّادق. وكانت على وشك أن تعود إلى مكانها عندما أوقفتْها السّيّدةُ البدينةُ، وشدّت على يديها بقوّة وانفعال: «كان آداؤُكِ رائعا يا عزيزتي! جعلتِ دموعي تنهمرُ كأنّني رضيعة صغيرة. أنصتي جيّدا! إنّهم يطلبون منك المزيد، ومصمّمون على أن تعودي إلى الرّكح».

«لا أجرؤ على ذلك»، ردّت آنْ في ارتباك. «ومع ذلك، لا خيار لديّ، وإلاّ خاب أملُ ماثيو فيّ. لقد قال لي سلَفا إنّهم سيَسْتزيدُونني في القراءة».

«لا تُخيّبي أمل ماثيو إذن»، قالت السّيّدةُ البدينةُ ضاحكةً.

رجعتْ آنْ إلى الرّكح مُتوهّجة، مُتورّدة الوجنتيْن وصافية العينين. وألقت المزيد من القصائد على جمهورها المُعجب. لقد مثّلت الأمسيةُ نصرا صغيرا بالنّسبة إليها. وبعد انتهاء الحفل، تقدّمت السّيّدةُ البدينة التي كانت زوجة مليونير شهير. وتكفّلت برعاية آنْ. إذْ قدّمتْها إلى جميع الحاضرين الذين كانوا لطفاء جدّا معها. بل إنّ السّيّدة إيفانزْ، المنشدةُ والخطيبةُ المحترفة، تقدّمت وتحدّثت إليها لبعض الوقت، وأخبرتْها أنّ صوتها ساحرٌ والقصائد التي انتخبتْها رائعةٌ. وحتّى ذاتُ الفستان الأبيض مدحتها على نحو مُقتضَب. ثمّ حان وقتُ العشاء. فدُعيت إليه جايْن وديانا لأنّهما كانتا رفيقتيْ آنْ. أمّا بيلي الذي هيمن عليه الفزعُ بسبب هذه الدّعوة، فلم يعثر عليه أحدٌ. ولكنّه ظلّ ينتظرهنّ مع العربة والفرس إلى أن انتهى كلّ شيء. وخرجت الفتياتُ بعد تناول العشاء في قاعة الطّعام الواسعة والمزيّنة بإتقان شديد. وقفن تحت شعاع القمر المتوهّج. فسحبتْ آنْ نفَسا عميقا. وتأمّلت السّماء الصّافيةَ فوق أغصان التنّوب القاتمة.

آه، كان من الرّائع أن يَعُدْن مجدّدا إلى صفاء اللّيل وهدوئه! كم كان كلُّ شيء هناك رائعا وساكنا وعظيمًا، حيثُ يُسمع هديرُ البحر

ودمدمةُ الخلجان المظلمة كأنّها عمالقة متجهّمون يحرسون شطآنا مسحورة!

«ألم تكن ليلة عظيمة ومثاليّة؟»، تنهّدت جايْن، بينما انطلقت العربة مُبتعدةً. «أتمنّى لو كنتُ ثريّة أمريكيّةً، فأقضّيَ صيفا كاملا في فندق كهذا، وأملكَ الكثير من المجوهرات وفساتين السّهرة، وأتناول المثلّجات وسلطة الدّجاج كلّ يوم من أيّام حياتي الهانئة. لا شكّ أنّ ذلك سيكون أفضل وأكثر إثارة من التّعليم في إحدى المدارس. آنْ، لقد كان آداؤُكِ عظيما رغم أنّي حسبتُك في البداية عاجزةً عن التّلفّظ ولو بكلمة واحدة. ولكنّكِ تفوّقتِ في النّهاية على السّيّدة إيفانزْ».

«لا، لا تقولي هذا يا جايْن»، هتفتْ آنْ بسرعة. «هذا كلام سخيف. فإلقائي لم يكن أفضل من إلقاء السّيّدة إيفانزْ بأيّ شكل من الأشكال. وأنت تعرفين ذلك جيّدا. إنّها خطيبة محترفة. أمّا أنا، فلستُ إلاّ تلميذة مدرسة تملك بعضَ موهبةٍ في إلقاء الشّعر. يكفيني رضًا وفخرا أن يحبّ النّاسُ إنشادي إلى حدّ مّا».

«لديّ إطراء لكِ يا آنْ»، قالت ديانا. «على الأقلّ، أعتقدُ أنّه إطراء استنادا إلى النّبرة التي قاله بها؛ كان هناك أمريكيٌّ يجلسُ خلفنا. يا له من رجل وسيم ذي ملامح رومنسيّة! شعره أسودُ فاحمٌ. وكذلك عيناه. قالت جوزي بايْ إنّه فنّانٌ مرموق وإنّ قريبة أمّها في بوسطن متزوّجة من زميل سابق له في الدّراسة. حسنا، سمعناهُ يقول -أليس كذلك يا جايْن؟- من هي تلك الفتاةُ على الرّكح ذاتُ الشّعر

التّيتْيانيّ[1] الرّائع؟ إنّ لها وجها أودُّ أن أرسمه في لوحة. حسنا، ما رأيك يا آنْ؟ ولكن، ماذا تعني كلمة تيتيانيّ؟».

«أعتقدُ أنّهُ إذا أردنا استخدام كلماتٍ مفهومة، فسنقول أحمر عاديّ»، قالتْ ضاحكةً. «تيتيان فنّان شهير جدّا، كان يحبُّ رسم النّساء ذوات الشّعر الأحمر».

«هل رأيتُها تلك الماسات التي ترتديها النّساء؟»، تنهّدتْ جايْن. «إنّها مذهلة حقّا. ألا تتمنّين أيضا أن تَكُنَّ فتيات ثريّات؟».

«نحنُ كذلك يا جايْن»، قالتْ آنْ صادقةً. «كيف لا ونحنُ في السّادسة عشرة، سعيداتٌ كأنّنا مَلِكات. نحظى جميعا بالخيال، وإن اختلفت درجاتُه في ما بيننا. انظرا إلى البحر مُفعما بالفضّة والظّلال والخبايا التي لا تُرى! ما كنّا لنتمتّع بروعته لو كنّا نملكُ ملايين الدّولارات وحبالا ماسيّة طويلة. أتقبل أيٌّ منكما أن تستبدل مكانها بمكان أيّ واحدة منهنّ؟ من منّا تُريد أن تصبح مثل صاحبة الفستان الأبيض فتُضطرَّ إلى أن ترتدي قناعا عبوسا مُتجهِّمًا طيلة حياتها، كأنّها مولودةٌ بأنف مرفوع وعنُق مشدود إلى أعلى؟ أو مثل السّيّدة الورديّة اللّطيفة الودودة ولكن السّمينة القصيرة كألاّ قِوامَ

---

(1) مصطلحٌ يعيُنّ درجة لونيّة تخصّ الشَّعر. وهي مجُاوِرةٌ للون الكستناء أو البنّيّ المشُوب بالحُمرة. اشتُقّ لفظُه من اسم الرّسّام الإيطاليّ تيتسيانو فيتشيليو (1488-1576) أصيلِ البندقيّة، الذي يُعتبر مؤسّس مدرسة في فنّ الرّسم والشّهير برسمه المُطّرِد لنساء صهباوات ذواتِ شعر مائل إلى الحمرة. ثمّ شاع في الولايات المتّحدة الأمريكيّة منذُ بدايات القرن التّاسع عشر استخدامُ المصطلح بصفته لونَ شعر، خصوصًا عندما راج استعمالُ النّساء للحنّاء كي يصبغن شهورهنّ.

لها؟ أو حتّى السّيّدة إيفانزْ صاحبةُ النّظرة الموغلة في الحزن؟ لا شكّ أنّها كابدت لحظاتٍ عصيبة في حياتها حتّى تكتسب تلك النّظرة. تعرفين جيّدا أنّكِ لن ترضي بذلك يا جايْن آندروزْ!».

«لا أعرفُ حقّا»، ردّتْ جايْن متردّدة. «ومع ذلك، أعتقدُ أنّ الماس يمكنه أن يوفّر راحة عظيمة للمرء».

«أمّا أنا، فلا أريدُ أن أكون أيَّ شخص آخر غيري، حتّى لو لمْ أحصل على الماس طيلة حياتي»، صرّحتْ آنْ. «إنّي راضيةٌ بكوني آنْ، ابنة الضّيعة الخضراء، وبعقدِ الخرُز اللّؤلؤيّة هذا. وأعرفُ جيّدا أنّ ماثيو قد بذل من الحبّ في إهدائه لي ما يمكنُ أن تُحصّله مُجتمعةً كلُّ مجوهرات السّيّدة الورديّة».

(34)
فتاةُ الأكاديميّة الملكيّة

غصّت الأسابيعُ الثّلاثةُ التّالية للحفلة بالمشاغل في الضّيعة الخضراء. إذ كانت آنْ تتأهّبُ للذّهاب إلى الأكاديميّة الملكيّة. وكانت هناك العديدُ من الملابس التي ينبغي خياطتها والمسائل التي يجب إعدادُها. وقد تكفّل ماثيو بذلك على نحو متقن، دون أن تعترض ماريلاّ للمرّة الأولى على أيّ من مقتنياته أو مقترحاته. بل إنّها قصدت ذات مساء الغرفة الشّرقيّة حاملة في يدها قماشا رقيقا أخضر فاتحا. مكتبة سر من قرأ

«آنْ، هذا قماشٌ جميل يصلح لخياطة فستان من أجل المناسبات الخاصّة. أعتقدُ أنّكِ لا تحتاجين إليه لأنّ لك فساتين كثيرة. ولكن فكّرتُ في إعداد فستان رسميّ من أجل مناسبة رسميّة في المدينة، كأن تتمّ دعوتكِ إلى حفلة أو شيء مّا من هذا القبيل. سمعتُ أنّ جايْن وروبي وجوزي أعددن فساتين سهرة لأنفسهنّ. ولستُ أنوي أن تختلفي عنهنّ. ولذلك، طلبتُ من السّيّدة آلانْ خلال الأسبوع الماضي أن تساعدني في اختيار هذا القماش من المدينة. وسأطلب الآن من إميلي غيليزْ أن تخيطه لكِ. تعرفين، ليس هناك من يضاهي إميلي في ذوقها وإتقانها».

«آه، يا له من قماش جميل يا ماريلاّ!»، هتفت آنْ. «أنا ممتنّة لك جدّا. ولكن، من الأفضل ألاّ تكوني لطيفة معي إلى هذه الدّرجة. فهذا الأمرُ يجعل رحيلي أشدَّ بكثير».

أُعِدّ الفستانُ الأخضر بكثير من الطّيّات والزّخارف، وفق ذائقة إميلي. وذات مساء، ارتدتْه آنْ كي يراه ماثيو وماريلاّ، وهي تلقي عليهما في المطبخ قصيدة «نذر العذراء». وبينما كانت ماريلاّ تتأمّل الوجه المشرق النّضر والحركات الرّشيقة، استرجعتْ في ذاكرتها تلك الأمسية التي وصلتْ فيها آنْ إلى الضّيعة الخضراء. واستعادتْ صورة البنتِ الغريبة المذعورة في ثوبها القطنيّ البالي وقلبها المنفطر والمتجلّي في عينيها الباكيتيْن. شيء مّا في تلك الذّكرى دفعها إلى البكاء.

«يبدو أنّ إلقائي للقصيدة قد أبكاكِ يا ماريلاّ»، قالت آنْ في انشراح، وهي تنحني على كرسيّ المرأة وتختمُ قبلة على وجنتها. «أسمّي هذا نصرا حقيقيّا».

«لا، لم أبكِ بسبب قصيدتكِ»، ردّت ماريلاّ التي ما كان ليُرضيها أن يُقرَن ضعفُها بـ«مسائل الشّعر». «إنّما لم أستطع منع نفسي من التّفكير في البنيّة الصّغيرة التي كُنتِها من قبل يا آنْ. وكنتُ أتمنّى لو أنّكِ ظللتِ طفلة صغيرة حتّى لو احتفظتِ بكلّ أساليبك الغريبة. ها قد كبرتِ. وسترحلين عنّا قريبا. هذا الفستانُ يجعلكِ تبدين طويلةً وأنيقة وكذلك... أقصدُ أنّكِ مختلفةٌ تماما، كأنّكِ لستِ من آفونلي. وقد دفعني التّفكيرُ بكلّ ذلك إلى الشّعور بالوحشة».

«ماريلاّ!»، جلستْ آنْ في حِجْرها. وأمسكت وجهها الهرم بين يديها. وحدّقت في عينيها بعطف وحنان. «لستُ مختلفة ولو مثقال ذرّة واحدة. كلّ ما في الأمر أنّي تشذّبتُ وتفتّحتُ. أمّا أنايَ الحقيقيّة، فهي نفسها ومازالت هنا أمامكِ. ولن يغيّر ذهابي إلى أيّ مكان في العالم شيئا منها. مهما تبدّل مظهري، سوف أظلُّ دوْمًا صغيرتكِ آنْ، التي تحبّكِ وتحبُّ ماثيو والضّيعة الخضراء أكثر وعلى نحو أعمق كلّ يوم».

أمالتْ آنْ رأسها. ووضعت خدَّها الفتيّ النّاعم على خدّ ماريلاّ الذّاوي. ومدّت يدها. فربّتتْ على كتف ماثيو. كانت ماريلاّ مستعدّة في تلك اللّحظة لتمنح الكثير حتّى تكتسب قدرة آنْ الرّهيبة على تحويل مشاعرها إلى كلمات. ولكنّ طبيعتها وما نشأت عليه دفعاها إلى خلاف ذلك. فاكتفتْ بلفّ ذراعيْها حول الصّبيّة. ثمّ ضمّتها بحنان. وتمنّت لو أنّها لم تكن مضطرّة مطلقا إلى السّماح لها بالذّهاب.

بالنّسبة إلى ماثيو الذي أوشك على أن يُسلم العنان لدموعه، فقد نهض وغادر البيت إلى الفناء الخلفيّ، حيث مشى باتّجاه البوّابة بين أشجار الحور تحت نجوم اللّيلة الصّيفيّة الزّرقاء.

«حسنا، لا يبدو أنّه تمّ إفسادها بالدّلال»، تمتم بفخر. «أعتقدُ أنّ إقحامي لمجدافي في القارب من حين إلى آخر لم يكن سيّئا كذلك. إنّها ذكيّة وجميلة ومُحبّةٌ كذلك، وهذا هو الأهمّ على الإطلاق. لقد كانت هذه الصّغيرةُ نعمةً بالنّسبة إلينا. ولم يكنْ هناك من خطإٍ مبارك أكثر من ذاك الذي اقترفته السّيّدة سبنسرْ، إذا كان له أن

يُسمّى خطأ. لا أعتقد أنّ في الأمر حظًا أو صدفة. وإنّما هي الرّعاية الإلهيّةُ دون شكّ. فقد علم القديرُ على كلّ شيء أنّنا نحتاج إليها في حياتنا».

أخيرا، حان موعدُ ذهاب آنْ إلى المدينة. واصطحبها ماثيو بالعربة إلى هناك في صباح لطيف من أصباح أيلول بعد وداعٍ دامع مع ديانا ووداع آخر عمليّ لا دموع فيه مع ماريلاّ. ولكن بعد أن غادرت آنْ، جفّفت رفيقتُها دموعها. خرجت في نزهة إلى الشّاطئ مع قريباتها القادمات من كارمودي. وقد قرّرت أن ترفّه عن نفسها قدر استطاعتها. أمّا ماريلاّ، فانهمكت في أعمال منزليّة غير ضروريّة استغرقت النّهار كلّه. كانت كسيرة الفؤاد حزينة، يحرقُ الألمُ حَشاها ويقضمه على نحو لم تستطع أن تتطهّر منه بدموع جاهزة. وفي اللّيل، عندما قصدت غرفتها للنّوم، غمرها حزنٌ شديد. إذ كانت الغرفة الشّرقيّة عند نهاية الرّواق مطفأة خالية من الحياة الفتيّة والأنفاس العبقة لصاحبتها الرّقيقة. دفنت وجهها في الوسادة. واسترسلتْ في النّحيب على صغيرتها الغائبة بنشيج مرير، حتّى إنّها لامتْ نفسها لاحقًا عندما هدأتْ، وهي تفكّر أنّه من غير اللاّئق تعلُّق المرء بمخلوق فانٍ مثله على ذلك النّحو.

وصلتْ آنْ وبقيّة الطّلبة إلى المدينة في الوقت المناسب للالتحاق بالأكاديميّة. ومضى اليومُ الأوّل على نحو جيّد مُفعَما بدوّامة من الحماس الشّديد للقاء الطّلبة الجدد والتّعرّف على الأساتذة اعتمادا على ملامحهم وتوزيع الطّلبة على القاعات. كانت الآنسةُ ستايْسي قد

نصحتْ آنْ باختيار صفّ السّنة الثّانية، لأنّه يؤهّل الطّالب ليحظى برتبة معلّم مُجاز من الدّرجة الأولى في سنة واحدة. ولكنّه يقتضي في المقابل المزيد من العمل الشّاقّ. وهكذا، عملتْ آنْ بنصيحة الآنسة ستايْسي. واختار غيلبرتْ بلايثْ الصّفّ نفسه. أمّا جايْن، روبي، جوزي، تشارلي ومودي، فكانوا في مأمن من ضغوطات الطّموح. ولذلك اختاروا صفّ السّنة الأولى الذي يؤهّلهم لنيل إجازة التّعليم من الدّرجة الثّانية. شعُرت آنْ بالوحدة ما أن دخلت القاعة التي ضمّت خمسين طالبا وطالبة لا تعرفُ منهم أحدا باستثناء ذلك الفتى الطّويل ذي الشّعر البنّيّ الجالسِ وسط القاعة، والذي لن تنفعها للأسف معرفتُها به والحال بينهما على ما هي عليه. ومع ذلك، أحسّت بالسّعادة لأنّهما يتشاركان الصّفّ نفسه. فذلك يعني أنّها ستحظى من جديد بالمنافسة المعهودة. بل إنّها كانت لترتبك تماما لو غابت عنها تلك المنافسة المرجوّة.

«ما كنتُ لأشعر بالرّاحة دونها»، فكّرتْ آنْ. «يبدو غيلبرتْ مصمّما على التّفوّق. وأظنّه عازما على الحصول على الميداليّة. يا لذقنه الرّائع! لم ألاحظهُ من قبل مطلقا. كم أتمنّى لو أنّ روبي وجايْن قرّرتا الانضمام إلى صفّ الدّرجة الأولى. طبعا، لن أبقى دوما قطّة في عليّة غريبة. إذ سأعتاد على الطّلبة الجدد مع مرور الوقت. أتساءل أيّ الفتيات سيُصبِحْن صديقاتي. إنّه تخمينٌ مثيرٌ للاهتمام حقّا. طبعا، أعرفُ أنّي وعدتُ ديانا أنّه ما من طالبة في الأكاديميّة ستصير عزيزة على قلبي مثلها، مهما أعجبني طبعُها ومهما أحببتُها. ولكنّي أملكُ الكثير من العواطف المفضّلة الثّواني. ويمكنني أن أستخدمها

متى شئتُ. تعجبني تلك الفتاة ذات العينين السّوداوين والصِّدار القرمزيّ. تبدُو مفعمةً بالحيويّة والانشراح. هناك أيضا تلك الشّاحبةُ الشّقراء المُحدِّقة من خلال النّافذة. شعرُها جميلٌ. ويُشبَّه لي أنّها تعرفُ بعض الأشياء عن عالم الأحلام. أرغبُ في التّعرّف عليهما معا، على نحو وثيق ومقرّب يسمح لنا بالتّمشّي معا ونحن نلفُّ أذرعنا حول خصور بعضنا البعض ونتنادى بألقاب التّودّد. ولكنّنا لا نعرفُ بعضنا البعض في هذه اللّحظة. وقد لا ترغبان في التّعرّف عليّ على نحو خاصّ. آه، يا للوحشة!

شعرتْ آنْ بمزيد من الوحشة عندما اختلتْ بنفسها في غرفتها مساء ذلك اليوم. لم تكن تقيمُ مع بقيّة الفتيات اللّواتي حظين بأقارب في المدينة يتكفّلن بالاعتناء بهنّ. كانت العمّةُ جوزفينْ باري مُستعدّة لترحّب بها في بيتها. ولكنّ ذلك لم يكن ممكنا. فمنطقة بِيتْشُوودْ بعيدة عن الأكاديميّة. ولهذا حرصت الآنسةُ باري على أن تُؤمّن لها غرفة سكن. وقد أكّدت لماثيو وماريلاّ أنّ ذلك هو العمل المناسب.

«السّيّدةُ التي تُشرف على السّكن امرأةٌ نبيلة»، شرحت الآنسة باري. «كان زوجُها ضابطا بريطانيّا. وهي حذرةٌ جدّا في ما يتعلّقُ بقبول القاطنين عندها. لن تخالط آنْ هناك أيّ شخص غير مرغوب فيه. كما أنّ الطّعام جيّد جدّا. والمنزل قريب من الأكاديميّة. ويقعُ في منطقة هادئة».

كانت كلماتُ العمّة دقيقةً دون شكّ. وقد أثبتتْها لاحقا التّجربةُ

الفعليّة. لكنّها لم تُساعد آنْ في شيء عندما غمرَها الحنينُ اللاّذع إلى البيت. راحتْ تتأمّل بحزن تلك الغرفة الضّيّقةَ بورق الجدران الكئيب والحيطان العارية المفتقرة إلى اللّوحات والصّور والسّرير الحديديّ الواطئ والمكتبة الفارغة. تذكّرت غرفتها البيضاء في الضّيعة الخضراء. فأحسّت بغصّة في الحلق، وهي تسترجعُ وعيَها بالخضرة الشّاسعة التي تلفُّها هناك، حيث ينمو البازلاّء الحلو في الحديقة وينسكبُ بريقُ القمر على البستان، ويتدفّقُ الجدول عند المنحدر وتتمايلُ أغصان التنّوب مع النّسيم اللّيليّ خلف الغدير وتُشعُّ السّماءُ بالنّجوم البرّاقة ويسطعُ النّور من نافذة ديانا مُتخلّلا فسحةَ الأشجار. أمّا هنا، فلا شيء من كلّ ذلك. وخارج النّافذة، يتمدّدُ شارعٌ مُزفَّتٌ قاسٍ ذو شبكة من أسلاك الهاتف تحجبُ السّماء ويتخلّلهُ وقعُ خطًى غريبة من حين إلى آخر. أدركتْ أنّها على وشك الاسترسال في البكاء. وحاولتْ أن تقاوم ذلك.

«لا، لن أبكي. هذا تصرّف سخيف... وعلامة على الضّعف. ها هي الدّمعةُ الثّالثةُ تنسكبُ على وجنتي. وهناك المزيد من الدّموع القادمة. عليّ أن أفكّر في شيء مُضحك حتّى أحبسَها. ولكنْ، ليس هناك أيّ شيء يشرح الصّدر دون أن يتعلّق بآفونلي. وهذا سيُفسدُ الأمر. ويجعل حالتي تسوء... الدّمعة الرّابعة! والآن، الخامسة! سأعودُ إلى البيت يوم الجمعة القادم. ولكنّ ذلك يبدو بعيدا بمئات السّنوات. آه، لا شكّ أنّ ماثيو يوشك على الوصول الآن، بينما تنتظره ماريلاّ عند البوّابة في انتظار أن يبزغ وجهه عند المسلك. الدّمعة السّادسة، والسّابعة فالثّامنة! أوه، لا فائدة من إحصاء هذه

الدّموع. لقد تدفّقت كالسّيل. ولم أعدْ قادرةً على التّرويح عن نفسي. بل إنّي لا أريد ذلك. من الأفضل لي أن أستسلم لهذا البؤس».

كان سيلُ الدّموع موشكا على التّدفّق حقًّا، لو لمْ تظهر جُوزي بايْ فجأة. ومن شدّة فرحها برؤية الوجه المألوف، نسيتْ آنْ ذلك الودّ المفقودَ بينها وجوزي. ودفعَها حنينُها إلى آفونلي إلى التّرحيبِ بكلّ ما يمتُّ لها بصلة، حتّى لو كان ذلك ابنةَ بايْ اليافعة.

«أنا سعيدةٌ حقّا بقدومك»، قالتْ آنْ في صدق.

«يبدو أنّكِ كنتِ تبكين»، ردّت جوزي بنبرة مواساة بغيضة. «لا شكّ أنّكِ مُصابةٌ بالحنين إلى البيت. بعضُ النّاس لا يقدرون على التّماسك عندما يجتاحُهم هذا الشّعور. أمّا أنا، فلا استعداد لديّ للإحساس بالحنين. إذ المدينةُ أكثر مرحا من آفونلي العتيقة الخاملة. أتساءل أحيانا عمّا دفعني إلى البقاء فيها طويلا. اسمعي يا آنْ. أعتقد أنّه لا يجدر بك البكاء، لأنّه يُحمِّرُ عينيكِ وأنفكِ. فتصيرين على ذلك النّحو حمراء تماما. كان يومي في الأكاديميّة رائعا. تعرّفتُ على أستاذ اللّغة الفرنسيّة. إنّه شبيه بالبطّة. ويكفي أن ينظر المرءُ إلى شاربيه كي يُصاب بنوبة قلبيّة. هل لديكِ ما يُؤكَل يا آنْ؟ إنّي جائعةٌ جدّا. وفكّرتُ أنّ ماريلاّ قد زوّدتكِ على الأرجح بخزينة من الكعك. لذا جئتُ إليك في هذه السّاعة. ولو لا الجوع لذهبتُ إلى المتنزّه لأستمع إلى الفرقة الموسيقيّة وهي تعزفُ مع فْرانكْ ستُوكلي. أتعرفين أنّ فرانكْ يقيم في نفس المكان الذي أقيمُ فيه. وهو فتى أنيق انتبهَ إليك في الصّفّ منذ اليوم الأوّل، حتّى إنّه سألني: من تكون تلك الفتاة

ذات الشّعر الأحمر؟ فأخبرتُه بأنّك يتيمةٌ تبنّتْها عائلةُ كاثبرتْ، وألاّ أحد يعرفُ في الحقيقة الكثير عن ماضيكِ.

سألتْ آنْ نفسها ما إذا كانت الوحشةُ والدّموع أرحم لها من صحبة جوزي بايْ، عندما وصلتْ جايْن وروبي إليهما، وهما تتفاخران بشعار الأكاديميّة ذي اللّونيْن الأرجوانيّ والقرمزيّ الذي يزيّنُ معطفيْهما. وبما أنّ جوزي لم تكن تتكلّم مع جايْن في تلك الفترة، فقد تراجعتْ إلى الخلف قليلا وكفّت أذاها عن آنْ.

«حسنا»، قالتْ جايْن. «يُشبَّه لي أنّي عشتُ سنينَ طويلةً منذ الصّباح. ويجدر بي أن أكون في البيت منهمكة في دراسة شعر فرْجيلْ[1]. فقد طلب منّا الأستاذ، ذلك العجوز الفظيع، أن نحفظ عشرين بيتا من أجل الغد. ولكنّي لا أشعر للأسف بالتّوازن الكافي كي أدرس. آنْ، يبدو لي أنّي أرى الدّموع في عينيك. وإذا كنتُ على حقّ، فيجبُ أن تعترفي بذلك. سيعيد لي ذلك تقديري لنفسي. إذْ كنتُ أنا الأخرى أبكي منذ حين قبل قدوم روبي. من الجيّد أن يعرف المرء أنّ هناك من يجاريه في سُخفه. ما هذا؟ كعك! ستمنحينني قطعة صغيرة. أليس كذلك؟ شكرا لك. إنّ فيها نكهةَ آفونلي الأصيلة».

لاحظتْ رُوبي حوليّةَ الأكاديميّة على السّرير. فأرادتْ أن تعرف ما إذا كانتْ آنْ عازمةً على نيل الميداليّة الذّهبيّة. وتورّد وجهُ آنْ خجلا، وهي تعترفُ بذلك.

---

(1) شاعر رومانّي (70 ق.م - 19 ق.م) يُعتبر رمزا شهيرا جدّا في الأدب والثّقافة اللاّتينيّتيْن.

«آه، تذكّرتُ شيئا مهمّا»، قالتْ جوزي. «ستحصل الأكاديميّةُ أخيرا على إحدى منح أفيري الدّراسيّة. صدر القرارُ اليوم. وأخبرني بذلك فرانْكْ ستُوكلي، لأنّ عمّه عضو في مجلس المحافظة. وغدًا، سيتمُّ الإعلانُ عن الخبر في الأكاديميّة.

منحة أفيري الدّراسيّة! اشتدّ نبضُ قلب آنْ. واتّسعت آفاقُ طموحاتِها على نحو سحريّ. كان أقصى ما تطمحُ إليه قبل تصريح جوزي بهذا النّبأ هو الحصولُ على منحةٍ دراسيّة من الدّرجة الأولى عند نهاية السّنة، وربّما ميداليّة أيضا. ها هي الآن تتصوّرُ نفسها، وهي تفوزُ بمنحة أفيري. وتلتحقُ بدروس الآداب في المعهد العالي بجامعة ردْمُونْدْ، حيث ستنالُ شهادتها العلميّة وترتدي سترة التّخرّج المعهودة. رأت كلّ ذلك أمام عينيها قبل أن يخبو صدى كلمات جوزي. إذْ كانت المنحةُ مخصّصة لدراسة الآداب الإنجليزيّة. وهو اختصاص تشعر آنْ إزاءه بكونها تستندُ بقدميها إلى أرض مسقط رأسها.

لقد توفّي مُصنّعٌ ثريّ من سكّان نْيُو بُورْنْزْوِيكْ. وخلّف بعد موته نصيبا من ثروته كي يُوزَّع مِنَحا دراسيّة على عدد من المعاهد والأكاديميّات في المقاطعات البحريّة. وكانت هناك شكوكٌ في البداية حول تمتُّع الأكاديميّة بواحدة من تلك المنح، قبل أن يُحسَم الأمرُ لصالحها. وصدر القرارُ الذي يقضي بأنّ الطالب المتحصّلَ على أفضل علامة في اللّغة الإنجليزيّة وآدابها آخر السّنة هو الذي سيفوزُ بمقدار المنحة المتمثّل في مائتيْن وخمسين دولارا في السّنة،

طيلة أربع سنواتٍ في المعهد العالي بردموندْ. وطبعًا، ليس هناك أيُّ عجب في أنّ آنْ قد ذهبت للنّوم في تلك اللّيلة بوجنتيْن مُتوقِّدتيْن.

«سوف أفوزُ بتلك المنحة إذا كان العملُ الشّاقُّ كفيلا بذلك. ألن يكون ماثيو فخورا جدّا بي إذا حصلتُ على الشّهادة الجامعيّة في الآداب. آه، كم رائعٌ أن يكون المرءُ طموحا! وأنا سعيدةٌ لأنّ لديّ طموحاتٍ كثيرة. بل يبدو ألاّ نهاية لها ولا حدَّ. وهذا هو الأفضل. إذْ ما أن تحقّق طُموحا، حتّى تلمح آخر يلمعُ في أفقٍ أبعدَ وأعلى. آه، كم يملأ ذلك الحياةَ بالإثارة!».

(35)
الشّتاءُ في الأكاديميّة

بدأ شعورُ آنْ بالغربة والحنين إلى البيت يتقلّصُ شيئا فشيئًا، خاصّة أنّها حافظت على زيارتها الأسبوعيّة للجملونات الخضر كلّما كان الطّقسُ مناسبًا. كان أبناءُ آفونلي من طلبة الأكاديميّة يغادرون مساءَ الجمعة إلى كارمودي بواسطة قطار فرع السّكك الحديديّة الجديد. وهناك يلتقون بديانا وعددٍ من يافعي آفونلي الآخرين. ثمّ يعودون إلى البلدةِ معًا في مجموعاتٍ مرِحة مُحتفِلة. وكانتْ آنْ تجدُ في هذه المسيرات الأسبوعيّة عبر التّلال الخريفيّة المفعمة بالهواء العليل والمُطلّة على أضواء بيوت آفونلي المتوهّجة أفضلَ ساعاتِ الأسبوع وأغلاها على قلبها. واظب غيلبرتْ بلايثْ خلال هذه المسيرات على مرافقة روبي غيليزْ، وهو يحمل عنها حقيبتها الدّراسيّة. وكانت روبي التي غدتْ صبيّة فائقة الجمال ترى أنّها نضُجت وآنَ لها أنْ تتشبّه بالنّساء البالغات. ولذلك، أطالت فساتينها بقدر ما سمحتْ لها أمُّها بذلك. وحافظتْ على شعرِها مرفوعا في المدينة. ولكنّها ظلّتْ تُسدله كلّما رجعتْ إلى آفونلي. كانت عيناها الجميلتان زرقاويْن واسعتين وبشرتُها نقيّةً وجسمُها مكتنزا لافِتا للنّظر والانتباه. وكانت مرحةً، بشُوشة ومُقبِلة على كلّ ما تهبُه الحياة من مسرّات.

«ولكنّي لا أعتقدُ أنّها من الصّنف الذي قد يُعجَبُ به غيلبرتْ»، همستْ جايْن لآنْ التي لم تُشاركْها اعتقادَها، ولم تستطعْ أن تسحب عدم الاهتمام ذاك على منحة أفيري الدّراسيّة. وفي الآن نفسه، فكّرتْ أنّه من الجيّد أن تحصل على صديق مثل غيلبرتْ، تمازحه وتحاوره في مسائل تخصّ الكتب والأفكار. كان غيلبرتْ طموحا. إنّها متيقّنة من ذلك. ولم تكن روبي في المقابل فتاةً يمكنُه أن يتحدّث إليها عن طموحاته على نحو مثمر.

لا تملكُ آنْ أيّ عواطف من نوع خاصّ إزاء غيلبرتْ. فقد كان الفتيانُ بالنّسبة إليها مجرّد رفاق مُحتمَلين. بل كانت تعتقدُ أنّها لو كانت صديقةً لغيلبرت، لما اهتمّتْ أصلاً بعدد أصدقائه الآخرين ومع من يتحدّث. إنّها عبقريّةٌ في إنشاء الصّداقات. ولها الكثيرُ من الصّديقات الفتيات، إلاّ أنّها تفكّرُ أحيانا أنّ صداقة الأولاد قد تعمّقُ نظرتها إلى مفهوم الرّفقة وتوفّرُ لها نقاطَ ارتكاز أخرى في الحُكم على الأشياء. ولا يعني هذا، دون شكّ، أنّ بإمكان آنْ في تلك اللّحظة أن تعرّف مشاعرها إزاء غيلبرتْ بوضوح وصفاء تامّيْن. على أيّة حال، لم تمنع نفسها من الاعتقاد أنّ السّير معه من المحطّة إلى المنزل قد يمتّعها بأحاديث مشوّقة عن العالم الجديد الذي يتفتّحُ أمامهما وعن آمالهما وطموحاتهما الكثيرة.

بالنّسبة إلى غيلبرتْ، فهو شابٌّ ذكيّ له أفكارُهُ الخاصّة ورغبتُه الشّديدةُ في تحصيل أفضل ما يوجدُ في الحياة وتقديم أفضل ما لديه. أخبرتْ روبي غيليزْ رفيقتَها جايْن آندروزْ ذات مرّة أنّها لم تكن تفهم

نصف المواضيع التي يتطرّقُ إليها، وأنّه أشبهُ بآنْ عندما تنزع إلى المنطق في تفكيرها، وأنّها لا ترى في الاهتمام بالكتب ما يمكن أن يمنح المتعة. ورغم شعورها بأنّ فرانكْ ستُوكْلي أكثر اندفاعا من غيلبرتْ إلاّ أنّه للأسف لا يُقارَن به من حيثُ الجمال والوسامة. وفي نهاية المطاف لم تتوصّل إلى حسم أمرها في من يعجبها أكثر.

رسمتْ آنْ حولها في الأكاديميّة دائرةَ صداقةٍ صغيرةً مفعمة بالفكر والخيال والطّموح، مثلها تماما. توطّدت علاقتُها بالفتاة «الورديّة، الحمراء»، سْتِيلا مينارْدْ وكذلك بالفتاة الحالمة بريسيلا غْرانتْ التي انتبهت إلى شحوبها في البداية، ثمّ اكتشف أنّها متوقّدةٌ حيويّةً ومرحا وميلا إلى المزاح. أمّا ستيلا ذاتُ العينين السّوداويْن التي بدتْ لآنْ مرحةً في الوهلة الأولى، فقد تبيّن أنّها تفيضُ بالأحلام المُجنّحة والرّؤى الأثيريّة الملوّنة بألوان قوس قزح، تماما مثل آنْ.

بعد عطلة عيد الميلاد، توقّف أبناءُ آفونلي عن العودة إلى بيوتهم من أجل الانكباب على دراستهم في المدينة. ومع بلوغ تلك الأيّام، كان الجميعُ في الأكاديميّة قد احتلّ مكانه ووجد محيطه الخاصّ. وتجلّت بين طلبة الصّفوف المختلفة خصائصُهم الفرديّة ومزاياهم. وأصبحت هناك حقائق راسخة ومُسلَّمٌ بها في شأنهم من قبل الجميع. وأهمّ هذه الحقائق أنّ حلقة المنافسين على الميداليّة الذّهبيّة قد ضاقت لتشمل عمليّا ثلاثة أسماء فحسب. وهم غيلبرتْ بلايْثْ، آنْ شيرلي ولويسْ ويلْسونْ. أمّا الطّالب المرجَّحُ للفوز بمنحة أفيري، فهو أكثر غموضا، إلاّ أنّه ينتمي حصْرًا إلى قائمة من ستّة أسماء. وبالنّسبة إلى

الميداليّة البرونزيّة، فقد اعتبر الجميعُ أنّها من نصيب فتًى ريفيّ بدين له جبهةٌ ناتئة ومعطفٌ مرقّع.

فازتْ روبي غيليزْ بلقب أجمل فتاة خلال السّنة في الأكاديميّة. وفي صفّ السّنة الثّانية، تحصّلتْ سْتيلا مينارْدْ على سعفة الجمال. ومع ذلك، كانت هناك أقلّيّةٌ ذات ذائقة مختلفة. فصوّتت لآنْ شيرلي. وأقرّ جميعُ الحكّام الأكفّاء بأنّ إثيلْ مارْ تملكُ أسلوب تصفيف الشّعر الأكثر عصريّة، بينما حصلتْ جايْن آندروزْ -وهي الشّابّةُ البسيطة النّجيبةُ ذاتُ الضّمير اليقظ- على وسام الشّرف في مادّة التّعليم المنزليّ. وحتّى جوزي بايْ، فقد نالت حظّها من التّتويجات. واعترف لها الجميعُ بلسانِها اللاّذع الذي لا يستطيعُ أن يقارعه لسانُ أيّ طالب آخر. وعلى هذا النّحو، يمكنُ القولُ إنّ تلاميذ الآنسة ستايْسي القدامى حافظوا على مواقعهم في حلبة الأكاديميّة الأوسع.

انهمكتْ آنْ باستمرار في الدّراسة بكدّ ومثابرة. ولم تختلف حدّةُ منافَستها مع غيلبرتْ عن السّابق، رغم أنّها لمْ تكُن معروفةً على نطاق واسع في الصّفّ. وعلى نحو مّا، امّحتْ منها تلك المرارة القديمة المفعمة بالغيظ. إذْ لم تعُد رغبةُ آنْ في الفوز مُوجَّهةً لإِذلال غيلبرتْ وهزيمتِه. وإنّما تعلّقتْ بتحقيقِ البهجة والفخر بانتصارٍ مُستحَقّ على خصم عنيد جديرٍ بالعَناء المبذول في منافسته، حتّى إنّها لم تعد ترى الحياة جديرة بالعيش إذا لم تنتصر على خصمها ذاك.

ورغم الدّروس المكثّفة، وجد الطّلبة فرصا عديدة للاستمتاع بوقتهم من حين إلى آخر. كانتْ آن تُمضي معظم أوقات فراغها في

بيتشوودْ. وتتناولُ الغداءَ هناك يوم الأحد. ثمّ ترافق الآنسة باري إلى الكنيسة. وقد اعترفت الآنسةُ أخيرا بهَرَمِها وتقدّمها في السّنّ رغم البريق الذي حافظ على توهُّجه في عينيها السّوداويْن وحدّة لسانها التي لم تخفُت ولو قليلا. ولكنّه لسانٌ لم تكن تصوّبهُ نحو آنْ مطلقا. فهي ما فتئتْ تحتلُّ الصّدارة في نفس تلك العجوز القاسية.

«تلك البُنيّةُ آنْ تتطوّرُ دوما وبلا هوادة!»، قالت ذات مرّة. «من عادتي أن أشعر بالسأم سريعا من بقيّة الفتيات المتشابهات على نحو مزعج. أمّا آنْ ففريدةٌ جدّا. وفيها شيءٌ مّا شبيه بقوس قزح. كلّما أشرق أحدُ ألوانه احتفظ بوَهَجه حتّى النّهاية. لا أعرفُ ما إذا بقيتْ طريفةً ومُمتعة مثلما كانت في طفولتها الأولى. ولكنّها تجعلُني أحبُّها. ويعجبُني دوما أولئك النّاسُ القادرون على دفعي إلى حبّهم».

فجأة، انتبه الجميعُ إلى أنّ الرّبيع قد حلّ. وتفتّح نوّارُ الرّبيع بنظراته الورديّة في حقول آفونلي التي كانت مكسوّة من قبل بالثّلوج. وغمرت الخضرة الغابات والوديان. أمّا في شارلوتْ تاوْنْ، فقد كان الطّلبةُ المُنهكون لا يفكّرون ولا يتحدّثون إلاّ عن الامتحانات.

«لا أصدّق أن الفصل الدّراسيّ أوشك على الانتهاء»، قالت آنْ. «في الخريف الذي مضى، لاحتْ لنا نهايةُ السّنة بعيدة جدّا. ياه! استنفدنا شتاء كاملا في الدّراسة والمراجعة. وها إنّ الامتحان يقفُ عند عتبة الأسبوع القادم! أشعر أحيانا يا فتيات أنّ هذا الامتحانَ كلّ ما يهمّني في الحياة. ولكن ما أن أتأمّل تلك البراعمَ المتفتّحةَ

على أغصان الكستناء وزُرقة السّماء الضّبابيّةَ عند نهاية الشّارع حتّى يفقدَ نصف أهمّيّته على الفور.

لم تكنْ جاين، روبي وجوزي اللّواتي زُرْن آنْ على نحوٍ غير متوقّع، يُشاركْنها رأيَها. فبالنّسبة إليهنَّ، كان الامتحانُ القادمُ مُهمًّا دُون شكّ، وأهمَّ بكثير طبعا من براعم الكستناء وسُحُب الرّبيع. يمكنُ لآنْ -المتيقّنة من اجتياز الامتحان بنجاح- أن تقلّل من شأنه متى شاءتْ. أمّا إذا اعتمد مصيرُ المرء عليه -وهذا ما كانت تعتقدُه الفتياتُ- فلا يمكنُ له أن ينظر في شأنه فلسفيّا.

«خسرتُ خمسة أرطال من وزني خلال الأسبوعين المُنْصرِميْن»، قالتْ جاين، وهي تتنهّدُ. «لا حاجة إلى أن تَنصحْنَني بعدم القلق، كأنّ المرءَ يفعل شيئا مّا بإرادته حين ينتابهُ القلق. سيكونُ فظيعا ألاّ أحصل على إجازة التّعليم بعد الدّراسة في الأكاديميّة طيلة الشّتاء وإنفاق الكثير من الأموال».

«لا يهمّني ذلك»، قالت جوزي. «إذا لم أنجح هذه السّنة، فسأحاول في السّنة القادمة. أبي قادرٌ على دفع تكاليف دراستي. بالمناسبة يا آنْ، يقول فرانكْ ستُوكلي إنّ الأستاذ تْريمِينْ عبّر عن يقينه من فوز غيلبرتْ بالميداليّة ومن حصول إيمي كْلايْ على منحة أفِيري الدّراسيّة.

«غدا، سيُزعجني هذا النّبأ يا جوزي»، ضحكتْ آنْ. «أمّا في هذه اللّحظة، فلستُ مهتمّة بحصولي على المنحة ما دمتُ أعرفُ أنّ البنفسج في أفونلي يوشكُ أن يتفتّح عند الغوْر أسفلَ الضّيعة

الخضراء، وأنّ السّراخس الصّغيرة أخذت تُطلُّ برؤوسها الصّغيرة على امتداد مسلك العشّاق. عملتُ هذه السّنة بكدّ وجدّ. وبذلتُ قصارى جهدي، حتّى صرتُ أدركُ على الأرجح معنى عبارة «بهجة الكفاح». إنّ أفضل شيء بعد المحاولة والنّجاح هو المحاولة والفشل. ولكن، فلنتوقّف عن ذكر الامتحانات يا بنات! وتأمّلْن معي مرأى السّماء وراء تلك المنازل. وتخيّلن مليّا كيف كانت ستبدو خضرتُها الباهتة لو أنّها غطّت أشجار الزّان الأرجوانيّة في أفونلي».

«ماذا سترتدين من أجل حفلة التّخرّج يا جاينْ؟»، سألت روبي بنبرة عمليّة.

وعلى الفور، أجابتْ جاينْ وروبي معا. وهكذا مال الحديثُ إلى عالم الأزياء. أمّا آنْ التي وضعتْ مرفقيْها على حافّة النّافذة وأسندتْ ذقنها بيديْها المشبّكتيْن، فقد أسلمتْ عينيها لرُؤاها الطّليقة فوق أسطُح المدينة وقمم أبراجها، متأمّلةً قبّة السّماء الموشّحةَ بأشعّة الغروب. ومضى خيالُها ينسجُ أحلام المستقبل بواسطة خيوطِ الأمل الذّهبيّة التي يُبدعها الصّغرُ والصِّبا.

كان الأفق كلُّه وما وراءَهُ مُلكًا لها باحتمالاته الورديّة الكثيرة الكامنة في السّنوات المُقبلة؛ كلُّ سنة أشبه بوعد في هيأة وردةٍ، تتأهّبُ لتُحبَك في إكليل الخلود.

(36)

المجدُ والحلم

مكتبة
t.me/soramnqraa

في الصّباح الذي تُعلَّقُ فيه جميعُ النّتائج النّهائيّة للامتحانات على لوحة أعداد الأكاديميّة، مشتْ آنْ وجايْن عبر الشّارع. كانتْ جايْن مُبتسمةً وسعيدة. فقد انتهتْ الامتحاناتُ أخيرا. وهي متيقّنة من نجاحها على الأقلّ. وبالتّالي، ليست في حاجة إلى أن تُقلقَها مسائلُ أخرى مادامُ سقفُ طموحاتها واطئًا وليس لها ما يجعلُها تسكنُ بين براثن الانتظار المؤرّق. إذ يدفعُ المرءُ ثمنا إزاء كلّ شيء يحصل عليه أو يناله في هذا العالم. ورغم أنّه من الأفضل أن يملك المرءُ طموحاتٍ، فإنّه لا يُؤتاها بثمن بخسٍ. وإنّما يجدر به أن يسدّد حقّها من العمل الشّاقّ وإنكار الذّات والقلق والتّثبيط. كانت آنْ شاحبة وساكنةً. فخلال عشر دقائق، ستكتشفُ من الذي فاز بالميداليّة ومن ربح منحة أفيري الدّراسيّة. وبخلاف تلك الدّقائق العشر، لم يبدُ لآنْ أنّ هناك ما هو جديرٌ بأن يُسمّى زمنًا.

«ستفُوزين بإحداهما على الأقلّ. ولا شكّ في ذلك»، قالت جايْن التي ما كانت لتستوعب حجم الظّلم الذي تقترفه الأكاديميّة إذا وزّعت الجوائز على نحو مختلف.

«لا أمل لديّ في منحة أفيري»، ردّت آنْ. «إذ يزعمُ الجميعُ أنّها

ستكون من نصيب إميلي كْلايْ. في واقع الأمر، لن أتقدّم وسط الجميع إلى لوحة النّتائج تلك، وأمضي في تأمّلها بحثا عن اسمي. لذلك سأتّجه عند وصولنا إلى حمّام الفتيات. وأرجو أن تكتشفي النّتائج بمفردك يا جايْن. ثمّ أعلميني بها لاحقا. أتوسّلُ إليكِ باسم صداقتنا الوثيقة أن تفعلي ذلك بأسرع ما يمكن لك. وإذا فشلتُ فاكتفي بالتّصريح بذلك مباشرة دون مواربة أو تلطيف. عِديني بهذا يا جايْن!».

وعدتها جايْن بإخلاص. ولكن لم يكن ذلك ضروريّا بالنّظر إلى ما حدث لاحقا. إذْ ما أن شرعتا في صعود درج الرّدهة حتّى شاهدتا كوكبة الفتيان في القاعة، وهم يحملون غيلبرتْ بلايثْ على أكتافهم، ويصيحون: يحيا بلايثْ صاحبُ الميداليّة!

لوهلةٍ، أحسّت آنْ بدُوار الهزيمة وخيبة الأمل. لقد أخفقتْ إذنْ، فيما فازَ غيلبرتْ بالمنافسة. لا شكّ أنّ ماثيُو سيأسف على ذلك. فقد كان متيقّنا من العكس. وفجأة، سُمع صوتٌ يهتفُ بقوّة:

«هلّلوا ثلاثًا للآنسة شيرْلي، الفائزة بمنحة أفيري!».

«آنْ»، شهقتْ جايْن، وهما تركضان إلى حمّام الفتيات وسط الهتاف الحارّ. «آه، أنا فخورة بك جدّا يا آنْ! أليس هذا رائعا؟».

تحلّقت بقيّةُ الفتيات حولهما. فتحوّلت آنْ إلى مركز حلقة ضاحكة مهلّلة. ربّتت البناتُ على كتفيْها. باركن لها. وصافحنها بمودّة. دفَعْنها حينا. وجذبْنَها آخر. ووسط كلّ ذلك الصّخب، تمكّنتْ آنْ من أن تهمس لجايْن:

«ألن يسعد ماثيو وماريلاّ بهذا؟ عليّ أن أراسلهما فورا، فأبشّرهما بالنّبأ العظيم!».

كان حفلُ التّخرّج هو الحدث المهمّ التّالي. وقد تمّ تنظيمُه في قاعة اجتماعات الأكاديميّة الواسعة. أُلقيت الخطبُ. وقُرِئت المقالاتُ. وأُنشدت الأغاني. ثمّ وُزّعت الشّهائد والجوائز والميداليّات. كان ماثيو وماريلاّ حاضريْن هناك. وقد ثبّتا البصر والسّمع معا على طالبة واحدة تقفُ عند المنصّة. إنّها الصّبيّةُ ذاتُ القوام الأهيف والفستان الأخضر الفاتح والوجنتيْن المتورّدتيْن والعينيْن اللاّمعتيْن كأنّهما نجمتان. صبيّةٌ راحتْ تقرأ أجمل المقالات في الحفل، بينما تهامس الجميعُ أثناء ذلك مؤكّدين أنّها الفائزةُ بمنحة أفيري الدّراسيّة.

«ألستِ سعيدة لأنّنا احتفظنا بها يا ماريلاّ؟»، وشوش ماثيو، وقد تكلّم للمرّة الأولى منذ أن دخل القاعة ما أن أتمّت آنْ قراءة مقالها.

«هذه ليست المرّة الأولى التي أشعر فيها بالسّعادة لذلك»، ردّت ماريلاّ. «ولكنّك تستمتعُ بتحريك المياه السّاكنة وتذكيري الدّائم بذلك يا ماثيو كاثبرتْ».

انحنتْ الآنسةُ باري عليهما من خلف، حيثُ كانت جالسةً. ونكزتْ ظهر ماريلاّ بطرف مظلّتها. ثمّ قالت:

«ألستِ فخورة بالبُنيّة آنْ؟ أنا كذلك حقّا».

في ذلك المساء، عادتْ آنْ إلى البيت في آفونلي صحبة ماثيو

وماريلاّ، لأنّها لم تُطِق الانتظار ليومٍ آخر بعد أن غابت عن المنزل منذ شهر نيسان. وهناك كانت أشجارُ التّفّاح قد أزهرتْ والعالمُ نضِرًا ويافعا. كانت ديانا بانتظارها عند الضّيعة الخضراء. وعندما صعدتا معا إلى الغرفة الشّرقيّة، حيث وضعتْ ماريلاّ عند عتبة النّافذة أصيص أزهار متفتّحة، حدّقتْ آنْ من حولها واستنشقتْ نفسا عميقا مفعما بالسّعادة.

«آه يا ديانا! ما أحلى العودة إلى البيت! كم تُبهجني رؤيةُ أطراف التنّوب الدّقيقة، وهي تنتصبُ مُستقبِلة السّماء الورديّة... ورؤية البستان الأبيض كذلك...وملكة الثّلوج القديمة. أليس عطر النّعناع لذيذا؟ ووردةُ الشّاي تلك... إنّها أغنيةٌ وأمل وصلاة في مزيج واحد. وآه، ما أحلى أن أراكِ مجدّدا!».

«حسبتُ أنّكِ صرتِ تُحبّين المدعوّة سْتيلا مينارْدْ أكثر منّي»، قالتْ ديانا مُعاتبة. «هذا ما قالته لي جوزي بايْ. وأكّدت لي كذلك أنّكِ صرتِ مفتونةً بها».

ضحكتْ آنْ. ورشقتْ ديانا بباقة من الزّنابق الذّابلة. ثمّ أضافت:

«كانت سْتيلا مينارْدْ لتكون أغلى فتاةٍ على قلبي في هذا العالم لولا وجود فتاة أخرى. وهذه الأخرى هي أنت يا ديانا. إنّي أحبّكِ أكثر من أيّ وقت مضى. ولديّ الكثير من الأخبار التي أرغب في أن أحدّثك بها. كلّ ما في الأمر أنّي أودّ الآن أن أتأمّلكِ في صمت. إنّي متعبة في واقع الأمر. وأعتقدُ أنّي متعبة من المواظبة على الدّراسة

وملاحقة الآمال والطّموحات. أنوي أن أقضّي ساعتين على الأقلّ غدا وأنا مستلقية على عشب البستان، دون أن أشغل تفكيري بأيّ شيء على الإطلاق».

«إنّ ما أنجزْتِه عظيم يا آنْ. وأحسبُ أنّك لن تشرعي في التّعليم الآن بعد أن فزت بمنحة أفيري الدّراسيّة».

«هذا صحيح. لن ألتحق بسلك التّعليم. وسوف أنضمُّ إلى جامعة ردموندْ في شهر أيلول. أليس هذا رائعا يا ديانا؟ ما أن تنقضي أشهرُ العطلة الذّهبيّة الثّلاثة حتّى تتجدّد طموحاتي مرّة أخرى. أعتقدُ أنّ روبي وجايْن ستلتحقان بالتّعليم. أليس من المُبهج أنّنا نجحنا جميعا بما في ذلك مُودي سبيرجنْ وجوزي بايْ؟».

«عرض مجلسُ مدرسة نْيُوبريدْجْ على جايْن أن تعمل في مؤسّستهم»، قالتْ ديانا. «غيلبرتْ بلايثْ سيعملُ أيضا في التّعليم. ولكنّه مرغمٌ على ذلك، لأنّ والده لا يملك المال ليرسله إلى الجامعة خلال السّنة المقبلة. ويبدو أنّ غيلبرتْ ينوي أن يشقّ طريقه مُعتمدا على نفسه. أحسبُ أنّ بإمكانه أن يحظى بمنصب المدرسة هنا إذا قرّرتْ الآنسةُ آيْمْسْ المغادرة».

تفاجأت آنْ تماما بما سمعته. إذْ لم تكن تعلمُ شيئا عن الأمر. وحسبتْ أنّ غيلبرتْ سيلتحق مثلها بجامعة ردمونْدْ. ماذا ستفعل الآن دون منافستها المشجّعة؟ ألن يكون العملُ باهتا وسطحيّا من دون صديقها اللّدود؟ حتّى لو كان ذلك في جامعة مرموقة من أجل تحصيل شهائد علميّة متقدّمة؟

صباح اليوم التّالي، اندهشتْ آنْ من تدهوُر صحّة ماثيو. وتيقّنت من أنّه يبدو أكثر شيخوخة ممّا كان عليه قبل سنة.

«ماريلاّ»، قالتْ في تردّد إثر مغادرته. «هل ماثيو بخير؟».

«كلاّ. إنّه ليس كذلك»، أجابتْ ماريلاّ بنبرةِ ارتباكٍ. «لقد تعرّض إلى متاعبَ كثيرة في قلبه هذا الرّبيع. وهو لا يريدُ أن يريح نفسه قليلا. لقد قلقتُ عليه كثيرا. لكنّه تحسّن مؤخّرا لحسن الحظّ. بالإضافة إلى ذلك، استأجرنا عاملا جيّدا ليساعده. وأرجو أن يدفعه هذا إلى اتّخاذ قسط من الرّاحة، خصوصا بعد عودتك إلى البيت. لطالما جعلتِه مُنشرحا وسعيدا».

انحنتْ آنْ على الطّاولة. وأمسكتْ وجه ماريلاّ بين يديها.

«أنت أيضا لا تبدين في حال جيّدة مثلما أرجو أن أراكِ. يظهر على ملامحكِ الإرهاق. وأخشى أنّك أعييْتِ نفسكِ بالعمل. بما أنّي هنا، فانتهزي الفرصة وارتاحي قليلا. لن أخصّص لنفسي سوى الغد. سأزور خلاله كلّ الأماكن التي أحبّها في آفونلي وأنبش أحلامي القديمة. أمّا بعد ذلك، فارتاحي واسترخي مثلما تشائين. وسأتكفّلُ بإنجاز كلّ الأعمال والواجبات.

ابتسمتْ ماريلاّ بعطف وهي تحدّقُ في وجه صغيرتها.

«إنّه ليس العمل يا آنْ، بل رأسي. صار يؤلمني كثيرا، هنا خلف عينيّ. أكّد لي الطّبيبُ سبنسرْ أنّ المشكلة تكمنُ في النّظّارات. ولكنّ النّظّارات الجديدة لم تغيّر شيئا. يُقال إنّ طبيبَ عيونٍ شهيرا سوف يزورُ الجزيرة في نهاية شهر حزيران. ويريدُ الطّبيبُ سبنسرْ منّي أن

أراه. يبدو أنّي مضطرّة إلى الاستجابة لطلبه. إذْ لم أعد قادرة على القراءة أو الخياطة بسهولة. حسنا، كان إنجازكِ في الأكاديميّة عظيما. من غيرك استطاع أن ينال إجازة تعليم من الدّرجة الأولى في سنة واحدة بالإضافة إلى الفوز بمنحة أفيري الدّراسيّة؟ إنّي أرى ما فعلتِه عملا عظيما بأتمّ معنى الكلمة. أمّا السّيّدةُ ليندْ، فتقول إنّ الزّهو يسبق السّقوط دوما. كما أنّها لا تؤمنُ بضرورة مواصلة المرأة لتعليمها العالي إطلاقا. وهي تزعم أنّ ذلك لا يتناسب ومجالهنّ الحقيقيّ في الحياة. لكنّي لا أوافقها بتاتا على ما قالته. آه، إنّ الحديث عن رايتشلْ يُذكّرني بأمر مّا. هل سمعتِ أيّ شيء مؤخّرا عن مصرف آبِي؟».

«سمعتُ أنّ وضعه متقلّبٌ. وهو في حالة هشّة»، أجابتْ آنْ.

«لماذا؟».

«هذا ما قالته رايتشلْ كذلك. لقد زارتني ذات مرّة خلال الأسبوع الماضي. وأعلمتني أنّ النّاس يتداولون أحاديثَ عن إفلاسه الوشيك. ولهذا السّبب، أُصيب ماثيو بالقلق والتّوتّر الشّديدن، لأنّ كلّ مدّخراتنا مودعةٌ في ذلك المصرف... كلّ فلْسٍ منها. رغبتُ في البداية أن يودع ماثيو أموالنا في مصرف الادّخار. لكنّ السّيّد آبي العجوز كان صديقا مقرّبا من أبي. وطالما تعامل معه في هذه المسألة. قال ماثيو إنّ أيّ مصرف يديره ذلك العجوز هو مصرف آمنٌ لا خوف منه أو عليه».

«أعتقدُ أنّه لم يعد إلاّ الرّئيس الشّرفيّ لذلك المصرف منذ سنوات

عديدة»، قالت آنْ. «فهو عجوز متقدّمٌ جدّا في السّنّ. وأبناءُ إخوته هم من يديرون البنك على نحو فعليّ».

«حسنا، ما أن أعلمتنا رايتشلْ بالأنباء حتّى طلبتُ من ماثيو أن يسحب الأموال. فأكّد لي أنّه سيُفكّر بالأمر. ولكنّ السّيّد راسلْ قال له أمسِ إنّ البنك بخير ولا يعاني من أيّ مشاكل».

حظيتْ آنْ بيومها الجميل رفقة عالم الطّبيعة الخارجيّ. وهو يوم لن تنساه مطلقا. إذْ كان متوهّجا، جميلا، رائقًا ومُفعَما بالأزهار، لا تعكّرُ صفوَهُ أيّ غيوم أو ظلال. أمضت بعض ساعاته الهانئة في البستان. ثمّ انتقلتْ إلى نبع الجنّيّات ودغل الصّفصاف ووادي البنفسج. وزارت منزل الكاهن. فقضتْ وقتا ممتعا مع السّيّدة آلانْ. وأخيرا عندما غلّف الغروبُ الغابةَ بألوانه الرّائعة، رافقتْ ماثيو في بحثه عن البقرات خلف الضّيعة الخضراء عبر مسلك العشّاق.

كان ماثيو يقتفي الطّريق بخطى ثقيلة ورأسٍ مُنحنٍ إلى أسفل، بينما حرصت آنْ الهيفاء، مُنتصبةُ القامة على أن تزِنَ خطواتها السّريعة على إيقاع مشيته.

«لقد أرهقتَ نفسك بالعمل يا ماثيو»، قالتْ في لوم. «لماذا لا تهوّن عليك ولو قليلا؟».

«حسنا، لا يبدو أنّي أستطيع ذلك»، أجاب ماثيو وهو يفتح بوّابة الفناء ليُدخل الأبقار. «كلّ ما في الأمر أنّي تقدّمتُ في السّنّ آنْ. ومازلتُ لا أكفّ عن نسيان هذه الحقيقة. طالما كان الاستغراقُ

في العمل الشّاقّ طبيعةً ثانية بالنّسبة إليّ في هذه الحياة. ولعلّي أفضّل أن ألفظ أنفاسي الأخيرة أثناء العمل».

«لو كنتُ ذلك الصّبيّ الذي أرسلتما في طلبه»، قالتْ آنْ في حزن. «لكنتُ قادرةً على أن أساعدكَ الآن كثيرا، ولاستطعتُ أن أعفيَك من مشقّاتك. ومن أجل ذلك فحسب، أشعر بأنّي أتمنّى لو كنتُ صبيّا حقّا».

«حسنا، ولكنّي أفضّلك على عشرات الفتيان»، ردّ ماثيو، وهو يربّتُ على يدها. «أسمعتِ؟ عشرات الفتيان! من فاز بمنحة أفيري الدّراسيّة ليس ولدا. أليس كذلك. بل هو بنت... بُنيّتي أنا، بُنيّتي التي أفخر بها كثيرا!

ابتسم لها ابتسامته الخجولة المعتادة، وهو يهمّ بالدّخول إلى الفناء. أمّا هي، فقد حملتْ معها ذكرى تلك الابتسامة إلى غرفتها الشّرقيّة ليلا، حيث أطالت الجلوس عند نافذتها المفتوحة وراحت تستذكرُ الماضي وتحلم بالمستقبل. كانت ملكةُ الثّلوج ترتدي بياضَ الضّباب في الخارج، تحت ضوء القمر. وكانت الضّفادعُ تنِقُّ في البركة خلف منحدر البستان. ظلّت آنْ تتذكّرُ دوما جمالَ تلك اللّيلة الفضّيَّ المسالم وسكينتها المغمورة بالرّوائح الزّكيّة. إذْ كانتْ آخر ليلة تعيشُها قبل أن يلمس الأسى حياتَها ويختِم قلبَها بختْمه. وما من حياةٍ تظلُّ على حالها بعد أن تحطّ عليها تلك اللّمسةُ المقدّسةُ الباردة.

(36)

حَصَّادٌ اسمهُ الموت

«ماثيو! ماثيو! ما بك؟ هل أنت مريض؟».

كانت ماريلاّ هي التي تصرخُ بهذه الكلمات، مذعورةً تماما. قدِمتْ آنْ عبر الرّواق، وهي تحملُ باقةً من النّرجس الأبيض... إنّه النّرجسُ ذاتُه الذي ستعجزُ عن النّظر إليه أو شمِّ عطره لفترة طويلة بعد ذلك.

سمعتْ آنْ صراخ ماريلاّ. ورأتْ ماثيو واقفًا عند باب المطبخ، وهو يحملُ في يده ورقة مطويّة، بينما كانت ملامحُ وجهه أميل إلى الزّرقة الكالحة وقد تغضّنتْ على نحو غريب. وعلى الفور، ألقت الأزهار من يديها. واندفعتْ هي وماريلاّ معا باتّجاه ماثيو. لكنّه هوى عند العتبة قبل أن تدركاه.

«لقد أغمي عليه»، شهقتْ ماريلاّ. «آن، أحضري مارتنْ! أسرعي! إنّه في الحظيرة».

كان مارتن قد عاد للتّوّ من مكتب البريد. ولكنّه خرج مُسرعا في طلب الطّبيب. وفي طريقه، مرّ بالسّيّد والسّيّدة باري ليطلب منهما الذّهاب إلى الضّيعة الخضراء. فاستجابا لطلبه ومعهُما السّيّدة ليندْ

التي صادف أن كانت في منزلها حينئذ. وعند وصولهم إلى هناك، وجدوا آنْ وماريلاّ ذاهلتيْن تحاولان عبثا إعادة ماثيو إلى وعيه.

دفعتها السّيّدةُ ليندْ جانبا وبلطف. انحنتْ على ماثيو. وجسّت نبضه. ثمّ وضعتْ أذنها لصق قلبه. ونظرت إلى وجهيهما القلقيْن بحزن ولوعة. وانهمرت الدّموعُ من عينيها.

«آه يا ماريلاّ!»، صاحتْ مفجوعةً. «لا أعتقدُ... أنّ بإمكاننا أن نفعل أيّ شيء من أجله».

«سيّدة ليندْ! إنّك لا تعتقدين... لا يمكنُ أن تعتقدي... أنّ... أنّ ماثيو..».. لم تستطع آنْ أن تتلفّظ بالكلمة الرّهيبة. وشحب لونها تماما.

«نعم يا صغيرتي. أخشى أنّ ذلك صحيح. انظري إلى وجهه! عندما ترَيْن ذلك الوجه بعدد المرّات التي رأيتهُ فيها خلال حياتي، فإنّكِ ترصدين معناه على الفور».

نظرتْ آنْ إلى الوجه الهامد. ثمّ حدّقتْ فيه مليّا. نعم، لقد كان يحملُ ختْمَ ذلك الحضور المُهيب.

عندما وصل الطّبيبُ، أعلن أنّ الموت كان فوريّا وخاليا من الألم على الأرجح. وردّ سببه إلى صدمة عنيفة. ولاحقا، عُثر على سرّ تلك الصّدمة القاتلة في الورقة التي كان يحملها ماثيو، والتي أحضرها مارتنْ صباحا من مكتب البريد. لقد كانت إعلاما بإفلاس مصرف آبِي.

ذاع الخبرُ في كلّ أرجاء آفونلي. واجتمع الجيرانُ والأصدقاءُ

في الضّيعة الخضراء طيلة النّهار. تزاحموا هناك. وتبادلوا الذّهاب والإياب لُطفًا منهم ومودّةً تجاه الحيّ والميّت. ولمرّةٍ واحدة، كان ماثيو كاثبرتْ الخجولُ الرّصينُ مركزَ اهتمام آفونلي كلّها، بعد أن حطّ عليه جلالُ الموتِ الأبيضُ فعزلَه عمّن حوله كأنّه يتوّجهُ ملكًا عليهم.

عندما حطّ اللّيلُ الهادئُ برفق على الضّيعة الخضراء، صمت كلُّ شيء في المنزل القديم. كان ماثيو مُسجّى داخل نعشه في الصّالون بشعره الطّويل الأشيب الذي أحاطَ وجهه السّاكن. ارتسمتْ على ملامحه ابتسامةٌ لطيفةٌ كأنّهُ بصدد النّوم فحسب، غارقًا في عالم الأحلام الجميلة. التفّتْ حول جثّته أزهارٌ يانعةٌ رقيقة، كانت أمُّه قد زرعتْها منذُ زواجِها في حديقة الضّيعة الخضراء. وكانت آنْ تعرفُ جيّدا شغفه بها. فجمعتها. وأحضرتها إليه بوجهٍ أفقدتْهُ اللّوعةُ لونه وعينيْن محرّقتيْن جفّتا من الدّموع. كان ذلك آخر شيء يمكنُ أن تفعله من أجل ماثيو.

قضّت عائلةُ باري والسّيّدةُ ليندْ اللّيلةَ في الضّيعة الخضراء. قصدتْ ديانا الغرفة الشّرقيّة، حيثُ وجدتْ آنْ جالسة عند نافذتها. فقالت لها بعطف:

«عزيزتي آنْ، هل تودّين أن أقضّي اللّيلة معك؟».

«شكرا لك يا ديانا»، حدّقتْ آنْ بجدّيّة في وجه صديقتها. «أرجو ألاّ تسيئي فهمي إذا قلتُ لكِ إنّي أرغبُ في البقاء وحدي. لستُ خائفةً. ولم أمكثْ بمفردي ولو للحظة واحدة منذُ نزَل بِنا

هذا. وأنا في حاجة إلى ذلك. أحتاجُ إلى الصّمت والهدوء حتّى أحاول أن أعي ما حدث. إذْ لا يمكنني استيعاب الأمر وتصديقه. يُشبَّهُ لي أحيانا أنّ ماثيو لا يمكنه أن يموت. وفي أحيان أخرى، أحسّ كأنّه قد مات منذ زمن بعيد، بينما احتفظتُ بهذا الوجع الرّهيب منذ ذلك الوقت».

لم تستطع ديانا في واقع الأمر أن تفهمها. لقد كان أسهل بالنّسبة إليها تفهُّم نحيب ماريلاّ المسعور وخرقها لجميع قواعد التّحفّظ والعادات التي جُبلتْ عليها. أمّا احتضار آنْ الخالي من الدّموع، فلم تتمكّن من إدراك حقيقته. ومع ذلك، فقد انسحبتْ بلطف، تاركةً آنْ وحيدةً تواجهُ ألَمها وسهاد الفقد الأوّل.

أملت آنْ أن تنسكب الدّموع في عزلتها. فقد كان من الرّهيب بالنّسبة إليها ألاّ تذرف ولو دمعة واحدة على ماثيو... ماثيو الذي أحبّتهُ كما لم تحبّ أحدا... ماثيو الذي طالما كان لطيفا معها... ماثيو الذي مشتْ معه أمس ساعة الغروب... ماثيو الذي يرقدُ الآن في غرفة بالطّابق الأرضيّ، تحطّ على جبهته مسحةٌ من السّكينة المؤلمة. لكن ما من دمعة نزلتْ من عينها، حتّى عندما جثتْ على ركبتيها عند النّافذة وصلّتْ، وهي تحدّق في النّجوم خلف التّلال. لم تكن هناك أيّ دموع. وحدهُ الألمُ الباهتُ الفظيعُ نفسه ظلّ ينخر قلبها حتّى استسلمتْ للنّوم.

استيقظتْ في اللّيل. فوجدتْ نفسها مطوّقة بالسّكون والظّلمة. وهجمت عليها ذكرى النّهار كأنّها موجةُ كآبة. رأتْ وجه ماثيو،

وهو يبتسمُ لها بنفس الابتسامة التي رسمها من أجلها عند بوّابة الفناء مساءَ اليوم السّابق. سمعتْ صوته، وهو يهتفُ: بنيّتي، بُنيّتي التي أفخر بها كثيرا! وفجأة، سالت دموعُها. وانتحبتْ بلا هوادة. وبكتْ كما لم تفعل من قبل مطلقا. سمعتها ماريلاّ. فقدمت إليها. وحاولت أن تواسيها:

«لا. كفّي عن البكاء يا عزيزتي! ليس من الصّواب أن... أن نبكي على هذا النّحو. لن تعيدهُ الدّموع إلينا... حتّى لو لم أحبس دموعي أنا الأخرى طيلة اليوم. طالما كان شقيقي الطّيب اللّطيف. ولكنّها إرادة الرّبّ. ولا اعتراض عليها».

«آه، دعيني أبكي يا ماريلاّ»، انتحبتْ آنْ. «لا تؤلمُ الدّموع مثلما آلمني ذلك الوجعُ الصّامتُ طيلة النّهار. أرجوكِ، ابقي معي قليلا. ولفّي ذراعكِ حولي. لم أستطع أن أوافق على مكوث ديانا معي. إنّها طيّبةٌ ولطيفة. لكنّ هذا الحزن ليس حزنها. إنّها تقفُ خارجه. ولا يمكنها أن تغوص في قلبي بما يكفي كي تساعدني. إنّه حزنُنا نحنُ، أنا وأنتِ. آه، يا ماريلاّ! ماذا سنفعلُ من دونه؟

«لدينا بعضنا البعض يا آنْ. لا أعرف ماذا كنتُ سأفعل لو لم تكوني هنا، لو أنّك لم تصلي إلى بيتنا مطلقا. آه يا آنْ! أعرفُ أنّي كنتُ صارمة معكِ في تربيتك. ولكن إيّاكِ أن تظنّي أنّي لا أحبّك بقدر ما أحبّكِ ماثيو! أودّ أن أعلمكِ بهذا مادمتُ قادرةً على الإفصاح عن مشاعري. لم يسهل عليّ يوما أن أعبّر عمّا يُكنّهُ قلبي. ولكنّ الأمر أيسرُ في أوقات كهذه. أحبّكِ يا آنْ كأنّكِ فلذةُ كبدي من

لحمي ودمي. ومنذُ أن وصلتِ إلى الضّيعة الخضراء وأنت بهجتي وسعادتي».

بعد يومين، حُمل ماثيو فوق عتبة بيته. ونُقل بعيدا عن الحقول التي حرثها والبساتين التي أحبّها والأشجار التي غرسها. وعادتْ آفونلي إلى هدوئها المعتاد. بل إنّ الضّيعة الخضراء نفسها عادتْ إلى شؤونها وعاداتها اليوميّة. فأنجزت الأعمال. وأتمّت الواجباتُ رغم افتقاد ماثيو الموجع في كلّ العادات اليوميّة والتّفاصيل المختلفة. كان الفقدُ جديدا على آنْ. ولذلك فكّرتْ أنّه من المؤسف تقريبا أن تسير الأمور على ذلك النّحو، أي أن تتمكّن هي وماريلاّ من الاستمرار في عيشهما على النّحو القديم دون ماثيو. أحسّتْ بنوع من الخجل والنّدم عندما لاحظتْ أنّها لا تستطيعُ منْعَ نفسِها من الشّعور بالسّعادة المألوفة ذاتِها عند رؤيتها لشروق الشّمس خلف أشجار التّنّوب وتفتُّح البراعم الورديّة في الحديقة، وعند سعادتها لقدوم ديانا إلى المنزل وضحكِها وابتسامِها أثناء الأحاديث المرحة. اكتشفتْ آنْ بكلّ بساطة أنّ عالم الأزهارِ والحبّ والصّداقةِ الجميلَ لم يخسرْ شيئا من قدرته على إمتاع حواسِّها ومشاعرها وإرضاءِ رغباتها، وأنّ الحياة مازالت تناديها بأصواتها المُلحّة الكثيرة.

«على نحو مّا، يُشبّهُ لي أنّي أخون ماثيو عندما أسعدُ بكلّ هذه الأشياء من حولي في غيابه»، صارحتْ آنْ السّيّدة آلانْ بكرْبها ذات مساء، بينما كانتا جالستيْن في حديقة منزل الكاهن. «إنّي أفتقدُه. أفتقدُه كثيرا يا سيّدة آلانْ. ومع ذلك مازلتُ أرى العالم والحياة

جميليْن. قالت ديانا اليوم شيئا طريفا. فوجدتُني أضحك رغما عنّي. ولكن، عندما مات ماثيو حسبتُ أنّي لن أتمكّن من الضّحك مجدّدا. وعلى نحو مّا، يبدو لي أنّه لا يجدر بي أن أفعل ذلك».

«عندما كان ماثيو على قيد الحياة، أحبّ كثيرا أن يسمع ضحككِ ويراكِ مُستمتعةً بالأشياء الجميلة من حولكِ»، أجابتها السّيّدةُ آلانْ برقّة. «ورغم رحيله، فإنّه لا شكّ يودّ أن تستمرّ الأمور على تلك الحال. إنّي مُتيقّنةٌ من أنّ على المرء ألاّ يوصد قلبهُ دون ما تهبهُ له الطّبيعة من أجل أن يُشفى. ورغم ذلك، فأنا أفهم مشاعركِ تماما. إنّها المشاعرُ ذاتُها التي تنتابُ الجميع عند فقدانهم لشخص عزيز عليهم. يحاولُ النّاسُ أن يصُدّوا كلّ ما هو مُبهجٌ مادام ذلك العزيزُ ليس حاضرا ليشاركهم إيّاه. وغالبًا ما يُهيمنُ عليهم الشّعورُ بالذّنب وخيانةِ الفقيد عندما يستعيدون إقبالهم على الحياة».

«لقد ذهبتُ عند الأصيل إلى المقبرة. وزرعتُ شُجيرة ورد على قبر ماثيو»، قالتْ آنْ حالمةً. «انتزعتُ شتلةً من أجمة الورد الأسكتلنديّ الذي أحضرتْهُ أمّكُما من اسكتلندا قبل سنوات بعيدة جدّا. أعرفُ أنّ ماثيو كان يحبُّ تلك الورود على نحو مميّز. وكم سعدتُ لأنّي تمكّنتُ من زرعها عند قبره. شُبّه لي أنّي أهبُه شيئا مّا يتوق إليه. أرجو حقّا أن يحصل على ورود مثلها في الجنّة. ولعلّ أرواح تلك الورود البيضاء الجميلة التي أحبّها طيلة حياته تمكثُ بانتظاره في السّماوات. يجبُ أن أعود إلى البيت. فماريلاّ بمفردها. وهي تشعر دوما بالوحدة عند الغسق».

«ستشعر بوحدة أكبر عندما تلتحقين بالجامعة»، قالت السّيّدةُ آلانْ.

لم تُجِبْ آنْ بأيّ كلمة. وإنّما اكتفتْ بتحيّةِ المساء. وغادرتْ في اتّجاه الضّيعة الخضراء. كانت ماريلاّ جالسةً عند درج الباب الرّئيسيّ. فجلستْ آنْ إلى جانبها. وخلفهما، كان البابُ مفتوحا ومُثبَّتا إلى الخلف بواسطة قوقعة صدفيّة ورديّة، تضمّ طيّاتُها الدّاخليّة نصيبا من آثار الغروب البحريّ. قطفتْ آنْ بعض الأزهار البيضاء. وزيّنت بها شعرها، وهي تتنعّمُ بالعبير الذي تنشرُه حولها كلّما حرّكتْ رأسها.

«كان الطّبيبُ سبنسرْ هنا أثناء غيابك»، قالتْ ماريلاّ. «أعلمني أنّ أخصّائيّ العيون يصل غدا إلى المدينة. وأصرّ على ضرورة ذهابي إليه كي أفحص عينيّ. سأكون ممتنّة جدّا إذا عيّن لي النّوع المناسب من النّظّارات. أتمانعين البقاء هنا بمفردك أثناء غيابي؟ سيأخذني مارتنْ بواسطة العربة. هناك بعض الملابس التي تحتاج الكيّ وكعك ينبغي إعداده».

«سأكونُ بخير. ستزُورني ديانا. وتمكثُ معي. وسأحرصُ على إنجاز الكيّ والطّبخ بإتقان. لا داعي للخشية من تنشية المناديل أو تنكيه الكعكة بمسكّن الأوجاع».

ضحكتْ ماريلاّ.

«يا للطّفلة التي كنتِها يا آنْ! ويا لأخطائك الرّهيبة! كنتِ تقعين على الدّوام في المتاعب، حتّى إنّي بدأت أشكُّ في أنّ بك مسًّا. أتذكرين يوم صبغتِ شعرك؟».

«وهل يُنسى يومٌ كذاك؟»، ابتسمتْ آنْ، وهي تتحسّسُ الضّفيرة الملتفّة حول رأسها. «كلّما تذكّرتُ القلق والمخاوف العظيمة التي يُحدثها فيَّ شعري خلال تلك الأيّام، أستسلمُ للضّحك. لكنّي لا أفرط فيه. فقد كانت حقّا مشكلة كبيرة بالنّسبة إليّ. كم عانيتُ من النّمش ولون شعري! حمدا للرّبّ أنّ النّمش قد زال نهائيّا واختفى. كما صار النّاسُ يلاطفونني كثيرا فيزعمون أنّ شعري أقربُ إلى اللّون الكستنائيّ. كلّهم يفعلون ذلك ما عدا جوزي بايْ طبعا. قالت لي أمسِ إنّها ترى شعري أكثر حمرة من قبل، أو لعلّه الثّوب الأسود الذي أرتديه هو الذي جعلها تحسّ بذلك. وسألتني ما إذا كان ذوو الشّعر الأحمر قادرين على التّعوّد عليه في نهاية المطاف. أتعرفين يا ماريلاّ؟ لقد يئستُ من محاولة إعجاب جوزي بايْ أو استلطافها. ورغم أنّي بذلتُ من أجل ذلك مجهودا خارقا يمكنني أن أعتبره بطوليّا، إلاّ أنّي خلُصتُ إلى أنّ جوزي باي لا ترغبُ في أن تُستلطَف».

«جوزي وفيّةٌ لأصولها. ليستْ سوى واحدةٍ من عائلة بايْ»، ردّتْ ماريلاّ بنُفور. «ولهذا السّبب، لا تستطيعُ إلاّ أن تكون لئيمةً. يبدو لي أنّ هذا الصّنف من النّاس إنّما يُخلق من أجل هدف معيّن. ولكن لا أعرف ما هو هذا الهدفُ مثلما لا أعرف الفائدة من الأشواك. هل ستمارسُ جوزي التّدريس؟».

«لا، سوف تعودُ إلى الأكاديميّة في السّنة المقبلة. وكذلك مُودي سبيرجنْ وتشارلي سْلُونْ. أمّا جاينْ وروبي، فستتفرّغان للتّدريس.

وقد عثرتْ كلّ منهما على مدرسة مناسبة. ستعملُ جاين في نيُوبريدجْ وروبي في منطقة في الغرب».

«أظنُّ أنّ غيلبرتْ بلايثْ سيتفرّغُ للتّدريس أيضا. أليس كذلك؟».

«نعم»، أجابتْ آنْ باقتضاب.

«يا له من شابّ وسيم!»، قالت ماريلاّ شاردة الذّهن. «رأيتُه في الكنيسة يوم الأحد الماضي. وفاجأني طوله وملمحُ الرّجولة البادي عليه. إنّه يشبه أباهُ كثيرا عندما كان في مثل سنّه. كان جونْ بلايثْ شابّا رائعا وصديقا مقرّبا جدّا منّي، حتّى إنّ النّاس زعموا أنّه حبيبي».

رفعتْ آنْ رأسها باهتمام مفاجئ.

«أوه، يا ماريلاّ. وماذا حدث؟ لماذا لم..».

«تخاصمنا. ولم أسامحهُ عندما اعتذر إليّ. في واقع الأمر، كنتُ أنوي أن أسامحه لاحقا. ولكنّي كنتُ غضوبةً مُتجهّمة. فأردْتُ أن أعاقبه أوّلا. لكنّهُ لم يعُدْ بعدَ ذلك مطلقا. كلُّ أبناء بلايثْ كذلك؛ ذوو كبرياء وأنفة. طالما شعرتُ بالحسرة لاحقا. وطالما تمنّيتُ لو أنّي سامحتُه عندما سنحت لي الفرصة».

«حسنا، هذا يعني أنّك أيضا جرّبتِ نصيبا من الرّومنسيّة في حياتكِ»، قالت آنْ بهدوء.

«نعم، أحسبُ أنّ بإمكانكِ قول ذلك. لا أعتقدُ أنّهُ من الممكن أن يخطر ببالكِ مثل هذا بمجرّد النّظر إليّ. ولكنْ، لا ينجحُ المرءُ في تبيُّن حقيقةِ النّاس استنادًا إلى مظاهرهم. لقد نسي الجميعُ حكايتي

مع جونْ. وحتّى أنا، فقد نسيتُها. ولكنّ الذّكريات كلّها هجمتْ عليّ ما أن رأيتُ غيلبرتْ في الكنيسة يوم الأحد الماضي».

(38)
منعطفُ الطّريق

ذهبتْ ماريلاّ إلى المدينة في اليوم التّالي. ثمّ عادتْ مساءً. كانت آنْ حينئذٍ مع ديانا في منحدر البُستان. وعندما رجعتْ إلى البيت، عثرتْ على ماريلاّ جالسةً عند طاولة المطبخ، مُسنِدةً رأسها إلى يديْها. شيءٌ مّا في هيأتها الكئيبة اخترق قلبَ آنْ على الفور. إذْ لم ترَ ماريلاّ من قبل، وهي واهنة خاملة على ذلك النّحو مطلقا.

«هل أنتِ منهكةٌ يا ماريلاّ؟».

«نعم... لا. لا أعرف حقّا»، أجابتْ ماريلاّ بصوت مرهق، وهي تحدّقُ فيها. «أنا متعبة. لكنّي لم أكن أفكّر في ذلك. ليس ذلك ما يشغلني».

«هل قابلتِ أخصّائيّ العيون؟ ماذا قال لكِ»، سألتْ آنْ في خوف.

«نعم. لقد قابلتُه. وفحص عينيّ. ثمّ قال إذا تخلّيتُ عن الخياطة والقراءة وبقيّة الأعمال المرهقة للعينيْن، والتزمتُ الحذر من خلال الامتناع عن البكاء، وإذا وضعتُ النّظّارات التي ألزمني بها، فقد لا يزدادُ وضعُ عينيَّ سُوءا ويختفي صداعي. أمّا إذا لم أتقيّد بتعليماته،

فسأفقدُ بصري في غضون ستّة أشهر، وأصير عمياء. عمياء! تخيّلي ذلك يا آنْ!».

إثر صيحةِ الفزع الأولى، عجزتْ آنْ لوهلةٍ عن التّلفُّظ بأيّ صوتٍ. وشُبّه لها أنّها لا تستطيعُ الكلامَ. ثمّ قالتْ بإيجاز لم يُخفِ انقباضًا في صوتها:

«لا تغتمّي يا ماريلاّ! تعرفين أنّ لديك أملا. هذا ما قاله الطّبيب. إذا اعتنيْت بنفسك جيّدا، فلن تفقدي بصركِ. وإذا ساعدَتْكِ النّظّاراتُ على التّخلّص من الصّداع، فسيكون ذلك عظيما».

«لا أسمّي ذلك أملا»، قالت ماريلا بمرارة. «أيّ معنى لحياتي إذا لم أستطع القراءة والخياطة أو القيام بأيّ شيء من هذا القبيل؟ قد يُصيبني حينئذ عمى الحزن وأموتُ كمَدا. أمّا البكاء، فكيف أمتنع عنه، وأنا أشعر بكلّ هذه الوحشة. ولكن، لا فائدة من مناقشة الموضوع الآن. سأكونُ ممتنّة لكِ إذا أحضرتِ لي فنجان شاي. فأنا منهكةٌ وجائعة. أرجوكِ يا آنْ، لا تُخبري أحدا بهذا الأمر، ولو لفترة من الوقت على الأقلّ. لن أطيق تهافُت النّاس عليّ، كي يسألوا عن الأمر ويعرضوا تعاطفهم، مقبلين على الثّرثرة».

بعد أن تناولت ماريلاّ طعامها، أقنعتْها آنْ بالذّهاب إلى فراشها. ثمّ قصدت غرفتها الشّرقيّة. ومكثتْ في العتمة عند نافذتها، لا شيء يؤنسُها غير دموعها وهموم قلبها. كيف انقلب كلُّ شيء على هذا النّحو المحزن منذُ أن جلستْ هناكَ في ليلة العودة من الأكاديميّة؟ كم كان قلبُها مليئا بالأمل والسّعادة حينها! وكان المستقبل يلوّحُ

لها بوعوده الورديّة الكثيرة. أحسّتْ آنْ أنّها عاشت سنواتٍ طويلة منذ تلك اللّيلة. ومع ذلك، ارتسمت ابتسامةٌ على وجهها قبل أن تدخل سريرها. لقد حدّقتْ في وجه واجبها بشجاعة. فوجدتْ أنّه صديقُها، كعادته كلّما نظر إليه المرءُ بنزاهة.

ذات مساء بعد أيّام قليلة، شاهدتْ آنْ ماريلاّ، وهي تعبر الفناء ببطء بعد أن أتمّت حديثها إلى زائر غريب عند البوّابة. وهو رجلٌ لم تكن آنْ تعرفُ عنه شيئا ما عدا أنّ اسمه جونْ سادْلرْ وأنّه من كارمُودي. وما أن لاحظتْ ملامح ماريلاّ حتّى توجّستْ شرّا من زيارته.

«ماذا يُريدُ السّيّدُ سادلرْ يا ماريلاّ؟».

جلستْ ماريلاّ في صمت. ثمّ نظرتْ إلى آنْ. كانت الدّموعُ في عينيها تتحدّى وصايا أخصّائيّ العيون، بينما تكسّر صوتُها وهي تقول:

«لقد بلغه أنّي أريدُ بيع الضّيعة الخضراء. وهو راغبٌ في اقتنائه».

«اقتناء ماذا؟ الضّيعة الخضراء؟!»، تساءَلتْ آنْ ما إذا كانت قد سمعتْ كلماتها على نحو دقيق. «آه يا ماريلاّ! لا تقولي لي إنّكِ ترغبين حقّا في بيع الضّيعة الخضراء».

«آنْ، فكّرتُ في الأمر طويلا. وليس هناك أيّ حلّ آخر. لو كانت عيناي سليمتان، لمكثتُ هنا وحاولتُ أن أتكفّل بالإشراف على العمل، ولتدبّرتُ أمري مع وجود أجير جيّد. أمّا والحال على ما تعرفين، فإنّي عاجزةٌ تماما. قد أفقدُ بصري نهائيّا بين عشيّة وضحاها.

حينها، لن أستطيع فعل أيّ شيء. آه، لم أتخيّل قطُّ أنّي سأشهدُ اليوم الذي أبيعُ فيه بيتي. ولكنْ، إذا لم نبع الجملونات الآن، فقد يأتي يومٌ تسوءُ فيه الأمور ولا يرغب أحد في شرائها. فقدنا كلّ مدّخراتنا مع إفلاس المصرف. وعلينا تسديد بعض الدّيون المتخلّدة بذمّة ماثيو منذُ الخريف الماضي. ولهذا نصحتني السّيّدةُ ليندْ ببيع المزرعة والإقامة في مكان مّا... عندها على الأرجح. لن يوفّر البيع مبلغا كبيرا على أيّة حال. فالمكان ليس واسعا. والمباني قديمة. ولكنّه سيساعدني على تدبّر أمري. حمدا للرّبّ لأنّك حصلتِ على المنحة الدّراسيّة. ولكن، يحزنني ألاّ يكون لكِ بيتٌ تعودين إليه في العطلة. أحسبُ أنّك ستتوصّلين إلى تقبّل الأمر في نهاية المطاف».

انهارت ماريلاّ. واستغرقتْ في البكاء بلوعة.

«يجبُ أن تحتفظي بالضّيعة الخضراء»، قالت آنْ بنبرة حاسمة.

«آه يا آنْ. كم أتمنّى لو كان الخيارُ بيديّ. ولكنّكِ تعلمين أنّي لا أستطيعُ البقاءَ هنا وحدي. سوفَ يدفعُني ذلك إلى الجنون من الحزن والوحشة. وقد أفقدُ بصري فجأة كذلك. أعرفُ أنّ هذا سيحدث ذات يوم».

«ولكنّكِ لن تبقي هنا وحدكِ يا ماريلاّ. فأنا سأكون معكِ، لأنّي لن أنضمّ إلى جامعة ردموندْ».

«ماذا؟ لن تلتحقي بالجامعة؟»، سحبتْ ماريلاّ يديْها من وجهِها المتعب. ورفعتْ رأسها، تتفحّصُ آنْ. «لماذا؟ ما الذي تقصدينه بهذا الكلام؟».

«أقصدُ ما قلتُه حرفيّا. سأتخلّى عن المنحة الدّراسيّة. اتّخذتُ هذا القرارَ ليلةَ عودتكِ من المدينة. أتحسبين حقّا أنّ بإمكاني تركككِ بمفردك وسط كلّ هذه المتاعب يا ماريلاّ؟ بعد كلّ ما فعلتِه من أجلي؟ منذُ تلك اللّيلة، وأنا غارقة في التّفكير والتّخطيط لمستقبلنا. دعيني الآن أحدّثك عن ذلك. يريدُ السّيّدُ باري أن يستأجر مزرعتنا خلال السّنة القادمة. وهذا يُريحكِ من مسألة الاعتناء بشؤونها. أمّا أنا، فسألتحق بسلك التّعليم. قدّمتُ طلبا للمدرسة هنا. ولن أُقبل على الأرجح، لأنّ القيّمين على المدرسة وعدوا غيلبرتْ بلايثْ بالمنصب من قبلي. ولكن، أنا متيقّنةٌ من قبولي في مدرسة كارمودي. أخبرني السّيّدُ بليرْ بذلك ليلة أمسِ في المتجر. طبعا، لن يكون الأمرُ مثاليّا مثلما هو الحال لو عُيّنتُ في مدرسة آفونلي. لكنّي أستطيع استئجار مسكن هناك لأقيم فيه خلال أيّام الشّتاء الباردة. أمّا حين يكون الطّقس معتدلا، فسأعود إلى آفونلي بواسطة العربة. بل حتّى في الشّتاء، أستطيعُ القدوم خلال نهاية الأسبوع. ومن أجل ذلك، سنحتفظُ بحصان. أوه يا ماريلاّ، لقد خطّطتُ لكلّ شيء. وسوف نقضي أوقاتنا معا. سوف أقرأ لكِ وأشرحُ صدرك. ولن أدعكِ تشعرين بالوحشة والكآبة مطلقا. صدّقيني، سوف نكونُ سعيدتيْن ومرتاحتيْن جدّا، أنا وأنتِ».

أصغتْ ماريلاّ كمن يختبرُ حلما.

«آه يا آنْ، أعرفُ أنّي سأكون في حال أفضل إذا بقيتِ معي. لكنّي لن أسمح لك بالتّضحية بمستقبلكِ من أجلي. هذا أمر فظيع!».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«كلام فارغ!»، ضحكتْ آنْ في مرح. «ليس هناك أيّ تضحيات. لا شيء أسوأ من التّخلّي عن الضّيعة الخضراء. لا شيء يمكنه أن يؤلمني أكثر من ذلك. ولهذا السّبب، ينبغي أن نحتفظ بهذا المكان العتيق العزيز على قلبيْنا. لقد حسمتُ قراري يا ماريلاّ. لن أذهب إلى الجامعة في ردموندْ. وسأبقى هنا. فألتحق بسلك التّعليم. صدّقيني، لا داعي لأن تقلقي عليّ».

«ولكن، طموحاتك... و..».

«مازلتُ طموحة كعادتي. كلّ ما في الأمر أنّي غيّرتُ موضوع طموحاتي. سأكونُ معلّمة جيّدة. والأهمّ من ذلك، سأساعدك على إنقاذ بصركِ. بالإضافة إلى ذلك، أنوي مراجعة البرنامج الدّراسيّ الجامعيّ في البيت. آه، لديّ عشراتُ الخطط والمشاريع يا ماريلاّ! وقد مكثتُ أتدبّرها منذ أسبوع كامل. أعرفُ جيّدا أنّي إذا قدّمتُ للحياة أفضل ما عندي فإنّها ستردّ لي أفضل ما عندها. عندما أنهيتُ الدّراسة في الأكاديميّة الملكيّة، بدا لي المستقبلُ منبسطا أمامي كأنّه طريق مستقيم ألمحُ كلّ معالمه من بعيد. والآن، يوجد في هذا الطّريق منعطفٌ أجهل ما بعده. ولهذا المنعطف سحرٌ غامض يا ماريلاّ. فهو يحفّزني على معرفة ما يخبّئه لي من خضرة وظلال ومشاهد جميلة وجديدة وتلال ووديان».

«أشعر أنّ عليّ ألاّ أوافقكِ في التّخلّي عن كلّ شيء»، قالت ماريلاّ وهي تلمّح إلى المنحة.

«ولكنّكِ لا تستطيعين منعي. أنا الآن في السّادسة عشرة

والنّصف، وعنيدةٌ مثل بغل، كما قالت لي السّيّدة ليندْ ذات مرّة»، أجابتْ آنْ ضاحكة. «ولا تنظري إليّ بعين الشّفقة يا ماريلاّ. تعرفين أنّي لا أحبّ ذلك. كما أنّه لا داعي لها حقّا. إنّ بقائي في الضّيعة الخضراء يشرحُ صدري ويجعلني سعيدة جدّا. إذْ لا أحد يمكنه أن يحبّ هذا المكان مثلنا. ولهذا، يجبُ أن نحتفظ به».

«أيتها الفتاة المباركة!»، هتفتْ ماريلاّ مُستسلمة لها. «أشعر كأنّك قد وهبتِني حياة جديدة. ورغم أنّ واجبي يقتضي منّي التّشبّث بقبول منحتك الدّراسيّة، إلاّ أنّني لن أنجح في إقناعكِ بالعدول عن قرارك. ولهذا السّبب لن أمضي في المحاولة أكثر. وسأسعى إلى أن أعوّضك عن ذلك».

ذاع في كلّ أرجاء آفونلي نبأُ تخلّي آنْ عن المنحة الدّراسيّة وعزمها على البقاء ومزاولة التّدريس. وهاج النّاس في الأمر وماجوا. ورأى الكثيرُ من البسطاء الطّيّبين الذين لا يعرفون شيئا عن حياة ماريلاّ أنّ هذا القرار ليس سوى تصرّف أحمق. أمّا السّيّدة آلانْ، فقد كان لها رأي آخر. إذْ باركتْ قرار آنْ بكلمات محفّزة أسالتْ دموع الصّبيّة من الفرح. وشاركتها السّيّدةُ ليند في رأيها وتشجيعها. وذات مساء، قصدت الضّيعة الخضراء. فوجدتْ آنْ وماريلاّ جالستيْن عند عتبة الباب الرّئيسيّ -حيث تفضّلان الجلوس- في شفق الصّيف الدّافئ. كان عثُّ البساتين الأبيض يتطاير في أرجاء الحديقة وعطر النّعناع يفوح في الهواء.

حطّت السّيّدةُ ليندْ جسدها الثّقيل على المقعد الحجريّ قرب

الباب. ثمّ استنشقتْ نفَسا عميقا بدا مزيجًا من التّعبير عن الرّاحة والإعياء.

«أعلنُ لكما سعادتي بالجلوس أخيرا. لقد قضّيتُ النّهار واقفةً على قدميّ. ولا شكّ أنّ مائتي رطل ثقيلة جدّا بالنّسبة إلى قدمين فحسب. لا شيء أنعَمُ يا ماريلاّ من تجنُّب السّمنة. أرجو أنّك تقدّرين نحُولك حقّ قدره. حسنا يا آنْ، علمتُ أنّك تخلّيتِ عن فكرة ارتياد الجامعة. وكم سُررتُ عندما بلغني هذا الخبر! لقد حصّلتِ من التّعليم ما يكفي لتشعر امرأة عنده بالرّاحة. لا أؤمنُ بجدوى ارتياد البنات للجامعات وحشو رؤوسهنّ بالكلمات اللاّتينيّة واليونانيّة وكلّ تلك التّرّهات».

«ولكنّي سأمضي في دراسة اللاّتينيّة واليونانيّة رغم كلّ شيء يا سيّدة ليندْ»، قالتْ آنْ ضاحكة. «إنّي عازمةٌ على متابعة البرنامج الجامعيّ في البيت، هنا في الضّيعة الخضراء. وسوف أدرس كلّ شيء كما لو كنتُ في الجامعة».

رفعتْ السّيّدةُ ليندْ يديها تعبيرا عن فزعها. وقالت مُحذّرة:

«ستهلكين نفسكِ يا آنْ شيرلي».

«مطلقا. بل هذا يدفعني إلى أن أُشرق أكثر. ودون شكّ، لن أحمّل نفسي فوق طاقتها، على حدّ عبارة زوجة جُوسيَا ألِنْ. سأكون معتدلة. وسوف أستغلّ أوقاتِ الفراغ الطّويلة في أمسيات الشّتاء، لأنّي سأدرّس في كارمودي كما تعلمين. ولستُ شغوفة بأعمال التّطريز وما إلى ذلك».

«لم أكن أعرفُ أنّك ستُدرّسين في كارمودي. وأحسبُ أنّك ستتسلّمين المنصب هنا في مدرسة آفونلي. فقد قرّر القيّمون عليها تعيينكِ فيها».

«سيّدة ليند!»، صاحتْ آنْ، وهي تقفزُ بشدّة. «كيف حدث هذا؟ ألم يعدوا غيلبرتْ بمنصب المعلّم؟».

«بلى. ولكنّ غيلبرتْ ذهب إليهم أمسِ بعد أن سمع أنّكِ قدّمتِ طلبا لنفس المنصب. كانوا في اجتماع كما تعلمين. أعلمهم برغبته في سحب طلبه. واقترح عليهم تعيينكِ في المقابل، قائلا إنّه مُضطرّ إلى التّدريس في وايتْ ساندسْ. لقد تخلّى عن مدرسة آفونلي من أجلك طبعا، لأنّه أدرك مدى حاجتكِ إلى البقاء قرب ماريلاّ. لا بدّ أن أعترف صراحةً أنّ تصرّفه نبيل وشهم. بل إنّه تضحية حقيقيّة. إذ ينبغي عليه الآن أن يدفع أجر إقامته في وايتْ ساندسْ بعد أن كان غنيّا عن ذلك، خصوصا أنّه مجبر على إعالة نفسه واستكمال دراسته الجامعيّة في الآن نفسه. وعلى هذا النّحو إذن، وافق القيّمُون على طلبكِ. كدتُ أهلكُ فرحًا عندما جاء توماس إلى بيتي وزفّ لي البُشرى».

«لا أشعر أنّ عليّ قبول هذا»، تمتمت آنْ. «أقصدُ... لا أرى أنّه يجدر بي قبول تضحية غيلبرتْ بنفسه... من أجلي».

«لم يعد بإمكانك منعه. فقد وقّع أوراق تعيينه مع القيّمين على مدرسة وايتْ ساندسْ. ولا فائدة من رفضك المتأخّر هذا. ولذلك، يجبُ أن تقبلي المنصب في مدرستنا. وتأكّدي أنّك ستسعدين فيها

مادامت قد خلتْ تماما من أفراد عائلة بايْ. إنّ جوزي هي التّلميذة الأخيرة من تلك السّلالة. ولا شكّ أنّها لم تكن تلميذة يُستهان بها. ظلّ أفراد بايْ يرتادون المدرسة طيلة عشرين سنة. وأعتقدُ أنّ مهمّتهم الوحيدة تلخّصت في تذكير المعلّمين أنّ الأرض ليست موطنهم الأصليّ. بحقّ الرّبّ! ما الذي أراه؟ ما معنى كلّ ذلك الغمز وتلك الإشارات التي تلوحُ من نافذة منزل باري؟».

«إنّها ديانا تُرسلُ إليّ إشارة مفادها أن أذهب لرؤيتها»، أجابتْ آنْ ضاحكةً. «مازلنا متمسّكتيْن بعادتنا القديمة التي اخترعناها منذ سنين. المعذرةَ، سأغادر إلى بيتها».

ركضت آنْ على امتداد حقل البرسيم كأنّها غزال. واختفت بين ظلال الغابة المسكونة، تتبعها نظراتُ السّيدة ليندْ الحنونة.

«هناك نصيبٌ من الطّفلة يكمنُ في سلوكها على نحو مّا».

«وهناك نصيبٌ من المرأة يكمنُ في سلوكها على نحو آخر»، أجابت ماريلاّ التي استعادتْ لوهلةٍ حدّتَها القديمة.

ومع ذلك، يبدو أنّ الحدّة اختفتْ من طبع ماريلاّ وخصائصها المميّزة التي كانت تشتهر بها في ما مضى. هكذا لاحظت السّيّدةُ ليندْ. وهكذا تحدّثتْ إلى زوجها توماس في تلك اللّيلة.

«صراحةً يا توماس، أصبحت ماريلاّ كاثبرتْ امرأةً ليّنةً».

في المساء التّالي، قصدتْ آنْ مقبرة آفونلي لتضعَ بعض الأزهارِ النّضرة على قبر ماثيو، ولتسقيَ بالماء شتلة الورود الاسكتلنديّة. مكثتْ هناك في سلام حتّى موعد الغروب، غارقةً في الهدوء والسّكينة

وسط حفيف الأعشاب بين القبور وخشْخشةِ أوراق الحُور التي تُشبه حديثًا لطيفا. كان الغروبُ وشيكا عندما غادرت آنْ المكان واتّجهتْ نحو التّلّة المطلّة على بحيرة المياه اللاّمعة.

كانت آفونلي تستلقي أسفلَ التّلّة شبيهةً بحُلم، كأنّها بقعةٌ من السّلام القديم. وكان الجوُّ مفعمًا بعبير عبِقٍ، كأنّ ريحًا هبّتْ على حقول البرسيم. فحفّزتْها على نشرِ أريجها الطّيّب. تأمّلتْ آنْ أضواء البيوت، وهي تشعّ في كلّ مكان بين فجوات الأشجار. وقد تمدّد البحرُ وراءها قرمزيّا مُلحّا في زمجرته، بينما حطّ الغروبُ على العالم كأنّه مزيجٌ من الألوان الرّقيقة في لوحةٍ بدتْ أجملَ وأكثر رقّةً عند انعكاسِها على صفحة مياه البركة السّاكنة. أدرك ذلك الجمالُ العظيمُ أعماق قلب آنْ. ففتحتْ بوّابات روحها له.

«أيّها العالمُ العزيزُ القديم»، تمتمتْ. «إنّك رائعٌ جدّا. وأنا سعيدةٌ لكوني حيّة فيكَ».

ما أن تقدّمتْ آنْ في طريقها حتّى لمحتْ شابّا طويل القامة يخرج من بوّابة مزرعة بلايْثْ، وهو يصفّرُ. إنّه غيلبرتْ. وبمجرّد أن رأى آنْ انطفأ الصّفيرُ على شفتيه. رفع قبّعته بلباقةٍ، وهو يمرُّ بها. وكان على وشك أن يتجاوزها عندما وقفتْ، ومدّت يدها له.

«غيلبرتْ»، قالتْ بوجه متورّد. «أودّ أن أشكرك لأنّك تخلّيت عن مدرسة آفونلي. كان هذا تصرّفا نبيلا منكَ. إنّي ممتنّة لك كثيرا».

صافح غيلبرتْ اليد التي امتدّتْ له بلهفة.

«ليس ذلك كرما من جهتي يا آنْ. كنتُ سعيدا لأنّ الفرصة

سنحتْ لي كي أقدّمَ لكِ خدمةً بسيطة. هل نتصالح الآن أخيرا؟ هل سامحتِني على خطئي القديم؟».

ضحكتْ آنْ، وهي تُحاول عبثا أن تسحب يدها من يده.

«لقد سامحتكَ يا غيلبرتْ منذ حادثة البركة تلك، رغم أنّي لم أتبيّنْ هذه الحقيقة في حينها. ياه! كم كنتُ فتاة عنيدة ولئيمة! في الحقيقة، كنتُ... كنتُ... حسنا، يمكنني أن أصارحك الآن. كنتُ نادمة لأنّني لم أقبل اعتذارك».

«سنكون منذ الآن صديقيْن حميميْن»، قال غيلبرتْ بوجه منشرح. «لقد خُلقنا يا آنْ لنكون صديقين حميمين. لكنّك ظللتِ تعاندين القدر لفترة طويلة. أعرفُ أنّنا نستطيع أن نساعد بعضنا البعض كثيرا. ألن تتابعي دراستكِ من هنا؟ إنّي أنوي ذلك أيضا. تعالي معي لأوصلك إلى البيت».

ألقتْ ماريلاّ نظرة فضوليّة على آنْ عند دخولها إلى المطبخ.

«من الذي رافقكِ حتّى نهاية المسلك؟».

«غيلبرتْ بلايثْ»، أجابتْ آنْ التي شعرتْ بالغضب من نفسها لأنّها احمرّت خجلا. «التقيتُ به عند تلّة باري».

«ما كنتُ أحسبُ أنّكما على وفاق كبير حتّى تمكثا نصف ساعة عند البوّابة، وأنتما تتحدّثان»، قالت ماريلاّ وهي تبتسمُ بخفوت.

«لم نكن على وفاق. بل كانت بيننا عداوة شرسة. ولكنّنا قرّرنا أنّه من الحكمة أن نحوّلها إلى صداقة طيّبة في المستقبل. أحقّا وقفنا هناك طيلة نصف ساعة؟ مرّ الوقتُ سريعا كأنّه دقائق قليلة. ولكن،

كما ترين يا ماريلاّ؛ يجدر بنا أن نعوّض حديثا انقطع بيننا طيلة خمس سنوات».

جلستْ آنْ في تلك اللّيلة طويلاً عند نافذتها، وهي تشعرُ بالرّضا والمرح. هبّت الرّيحُ بنعومةٍ بين أغصان الكرز. وتصاعدَ في الجوّ عبقُ النّعناع. وتراقصت النّجوم فوق أغصان التنّوب. ثمّ ومض ضوءُ غرفة ديانا من خلال الفسحة المعهودة بين الأشجار.

صحيحٌ أنّ الآفاق قد ضاقتْ أمامها منذُ اللّيلة التي جلستْ فيها هناكَ عند عودتها من الأكاديميّة الملكيّة. ولكن حتّى إن ضاق الدّربُ المرسوم أمام خطواتها، فهي تعرفُ جيّدا أنّ براعم السّعادةِ الهادئة سوفَ تزهرُ على امتدادِه. لا شيءَ سيمنعُ عنها مسرّاتِ العمل المخلصِ والآمال العظيمةِ والصّداقة الطّيّبة المنسجمة. لا شيء سيسرقُها من التّحليق في رؤاها والغوص في عالم أحلامها المثاليّ. وسوف يكونُ هناك دوما منعطفٌ في الطّريق.

«إنّ الرّبَّ في ملكوته. وهذا ما يغمرُ العالم بالخير»، همستْ آنْ بلطف.

مكتبة | سُر مَن قرأ

أكمل الحكاية مع آن ..
تأتيكم قريبا في مكتبة

telegram @soramnqraa

صدرت عن دار رِشم ودار مسكيلياني للمؤلفة نفسها

(1)

آن في الضيعة الحضراء

«آن في الضيعة الخضراء» رواية لليافعين والشباب معًا، تتصدّى لقضايا العائلة والبيت والوطن، الجمال والمخيّلة والإبداع، الصّداقة، العاطفة والرّومانسيّة والشّغف. يجتمع كلّ هذا في كتاب واحد، يأخذ قارئه في رحلة كي يُشارِكَ بطلتَهُ أخطاءَها وتعلّمَها الشّغوف، إنّه كتاب يُعلّمنا كيف نصلح أخطاءنا وننهض من سَقَطاتنا، وبذلك يمكننا أن نبني جيلًا مختلفًا لا يستكين إلى الهزيمة والفشل. ولعلّ هذه الخاصيّة هي التي جعلت هذه الرواية تُترجم إلى أكثر من ثلاثين لغة وتُهاجر إلى المسرح والسينما في مناسبات تكاد لا تُحصى، وجعلت الدّول الأوروبيّة على اختلاف لغاتها مهتمّة بها، حريصة على ترجمتها وتجديد ترجمتها من فترةٍ إلى أخرى واقتباسها في صيغ كثيرة، حتّى تُوافق روحَ كلِّ عصر ويافعيه. إنّها رواية مكتوبة للمستقبل، لكلّ الأجيال القادمة جيلًا بعد جيل، وهي ينبوع آخر يمكن أن يشرق في العربيّة.

أشرف القرقني

(2)

آن في آفونلي

في الجزء الثاني من سلسلة «آن في الضيعة الخضراء» للروائية الكندية لوسي مود مونتغومري، «آن في آفونلي»، يواصل القارئ مرافقة «آن» في مغامراتها واكتشافاتها وهي تعيده إلى طفولة الخيال وبراءته الأولى. فهي رواية تحتفي بالأحلام والرومانسية وعفويّة الحياة، في عيني فتاةٍ في السادسة عشرة، تتّقد ذكاءً ورقّةً وجمالًا، وتتمتّع بمحبّة محيطها. وهي بـ»خفّة» وجودها في العالم، تكتشف ذاتها والأشخاص من حولها والطبيعة بدهشة الأطفال وعمق الحكماء، مختبرةً التدريس والاستماع إلى قصص حبّ الآخرين وتربية اليتامى.

في قريةٍ صغيرة في جزيرة الأمير إدوارد، تتواشج الحكايات كاشفةً عن علاقات إنسانيّة شديدة البساطة والشفافية، مقتفيةً آثارَ الإنسان القرويّ، في سردٍ يمزج بين الحكايات السحرية والواقعية. إنّ مغامرات «آن» وهي تنتقل من المراهقة إلى النضج، تلامس قلوب القرّاء وتوقظ لديهم رغبة الإقامة في العالم بخفّة وسلاسة.

محمّد الحباشة

قريبا في مكتبة ..

(3)

آن بنت الجزيرة

لو لم ترضَخ لوسي مود مونتغومري لمشيئة ناشِرها الأوّل ولم تُصدر بعد سبع سنواتٍ «آن بنت الجزيرة»، روايتها الثالثة في سلسلة «آن في الضيعة الخضراء»، لحرَمتْ كلّ شباب العالم لذّةَ متابعةِ قصّةِ البطلة اليتيمة ذات الشعر الأحمر التي شُغفنا بها في الجزأين الأوّل والثاني.

ها هي آن تزداد نضجًا، وتغادر جزيرتها إلى مدينةٍ بعيدة لتدرس بالجامعة وتحقّق حلمًا قديمًا شاركَها إيّاه القرّاء في كلّ جيل. تترك خلفها دفء العائلة وبيت الطفولة وأصدقاء الصِّبا وسنوات الشغف الأولى، وتلهث وراء العلم والتحصيل، وتخطو خطواتها الأولى في عالم التأليف والإبداع دون أن يغفل قلبها لحظةً واحدة عن تقلّبات الحبّ والهوى.

لا تزال الرواية حتى اليوم تعلّم الشباب سبل الاعتماد على الذات، وتغرس فيهم روح الكدّ والمثابرة، وتحثّهم على الإيثار والعواطف النبيلة. واليوم، نقدّم للقارئ العربيّ هذه الرواية التي تحتلّ مكانة خاصّة في سلسلة روايات مونتغومري حتّى إنّ جُلّ الاقتباسات إلى السينما انطلقت منها رأسًا.

قريبا في مكتبة .. وليد بن أحمد

(4)

آن في عزبة الصفصاف

ثلاثُ سنواتٍ هي الفترةُ الزّمنيّة التي يشغلُها المتنُ الحكائيّ لـ«آنْ في عزبة الصّفصاف». تنجحُ لُوسي مُود مُونتْغُومري كعادتها في تحويلِها إلى عوالمَ شاسعةٍ، متشابكة وساحرة.

في هذا الجزء تتخرّج «آنْ» في جامعة ردْمُوندْ. وتُغادر الضّيعة الخضراء راحلةً إلى سامرْسايْد، حيثُ تُعيَّنُ مُديرةً للمدرسة الثّانويّة ومعلّمة فيها. لكنّها كعادتِها، تُقابَل بأسهُم الأحكام المسبَقة والرّفض الأعمى الذي تُعلنهُ في وجهِها منذ البداية عائلةُ برينغلْ المهيمنةُ في المدينة.

لعلّ إصرارَ «آنْ» على الإخلاص لجوهرها النقيّ والخلاّق وسطَ أشواك الازدراء والكراهية هو ما ظلّ يُشير دومًا إلى مصيرها البسيط والعجيب في آنٍ واحدٍ. ومن خلال تشبُّثها المؤلم الممتعِ بطبيعتها المختلفة التي تقرنُ العواطف المرهفةَ بالذّهن المُتّقد، تنتصرُ «آنْ» دومًا في معارِكها. وهذا ما يتجلّى على التّدريج في الرّسائل التي تُشكّلُ معظمَ البناء الروائيّ لهذا الكتاب.

أشرف القرقني

قريبا في مكتبة ..

مكتبة | سُر مَن قرأ

لوسي مود مونتغومري

آن في الضيعة الخضراء

«آن في الضيعة الخضراء» رواية لليافعين والشباب معًا، تتصدّى لقضايا العائلة والبيت والوطن، الجمال والمخيّلة والإبداع، الصّداقة، العاطفة والرّومانسيّة والشّغف. يجتمع كلّ هذا في كتاب واحد، يأخذ قارئه في رحلة كي يُشارِكَ بطلتَهُ أخطاءَها وتعلّمَها الشّغوف، إنّه كتاب يُعلّمنا كيف نصلح أخطاءنا وننهض من سَقَطاتنا، وبذلك يمكننا أن نبني جيلًا مختلفًا لا يستكين إلى الهزيمة والفشل. ولعلّ هذه الخاصيّة هي التي جعلت هذه الرواية تُترجم إلى أكثر من ثلاثين لغة وتُهاجر إلى المسرح والسينما في مناسبات تكاد لا تُحصى، وجعلت الدّول الأوروبيّة على اختلاف لغاتها مهتمّة بها، حريصة على ترجمتها وتجديد ترجمتها من فترةٍ إلى أخرى واقتباسها في صيغ كثيرة، حتّى تُوافق روحَ كلِّ عصر ويافعيه. إنّها رواية مكتوبة للمستقبل، لكلّ الأجيال القادمة جيلًا بعد جيل، وهي ينبوع آخر يمكن أن يشرق في العربيّة.

أشرف القرقني

telegram @soramnqraa

ISBN: 978-9938-9990-4-4

www.rashm-store.com